١٧١

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثالث عشر

تطبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
وحقوق الطبع محفوظة
والناشر ... محمد أمين عمران

صفر سنة ١٣٥١ هـ

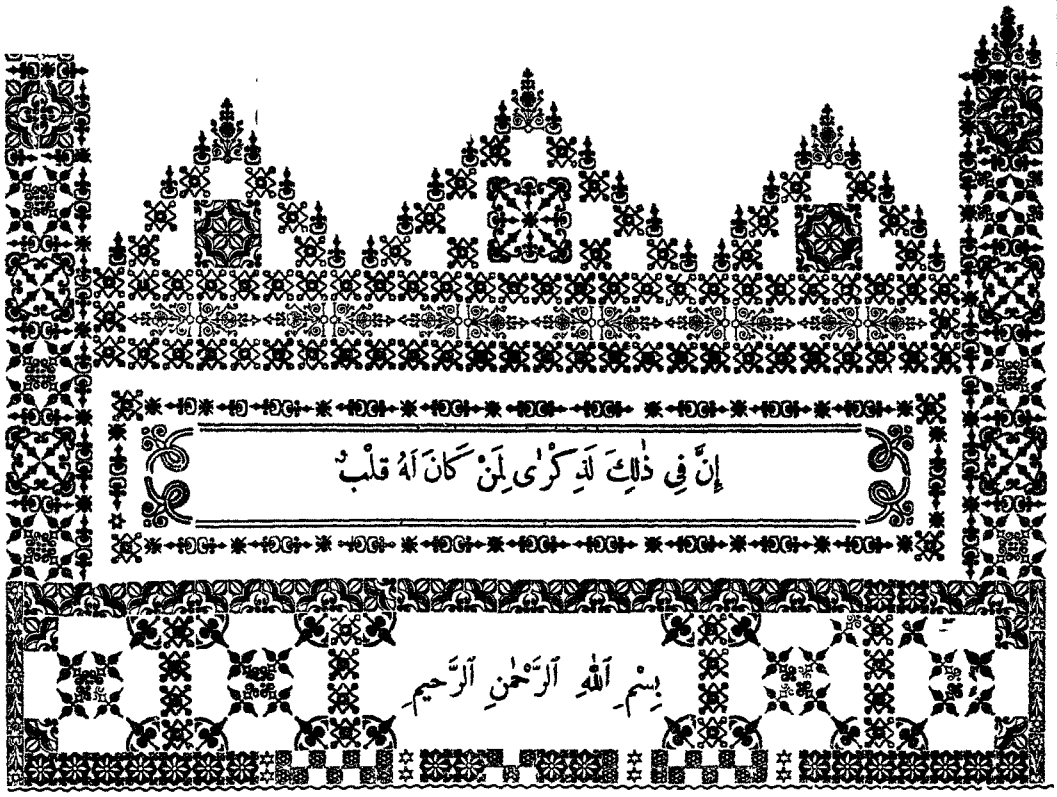

تفسير سورة ق

هى مكية

إلا آية : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » فمدنية

آياتها ٤٥ — نزلت بعد المرسلات

وهى فى : اثبات النبوة والحشر

وذلك فى مبحثين

الأول : فى اقتران السموات والأرض ، وأخبار الأمم الماضية ، من أول السورة إلى قوله : « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

المبحث الثانى . فى الكلام على الموت وسكراته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الانسان وسكناته ، وفى أحوال يوم القيامة ، من قوله : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » إلى آخر السورة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۞ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ
حَفِيظٌ ۞ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۞ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ
الرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۞ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى
الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۞ وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۞
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۞ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۞ وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۞ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ۞ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي
الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۞ قَالَ
لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ۞ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۞
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۞ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞
هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۞
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۞ وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ۞ إِنَّ فِي ذٰلِكَ

لِذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ✲ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ✲ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ✲ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ✲ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ✲ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ✲ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ✲ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ✲ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ✲

المبحث الأول فيه ثلاث مقامات

المقام الأوّل فى تفسير البسملة .

المقام الثانى فى معنى « ق » .

المقام الثالث فى تفسير الآيات من أوّل السورة إلى قوله « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

المقام الأول فى تفسير البسملة

للرحمة فى هذه السورة أدوار ثلاثة : دورالبداية ، ودورأهمّ النشاط فى الأعمال ، ودور النهاية ، وذلك كأدوارالانسان ، فهوشاب ، وكهل ، وهرم . وكأدوارقصة يوسف :

(١) فهومع اخوته فى مشاكل الحسد ، والمنافسة ، والالقاء فى البئر ، ووقوعه فى شرك امرأة العزيز .

(٢) ثم فى حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها ، واكرامه اخوته وأبويه .

(٣) ثم انتهى إلى الله وقال : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطرالسموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » :

✲✲✲

(١) هكذا الحكماء الذين عرفوا الله بعقولهم كسقراط ، فأوّل حياته شك فى نظام العالم ، وفى خالقه ، وعموم علمه ، فى مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه فى الجب الى آخر ماتقدم .

(٢) ثم انه عثر على رأى أنكساغورس ، فعرف شيئا من الألوهية ، ثم استكمل علمه .

(٣) ثم انتهى الى انقضاء حياته .

✲✲✲

(١) وهكذا خاتم الأنبياء ، فهوفى مكة فى مشاكل ومجادلات ومخاصمات مع كفار قريش

(٢) وهو فى المدينة فاتح البلاد وناشر الاسلام .

(٣) ولما انتهى الأمر رجع الى ربه .

فهكذا هذه السورة ، فأوّلها انكار لنشأة والبعث ، وأوسطها الحثّ على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، ومطرها المدرار ، ونخلها الباسقات ، ودورها للسكنات ، من عاد إلى أصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد ومحاسبة ، ونهايتها تقريع

الانسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، فى مجالس أنسه ، وعند اخوته ، وفى خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أقواله ، حتى اذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ، حوسب على قول كل كلمة ، وحوسب على كل عمل عمله ، وشهدت عليه الشهود ، وكشف له الغطاء ، ووقع الخصام ، واضطرب النظام ، وتعادى المحبون ، وافترق المجتمعون وغضب الرب غضبته ، فلأ جهنم بأهلها ، ورحم أعظم الرحمات بملء الجنة بذوى الايمان والصلاح ، ذلك لأنه لايجعل المتقين كالفجار ، ولاالمؤمنين كالكفار ، ولواستوى الخبيث والطيب لكان خلق هذه العوالم باطلا ، ولكان نظامه حائلا ، ولكن النظام معلوم ، ودوامه مصون .

وجه الرحمة هنا

وانما منى الانسان بهذه الوقائع ، واتصف بتلك المناقب والمثالب لأنه لايتسنى له الارتقاء الى الملأ الأعلى إلا بمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، حتى اذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب ، لاسكرة الجزع والهلع ، فبينما هو ينظر فى السماء كيف بنيت ، وفى الأرض كيف ازينت ، وفى الزروع كيف ابتهجت ، إذا به ارتفع الى عالم أجل ، وبهاء أكمل ، ومقام أرفع ، فمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، سلالم يصعدالانسان عليها الى العلا ، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها ، ويجعل حياته حياه محو وعلم وعمل ، ليفارقها وهو مسرور ، لامختبط وهو مجبور . والى هنا تمّ الكلام على المقام الأوّل فى تفسير البسملة . كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

المقام الثانى فى معنى : ق

قد تقدم الكلام فى ﴿آل عمران﴾ وفى غيرها من السور كالعنكبوت والروم ويس وص ومابينها ، ووضح فيها بعض الحكم والعجائب التى تضمنتها هذه الحروف التى فى أوائل السور ، ولكن البحث هنا يكون خاصا بالحرف « ق » الذى فى أوّل هذه السورة . واعلم أن هذا يحتاج لمقال يتقدّمه فأقول :

اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الاسلام ستجمع الأحمر والأبيض والأسود ، وأنه سيأتى عليها زمان يتناكرون وهم مسلمون ، ويبتعدون وهم موحدون ، ويجهلون وهم مؤمنون ، ويذلون وهم متفرّقون .

علم الله أننا سنكون على هذه الحال فأنزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين العجيبتين : الحجرات وق ، هاتان سورتان تضمنتا مابه معرفة الأنفس ، ومابه معرفة الآفاق . أما مابه معرفة الأنفس ، أى أخلاقها وتهذيبها فهو مامرّ فى ﴿سورة الحجرات﴾ وأما مابه معرفة الآفاق فهوعلم السموات والأرض والبحث فى عجائبهما وبدائعهما ، وحكمهما وغرائبهما ، فيصبح المسلم مهذب النفس ، عارفا بما يحيط به من العوالم .

علم الله أن المسلمين ستمرّ عليهم أجيال وقرون وهم لايعرفون من القرآن إلا الاحكام الشرعية ، يعيشون ويموتون وهم لايعقلون إلاهو ، وماهو إلا علم الفقهاء وبعض العبادات الظاهرة .

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذى يقبل المسلمون يفتيهم يواظب على شروط الصلاة ، ويواسب على طهارة ثوبه ، ونظافة مكانه ، والاتجاه للقبلة فى الصلاة ، وفى أوقات تفرّغه يطلق للسانه العنان ، ويغتاب الاخوان ، مستحلا ذلك لايبالى .

علم الله أننا نحن الآن سنترك حكام الأنفس فجهلها ولانعرف كيف نطهرها ، ولا كيف نحسن أخلاقها ،

ولا كيف نصقلها بالمعارف الحقة ، والعلوم المكتسبة ، التي تحيط بنا في الآفاق من نبات وحيوان ، وهواء وماء ، وكهرباء وبخار ، ومغناطيس ، ونجوم وسماء ، وأنوار ، فأنزل سورة ق ناظما تلك المباحث في عقدها لنتحلى بها بعد التخلي من الرذائل :

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلا وغفلة آمادا وآمادا ، ويتبع الآخرون الأولين ، ولاينظرون الى القرآن إلا نظرة البركة ، لانظرة الحكمة والموعظة ، ويقولون : قد نظر فيه الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه ، وهو كل شيء ، وما القرآن إلا بركة ، واذا ذكر آية في الاستدلال فانما نتبع من قبلنا ، ومالم يذكر في الفقه من الآيات فلانظر لنا فيه إلا نظرا سطحيا تارة ، وتبركا تارة أخرى .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنجهل كيف نتعارف ، وأن أبناء العرب الذين تقاربت ديارهم ، واتحدت لغتهم وجنسهم ودينهم يجهل بعضهم بعضا ، فلايتحدون بلغتهم ولابدينهم ولابجنسهم ولابوطنهم الذي جمعهم وهم متجاورون فيه .

علم الله ذلك ، وعلم أن أمم أوروبا تتحد وجهة كل منها ، وأن الولايات المتحدة في أمريكا التي هي أمة جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا اتحدوا وطنا ولغة بالتعليم وان اختلفوا أجناسا وديانات ، فأما أمم الاسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم ، ولامنشأهم ، ولاأحوالهم الاجتماعية دراسة تشوقهم الى أصلهم القديم فيرجعوا مجدهم كما كان و يتحدوا ، وليس معنى هذا أنهم يكونون عذابا على الناس . كلا . بل ينظرون الى أمم الترك الذين اتحدوا معهم في الدين وفي الجوار ، وهكذا الفرس وأنهم أمم شرقية و يتحدون معهم ، وهكذا يتحدون مع جميع الأمم الاسلامية ، ويكونون عونا مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أنا سنكون هكذا في هذا الزمان خاملين نائمين ، فلاعلوم ولاتهذيب ولاحكمة فنكون متعرفين ، وتدوسنا الفرنجة ، ونحن أذلاء بين أيديهم ، كل هذا بجهلنا وعلم الأمم ، فعلمهم هو الذي سلطهم ، وجهلنا هو الذي أذلنا ، فانظر ماذا قال الله لنتلافى هذا العيب . قال « لتعارفوا » في سورة الحجرات فلتعارف لن يكون إلا بعلم ، فان لم يكن علم ودرس فلاتعارف . إن التعارف ان يكون إلا بعلم ، فاذا لم تعلم أن زيدا أبوك لم تكرمه ، واذا لم تعلم أن خالدا من أقاربك لم تحافظ عليه ، واذا لم يعلم المسلمون علم تاريخهم ولغتهم ، ومنشأ دولتهم ، وجغرافية بلادهم ، وظلم أوروبا لهم ، وموازنة هذا بما كان عليه آباؤهم .

اذا لم يفعلوا ذلك وغيره كدراسة الأرض التي يسكنونها ، ومعرفة خباياها في مصر واليمن وغيرها ، و يعرفوا معادنها وحاصلاتها وخيراتها وما أشبه ذلك ، اذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون ؟ انهم اذا رأوا ذلا جامعا ، ولغة متحدة ، وأمما جائحة لاذلالهم ، وأرضا ذات خيرات يطمع العدو في الانتفاع بها ، هناك هناك تكون أخية . حمية الاسلام والمحافظة على الأوطان ، ومجاراة الزمان ، وحفظ الاخوان ، واذا لم يعرف العرب أمم الترك ، ولا الترك أمم العرب ، ولم يدرسوا الثمرة التي تنتج من اتحادهم فكيف يتحدون ؟ واذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الاسلامية فكيف يتحدون معها ؟ واذا لم يدرس هؤلاء المسلمون جميعا نظام الأمم في الارض كلها ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدون معها على رقي الانسانية ؟ .

كل هذه المعاني داخلة في قوله تعالى : « لتعارفوا » ، بغير هذا لايكون تعارف ، و بغير هذا لا يكون تحاب ، و بغير هذا لا يكون سلام في الارض ، و بغير هذا لايكون تمام قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » و بغير هذا لايتم تمام و صحا قوله تعالى : « وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نحن من حمد الله فكون رحمة للعالمين ، ولنقم بالأمر بعد أن نتعلم ونتربى ، فلاتسقنا أمم الممالك

المتحدة فى التعليم ، والتهذيب ، والرقى ، ونظام المدارس ، ونظام السجون التى جعلوها للتهذيب لا للتعذيب .

وأقول أيضا : علم الله أن هـذا الداء سيحيط بالمسلمين ويشملهم جميعا ، فأى دواء أعده له ؟ الدواء « ق » ولعلك تقول : وهل هذه المعانى كلها فى « ق » ؟ وهل كلمة « ق » تفيدنا أن المسلمين يقتصرون على علم الفقه ويجهلون فى الغالب آداب النفوس ، ويشتت شملهم ، ويسبقهم غـيرهم ، وهكذا ثم يصف بها الدواء ؟ أقول لك نعم : فاعلم أن ق أول حرف فى القرآن المذكور فى آخر سورة ق قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، كأن الله تعالى يقول : اذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق ، وأصبح كل منكم كالغريق ، وتخطبتم فى دياجير الظلام ، وكنتم عبرة الأمم ، وسلوة الزمن ، وأنتم فرق متشاكسون ، وأفذاذ متفرقون ، ونبذتم فهم القرآن ، فلا ذكركم بالقرآن ، فارجعوا إليه ولا تسمعوا كلام بعض قدامى الفقهاء الذين ادعوا أن الدين ما عرفوه ، وماسواه فلا حاجة إليه ، كذلك لا تصغوا لقول العباد ، ولا لقول الصوفية ، ولا لأقوال الأغنياء ، فان كلا منهم يعيب الآخرين ظنا منه أنه هو المخصوص بالكرامة ، وماعداه فهو فى جهالة ، لا تسمعوا هؤلاء جميعا ، وادرسوا القرآن ، فقد جرّبتم صغار الصوفية ، وجرّبتم صغار الفقهاء ، وجرّبتم الأغنياء (١) وجرّبتم العباد [بتشديد الباء] والصالحين ، فقد استبدّ كل فريق بناحيته ، واستقلّ بأمره ، وجهل ماعند سواه ، فتفرّقت الأمم الاسلامية شذر مذر ، وأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وأذاقوهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، والوعيد قسمان : قسم يختص بهلاك الامم فى الحياه الدنيا ، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة وكلاهما فى القرآن فلتقرءوه وعلى مقتضاه تدرسون جميع الكائنات

هذه المعانى كلها مخبوءة فى كلمة « ق » التى جاءت بين السورتين المختومتين بقوله « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» المشتملتين على مايصفى النفوس وعلى معرفة الآفاق ، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت قوله تعالى « لتعارفوا » كما أوضحناه

ألا تعجب معى بعد هذا أن يقول بعض علماء التفسير : ان [ق] اسم من أسماء القرآن ، وهذا هو المعنى الذى أوضحناه لك الآن . انتهى تفسير كلمة « ق » والحمد لله رب العالمين .

المقام الثالث فى تفسير الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(ق ۞ والقرآن المجيد) أى الشريف الكريم على الله ، الكثير الخير والبركة ، وجواب القسم لتبعثن (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) انكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومثله لا يكون إلا ناصحا لقومه ، خائفا عليهم من وقوع مكروه ، ومتى أظلهم مكروه وعلمه لزمه أن ينذرهم (فقال الكافرون هذا شىء عجيب) حكاية لتعجبهم ! يتعجبون من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة (أئذا متنا وكنا ترابا) أى أنرجع اذا متنا وصرنا ترابا (ذلك رجع بعيد) أى بعيد عن اوهامهم والعادة والامكان ، قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى ماتأكل من أجسادهم بعد موتهم ؛ انهم لما استبعدوا البعث ردّ الله عليهم بأن من لطف علمه حتى علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا (وعندنا كتاب حفيظ) محفوظ من الشياطين ؛ ومن التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو حافظ لما كتب فيه ، ثم انهم جاءوا بما هو أفظع مما قبله . فاستحق الاضراب عنه ، فلذلك قال (بل كذبوا بالحق) أى النبوّة الثابتة بالمعجزات من أوّل وهلة بغير تفكر (لما

(١) هذه أقسام المغرورين المذكورة فى سورة [آل عمران] عند آية : « وعرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون » ملخصا من الاحياء للغزالى ـه المؤلف

جاءهم فهم فى أمر مريج) مضطرب ، يقال مرج الخاتم فى الأصبع اذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يثبتون على رأى (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله و بالبعث (إلى السماء فوقهم) إلى آثار قدرة الله تعالى فى خلق العالم (كيف بنيناها) رفعناها بلاعمد (وزيناها) بالكواكب (ومالها من فروج) فتوق بأن خلقناها ملساء ، متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث فى عالم السموات ، بل الرأى الحديث معجزة للقرآن ، و بيانه أن العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ، وألطف من كل ما نراه ، هو مبدأ كل شىء ، وأول كل شىء ، هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس وانما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فان من الكواكب مالا يصل ضوؤه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة نورية ، ومعلوم أن نور الشمس [التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن نحو ثلثمائة وخمس وستين سنة] يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور الى مليون سنة ونصف مليون سنة ، وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود ، والشىء الموجود هو الأثير ، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

هذا هو السر فى قوله تعالى : « ومالها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، و بينهما فضاء ، كما يظن لأول وهلة فيما بيننا و بين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لا فروج فى السماء ، و بعبارة أخرى لا خلاء فى العالم .

رأى القدماء

هكذا كان رأى بعض القدماء فى « اخوان الصفاء » إذ قالوا : « إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين ، فان كانا جوهرين فليس فى العالم خلاء لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وان كانا عرضين فالعرض لابد له من جوهر يقوم به ، وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا فهو معلوم من سابقيه ، فاذن العالم لا خلاء فيه كما ذكرناه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء فى هذه الآية « ومالها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسى) جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) راجع الى ربه ، متفكر فى عجائب صنعه ، يقول الله : بنينا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه ، وهذا من حيث المعنى وان كانا فى الاعراب منتصبين بالفعل الأخير ، فان رفعت السماء فلذكراه ، وان زينتها بالكواكب والنور فليتبصر بما يراه ، وان بسطت الأرض وأرسيتها بالجبال فكذلك ، وان أنبت النبات زينة للأرض ، فليعتبر ويذكر بمرآه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأنبتنا به جنات) أشجارا وثمارا (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا أو حوامل ، يقال : أبسقت الشاة اذا حملت (لها طلع نضيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد المنضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكمه ، أو لكثرة ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أى أنبتناها رزقا للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للمنيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين ، فهى ما كل الآكلين من نوع الانسان « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نطعم عبادنا ونرزقهم ولكنا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعلما مقروءا ، إلا للممتازين من نوع الانسان ، فالخواص للنبات دارسون ، والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات

والاستفادة من علومهما لم يظهر له مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جدبة لانماء فيها (كذلك الخروج) أى كما حييت هاه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم ، فالناس يتغذون ويموتون ، ويتزوجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها فى النبات فهو له حياة وغذاء ونموّ وتوالد فموت ، ثم تيبس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليقس عليه حال الانسان فانه بعد موته يحيا ، وهذا برهان اقناعى ، ونظيره فى كلام سقراط ، يقول : « ان الانسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعزّ بعد الذل ، وهكذا مما لانهاية له ، فلتكن الحياة من الموت» فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلى الذى يجعل للنفس ائتناسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليفتح للعقول مجال التبصرة بمئات من المسائل العلمية ، فتفكر فيما قدمته فى ﴿سورة الشعراء﴾ وغيرها من أنواع النبات الكثيرة التى تفرّعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوّعها كلها ظاهرا فى زهراتها ، فلزهرة تنوّعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شكل فى الزهرة خاص ، فاذا قرأت ذلك دخلت فى بحر لاساحل له من العلم والحكمة ، وعرفت سر البديع الالهية ، وهناك تم هناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود وعاد وفرعون) أى فرعون وقومه (واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلّ كذب الرّسل) كل واحد أو قوم منهم الخ (فحقّ وعيد) فوجب وحلّ عليه وعيدى فلتسد يامحمد ولتستعدّوا لنزول العذاب ياأهل مكة ، وانظر أيها الذكىّ كيف كان ترتيب سور القرآن ، ان قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادا وفرعون قد تقدّموا فى السور السابقة ، فانظر كيف ذكروا فى هذه السور بطريق اجالى ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : هاأنتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأوّلين فى السور المتقدمة ، فلأذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسماء والأرض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهذا كله ، وأذكركم بالأمم الخالية والأجيال البائدة ، كيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضدها تتميز الاشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظنى بالله جميل أن يجعل هذا التفسير نافعا للأمة الاسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكرى فى العالم الاسلامى حتى يصح المسلمون أمة حكمة وعلم « ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز » .

[تذكرة] هذه الجملة كتبتها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن يطبع الطبعة الأولى ، وقد صدق ظنى وأجيبت جميع مطالبى وانى أحمد الله فقد تقدم فى المجلد السابق فى سورة الفتح أن الفكرة قد عمت مسلمى بلاد الصين والتركستان الصينية فضلا عن سائر بلاد الاسلام .

ثم قال تعالى (أفعيينا بالخلق الأوّل) أى أفعجزنا عن الابداء حتى نعجز عن الاعادة ، يقال عيى بالأمر اذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للانكار (بل هم فى لبس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لاينكرون قدرتنا على الخلق الأوّل ، بل هم فى خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى المبحث الأول من السورة .

المبحث الثانى

فى الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المرتقبين حركات الانسان وسكناته ، وعن أحوال يوم القيامة

قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) ماتحدّثه به نفسه ، وهو ما يخطر بالبال ،

والوسوسة الصوت الخفيّ ، ومنه وسواس الحلى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، فهذا مثل فى فرط القرب ، والوريد عرق فى باطن العنق ، والحبل العرق أى حبل هو الوريد ، فأجزاء الانسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضا ، ولا يحجب عن علم الله شىء ، فهو بيان لكمال علم الله تعالى بالانسان ، أو يقال بالاختصار نحن أعلم به منه فيكون تجوّزا بقرب الذات لقرب العلم ، وقوله (إذ يتلقى المتلقيان) ظرف لقوله أقرب إليه ، يقول الله : نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى ، أو يتلقن الحفيظان مايتلفظ به مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه ، لكن هكذا كان نظامنا لالزام الحجة ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، أى مقاعد لجليس ، وقد حذف الأوّل لدلالة الثانى عليه كقوله :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ✲ فانى وقيارها لغريب

وكقول الآخر

رمانى بأمر كنت منه ووالدى ✲ بريئا ومن أجل الطوىّ رمانى

أى كنت منه بريئا وكان والدى منه بريئا ، وقد يطلق الفعيل للواحد والمتعدد كقوله تعالى « والملائكة بعد ذلك ظهير » (مايلفظ من قول) مايرمى به من فيه (إلا لديه رقيب) ملك يرقب أعماله (عتيد) حاضر معه فيكتب مافيه ثواب أو عقاب ، وكل شىء حتى أنينه فى مرضه ، وفى الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فاذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

واعلم أن هذا الحديث هو الموافق لنظام هذا العالم ، ألاترى رعاك الله أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، وانما خلقهم لتهذيبهم وتربيتهم ، وليس معنى التربية أن تكون كلها تعذيبا ، فكل ألم فهو لرقىّ النفس ، واذا كان كاتب الحسنات أميرا على كاتب السيئات ، فلأن العالم المادّى الموجود من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضرّه ، وعلى هذا الناموس يكون خلقنا لغاية شريفة نافعة لنا ، والحسنات أصل والسيئات عارضة كما أن المنافع فى الطبيعة أصل والمضارّ عارضة ، النار خلقت لمنفعة ، والماء لمنفعة ، والهواء لمنفعة ، فاذا أحرق ثوب الناسك ، واغرق رب صبية لاعائل لهم ، وأصاب البرد عالما فانتهى بموته ، فهذا كله عارض ، والأصل فى هذه كلها المنافع ، هكذا نوع الانسان خلق للخير ولكن الشرّ عارض ، وللحسنات لكن السيئات عارضة ، فتوّل النبوّة من منع الظلم الأصلى للعالم ، ثم ان الله لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأراح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك قريبا عند الموت وعند قيام الساعة ، ولذلك عبر بالماضى تنبيها على اقتراب ذلك فقال (وجاءت سكرة الموت بالحقّ) أى شدّته الذاهبة بالعقل ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة (ذلك) الموت أيها الانسان (ماكنت منه تحيد) وتهرب (ونفخ فى الصور) نفخة البعث (ذلك يوم الوعيد) أى ذلك اليوم الذى وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) كاتب السيئات سائق ، وكاتب الحسنات شهيد ، ويقال له (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) أى الغطاء الحاجب لأمور المعاد كالغفلة والانهماك فى المحسوسات ، والالف بها ، وقصور النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للابصار ، فكأن الغفلة غطاء غطى بها جسدك كله ، أوغشاوة غطى بها عيناه فلا يبصر شيئا ، فاذا كان يوم القيامة يقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر مالم يبصره من الحق ، ويكون ذلك عقب الموت (وقال قرينه) وقال الملك الموكل به (هذا مالدىّ عتيد) أى معدّ محضر : أى يقول الله : هذا ما لدىّ وكلنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، فلما قال قرينه ذلك ، قال الله لسائق وشهيد ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقوقه

المفروضة ، وللاسلام أن يذاع وينتشر كالوليد بن المغيرة لما منع بنى أخيه عنه (عنيد) متعند (مريب) شاك فى الله وفى دينه (الذى جعل مع الله إلها آخر) بدل من كل كفار ، وقوله (فألقياه) تكرير للتأكيد (فى العذاب الشديد) فقال الكافر : يارب ان قرينى من الشياطين أطغانى (قال قرينه) أى الشيطان المقيض له (ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) عن الحق لأنه هكذا استعداده ، وهكذا كان دينه وطبعه فسار على النهج الذى يناسب أخلاقه : أى فى ضلال بعيد طويل لا يرجع عنه الى الحق ، وهذا كقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » (قال) الله تعالى (لا تختصموا لدىّ) فى موقف الحساب إذ لا فائدة فيه (وقد قدمت اليكم بالوعيد) وقد أوعدتكم بعذابى على الطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فما تركت لكم حجة ، وقدمت بمعنى تقدمت فعدى بالباء (ما يبدّل القول لدىّ) أى بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدّل قولى ووعيدى بادخال الكفار النار (وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب عبدا بغير ذنب جناه ، وظلام إما بمعنى ذى ظلم ، واما للمبالغة ، يقول الله : واذكر (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) مزيد مصدر كالمجيد أى هل من زيادة ، وهذا السؤال والجواب جىء بهما للتخييل والتصوير ، والمعنى أنها مع شدة زفيرها وحدّتها لا تزال فى شغف بدخول العصاة فيها ، فهى كالهم الذى لا يشبع ، فكما أن الجنة لا نهاية لمداها ، هكذا النار لا نهاية لمداها ، وبقول ابن عباس رضى الله عنهما : سبقت كلمته لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شىء فتقول : ألست قد أقسمت لتملأنى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ؟ فتقول قط قط قد امتلأت وليس من مزيد . وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة [وفى رواية] رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها الى بعض وتقول قط قط بعزّتك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة » . ولأبى هريرة نحوه ، وزاد : « ولا يظلم الله من خلقه أحدا » .

واعلم أن هذا القول يرجع الى النظام العام ، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر ، وأن الشر عرض والخير أصلى ، فاذا سمعت أن الرب أسكت النار وقالت قط قط ، وانه خلق للجنة قوما يسكنون فى فضولها فذلك هو الذى يفهم من أعماله فى هذه الحياة ، فان الحياة طافحة بالخير فى هذا العالم مع نقصه ، فتراه لا يدع حالا من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة ، فالسبات يعيش فى النائمين ، وخلق الظلّ نباتا يعيش فيه ، ولم يذر البحر ولا البرّ من حيوان ولا نبات ، فلا ملوحة البحر ، ولا برودة الثلج ، ولا حرارة القيظ ، ولا غور البحر بمانعات من الحياة ، ومعنى هذا أن الرحمة فاصلة ، وهذا دلالة على أن جنته التى هى الرحمة الكبرى أوسع من جهنم التى هى دار العذاب ، ومثل هذه الأحاديث لا يدرك سرّها ولا المقصد منها إلا بدراسة علوم الحكمة ، وفهم نظام العالم ، وحكمه المدهشة ، واذ ذاك يدرك الناس ماذا يقصد النبىّ صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث ، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرفت ان هذا تمثيل وهو ظاهر فى علم المعانى ولا حاجة الى التطويل (وأزلفت الجنة) قربت وأدنيت (للمتقين) الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئا (غير بعيد) ويقال لهم (هذا ما توعدون) هذا الذى وعدتم به فى الدنيا على ألسنة الأنبياء ، وقوله (لكل أوّاب) رجاع عن المعصية الى الطاعة بدل من المتقين باعادة الجار ، وقوله (حفيظ) أى حافظ لحدوده (من خشى الرحمن بالغيب) أى خاف الرحمن فأطاعه وان لم يره ، وفى الحارة بحيث لا يراه أحد (وجاء بقلب منيب) مخلص مقبل على طاعة الله يقال لهم (ادخلوها بسلام) سالمين من العذاب وزوال النعم ، أو مسلما عليكم من الله والملائكة (ذلك يوم الخلود) فى الجنة إذ لا موت فيها ، والخلود هو المتروك بقوله تعالى « ادخلوها خالدين »

ثم ان الناس يسألون الله ما يشتهون فى الجنة فيعطون مايسألون ، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا ، وذلك قوله تعالى (لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطرعلى قلب بشر ، ومن أجلها النظر الى وجه الله الكريم ، إذ يتجلى لهم الرب فى كل جمعة فى داركرامته ، فهذا من المزيد . (وكم أهلكنا قبلهم) قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشا) قوة كعاد وثمود وقوم تبع (فنقبوا فى البلاد) التنقيب التنقير عن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا فى البلاد ، وسلكوا كل طريق ، وتصرفوا فيها ، وجالوا فى الأرض كل مجال حذرالموت (هل من محيص) أى هل لهم محيص من الله : أى فلم يجدوا لهم مهربا من أمر الله ، ولامفرا من الموت الذى يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ماجاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، فهم أيضا تصرفوا ونقبوا فى البلاد ، فلامهرب لهم من عذاب الله إما بانزال العذاب عليهم كعاد وثمود ، واما أن يموتوا فيدخلوا النار .

ولما كان ماتقدم فى هذه السورة وماقبلها من أبدع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارهما قد جمعا تفصيلا آداب الأمم مع النبى ﷺ ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس ، وكيف يكون الصلح ، وكيف يصان اللسان ، وكيف يتعارفون ويتعلمون وينظرون فى خلق السموات والأرض ، وفى العجائب المدهشة ، بحيث ان هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ [ق] الذى شرحناه لك قريبا يكفيان لرقى الأمة الاسلامية واسعادها متى رجعوا إليهما ، فيذهب التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، وينتظم الجمع ، ويخيم الأمن فى ربوع الأمم الاسلامية ، لذلك قال الله تعالى (إن فى ذلك) الذى تقدم فى السورتين لأن الأولى للتخلية والثانية للتحلية (لذكرى) لتذكرة (لمن كان له قلب) أى قلب واع يتفكر فى حقائق الأشياء المذكورة فيه (أوألقى السمع) أى أصغى لاستماعه (وهوشهيد) حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، ليس بساه ولاغافل ، وفى تنكير القلب اشعار بأن كل قلب لايتفكر ولايتدبر كالاقلب ، ثم أعقبه بما يجول فيه القلب ويتفكر فقال (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب) إعياء وتعب فنحن قدملأناهما بالعجائب ولانزال نزيدها كل حين لأنا لايلحقنا التعب والاعياء ، فاقرءوا عجائبنا التى لانهاية لمداها ، ولتتجه قلوبكم اليها ولتلقوا فيها تسمعون من القول السمع وأنتم حاضرو الذهن فعجائبنا لاتتناهى ، ولتكذبوا اليهود الذين قالوا [ان الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فنحن لايمسنا لغوب ، وعجائبنا لاتقف عند حد] (فاصبر على مايقولون) على مايقوله المشركون من انكارهم البعث فانى خلقت العالم بلا إعياء ، فاذن أنا أقدر على بعثهم ثم أنتقم منهم (وسبح بحمد ربك) ونزهه عن العجز عن أى ممكن كان كالبعث حامدا له على ما أنعم عليك من اصابة الحق وغيرها من النعم الكثيرة التى لاتتناهى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى وقت الفجر ووقت الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أى وسبحه بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أن يقول « سبحان الله والحمد لله » فى أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر ، أوالعصر فقط ، وفى الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل : إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أوالتهجد ، والرابع النوافل بعد الصلوات ، وانما سميت هذه الصلوات تسبيحا تسمية بالجزء منها ، وهو مافى الركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأول خارج الصلاة ، والتسبيح فى الثانى صلاة وتسبيح داخل فيها ، ولاجرم أن الحمد مذكور فى الفاتحة والتسبيح فى الركوع والسجود ، ومعنى « أدبار السجود » وقت انقضاء السجود كقولهم [آتيك خفوق النجم] وفى حديث البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها يعنى قوله « وأدبار

السجود »

السجود » . وفى حديث مسلم : تحديد التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وذلك كله دبر كل صلاة .

وعلى هذا يكون التسبيح أعمّ منه ومن الصلاة ، فالآية تشمل القسمين ، فليصلّ المؤمن الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وليصل النوافل التى هى وقت أدبار السجود ، وليصل بالليل ، وليسبح بعد الصلوات كل ذلك داخل فى الآية ، فكله تسبيح بالحمد ، وبهذا جمع بين الأقوال كلها (واستمع) يامحمد لما اخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وماهو ذلك الخبر ؟ أنهم يخرجون من القبور (يوم ينادى المنادِ) وهو اسرافيل ، أوجبرائيل ، فيقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المنقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرّقة ، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . يقول الله : يوم ينادى المناد (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء ، ونظيره فى الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة ، كل هذه تأتى إلى أهل الأرض جميعا كأن مناديا يناديهم من قرب ، ويأمرهم بالنوم وبالحياة وبالاستيقاظ وبالأكل وبالشبع وما أشبه ذلك ، فهكذا يوم القيامة ، لأن الله مع كل نسمة خلقها ، فنداؤه قريب فى الدنيا وفى الآخرة ، وقوله (يوم يسمعون الصيحة) أى النفخة الثانية ، وهذا بدل من يوم ينادى المنادِ ، وقوله (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والجزاء (ذلك يوم الخروج) من القبور . قال الله تعالى تلخيصا لما تقدم كله من أوّل السورة الى هذه الآية (إنا نحن نحيي ونميت) أى نحيي فى الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل (وإلينا المصير) فى الآخرة (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) أى يوم تتصدّع عنهم فتخرج الموتى من صدوعها حال كونهم مسرعين (ذلك حشر علينا يسير) هين ، وقوله يوم متعلق بقوله يسير وقدّم للاختصاص (نحن أعلم بما يقولون) فيك وفينا ، وهذا تهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) بمسيطر أى ما أنت بمسلط عليهم ، انما أنت داع وباعث ، أوما أنت بوال عليهم تجبرهم على الايمان (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كقوله « إنما انت منذر من يخشاها » إذ لاينفع التذكير إلا فيه . انتهى الفسير الأعظم

فى هذه السورة ثلاث لطائف

الأولى فى عجائب السموات ، وهو قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » .

الثانية فى عجائب الأرض فى قوله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

الثالثة فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

اللطيفة الأولى : عجائب السموات

لقد أطنبت فى هذا التفسير فى السموات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائعها وبسطها فى البقرة وفى آل عمران ، وفى الأنعام ، وفى سور كثيرة فلترجع إليها .

اللطيفة الثانية فى عجائب الأرض والنبات

لقد جاء فى سورة الأنعام والشعراء وغيرها بدائع النبات ورسم الزهرة ، وكيف كانت أنواع النبات التى تعد بالآلاف قد ظهر تنوّعها فى الزهرة وتقسيمها ماجم منها ، وكذلك فى كثير من السور ولكن لابدّ من أن آخذ بيدك الساعة ، وأطوف معك فى الحدائق والجنات ، ذلك لأن السور السالفة قريبا لم نكثر فيها من الكلام

على العجائب النباتية ، فلنقم معى ، ولتطف حدائق الأرض ، ولتنظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر ، وأصناف الشجر ، والطرف الشائقة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لايقصدون إلالذات الجسم التى لها حدّ محدود ، ومقدارموقوت ، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وأن ترتقى عن الطوائف التى قال فيها : « رزقا للعباد » ، فلتكن تلك رزقك ، وليكن علمها نورا لقلبك ، فجسمك يتغذى بأثمارها ، وروحك تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه فى الأرض ورسمه وهندسه وزوّقه ، ورفع الأستارعن بعض القلوب ، وقال : ياعبادى انظروا جمالى الذى احتجب عنكم فهذه آثاره ، وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهى يوم القيامة ، ألم أقل : « نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم بشراكم اليوم» ولانور إلا ما اكتسبه الفكر ، واقتبسه النظر من العوالم المشاهدة المسطورة ، والمصوّرة المنمقة المشروحة ، الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، وللمناظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التى اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الانسانية .

هذه هى الصحائف الأربعة التى يدرسها الانسان ، فكتاب الطبيعة كتابى ، وكتاب نفوسكم كتابى ، وكتاب الدين كتابى ، وكتاب الفلسفة والحكمة اشراق من نورى على عبادى فهوكتابى ، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحى والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمى فى العالم السماوى والأرضى ، ومهدات لكتاب النفس وكتاب الأفق ، وكل مقرأتموه فى الطبيعة وانه مخزون فى صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظر فى العجائب النباتية ، وفكر فى الغرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ، وازداد أجنحة يطير بها إلى العلا ، إن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، تلك أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هوالأصل ، فليزدد الناس فكرا فى النبات وغيره تزدد عقولهم عددا كما ازداد الملائكة مددا ، إن النظر فى النبات ازدياد أجنحة للطيران الى عالم الأفلاك فوق السماك .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر

النخل ، والرمان ، والنبق ، والجوز ، واللوز ، والتين ، والعنب ، والاجاص ، والمشمش ، والخوخ ، والأترج ، والنارنج ، والليمون ، والحبة الخضراء ، والفستق ، والسمان ، والصنوبر والبلوط ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج .

(١) — التمر الذى هو ثمر النخل

طويل الشكل ، مدحرج الخلقة ، مختلف الألوان ، على نواه قشرة رقيقة ، حريرية ، لينة للمس ، صلبة النسيج ، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة ، عليها قشرة صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفى الجانب المقابل نقرة مستطيلة فيها حشوليفى ، وعلى رأس الثمرة من خارج قمعه ، عليها شظيات متفرّقة متشبثة بالثمرة ، ومادة هذه الثمرة قبل النضج عفصة ، و بعد النضج حلوة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للثمرة .

(٢) — شجرة الرمان وثمرها

ثمر الرمان : شكله مستدير ، وخلقته كبيرة ، عليه قشرة كثيفة ليفية ثخينة ، مجوّفة من داخل ، واسعة ، فيها حبوب متراصة . فيها حبوب منقسمة ، عليها حبوب مرصعة ، أشكالها مخروطة ، فى جوف تلك الحبوب نواة جوفية ، رخوة ، فى داخل [illegible] ، وفى خارج رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ،

وعليها

وعليها شظيات ناتئة زبيرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطة .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته ثخينة ، فى جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، فى داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية ثخينة ، فى داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة ، مجوّفة ، فيها خزائن مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، وبينها حجب ، منخرقة أقسامها ، مهندمة واذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سفطى عليه قشرة ليفية ، فى داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها ثقوب نافذة ، فيها فتائل ليفية ، فى داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمره ليس له نوى ، عليه قشرة لحمية ، وشكله مخروط صنوبرى ، وفى أسفله ثقبة مستديرة ، فيها شظيات زبيرية ، وفى جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة ، وطعم مادّته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق ، وبعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأغبر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتزقة بشحمتها ، وفى جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، فقاعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، فى جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادّة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، وبعد النضج حلوة .

(٨) — الاجاص (٩) — والمشمش (١٠) — والخوخ

أشكال أثمارها مخروطة ، أوصدفية ، عليها قشور رقيقة ملتزقة بشحمتها وهى غليظة ثخينة ، فى داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الاترج (١٢) — والنارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أومستطيلة ، أومدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفى داخلها حب صغار ، على دماص مرصعة شبه التلال ، مابين خلالها لحمة ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادّتها قبل النضج عفصة .

(١٤) — الحبة الخضراء (١٥) — الفستق (١٦) — السماق (١٧) حب الصنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفى داخلها نواة خزفية ، وفى جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) — العفص (٢٠) السرو — (٢١) — الاهليلج

ثمار هذه الأشجار لاتنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .

وهاك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى فى الشجر والنبات :

(١) الحب : تنظر الحب تراه مخلوقا فى أوعية تشبه الحرائط ، وتلك الحرائط على رءوسها أمثال الأسنة لتمنع الطير أن يأكلها لتحفظ للانسان ، فكأن الحبوب فى حصون محصنة لتحفظ للانسان .

يرى الانسان سنابل القمح تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويرى تلك السفا كالأسنة فوقها فالجاهل لايدرى والحكيم يعرف نعمة الله : « ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » .

(٢) الشجر وأصناف النبات مخلوقات لاقدرة لها على الحركات كما الحيوان ، فوقفت رابضة فى أماكنها ، وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان لبن أمه ، وتجتذب الأغذية من الأرض ، وتلك الأغذية تقسم على الورق والأغصان والأزهار والأثمار ، كل يأخذ ماينا سبه .

(٣) جذور النبات تمتدّ فى الأرض كما تمتدّ الأطناب ، فكما أن الخيام تمتدّ أطنابها من كل جانب لتثبت تلك الخيام فلا تسقط ولاتميل ، هكذا النبات عروقه منتشرة فى الأرض ، ممتدّة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية ، لاسيما فى الرياح العاصفة ، إن حكمة الله سبقت النبات فامتدّت عروقه الى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف ، هكذا صنع الناس الخيام وجعلوا أطنابها ممتدّة من سائر الجهات تقليدا لما رأوا فى الأشجار .

(٤) نسج الورق : انظر الى الورقة الواحدة كيف ترى فيها مايشبه العروق مبثوثة ، فمنها الغلاظ الممتدّة فى طولها وعرضها ، ومنها الدقاق المتخللة تلك الغلاظ ، المنسوجة نسجا دقيقا عجيبا ، ولوكان البشر هم الصانعون له لم يفرغوا من ورقة واحدة فى طول الأزمان ، وبالنظر اليها يرى أنها كجسم الانسان المبثة فيه العروق الغلاظ ، ثم الدقاق ، ثم الشعرية الدقيقة جدا ، ثم ان العروق الغليظة تمسك الورقة بصلابتها وقوّتها . انظر هذا المقام موضحا بالأشكال فى سورة يس عند قوله: سبحان الذى خلق الأزواج كلها الخ .

(٥) النجم والنوى : اعلم أن الله جعلنا مغرمين بكنز الذهب والفضة والأحجار الثمينة ، فترانا نخزنها ونصونها ، وهذا معروف عند العامة والخاصة ، فأما العامة فانهم يموتون ولايدرون حكمة غرامنا بتلك الجواهر ، وأما الخاصة فانهم يقولون : لننظر الى ماكنزه الله أمامنا ، إن الله حكيم ولايخزن شيئا إلا لحكمة ، فما الحكمة إذن فى وضع النواة فى باطن التمرة ، والنجم فى باطن الفاكهة ؟ انا نكنز الأشياء ذات القيمة ولكن الله يكنز مالاقيمة له فى نظرنا ، كنز النواة ، والنواة لاثمن لها ، وربما طحناها وجعلناها علفا للابل ، وبعد التفكر العظيم يقولون : عجبا ! إن النواة أفضل ألف مرّة من الماس والياقوت والمرجان ، ان النواة تستحق أن تخزن فى أعزّ خزائننا فى خزائط الجواهر الثمينة ، هذا هوالسبب فى أن الله خزنها ، ان النواة أصل النخلة كما أن الحبة أصل نبات القمح ، فالله خزن النواة وحصنها ، وجعل جرم التمرة غطاء لها لأنها أصل النخلة وهكذا بقية النوى ، فاذا حافظ الله عليها وأكثر منها فذلك للمحافظة على حياتنا ، أما اذا وضعنا الدرّة اليتيمة فى حرز فليس لها منفعة إلا فى التحلى بها ، والنواة منفعتها حياتنا وبقاؤنا ، وما به البقاء خير مما به التحلى ، إذ لاحلية إلا للأحياء ، فجلّ الله إذ عرفنا قيمة هذه المخازن والخرائط والصناديق المقفلة .

(٦) الصلابة فى النواة : إن صلابتها ممكنة لرخاوة الثمار ولرقتها ، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى الفساد إليها قبل إدراكها .

(٧) قشرة الحب والنوى : خلق لكل منهما فى ظاهره قشرة ، فاذا سقطا فى التراب أوغيره لم يفسدا سريعا ، واذا ادّخرا لوقت الزراعة بقيا محفوظين ، فصار قشرهما الخارج حافظا لما فى باطنهما ، ولدى فى باطنهما كالشىء الذى له صندوق يحفظه ، ولولا تلك القشرة على النواة والحبة لأسرع إليهما العطب ، ولم يصلحا لزرعهما مرة أخرى ، وكم من امرئ يأكل القمح والذرة وهو

لايدرى لم كانت هذه الصلابة ، ولوعلم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا ، وأن هذه القشرة أشرف من كل مايحفظ أجل الجواهر ، فباطن الحبة محفوظ أوّلا بغلافها و بسفائها ثم بصلابتها ، و باطن الثمرة محفوظ أوّلا بالكفرا رهو وعاء الطلع ، ثم بجرم الثمرة ، ثم بالصلابة .

(٨) نبات الحب والنوى متى وضع كل منهما فى الأرض وسقى خرج منه عرق فى الثرى ، وغصن فى الهواء ، وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه الى العصن فتكرن الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار ، ويصعد الماء فى جذرها إلى أعالى الشجرة .

(٩) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسيما عادلا كما تقدم .

(١٠) خروج الأوراق قبل الأثمار : انظر الى الثمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضرّ بحرّ الشمس وبرد الهواء ، فخرجت الأوراق قبلها لصيانتها كما خلق النبات والحيوان قبل الانسان لحياته ومنفعته .

(١١) نظام الأوراق : إن الأوراق تكون ساترة للثمرة لحفظها من الحرّ والبرد ، ولكن الثمرة لاتزال فى احتياج الى الحرارة الشمسية لتنضجها ، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجا فى خلالها لدخول الشمس والهواء التى لاغنى للثمرة عنها ، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة الغبار ، مدخلة الضياء ، هكذا هنا منعت الأوراق الحرّ والبرد ، وأدخلت مايلزم من الهواء والحرارة . هذا هوالعلم الذى يرقى العقول . هذا هوالذى يقول الله فيه [ق] على ما فهمت من معناها . هذا هوالذى قال الله فيه : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » هذه هى الحكمة الشريفة ، والآيات المنيفة ، والعلوم العالية ، والجواهر العالية ، ألا تعجب لكنوز مكشوفة مستورة ، وجواهر محجوبة منظورة ، وأسرار ظاهرة خافية و بدائع غالية ، رخيصة ، انظر كيف يجلس المسلم تحت الأشجار والأثمار ، والريح تعبث بالغصون والأوراق ، ولايدرى لم هذه الأوراق ؟ انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ماحجبه الله عن المسلم القديم ، يقرأ سطور الكائنات فى خلال الأوراق ، و يعجب من شمس تتخللها ، وهواء يداخلها ، ليعطى الثمرة حظها ، ويقرأ المسلم فى المستقبل : « وكل شئ عنده بمقدار » . أما أكثر المسلمين والفقهاء فيما مضى ، فقد كانوا عن الفهم محجوبين ، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لايفقهونه ، اقرأ قول الله تعالى : « أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فاذا أقفلت القلوب لم تفهم الحكم التى سمعتها فى حبّ الحصيد ، ولافى النخل الباسقات التى لها طلع نضيد .

(١٢) الثمرة فى غلافها : منذ أيام كنت مارّا أمام [كوبرى الملك الصالح] وأمامى نخلة قد انشقّ [كراها] أى غلاف طلعها ، وانشقاقه كان من الجهة العربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها ، أما الذى فى جهة الشرق فلم ينشق ، ثم انى عجبت كيف كان انشقاقه تدريجيا شيئا فشيئا ، فأخذت أفكر فى ذلك العجب ، وأن الذى برز الى الشمس هوالذى قوى على تحمل الجوّ ، وأن الذى لايزال مستورا هو الذى لم يقو ، وكلما اشتدّ مستور ظهر للشمس والريح ، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا العلاف قد ظهر ، فأما غيره فانه لايزال بحاله لم يشقق لبعده عن ضوء الشمس .

(١٣) موازنة بين الثمار و بين الأجنة : كلاهما مادام لايقوى على الجوّ يبقى فى مكمنه ، فمتى قوى

خرج منه .

(١٤) اعتبر ذلك فى أمم الأرض من حيث الدين والعلم ، يعلم الناس الدين ويحجبون عن الحكمة المحبوءة فيه كما ترى فى أمة الاسلام يقرءون الأحكام الشرعية فادا قويت العقول والفطن أطلعهم الله على بدائع صنعته ، فهذا الذى نقوله الآن يفهمه أكثر الناس ، لكن لايذوق الحكمة ويحس بها فى نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجنين وقد نزل من الرحم ، و بالثمرات وقد خرجت من الأكمام ، فأما من عقله لم يزل ناقصا فهو أشبه بالثمر فى الأكمام ، فليلزمه شيوخه بالعبادات ، وليمثعوه من هذه الآيات .

(١٥) حبّ الرمان المرصع المتقدم ذكره : ترى فى داخل الرمان كما تقدم شحما مركوما غليظ ، الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال فى ألوانه ، أوكالبناء الذى وسع أسفله للاستقرار عليه ، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، ولاجرم أن الأيدى تعجز عن ذلك التدخل الذى نظم حبها فى الشحم المذكور ، وترى هناك أقساما كل قسم منها مقسوم بلطائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه ، لتحجب حبها حتى لايلتقى بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية .

(١٦) غذاء الحب فى الرمان : لوأن الحب كان هو الحشو للرمان لاسواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب الغذاء ؟ ولذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمدّه بالغذاء ، فلذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه ، لماذا ؟ ليمدّها الشحم بالغذاء ، وهناك عروق رقاق توصل للحب غذاءه ، والى حبة حبة غذاءها .

(١٧) فى حب الرمان أيضا الحلاوة فى المرارة : ترى الحب حلوا وهو مغروس فى أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، وهناك لفائف لطيفة على الحب لتمسكه فلايضطرب وتحفظه ، وحفظ جميع ذلك فى قشر عليظ واق تمام الوقاية .

(١٨) عود الرمانة : قد جعل متينا قويا حتى تستكمل خلقها فلاتسقط قبل بلوغها الغاية .

(١٩) الطيخ واليقطين والفقوس : عود هذه النباتات محتاج الى الماء أشدّ الاحتياج ، لأنه على الدوام يحتذب ماء كثيرا ، ولذلك نرى الفلاحين فى صواحى مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة ، لأنها تحتذب ماء كثيرا ليملأ ثمرها العظيم جدا ، فترى الطيخة مثلا كبيرة كالجرة العظيمة ، وربما كان فى الشجرة الواحدة كثير ، وكان العود دائما مشبعا بالماء ليوصله الى ثمره ، فكان أشبه بالقناة الرطبة ، فلن يستطيع أن يكون قائما ، لذلك انبسط على الأرض ، وترك ثمره على الأرض والأرض تحمله ، لأن هذا العود الطرىّ اللين لايقدر على حمل نفسه فضلا عن حمل هذا الثمر العظيم .

(٢٠) الطيخ وما معه : لاتحلق إلا عند الحاجة إليها ، وفى الأرمنة المناسبة ، فلايحلق فى الشتاء لأنه بالصيف أليق .

فهذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الحيات فى الدنيا ، وتنال رياض الجنات بدراسة هذه الرياض فى الآخرة ، والله هو الولىّ الحميد .

شذرات علمية فى النبات

(١) نبات يفيد و يستفيد : قال اللورد أفبرى فى كتابه [محاسن الطبيعة] : هناك أنواع الفطر [بضم الفاء والطاء] والكمأة التى تنمو بين الأشجار ، وقد تكون على الجذوع أيضا ، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة العصائل حتى الآن ، هذا النبات قد كان يظن النباتيون أنه يضرّ الشجر ضررا كبيرا ، وقد عرفوا أخيرا أنه يمتص العذاء بالجذور و يصير عصيرا فى تلك النباتات ، و يتسرّب فى عروق الشجرة و يزيدها نماء ،

(٢) وصف الغابات فى البلاد الحارّة : قال اللورد المذكور : عجب عجب للغابات فى المناطق الحارّة ، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعانقة الأغصان ، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولحمة ، فكأنها بساط عظيم ، ترفع بصرك فترى شبابيك من الأغصان المشتبكة المختلطة المتداخلة المتعانقة ، والأزهار تقبل الأزهار ، والأثمار تحيط بالأثمار ، والأوراق متلاصقات ، وربما وقعت بين جذوع عاريات لا جمال فيها ، ثم ترفع بصرك فترى نفسك تحت قبة فى جوّ السماء ، خضراء ، بهجة تسرّ الناظرين ، قد حجبت نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف المرفوع الزبرجدى البهج المنسوج البديع .

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالى افريقية ، يقول اللورد المذكور : إن تلك الأقطار كانت أكثر سكانا ، وأعظم مدنا ، وأنعم عيشا ، و بلادها تدرّ لبنا وعسلا ، ثم تحوّلت إلى صحارى قاحلة ، وأراض جرداء خالية ، قال : إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها ، ولو أنهم حرصوا على غاباتهم لكانوا أشدّ حرصا على دولتهم ، يريد أن من أولع بالتخريب صار ذلك ديدنه ، فيؤول أمره إلى البوار . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ✻ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

لقد أسلفت فى هذا التفسير فى مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين فى عالم الملائكة ، وعالم الجنّ ، وسأذكرها مختصرا موجزا منه فأقول :

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون فى أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم ، حتى ان كل امرئ يكاد ينطق بما استكنّ فى نفسه ، وهيئة الانسان وسيماه تدل على مافى نفسه من المحاسن والمساوى كما شرحه العلامة ابن خلدون فى المقدمة

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتنا المصرية قد عرفت أن خطوط ابهام اليد فى المرء لاتشتبه فيها بسواه ، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لاتختلط بسواه .

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الحاكية وهى [الفونوغراف] فهو كصدى الصوت يحكى ماقيل بلاخلل وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات فى اسطوانة ويديرونها فتنطق بما نطق به الانسان و يتكرّر ذلك سنين وسنين ، قد زاد الانسان على ذلك ، فترى علماء النفس فى بلاد أمريكا عرفوا علما يسمى علم الأثر ، وملخصه كما تقدم موضحا فى ﴿ سورة النساء ﴾ أن بعض النفوس اذا غابت بدويم مغناطيسى ، ثم أعطى لها أثر انسان أوحيوان أوجماد أونحوه أخذت تلك النفس

تقص ماجرى لصاحب الأثر ، حتى ان أحد هؤلاء القادرين على ذلك ، المتعوّدين عليه اذا دخل في حجرة ذكر كل مامرّ بها من خير وشرّ ، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم

(٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر ، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرّروا هذه الحقائق ، ولقد مضى في هذا التفسير أن اللورد [أوليفر لودج] قال في محفل عام أيام الحرب الكبرى : « إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا ، والله نفسه يساعدنا » كل ذلك بالتجربة العلمية

(٥) أفلست ترى معي أن العلم الحديث كأنه إنما جاء ليعرف الناس دين الاسلام ، والافكيف يقول الله تعالى : إن هنا ملكين أحدهما على اليمين والآخر على الشمال ، ويقول : ان الانسان له قرين من الملائكة وقرين من الجنّ ، ويقول : لكل امرئ ملك يسوقه وملك يشهد عليه .

هذه أمور سمعية ليس للعقل فيها مدخل ، ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله ، أثبت ماهو أعجب ! أثبت أن الجماد الذي يحيط بنا يرسم فيه مايجول بخواطرنا فضلا عما نعمل أو نتكلم به حتى قال أحد علماء النفس في أمريكا كما تقدم في هذا التفسير : « سيأتي قوم بعد ألفي سنة أو أكثر وبهذا العلم يمسكون بحجر مما كان حولنا ، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا ، وما كنا نخشى أن نقوله بألسنتنا » .

ياعجبا كل العجب ! فاذا كان الجماد أصبح يخبرنا ويخبر غيرنا بما عملنا فكيف لاتعرف ذلك الأرواح المجرّدة من المادّة ؟ المادّة أصبحت مخزنا لعلومنا فكيف بالأرواح المجرّدة التي أثبتها العلم الحديث .

اللهم إن دين الاسلام لايظهر إلا في المستقبل ، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأوّل من العلم إلا القشور ، اللهم انك أنزلت الاسلام ، وهاأنت ذا سبحانك تفهمنا قولك : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فدين الاسلام الآن يظهر في الأنفس ويظهر في الآفاق ، ومانحن فيه الآن ظهوره في الأنفس .

ففز بعلم تكن حيا به أبدا ✲ الناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطائف العامة في هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى في سرّ [ا ل م] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » .

اللطيفة الثانية في أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم » الخ . وفي هذه اللطيفة مبحثان ﴿ المبحث الأوّل ﴾ في عجائب العين التي اختصت بنظر السماء ﴿ المبحث الثاني ﴾ في عجائب نفس السماء ، وذلك بفهم آلة النظر والجسم المنظور .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع [المؤلف]

اللطيفة الأولى

في سرّ [ا ل م] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج »

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : إن غرامك بالعلويات والسفليات من الكواكب والزروع والشجر والجبل جعلك مغرما بالكلام فيها حتى ان أكثر هذا التفسير راجع الى هذه المعاني ، فهلا أقللت من هذه المعاني في نحو هذه الآيات ؟ فقلت ياصاح : قد تحملت ولم تستطع صبرا على ما أريد أن أقوله ، إن كتابتي في هذه الليلة إحدى ليالي شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافقة ليلة الخميس ٣١ شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م ترجع إلى [ا ل م] في قوله : « أفلم ينظروا » . فقال : وماالهذه في هذا المقام ؟ فقلت يا صاح : ان هذه بينها و بين [ا ل م] في أول ﴿ سورة البقرة ﴾ صلة . فقال : وأيّ صلة بين البقرة وسورة ق ومافيها من الآيات ؟ فقلت صلة وثيقة عجيبة ، ان هذا سرّا كان مخبوءا والله أبرزه اليوم في هذا التفسير ، وحرام عليّ أن أكتم عن الأمم الاسلامية ما وقع في صدري في هذا المقام من عجائب القرآن . فقال : انك تصف أمرا عظيما فماهو ؟ قلت [ا ل م] من مفاتيح علوم القرآن . فقال : أرجو الايضاح ؟ فقلت : ابتدأ الله القرآن بالفاتحة ، وابتدأ الفاتحة بالبسملة ، فالبسملة أشبه بمقدمة للفاتحة ، و براعة استهلال ، والفاتحة كذلك بالنسبة للقرآن ، ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهي الفاتحة التي هي أم الكتاب إلا أن يبتدئ في تفصيل ذلك المجمل ، فكان الابتداء برمز هو [ا ل م] وهي من الحروف التي في أوّل السور ، وقد تقدّم الكلام عليها في كل سورة على حدتها ، وأعمّ الكلام فيها ما جاء في أول ﴿ سورة آل عمران ﴾ فقد ذكرت هناك آراء طوائف المتقدّمين الثلاثة ، وهي ماذكره أمثال ابن عباس رضي الله عنهما ، وأمثال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها ، وانتظام أوضاعها [راجعه هناك] ومن حيث مناسباتها للعالم المحيط بنا الى آخر ماهنالك ، ومثل ماتبدّى لنا في هذا الزمان من العجائب والبدائع ، مثل أن [ا ل م] في سورة ﴿ آل عمران ﴾ تذكر مسلمي زماننا بما قصه الله من حال اليهود في زمن النبوّة ، وأنهم باتكالهم على شفاعة آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، أوتحديد أيامه في جهنم قد أخلوا بشرائط الدين فدخلوا وزال ملكهم واستولى المسلمون على مايملكون ، فاذا عرف المسلمون أن [ا ل م] في أوّل آل عمران قد أشارت بطرف خفيّ الى هذه المعاني ، ورأوا أن ذلك ايقاظ من الله لهم في زماننا هذا ، يدعوهم ذلك الى الجدّ والتشمير في العمل وأن من ظنّ أن الشفاعة التي أجمع عليها المسلمون يعقبها الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود في زمن النبوّة فهو مغرور ، وأن الأمة الاسلامية التي تكون هذه حالها لامحالة آيلة إلى الاضمحلال والزوال .

أقول : اذا عرف المسلمون ذلك جدّوا حالا في العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحاصل فعلا الآن ، وهذه المعاني هي التي ذكرتها في سورة ﴿ آل عمران ﴾ هي الموافقة لقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولاجرم أن [ا ل م] من القرآن ، ولقد تدبرناها فألفيناها ناطقة بهذه المعاني ، وهذه المعاني سائغة ، وفيها من البلاغة مالا حدّ له ، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع . فقال صاحبي : نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن في سورة [ق] و[ا ل م] فيها في وسطها لا في أوّلها . قلت : أيها الصديق لاتعجل ، ان المفتاح الذي جاء بعد الفاتحة قد فتح به أوّلا خزائن علوم الصبر على مكاره القتال . وعدم الفرار منه ، وعن الشهوات ، حتى يقدر الجندي على المصابرة في الحرب ، فهما صنوان : صبر على اصطلاء نار الحرب ، وصبر عن شهوات النفس ، وهذان لايتمّ نصر إلا بهما ، فالأوّل في آية : « ألم تر الى الذين خرجوا من

ديارهم وهم ألوف » والثانى فى آية : «ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى» فقد جاء فى هذه الآيات مسألة شرب الماء وأن من شرب منه قليلا أمكنه المصابرة فى القتال ، ومن شرب كثيرا كرّ راجعا مهزوما ، فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا فى الحرب على الكثير من الأعداء الشهوانيين الكافرين ، فهاتان خزانتان فتحتا بهذا المفتاح فى ﴿ سورة البقرة ﴾ : خزانة الصبر على مكاره نفس الحرب ، وعلى مكاره ترك الشهوة ، أى الشجاعة والعفة ، وباجتماعهما مع العلم يكون كمال الانسان ، والخزانة الثالثة جاء مفتاحها [ا ل م] فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ وهى ترك الأمانى والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه ، بل يجب تجريد الشفاعة من المعانى المناقضة للنشاط والاقدام والمثابرة والا كان هذا الفهم مجتثا للدين من أساسه ، وكم من خزائن فى القرآن فتحت بهذا المفتاح مثل قوله تعالى : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وقوله تعالى : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فهنا فى هاتين الآيتين جاء ذكر [ا ل م] وجعل ما بعدها مذكرا لمن فوق الأرض بأحوال من هم تحتها فى قبورهم ، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فاذا لم يتعظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم ، وهذا بعينه هو الذى حصل فى ديار الاسلام .

ياسبحان الله ، وياعجبا يارب ! ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس ، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم ، فابتدأ معاوية رضى الله عنه بتقليد الروم فى أبهة الملك الظاهرى كما قدمناه ، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الاسلامية شديدة الاسراف ، واتبعوا سنن من قبلهم ، أليس هذا بعينه قوله تعالى : « أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم » وقوله تعالى : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » الخ .

ولاجرم أن المسلمين السابقين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتى فارس والروم اللتين حلّ المسلمون بديارهم وسكنوها ورأوها فلم يعتبروا خلّ بهم ماحلّ بمن قبلهم ، لأن الله بالمرصاد وعدل حكيم [اقرأ هذا المقام فى سورة الأحقاف عند آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » ثم اقرأ تفسير سورة القتال والفتح ، ففى غضون ذلك ترى هذه العجائب من تاريخ الاسلام] فانك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم بحيث ترى الاسلوب فى النظام واحدا فى بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قديما . كل ذلك يرجع للمفتاح الذى فى أوّل ﴿ سورة البقرة ﴾ الذى ذكره الله بعد الفاتحة .

هذه هى الخزانة الرابعة من خزائن العلم التى مفتاحها [ا ل م] ولنتجاوز ذكر الخزائن الأخرى التى يفتحها هذا المفتاح ، لأنك أيها الذكىّ يسهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه مما بيناه ، ولنذكر الخزائن التى فى هذه السورة فى هذه الآية ، وهى خزائن علوم السموات والأرض ، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين لى آيات الكواكب والأقمار والشموس والمجرات والسدم ، فهذا المفتاح الذى فتحت به خزائن العلوم فى سور كثيرة جىء به هنا لفتح العلوم . فقل : إن هذه العلوم مفتحة الأبواب ، وقد فصلت فى هذا التفسير كثيرا كما قلته فى أوّل سؤالى . فقلت نعم ولكنها لم تفتح خزائنها إلا فى هذا الزمان ، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار [ا ل م] التى جاءت مفتاحا فى أوائل السور ، وهاهى هنا بها فتحت تلك العلوم .

فقال : إن التماس هذه المعانى من الحروف فيه تساهل ، وهل سبقك بهذه المعانى أحد ؟ أوليس هذا يعدّ تفسيرا بالرأى ؟ ثم ان تكرار الكلام على عجائب السموات والأرض يشعر المسلمين بأن المفسر يجب عليه أن يعرف علوم الفلك والطبيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد ، ألا ترى أن صاحب الاتقان

ذكر شروط المفسر وحصرها فى ١٥ علما وهى :

(١) اللغة .
(٢) والنحو .
(٣) والصرف .
(٤) والاشتقاق كاشتقاق [المسيح] هل هو من السياحة ، أو من المسح ؟ والمعنى يختلف تبعا للاشتقاق
(٥) والمعانى .
(٦) والبيان .
(٧) والبديع .
(٨) وعلم القراءات .
(٩) وأصول الدين .
(١٠) وأصول الفقه .
(١١) وأسباب النزول والقصص .
(١٢) والناسخ والمنسوخ .
(١٣) والفقه .
(١٤) والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم .
(١٥) وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ .

قال ثم قال : فهذه هى العلوم التى أوجبها العلماء على المفسر . فلما أتم سؤاله قلت له : أما قولك : ان هذه المعانى لم يسبقنى بها أحد ، وانى فسرت بالرأى ، وأن العلوم الكونية من العلوم التى تشترط فى المفسر فجوابه أن أقول :

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابها لقوله ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم » فمن أصلح قوله صلح فعله ، وبين أدب النفس وأدب الدرس مناسبة ، والله الذى ليس كمثله شىء قال وفعل ، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحى ، وفعله هى هذه العجائب فى السموات والأرض ، نراه أبدع المجرّات والسدم والشموس والأرضين ، فأوّلا خلق الأثير ، ثم من الأثير خلق المجرّات والسدم ، ومن هاتين أخرج الشموس ، ومنها أبدع السيارات والأرضين ، ومن هذه أبدع الأشجار والزروع ، وعلى هذه نثر الأزهار والأثمار ، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله ، فالزهر للشجر ، والشجر زهر الأرض ، والأرض والكواكب أزهار الشمس ، والشموس أزهار المجرّات ، والمجرّات أزهار الأثير ، والأثير صنع الله بلا مادّة .

هذا كله فى عوالم المادّة التى منها الانسان الذى هو من زهر الأرض ، فهذا الانسان أيضا له زهر وزهره هى الحكم التى تلقى على قلبه ، وقد اختص به دون سواه من العوالم ، ان عوالم الحيوان كذوات الفقرات من الطير والسمك ، وذوات الأربع ، وكالحشرات ، كل هذه زهرات فى الأرض ولكن الانسان أرقى ، ان كل حيوان فيها يعيش بغريزته ، والغريزة منحة من الله لا نصب فى تحصيلها ، ولكن الله يريد عالما أرقى من ذلك العالم يحب أن يتعلم الاستقلال فى عمله ورأيه . وذلك بوقوعه بين متضادّين ، وهما الخير والشر ، ويربى ملكته ويحكم بعقله ولا يتكل على الغريزة ، لأن الله يريد عقولا مدبرة لها استقلال ، وهذه العقول لن يملكها إلا الانسان ، فهو يربى ليتعلم الاستقلال ، والاستقلال لا يكون إلا على هذا المنوال : نفس وجدّ فى الاختيار والأعمال ، واصدار أحكام فيما تشابه من الامور خيرها وشرّها . وهى كملت تلك العقول عرجت إلى ملأ أعلى والابقيت مع العوالم المحيطة ، فهذه العقول الانسانية هى زهر أيضا وهى الحكم التى يلقيها الله على

القلوب وهي الشرط الخامس عشر الذي ذكرته أنت من شروط المفسر، وقد جاء في صفحة ١٨١ في نفس كتاب [الاتقان] بعدماذكرته أنت من شروط المفسر مانصه : « علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم » والبه الاشارة بحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

قال ابن أبي الدنيا : « وعلوم القرآن ومايستنبط منه بحرلاساحل له » . قال : « فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسرا إلا بها فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأى المنهى عنه ، واذا فسرمع حصولها لم يكن مفسرا بالرأى المنهى عنه » . قال : « والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم» انتهى .

فانظر الى قوله «علوم القرآن ومايستنبط منه بحرلاساحل له » . أيها الأخ : نحن جئنا في زمان فيه وجدنا أوائلنا قد محصوا هذه العلوم تمحيصا وسهلوا دراستها لنا ، فهذه القرون الطويلة بعد النبوّة لم تدع قولا لقائل ومهدت الطرق لنا ، وسهلت السبل لنا ، وأصبحنا حين نقرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة في كتب أوائلنا فنجدهم قد استوفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلانصب اليوم في تحصيلها ، انما النصب في تحصيل العلوم الأخرى التي أشاروا لها بالموهبة والتي قالوا : ان علوم القرآن ومايستنبط منه بحر لاساحل له .

فهذا الذي نقوله نحن من أن [ا ل م] في أوّل البقرة مفتاح ، وهذا المفتاح فتحت به خزائن ومنها خزائن العلوم الكونية في هذه السورة وفي غيرها ، فالعلوم العصرية تعين على علم الموهبة المذكور ، إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث انها معينة على تلك الموهبة التي ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهوى فمثل تفسير الروافض : « مرج البحرين يلتقيان » انهما علي وفاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » يعني الحسن والحسين . فأما نحن فالحمد لله قد راعينا هذه الشروط الخمسة عشر بفضل آبائنا العظماء ، ثم وجدنا أن أمتنا الاسلامية قد نامت نوما عميقا وتركت علوما وعلوما ، وألفينا هذا القرآن منسيا مجهولا ، مقروءا لفظا ، متروكامعنى ، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أقوال شيوخها ، ثم تركت حبل الامور على غاربها ، فلم نجد بدّا من ايقاظها وبعث همم أبنائها ، ونحن اذا قلنا ان هذه الحروف التي في أول السورة قدأشارت الى هذه المعاني التي أسلفناها فقدقلناه ونحن مطمئنون لما نقول ، ألاترى رعاك الله أن هذه العلوم التي قلنا ان الحروف تشير لها كلها فروض كفايات ، إذن استخراج المعاني على هذا المنوال لم يكن موجبا بدعة ، ولاأمرا منافيا للدين ، بل هومن واجباته ، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قرونا وقرونا وناموا نوما عميقا ، فهذه الحروف في أوائل السور يقرؤها المسلمون ويكتفون بقولهم « الله أعلم بمراده » مع أن الله قال : « أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فهذه من القرآن وقد تدبرها آباؤنا فقالوا : مافتح عليهم بحسب مايفع زمانهم ، ونحن تدبرناها فألفيناها مفاتيح لهذه العلوم التي في زماننا ولغيرها والا فلمادا نرى « أولم يروا » و « ألم تراالخ » كلها تحث على علوم نحن أجهل الناس بها ولايعرفها إلا القرنجة ، فما هذا التوبيخ في القرآن على الترك والتقريع ؟ نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة ، ويستخرجون نتائجها ليسعوا بها في حياتهم ، أفليس هذا نفسه هوقوله تعالى فيما قدّمنا : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهى » وهو نفس قوله تعالى أيضا : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم » أليس هذا حضا على دراسة آثار قدماء المصريين والفرس والروم وسائر جميع الأمم التي سكنا بلادها كما ندرس جميع العلوم والفروع ، أوليست هذه هي التي جعلها المسلمون جهلا واضحا صاروا هزءا بين الأمم وأذلاء ، وأي ذل أشدّ من هذا الذل ! يعلمون ويدرسون آراء الفرنجة ، ونحن نعيش ولاندرس أنفسنا ، ولاندرس آباءنا إلاقليلا فضلا عن

الأمم التى سكنا ديارها فلا نستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه ، ان ما كتبته فى هذا التفسير من معانى هذه الحروف لا أرال أزداد فيه يقينا كلما طلعت شمس .

أيها الصديق : انظر إلى ما أقصه عليك من أنباء ملوك الاسلام السابقين ، واعجب كيف انتفعوا برموز الحروف المذكورة . وهاك ماجاء فى الجزء الثالث من كتاب [تاريخ التمدن الاسلامى] صفحة ١٢ ومابعدها وهذا نصه :

« على أنهم لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وفهمه لوذكر الرجل حرفا أوكلمة انتبه السامع للآية كلها ، وكثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها ، وقد تخفى على كثير ، ومما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوى الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه فى الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه فى سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، قال فى جملته : [لوأردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت] فبعث إليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة ، وفى وسطه لام ، وفى آخره ميم ، والصلاة ، والحمد لله ، فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستانى ، ففكر فى ذلك وقال : عندى شرحه فقال : اذكر ولك ماتريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » فارتاع السلطان محمود لذلك ووقع فى قلبه الخوف والندم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب (١) » اهـ

***

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسى برسم الفيل مع ذكر [ا ل م] وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوى من هذا المعنى ، وترتب على ذلك حقن الدماء ، وحفظ البلاد ، فى أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش ، وتخريب الديار ، وحلول الدمار . ولقد تقدم مختصر هذا فى سورة البقرة فى الطبعة الثانية .

فهذا كله تم بمعونة [ا ل م] والسر فى ذلك أن هذا الانسان المخلوق فى المادة لاسعادة له إلا بالسعى ولذلك تجده لايحب إلا مامنع عنه ، والمبذول مبتذل ، والعزيز مرغوب فيه ، هذا دأب هذا الانسان وهذا شأنه ، ومعانى الرموز محيرة مشتبهة ، فمتى وصل الانسان إلى حلها سارع إلى العمل بها بفرح وسرور ، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب ، وكل ماحصلناه بنصب وتعب أحببناه ، وهذا سر حياتنا فى الدنيا ، هذه الحياة الدنيا جعلت لندريبنا على تعقل الأشياء وعلى العمل فيها ، وهذا هوالذى يعرفنا مارأوله فكرا وقولا وعملا ، وليس قول القائل للسلطان محمود الغزنوى : إن الظلم مرتعه وخيم كما حل بأصحاب الفيل كقول خليفة بغداد [ا ل م] فهذه حيرت العقول فلما اهتدى الى المعنى عمل النفس به ، واذا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة فى الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها ، أوليس من أعاجيب القرآن أننا نرى المسلمين كانوا بأمس قرونا وقرونا وهم يقولون « ... » أو يتلمسون معانى حرفية عصية حتى اذا جاء وعد ربك بالفتوح على الأمم الاسلامية بررت هذه المعانى بما ... لأنها تناسب زمانها وهو ضرب الله مثلا لأحوال المسلمين اليوم بما كان بين هذين الزمانين وان كان ذلك امرا جزئيا وهذا أمرا كليا ، وليس مادار بين المسلمين إلا محررا تقريرا ومحررا تذكيرا ... وكما تعطى لقوم معنى الزمن فى مخاطباتهم العادية ... كذلك تعطى لهم معنى ... فيهم ...

(١) من ابن خلكان ... ج ... ص ...

ان [ا ل م] فى سورة ق مفتاح فتحت به خزائن الملك والطبيعة والعلوم المبنية عليها ، وهذا زمان الفتح لاغير ، لأن هذا الزمان هوالزمان الذى فيه ظهرت هذه العلوم والمسلمون فى حاجة اليها كما أن المسلمين فى بغداد فى حاجة الى هذا الرمز ، ففسره علماء السلطان محمود الغزنوى بما انتفع به المسلمون ، فحفنت الدماء هكذا هنا تحفظ دول الاسلام بهذه المعانى المستخرجات فى هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها أجيالا وأجيالا ، فزال الاشكال ، وحلّ العقال ، وارتقى الاسلام .

قلنا ان قول الله كفعله ، وللفعل ثمرات تقدم وصفها ، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها ، هى هذه الحروف فى أوائل السور ، وحروف أوائل السور متميزات منيرات ، والزهرات رمز الثمرات ، فهذه الحروف رمز لثمرات هى علوم ومعارف قد أظلّ أوانها ، وأقبل ابانها ، وحان حينها ، ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذه الحروف دلالات على علوم هى سعادات أمم الاسلام فى هذه الأيام وفى مستقبل لزمان ، إن هذه العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها فى هذا التفسير ، إن أمم الاسلام قد أخذت تخطو إلى العلا ، إن أمما وأمما فى زماننا وبعد مبارحتنا هذه الدار سيقرءونه ويأتون بعلوم وحكم لم يحن حينها ، وليس هذا الجيل بمستعدّ لها ، ولسوف نبأه بعد حين ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : لقد شفيت نفسى ، فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى فى سرّ [ا ل م] فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا » الخ ابتدأت فى كتابة هذا المقال قبل فجر هذا اليوم وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١ وانتهيت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة إلا دقائق فالحمد لله على التمام .

اللطيفة الثانية

فى أسرار قوله تعالى : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج

أى فى المبحث الأوّل من مبحثيها ، وهو مبحث عجائب العين التى اختصت بنظر السماء

هذا ما انشرح له صدرى قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١ م — استيقظت قبل الفجر فى ذلك التاريخ ، ونظرت إلى السماء ، ولحظت نفسى الكواكب التى كنت ألحظها فى الأعوام السابقة فى مثل هذه الأيام ، وهى الثريا والدبران والطبعه والهقعه ومايشبهها ، وقد تقدم الكلام عليها فى ﴿ سورة الصافات ﴾ فى أوّلها . وتقدم أيضا قبل ذلك فى سورة أخرى ، ولكن الذى توحيه له نظرى فى تلك الليلة غير ذلك وهو أمران : كيف أنظر السماء ؟ وما نوع الرحمات التى أنعم الله بها علىّ فى عينىّ حتى نظرت هذه السموات ، أخذ منى العجب كل مأخذ ، وأخذت أتأمل : ياليت شعرى سماء واسعة سعة لاندرى مداها ! هاهم أولاء بنوآدم فى الأرض يبحثون ، فمنهم أولاء لم يتجاوزوا السموات نهاية ، وقد وصلت نجومها إلى ٢ على يمينها ٢٤ صفرا ، وهذا عدد ماهس وعظيم ، هذه جنات تجلت للمبصرين فى الدنيا ، وانما الذى زاد دهشتى أن لى عينين تنظران هذه السماء ، والعين صغيرة عبارة عن كرة نحو الجوزة وهى مدبجة فيها صور وعجائب لاحدّ لها ، وباجتماعها أمكنى النظر ، عين صغيرة تجمع هذه العوالم كلها ، كيف بنيت عينى ؟ وماهى المناسبة بين عينى وبين الشمس والقمر والكواكب والأحوال فى أرضنا ؟ أنت عجيبة جدا أيتها العين ، اترك الكلام على السموات الآن ، واشرع فى وصف عينيك حتى نعرف بذلك بعض ما أعطينا من الرحمات فى الأرض ونحن ذاهلون جاهلون ، فعد أسماءهم بين الجلد واللحم والشحم والبصائل ، كل ذلك لمعرفة الرحمة فى أوّل هذه السورة التى جاء بها الخطاب على السنة لى هذه الساعة .

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم وقرأ ما قدم فظهر عليه السرور والبهجة والنور ، وأخذ يظهر الاعجاب بهذا الموضوع ، ثم سكت قليلا وقال : انك الآن تريد البحث في العين ، والبحث في السموات حتى نفهم كيف ننظر وبعد ذلك تبحث في عالم السموات . فقلت نعم . فقال : أليس هذا مكررا مع ماتقدم في أول سورة ﴿ آل عمران ﴾ ومع ماتقدم في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ عند ذكر السمع والبصر هناك ، ولقد شرحت العين في ﴿ سورة آل عمران ﴾ شرحا بديعا جميلا لم أرَ له نظيرا ، وهناك وضعت رسمها ، وهكذا فعلت في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ ولكن الرسم في هذه كان أوضح من الرسم في الأولى التي أبديت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسرّ الناظرين ، فأما السموات فانك شرحتها في البقرة عند ذكر السماء في أوّل السورة وفي : « إن في خلق السموات والأرض » فيها أيضا ، وفي أوّل ﴿ آل عمران ﴾ وفي ﴿ سورة الأنعام ﴾ في أوّلها ، وفي آية ابراهيم : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر » الخ وفي آية : « ان الله فالق الحب والنوى » وفي سورة أخرى مثل ﴿ سورة يونس ﴾ في أوّلها عند ذكر السماء ، وفي أواخرها عند قوله تعالى : « فاليوم ننجيك ببدنك » فهناك تبدّت عجائب مثل صور البروج التي وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراعنة ، وهي صور واضحة عجيبة وتبعها هناك صورة الهرم وعجائبه المدهشة ، وكيف كان للهرم نسبة عجيبة الى الشمس وبعدها عنا ومدار الأرض حولها في السنة ، وكيف كان بين مساحات الهرم وبين المكاييل والموازين المصرية ومساحاتها نسب عجيبة . كل هذا تقدم وهكذا في آخر الكهف وسورة الفرقان ويس وأوّل الصافات وهكذا فالكلام على العين وعلى السموات قد استوفيته فيما تقدم أفليس يكون الكلام هنا تكرارا ؟ فقلت : أما أحمد الله إذ وفقني أن أرى أمثالك من الفضلاء أهل العلم وأما لا أزال حيا يقرءون هذا التفسير في أثناء تأليفه وطبعه ويتعقبونه ويذكرونني بما نسيت .

ومما يشجعني على السير في هذا الموضوع الآن أن أجدك قد استوعبت أكثر ما كتبته وهو حاضر في ذهنك ، ومن استوعب ماضي تقدم استعدادا تاما لما ألقيه الآن ، لأني سأذكر في العين مالم أذكره قبل الآن ، ومن فهم ماتقدم فهو جدير أن يفهم ما أكتبه الآن وهكذا ماسأكتبه في السموات .

الله أكبر : إن حياتنا كلها جمال ولكن يظهر لي أنا أشبه بقوم حبسوا في قصر ملك عظيم كريم ، وأمروا أن يغضوا أعينهم ، لأنهم لو نظروا جمال القصر لزال عنهم الغناء ولأحسوا بفرح كأهل الجنة في الجنة ، انا الآن في الأرض محبوسون ، وهذا الحبس به قلت سعادتنا ، ولكن الله عزّ وجل يريد لشدّة رحمته بنا أن يفتح لنا باب السجن شيئا فشيئا حتى نشاهد النور خارجه ، ولا أعرف بابا لهذا السجن إلا الدرس والعلم والنظر في هذا الكون .

أيها الصديق : من نحن ؟ وماهذه الحياة ؟ وماهذه العناية العظيمة بنا ؟ لو أن شابا أحبّ فتاة وهو محبوس عنها ولكنه يعلم أن لها به عناية وعطفا لفرح بهذه العناية فرحا لا حدّ له ، ويصبح الحب غذاء له ، وسعادة لا حدّ لها ، ونحن الآن في الأرض عمي عن أجسامنا وعقولنا . لا نفكر في خلقها والأعمار قصيرة ، فكيف تمرّ هذه الأعمار ولا نفتح هذا الكتاب لدى نفيس بين دفتيه ؟ وما هذه الدنيا ، وأقرب شيء إلينا أجسامنا ومن عجائب أجسامنا عيوننا التي تطالع هذه السماء ، ومتى عرفنا العناية أحببنا من هذه أعمالها . وصارت دار الدنيا سعادة .

انني أنهيت ذلك الليلة الماضية المطيرة من أسباب [illegible] وما كادت الشمس تطلع حتى فتحت كتاب « معجم الجميع » في الحرف الذي [illegible] ، ورأيت فيه ما يأتي :

العين ومنفعتها

وقد كتب تحت هذا العنوان ماترجمته : « ما أسهل على الانسان أن يستعمل آلة وهو يجهل تركيبها ، ولا يعلم أيّ شيء عن أجزائها مطلقا ، إن آلافا من السياح فى كل سنة يأخذون الصور فى الجبل والسهل ، وهم لايعلمون أى شيء عن عجائب تلك الآلة التى بها يأخذون تلك الصور ، و بأيّ وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من احضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم .

وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم فى جميع الساعات التى هم فيها مستيقظون مدى حياتهم وهم مع ذلك لايعلمون شيئا عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها ، وبدائع طبقاتها الباهرة الرافعة للناظرين ، ولكن اذا أخذ الانسان يبحث فى عجائب العين فما أسهل أن يفهمها ، وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم :

(١) كيف ركبت طبقات العين ؟ .

(٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منتظمة عجيبة .

(٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور ، والأحجام والمسافات وغيرها .

وههنا أخذ يضرب لذلك مثلا ، فقال : اذا أردنا أن نعرف الآلة المسماة [بالتلسكوب] فاننا لابدّ أن نفك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته ، وندرس تلك الأجزاء ، ومتى انتهينا من دراستها كلها عرفنا نفس [التلسكوب] هكذا فلنفعل فى العين ، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن نفصل أجزاء العين واحدا واحدا ، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ، ووالينا التجارب والموازنات فيها فاننا لاجرم نصل تماما إلى ماتوجهت نفوسنا الى فهمه وهو : كيف تركبت العين وما منفعتها ؟

ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بترة أونجحة أوذكريهما كافية لدراسة هذا الموضوع ، فاذا أرسلت إلى [القصاب] الجزار وطلبت منه زوجا من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لى ، فمتى حصلت على العين فأوّلا أزل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها واذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها حبل أبيض خارج من خلفها ، وهذا الحبل يمدّ فى داخل العين ، وقد كان قبل أن يقطع قويا متينا موصلا العين بالمخ ، اننا نستطيع أن ندرس العين من غير قلعها بأن ننظر فى المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية بمجرّد النظر إلى المرآة :

(١) فلنطر أولا الجزء المقدّم الشفاف الكروى البارز المغيب ألا وهو [القرنية] .

(٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة ، وهى التى بها تحفظ كرة العين وتثبت فيها لها حفاظ يصونها .

(٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الانسان حلقة ذات لون وماهى هذه إذن ؟ هى القزحية أوالعنبية قد نسبت لقوس قزح من حيث ألوانه ، ولاعنبة من حيث لونها كذلك .

(٤) وفى وسط هذه القزحية ترى [البؤبؤ] وهو انسان العين ، وهى فتحة يدخل منها الضوء فيصل إلى البلورية و تتجه إلى الشبكية كما سترا متصلا .

(٥) وهما نستطيع أن نصنع فتحة لتختبر ما داخل العين ، فلأجل هذا إذن آلة حادّة ونجس فى عين البقرة مثلا فتحة ، ولكن العنبية تمنع من إدراك الحالة التى يكونها الانسان [كونبس سميه] و القزحية تسميه [الرطبة البيضية] وهى ذات لون أبيض .

(٦) فاذا اتممت هذه الفتحة انسانا كما يا فاسما فى كرة العين فانك ترى بعضا هو أحلّ

الأعضاء فى العين ، وماهو إذن ؟ هوالعدسية المسماة البلورية والجليدية ، لأنها شفافة كالبلور وكالجليد وهى حالية من الشوائب مثلهما ، وهذه البلورية شفافة عند الصغار والشبان ، أماالرجل المسنّ فانها تكون أقرب إلى الصفرة ، وهذه الصفرة تحدث خللا فى نظر الكبير لاحاجة لتفصيله الآن لئلا نخرج عن المقام .

(٧) ثم أخذ المؤلف يصف المادّة الزجاجية التى تقع تحت البلورية التى تتصل بها من فوقها الرطوبة البيضية .

ووصف الشبكية ومن ورائها المشيمية التى تليها الصلبة التى تقدّم الكلام عليها ، وأنا لا أطيل الكلام فى هذا المقام ، لأنى أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم فى هذا التفسير ، فلنجمل القول أوّلا برسم هذه الصورة التى رسمها المؤلف المسمى [ويليم اكروبد] وهى هذه (انظرشكل ١)

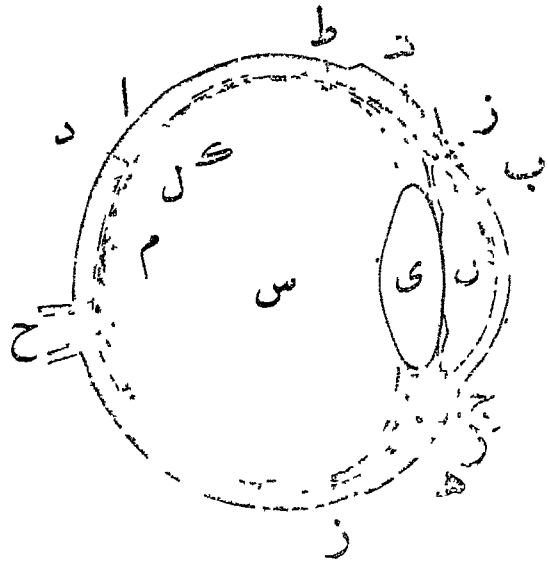

(شكل ١ — قطعة من العين الانسانية)

(١) — (ا) الصلبة .
(٢) — (ب) القرنية .
(٣) — (ج) الملتحمة .
(٤) — (د) غطاء المشيمة .
(٥) — (ه) عضلات هدبية شعريه .
(٦) — (و) ابتداء الأهداب الشعرية .
(٧) — (ز) الفرجية المسماة أيضا عنبية
(٨) — (ح) مبدأ العصب البصرى .
(٩) — (ط) محيط لشبكية .
(١٠) — (ى) الجليدية وتسمى البلورية .
(١١) — (ك) المشيمية
(١٢) — (ل) الشبكية .
(١٣) — (م) الطبقة الصفراء فى الشبكية
(١٤) — (ن) الرطوبة البيضية
(١٥) — (س) الرطوبة الزجاجية .
. . . . . .

فلما سمع صاحبى ذلك وطن أنى قد انتهيت من مقال وعارضه بصورة . وقد : قد حسن السكوت الآن أوّلا لم نصل للمقصود وهو اتصال هذه العيون بالمخ ، وكيف تصل الصور التى ترسم على شبكية العين التى تقدّمت فى سورة المؤمنون هذا فان قارئ بقية كتب الطبيعة الأخرى يفهم الحقائق حقّ

الفهم ، ثالثا : انك ذكرت أن المؤلف يقول : علينا أن ننظر عيون البقر والغنم ، ولاجرم أن المشاهدة بالعين أقوى أثرا من قراءة الكتب ، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للغائلين قبولا عند سامعيهم ، ولا للمؤلفين عند قرّاء كتبهم إلا اذا كانوا هم موقنين بما يقولون ، وأىّ ايقان لكم أكثر من اطلاعكم بأنفسكم كما قال تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذه هى الشهادة بالحقّ التى ذكرها الله فقال : « إلا من شهد بالحقّ وهم يعلمون » وأىّ شهادة بالحقّ أكثر من الاطلاع على نفس العين وتشريحها ، لاسيما أن المؤلف الذى ترجمت أنت كلامه قد فتح الباب أمامك ، وسهل الطريق قدامها معبدة ، فما أسهل السير فيها على السارين ، وما أسهل عيون البقر والغنم للطالبين وللمؤلفين . فقلت أيها الذكىّ : أما قولك انا لم نصل للمقصود فهو حقّ وما ذكرته الآن إنما هو مقدمة ، وهاك صورة العين المرسومة فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ فيما تقدم فى الجزء الحادى عشر من التفسير (انظر شكل ٢)

(شكل ٢)

وأما ماذكرت من أنه يحسن بى أن أنظر بعينىّ هذا فقد تمّ هذا اليوم صباحا ، وذلك أننى لما نظرت إلى السماء قبل فجر يوم الجمعة الفائتة ، وتاقت نفسى للمعرفة المفصلة قرأت ذلك الكتاب يوم السبت ، وفى هذا اليوم (الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية) توجهت إلى [السلخانة الأميرية] وهى قريبة من منزلنا ، وأخذت منها عينى بقرة ، وتوجهت بهما إلى المستشفى الرمدى بالجيزه ، وقابلت أحد الأطباء هناك ، وطلبت منهم تشريح العين ، إذ هم أدرى بذلك ، فشرّحوها لى ، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة ، وفوق ذلك أرانى مديرا مستشفى العين الصناعية وهى مكبرة جدا ، وشاهدت البلورية وما فوقها من الأوردة والشرايين والقرحية والدلورية ، وما تحته الطبقات ، ورجعت وقت الظهر ، وها أنا ذا الآن أكتب ما أيقنت به بعد المطالعة . فقال : الحمد لله إذ ذلت لك نفسك الآن جالس معك وأقرّ بأن كثيرا من الشبان فى هذا الزمان وفى المستقبل سيبحثون بأنفسهم فى كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وستصير هذه ملكة راسخة فى بلاد الاسلام فيبحثون كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وتصير هذه أعظم الآفات للشيب والشبان . فقلت : أ. بذلك من الموقنين .

جمال العين وبهجتها ، وعجائب اتقانها

وتعدادها من الآلات البصرية ومنافعها

ثم قلت . أيها الأخ الذكى . هل تريد أن تعدّ لى الآلات البصرية فى العين ، وقد عرفت نظامها وتشريحها ، وهى ثلاثة أجزاء الجسم الزجاجى الرطوبة المائية ، البلورية ، الزجاجية ، الشكية ، وهذه الآلات هى مطمح أنظار الحكماء إلى يوم القيامة أمثال مما يستدلون به ، إن العلم ان لم يتصل بما يعرفه من كل وجه فهو كذا وهذه الآلات البصرية نظيرها ما أتى (انظر شكل ٣) فى الصفحة التالية

شكل ٣

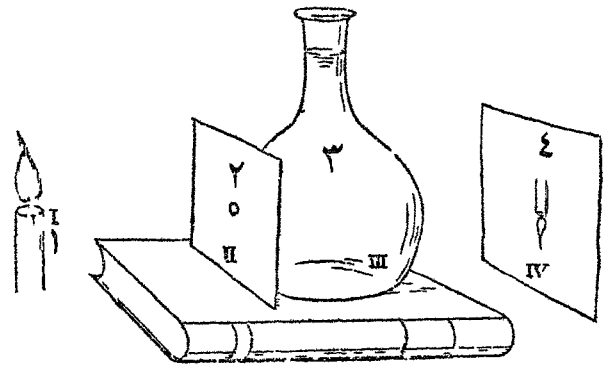

(شكل ٣ ــ تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين)

(١) المصباح (٢) لوح أبيض مثقوب (٣) زجاجة مملوءة ماء (٤) لوح أبيض غير مثقوب لقبول الصورة الواردة من نمرة (١) المخترقة ثقب نمرة (٢) الواصلة إلى الزجاجة المائية نمرة (٣) . ومن صفات هذه الزجاجة وأمثالها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك نمرة (٢) قبلها ووصل إلى نمرة (٤) فانه لا يكون واضح الصوره (وهى مقلوبة طبعا) بل هى تكون أقرب الى الزرقة ، ولكن اللوحة المثقوبة نمرة (٢) لابدّ منها لاصلاح تلك الصورة

واذا تأمّلت هذه الآلات ألفيت نمرة (٢) تمثل الترحية ونمرة (٣) وهى الزجاجة المائية تمثل البلورية واللوح نمرة (٤) القابل للصورة يمثل الشبكيه ، وعلى هذا ظهرت هذه قيمة القزحية لأنها فى علم البصر لها منفعة عظيمة فى بعض الصور إذ هى المساعدة لتمام الصورة على اللوحة .

وأنت من هذا أيها الأخ الذكى عرفت أن أهمّ الأدوات البصرية فى أعيننا إنما هى القزحية والبلورية والشبكية التى مثلتها (١) اللوحة البيضاء المثقوبة (٢) والزجاجة المملوءة ماء ، واللوحة البيضاء القابلة التى لا ثقب فيها ، هذه أهمّ تلك الأدوات .

الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجة المملوءة ماء

إنما قدّمنا المثال المذكور لسهولته ، ولأنه فى متناول الجميع ، ذلك أن الزجاجة يعرفها العام والخاص ، وهى تمثل لنا البلورية التى فى أعيننا والتى رأيتها أمس حين تشريح عين البقرة فى مستشفى الحيره ، ولكن العلم يعوزه ما هو أرقى من تلك الزجاجة الا وهى أجسام زجاجية مصلعة يسمى كل منها بالمنشور (انظر شكل ٤)

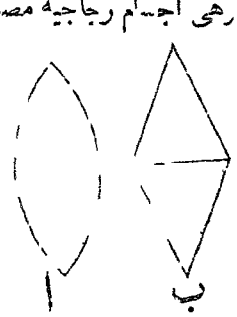

(شكل ٤)

(ا) قطعة من بلورتين محدبتين .

(ب) جزء من منشورين وضعت قاعدة كل منهما ملاقية لقاعدة الآخر

لقد بسطنا الكلام على قزحية وبلورية وشبكية عين البقرة لعظيم شأن الصورة التى مرّت فى الزجاجة المائية . فلنبحث الآن فى مستقر هذه الصور من عين [illegible] التى رسمناها لفهم

بها (ا) وهى البلورية المحدبة ، و بيانه أن البلورية فى العين ثخينة من وسطها ، رقيقة عند طرفيها ، وهذه الصفة تجعلها مشبهة منشورين معا ، فلو أننا ضممنا بلورتين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورتين يشبه ما فى صورة (ا) شكل ٤ وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة (ب) التى فيها قد وضع المنشوران معا قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، ولاجرم أن النور وهو مار بالمضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لونا أبيض ، وهكذا يفعل الضوء فى صورة (ا) لأنها تماثل صورة (ب) فههنا تشابهت البلورية والمنشور فى توحيد أجزاء الضوء اذا مرّ منهما .

تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة اذا مرّ فى المنشور

إنك أيها الذكى تعرف من دراسة العلوم ، أومما تقدم فى كتابنا هذا أن الضوء اذا مرّ فى منشور فانه يحلل إلى أصوله السبعة وهى : الأحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . ومن عادة الأزرق أن يميل ميلا كثيرا ، وللأحمر ميل أقلّ كثيرا (انظر شكل ٥)

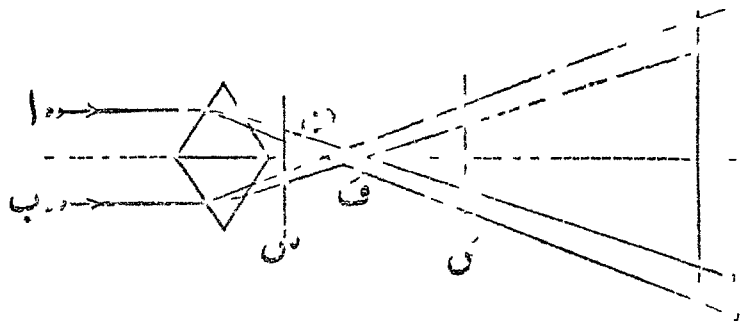

(شكل ٥ — ميل الضوء)

انظر إلى نقطتى (ا) و(ب) المصبغتين المشبهتين قلمى رصاص رقيقين فى (شكل ٥) وقد مرّ هذا الضوء فى المنشورين المرسومين أمامك ، وقاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، فتأمل فى سير الضوء أيها الاخ فانك ترى الأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت عند حرف (ف) فأما الأشعة الحمراء فانها اجتمعت بعد ذلك عند حرف (ف) .

واذا نحن وصفنا بلورتين معا كما وصفنا فانا نرى سير الضوء فيهما كسير الضوء فى المنشورين الموضوعة قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر .

حال الضوء فى وسط الحقل الضوئى وفى أطرافه

وههنا نلاحظ أن الضوء الجارى فى هذين المنشورين المتلاصقين منضمة أجزاؤه ، متحدة فى وسطه ، فيكون لونا أبيض ، فأما فى الطرفين فان الأمر يخالف ذلك على خط مستقيم ، كيف لا ونحن نرى النور عند حرف (س) التى تمر المؤثرة الصوئية التى يجتمع فيها الضوء يميل الى الحمرة والبرتقالية ، ولكننا نراه بعد مفارقة المؤثرة الصوئية يميل الى الزرقة والنيلية (س) .

[illegible] شرحنا [illegible] ين ذكرناهما سقرب بهما [illegible] البلورية التى فى أعيننا ، والتى وجدنا أنها [illegible] تتألف من [illegible] كما تقدم ، وهاتان البلورتان المتحدتان معا تشبهان [illegible] المنشورين اللذين كما تقدم [illegible] ، فاذا نحن نظرنا [illegible] البلورتين الموصوفتين بما ذكر يشبه تمام المشابهة [illegible] .

فائدة القزحية

هاأنت ذا أيها الأخ الذكى عرفت أن الضوء فى وسط الحقل الصولى أبيض ، وفى حافة هذا الحقل يكون أزرق أوأحمر برتقاليا ، ولاجرم أن ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقية فى الآلة البصرية [التلسكوب] فمنعت هـذا العائق ، ولقد حقق كثير من العلماء بمباحثهم أن القزحية التى فى أعيننا تعمل عمل هذه الستارة التى تشبه الحلقة ، فلها الفضـل فى حفظ الصورة الضوئيـة من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرقة والحمرة فيما تقدم عند مروره بالبلورية المسماة بالجليدية أيضا والعدسية ، إذن ظهر أن للقزحية فائدتين : إحداهما أنها تفعل فعل اللوح المثقوب فى أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحة التى تقبـل الصورة ، وثانيتهما أنها اذا مرّ الضوء من منشورين أو بلورتين فانها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب .

وظائف القزحية والبلورية والشبكية

فههنا استبان أن وظيفة القزحية أن تحفظ الصورة واضحة لاخلل فيها ، ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ماوراءها فترسم على الشبكية ، ووظيفة الشبكية أنها تصدرها إلى الدماغ فيراها الانسان والحيوان ، ولقدفصلنا القول فى القزحية والبلورية فلنفض الكلام على الشبكية فنقول :

إن الشبكية عضو شفاف يختلف فى ثخنه من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصة الواحدة وهومبطن للسطح الداخـل من محيط كرة العـين كما رأيته فيما تقدم ، وكما رأيته أما فى العين الحقيقية ، وفى صورتها المجسمة كما تقدم .

إن أى بقعة رقيقة من بقع الشبكية ماعدا مركزها الذى يسمى البقعة الصفراء ، وكذلك مدخل العصب البصرى كلاهما اذا نظر بالمكرسكوب فانه يبين لنا هذا الهيكل الذى تراه فى هذه الصورة (انظر شكل ٦)

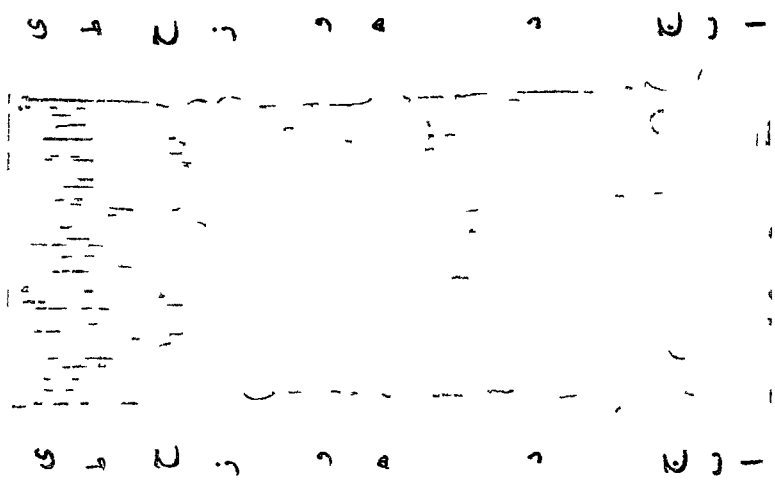

(شكل ٦ ـ شبكية العين الانسانية)

فأنت ترى أن هـذا الجسم من حرف (ب) الى حرف (ح) أجزاء عصبية مجتمعة بما يسمونه [النسيج الحافظ] وماوراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذى يشبه بعضه [العود] و بعضه يشبه [القصبة] وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر (انظرشكل ٧)

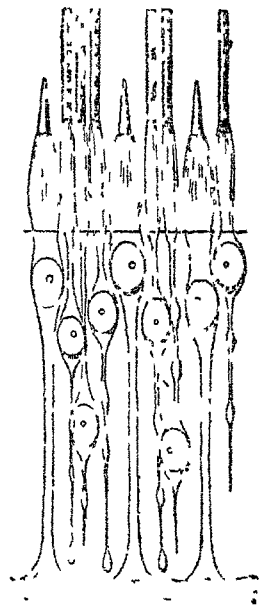

(شـكل ٧ ــ العيدان والقصب بهيئة مكبرة ، فيهنا ثلاث قصبات تتخلل ستة عيدان)

(ا) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادّة الزجاجية .

(ب) امتداد ألياف العصب البصرى

(ج) ذرّات ذات اجتماع بشـكل دوائر ونحوها

(د) طبقات ذرّية وألياف عصبية

(هـ) ذرّات مجتمعات تشبه الحب والنوى

(و) طبقات متدخلة وألياف عصبية حاملات مايشبه الحب فى الداخل

(ز) ههنا مايشبه الحب فى الطبقات الخارجة

(ح) سطح جعل حدّا لما تحته ومقاما يحمل العيدان والقصبات وبه ينتهى النسيج المحكم تحته

(ط) العصبات والقصبات

(ى) سطح وضع حدا للمشيمة فوقه .

إن العصب البصرى وهو داخـل فى كرة العين تتفرّع منه أغشية فى جميع الجهات به تتـكوّن الطبقة الأمامية عنـد حرف (ب) فى شكل ٥ المشتمل على الشبكية وهى بلاريب مرتبطة بالعصبّ والقصب من خلف . هذا ماعنّ لى أيها الصديق فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

هنالك قال صديقى العالم : ما هذه العجائب والبدائع ؟ أهذا كله لأجل أن نبصر الأشياء حولنا ؟ فقلت نعم . قال عجب عجاب ! انك قد فتحت لى باب الكلام بهذه المباحث ، فاسمح لى بذلك . فقلت : سل ماتشاء . فقال : هل الجزء الذى يتلقى الصور من الشبكية هو الذى يتأثر به فينقله إلى المخ . فقلت له : إن الكلام فى هذا يحتاج إلى إيضاح ، إن العصى والقصبات لهيئة رمانية فيما تقدم هنّ القائمات بأمر الاحساس ، ولاحرم

أنهن فى آخر الشبكية من خلفها ، فهناك يقوم بهن الاحساس بالضوء بعد أن مر فى تلك الأوساط الشفافة الموضوعة قبل الشبكية فى طريق النور . فقال : لقد ذكرت فى هذا الموضوع ما كتبته أنت فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ إذ رسمت العين والأذن هناك وشرحتهما ، وذكرت للعين نحو ١٤ حكمة ، وللأذن نحو ٢٦ حكمة ، ونقلت عن [اللورد أفبرى] فى كتابه [مسرات الحياة] مايأتى :

« إن فى الجسم الانسانى أكثر من مائتى عظم ، ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل يوم [يقول مؤلف هذا التفسير : وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولا عن آبائنا حكماء الاسلام] » .

ثم قال : « وفيه ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة ، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض فى السنة ثلاثين مليون مرة ، فاذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولوتأملنا فى أدوات الحس كالعين مثلا بما فيها من قرنية ، وعدسية ، وطبقات مائية ، وزجاجية تنتهى فى الشبكية لتولانا العجب ، فان هذه الشبكية التى لاتزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ، ونحو ثلاثين مليون اسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التى فى تلافيف الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الطاهرة ، وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر » . وقد قال قبل ذلك : « لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسما » انتهى

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المخروطة والثلاثون مليونا من الاسطوانات كلها من هذا القبيل ؟ فقلت نعم وربى ، فالأشكال المخروطة يراد بها هنا القصبات ، والأشكال الاسطوانية هى المعبر عنها هنا بالعصى . فقال : إذن هذه المخاريط ، وهذه الاسطوانات كلها لأجل احساسنا . قلت نعم . فقال : ولماذا هذا كله ؟ قلت لأن النور من عالم الحس وأمره سهل ، ولكن وصول صوره إلى نفوسنا التى ليست من المادة فى شىء يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا ، وهذه الآلات هى الاسطوانات والمخاريط اللاتى تعد بعشرات الملايين ، نحن هنا فى مقام الجمال والبهجة .

إن أكثر هذا النوع الانسانى يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، وكم من رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التى يقرؤها ولالذة لها فى نفسه لأنه مجبور على الدرس ، مقهور على التحصيل ، والله عز وجل لم يرفع أمة بعد ضعتها إلا بأناس يختارهم هو ، يخلقون فى الأمم ، وهم الذين يعشقون هذا الجمال الذى يتضاءل فى جنبه كل جمال ، فهؤلاء يؤثرون فى أممهم لأن القلوب تحس بالقلوب وان طال المدى ومضت عصور ودهور ، وأى أمة خلت من هؤلاء العشاق لهذا الجمال فهى لامحالة مريضة مرضا لايزيله إلا ظهور حكماء عشاق لهذا الجمال ، فهؤلاء اذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بيننا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا ، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواميس الضوء المرسل من أبعاد شاسعة ، وهذا الضوء يمر فى أوساط لكل وسط منزلة خاصة ، فمنها مايحفظ الصورة التى يحملها الضوء ، ومنها مايجمع الضوء ، ومنها مترسم الصورة عليه ويوصلها إلى ماخلفها .

إن الانسان اذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها ، فما هذه الطبقات فى تلك المسافة الضيقة ؟ فهل سمك الحدقة يتخلله تلك الملايين وثمان الملايين ؟ إن ذلك أمر عجب !

علم الله أن المسلمين سيلمون نوما عميقا ، وهم يتقلبون فى رحمته الواسعة لغفلة أكثرهم عن العلوم ، فأنزل بسم الله الرحمن الرحيم تقرأ فى الصلوات ، وفى العبادات وفى المحرمات ، وفى مبدأ الأكل والملبس ، وكل أمر ذى بال ، إذن ذكر الرحمة ملازم للمسلم فى جميع شئونه . فليس هذا سعاء أدرسوا الرحمة أيها المسلمون

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهذه آية من القرآن ، فأين التدبر إذن ؟ إن العين وعجائبها وعجائب الضوء من الرحمة العامة التي غفل عنها أكثر الناس في الأرض ، وكل من درسها وتعمق فيها فانه في هذه الدنيا قد نال السعادة الحقيقية ، وأي سعادة لهذا الانسان أعظم من الاطلاع على الحقائق ، إن الحقائق وفهمها هي السعادة الحقيقية لهذا النوع الانساني ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يسعدون .

ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا الجمال بدراسة العلوم سعادة للنفس فما نكتبه في هذا التفسير وغيره يرقى الناس في هذه الحياة الدنيا ، إذن فهم الرحمة في هذه العجائب مسعد للنفس في الدنيا والآخرة ومرق للدنية في هذه الحياة .

الله أكبر : أنا أقول سيكون في بلاد الاسلام كثيرون من هؤلاء العشاق ، لأن الله أذن بذلك اليوم ، وهؤلاء هم الذين يملؤن بلاد الله علما ، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرقوا أمم الاسلام ، لهذا أنزل الله « بسم الله الرحمن الرحيم » وكررت في كل مقام في جميع الأحوال .

تاثير الضوء في النبات والحيوان والجماد

فقال صاحبي : أتذكر أن في ﴿سورة يس﴾ كلاما حسنا على الضوء وتأثيره ، وهناك الصور الشمسية للورق ، وفي كل ورقة حجرات تمد بالآلاف ؟ فقلت نعم اننا ذكرنا هناك أن مقادير غاز حمض الكربونيك في الجو قليلة ، فهي بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف ، والفحم الصافي في الجو ١٣٨ ألف ألف ألف طن تقريبا ، والنبات بتعرضه للهواء يمتص غاز حمض الكربونيك من الجو بمساعدة الأوراق ، ولن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس ، إذن الشمس لها أثر في أعيننا نهتدي به في أعمالنا وطرقنا ، وفي النبات بإحداثها في معامل الأوراق تفاعلا به يكمل النبات ويعيش الحيوان والانسان ، وهذا الموضوع قد تعرض له مؤلف كتاب [علوم للجميع] وقد أوضحناه الآن ايضاحا أتم ، وذكر أن المستشفيات أماكنها المعرضات للشمس أكثر تكون أقرب الى صحة المرضى من غيرها . فقال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وبهذا تم الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها ليعرف المسلمون ماهو النظر المذكور في آية: « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » وهو المبحث الأول من اللطيفة الثانية

المبحث الثاني من اللطيفة الثانية

في عجائب السماء والكواكب

وإذ فرغنا من الكلام على العين فلنبحث الآن في نجوم السماء وشموسها ومجراتها وسدمها فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على السماء

قلت لك أيها الأخ لدكتور بما تعلم من هذا العالم مايزيده جمالا ، وهذا الجمال مخبوء عنا ، وهو حاضر لدينا هذه عيوننا كيف نرى تركيبها في غاية العجب ، وهي كالسحر ، فما هذه الشبكية التي تبلغ عشر طبقات ، وإذ كان غلظها لا يزيد على نصف سنتة أجزاء من مليمتر مكعب تنقسم إلى عشر طبقات ؟ وكيف يكون في الطبقة الواحدة (٣) ملايين مخروط و (٣٠٠) مليون عمود ، والأعصاب المخابرة تنتهي تصويرها موضحة في صورة مر ومع ما في هذا التشريح الأعصاب والعروق ستة مخاريط تخرج ستة أشعة مرضحة باهرة جلية . فيالك شعورك كيف تتكون الصور الذهنية فيها من أشكال ، وإذا ضربنا عشرة في

(٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليونا كلها فى الشبكية والشبكية طبقة واحدة يحيط بها نحو تسع طبقات فتكون (٣٣٠) أخرى لطبقة واحدة من التسع ويصير الطبقتان نحو (٦٦٠) مليونا ، وليس هذا الحساب مدققا بل هو تقريبى ، وعلى هذا بقية الطبقات ، والعين الثانية كذلك فيكون عندنا ملايين تعدّ بالآلاف ادافرض أنها مثلها فى تعداد أشكالها ، واذا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو الدماغ وأخذنا جزءا صغيرا منه ، وهو المادّة السنجابية فاننا نراها (٦٠٠) مليون خلية ، والمادّة السنجابية بالنسبة للدماغ ضئيلة فكيف يكون جميع الدماغ ؟ وكيف يكون عدد خلاياه ، إن هذه العجائب العلمية المتقدّمة فى النظر تلفت عقولنا للمظورات السماوية والكواكب ، ونحن إذا أردنا الكلام على السموات فاننا لاندرى فى أىّ باب نكتب وهذا العلم له شعب كثيرة ، وخير ما نختاره اليوم أن نذكر سعة السموات وكثرة نجومها حتى نوازن مابين كثرة الكواكب وكثرة الأشكال العجيبة من أعين الحيوان والانسان :

(١) فنحن لانقف فى هذا المقام على بعد القمر عن الأرض .

(٢) وانه ٢٣٨٨١٧ ميلا

(٣) ولاعلى عطارد الذى يتم دورته المحورية فى ٢٤ ساعة و ٨ دقائق .

(٤) ولاعلى الزهرة التى لايزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونيف .

(٥) ولاعلى المريخ لدى ظهر للعلماء أن الثلج فى قطبيه لايذوب إلا ببطء ويؤكد الاستاذ [بكرنج] أن ترع المريخ حقيقية لاخداع فيها وله غيوم تسير حوله ، ومن رأيه أيضا أن النبات فى المريخ مؤكد الآن ، وكذلك بعض الحيوان ، وقد كان الرأى السائد أوّلا أن فى المريخ سكانا ثم تغير الرأى فقالوا لاسكان فيه ، ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان ، وقاسوا طول بعض العيم فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرض (٥٠٠) ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلا فى الساعة . ولم يقتصر العلامة [بكرنج] على أن فيه نباتا وبعض الحيوان ، بل قال ان فيه عقلاء وهم يريدون مخاطبتنا

(٦) وهكذا المشترى وأقماره التسعة .

(٧) ولانكتفى أيضا بمعرفة زحل وحلقاته الثلاث المتقدّمة فى هذا التفسير وأقماره العشرة .

(٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة .

(٩) ولا بنبتون الذى يدور حول محوره فى سبع ساعات وخمسين دقيقة .

(١٠) ولا بالسيار الجديد الذى كشف سنة ١٩٣٠ فى ١٣ مارس المسمى [بلوطو] .

(١١) واذا بحثنا فى نظام شمسنا الآن فانما نجعله توطئة لما بعده ، لأن ذلك شرحناه سابقا فى سور كثيرة إن الشمس نجم صغير جدا بين مئات الملايين من الشموس الكبيرة وهى فوق سطح المجرّة وتبعد عنه (٥٠,٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية ، وليست مقيدة بذلك بل هى سائرة مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل فى اليوم ، وآخر كشف لبعده عن الأرض هو ٩٢٨٣١,٠٠٠,٠٠٠ ميلا وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠) درجة بمقياس سنتجراد ، وذلك سنة ١٩١٠ م وعلى سطح الشمس قد ترى كف كبيرة كالتى رآها العلماء سنة ١٩٠٧ م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مليون ميل مربع ، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألفا مليون ميل مربع ، وكلما ظهرت هذه الكف تقلصت الحرارة على الأرض ، وهو من نتيجة ظهور كف الشمس ، ان الشفق القطبى الشمالى يعم بلدة رصد وبقاء [illegible] الشمس الظاهرات على وجهها تشبه براكين ثائرة فتدفع بنواميس تكون بثة تنتشر على سطح [illegible] الأرض ويسبب الشفق القطبى ، ومنه الذى ظهر فى أوروبا سنة ١٩٠٩ بشكل مدفع حتى وصل الى سيبريا وروؤى رأى العين .

واذا ذكرنا نبذة عن الشمس فلننتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة ، إن أوّل نجم جديد عرفه الناس كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق . م ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجما جديدا أى انها ظهرت أو خلقت بعد أن لم تكن .

ويقول الاستاذ شابلى فى جامعة [هرفرد] : إن النجم الصغير الذى اسمه [دورادس] تابع لغيوم مجلان بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية ويلمع فوق لمعان شمسنا (٦٠٠) ألف مرة ، وظهر فى غيوم [مجلان] نجوم يفوق لمعانها لمعان شمسنا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمس .

يقول الدكتور (ديزن) فى خطبة تلاها فى المعهد العلمى بلندن : «إن من النجوم مايبعد عنا (١٠٠) برسك والبرسك (٢٠٠,٠٠٠) مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا ، واشراقها يختلف أيضا فترى :

٢٤	نجما إشراق كل منها مثل	١٠٠	شمس	
٣٤٠	»	»	٥٠	شمسا
١٣٥٠	»	»	٢٥	»
٤٨٤٠	»	»	١٠	شموس .
١٣٢٠٠	»	»		شمس واحدة .
٩٣٣٠٠	»	»	½	شمس .

فنجم القطب من النوع الأوّل وبعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض أى ٣٧٢٠ مليون مليون ميل ، وهناك نجوم أبعد من نجمة القطب وأشدّ إشراقا منها ، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الحمراء بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض والنجوم السفراء منها مابعده عنا أقلّ من ٢٠ مليون بعد الشمس عن الأرض ، ومنها مابعده عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض .

شمس الشموس

لقد تقدم فى الجزء الأوّل فى هذا الكتاب فى أوّله أن جميع الشموس فى مجرّتنا تجرى حول شمس عظيمة ، وهذه الشمس تسمى [شمس الشموس] وهى العيوق [بتشديد الياء] الذى تدور كواكب المجرّة كلها حوله ، ويقولون : « إن جرمه أكبر من الشمس مليونين و٤٢٠ ألف مرّة ، واشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرّة وبعده عنا ٤٨٩ سنة نورية .

ويقولون : ان جميع الشموس ومنها شمسنا تدور حوله ، وعدد هذه النجوم فى مجرّتنا ٣٠ ألف مليون نجم أوشمس ، وقطر المجرّة يقدّر بنحو ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر السديم الذى فى المرآة المسلسلة يبلغ عشرين ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية .

ومن أعجب العجب أن تظهر اليوم [سدم] جديدة ، فقد كشف [هنزل] أكثر من ألفى سديم فى ٩٠ صورة فوتوغرافية ، ووجد نها ٨٠٠ سديم ألمع من غيرها ، ومن هذه ٣٠ حلزونية ، وهناك سدم لولبية ومنها سديم المثلث ، وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠,٠٠٠ سنة نورية ، فهو أبعد جدا من المجرّة ، ومجرّتنا المذكورة يظنّ بعض علماء الفلك أنها سديم لولبىّ أيضا ، ولايراها هكذا إلا من كان بعيدا جدا ، وبعد سديم المرأة المسلسلة ٦٠٠,٠٠٠ سنة نورية ، وقطرها ٢٠,٠٠٠ سنة نورية .

ويقول [هر] : إن بعده ٩٠٠ ألف سنة نورية ، ويقرأ هذا سديم عرف إلى الآن . إن السدم على اختلاف أنواعها بعيدة عن مجرّتنا التى تجرى ٣٠ ألف مليون شمس كما تقدم . ولقد قالوا ان سديم المرأة المسلسلة بعيد عن مجرّتنا ٢٠٠ ألف سنة نورية ، وهذا فى جهة كوكبة [شورنفى]

والسنبلة سدم بعدها عما مليون سنة نورية ، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلومترا فى الثانية ، وبعضها ٦٠٠ كيلومترا فيها ، وقد ظهرت أبعاد مجموع من نجوم وسدم تبلغ ٢٨٢٢ للاستاذ شابلى اذ أبعدها كلها مليون سنة نورية ، فلوأن كوكبا منها فقد منذ ٩٠٠ ألف سنة فان نوره لايزال يجرى الى الأرض ، ويبقى بعدنا مائة ألف سنة ، وهذه عجائب فوق عقولنا ، ما أوسع هذا الكون ؟ ان النور يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل ، واذا دارحول الارض لم يستغرق أكثر من سبع ثانية ، واذا دارحول هذا العالم احتاج الى مائة مليون سنة نورية . وأرضنا لوصغرت كالجوهر الفرد (كما قدمنا) وصغر العالم على مقتضاها لرأينا ألف مليون أرض منتشر حولها .

قدمنا أن فى مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس لها سياراتها وتوابعها كشمسنا ، وفى الفضاء مليونان من السدم ، وكل سديم أشبه بمجرتنا ، وفى الكون فضاء يفوق الفضاء الذى يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، ويقدر عدد السدم فيه إذ ذاك بما يبلغ ألفى مليون مليون سديم ، فاذا كان فى كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم فى الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على يسارها ٢٤ صفرا ، أو ٢ مليون مليون مليون كوكب ، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب .

ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رحمة الله الواسعة ، واسعاده لنا ، واشراق نوره علينا .

الله أكبر : ما هى هذه السماء ؟ وما هى عينى التى تنظر السماء ؟ اللهم حارفكرنا فى جمالك ، ماهذه السماء ؟ وأىّ عالم تسير فيه الكواكب ؟

الله أكبر : انظر أيها الأخ الذكىّ فيما كتبناه فى ﴿ سورة الصافات ﴾ فى أوّلها ، واعجب من أن عالم الأثير الذى تجرى فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لايحسّ ولايرى ولكنه وهو كالمعدوم أثقل من الحديد والرصاص والذهب أضعافا مضاعفة ، أى انه لوكان جرما لكان كذلك ، فارجع إليه هناك وادرسه ، فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذى لاندرك وجوده أثقل من أثقل المواد الأرضية ، وهذا أمر عجيب غريب ، وهو مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ اذا عرفت كلها ملايين الملايين ، وكل عالم منها يشابه مجرّتنا التى تجمع ٣٠ ألف مليون شمس ، وهذه الأعداد مدهشة .

هذا هو الفضاء فوقنا ، وهذه عوالمه ، ألست أيها الذكىّ وأنا أدرس العين معك قد رأينا هناك ملايين من الأشكال فى طبقة واحدة من عشر طبقات من الشبكية ، وهناك طبقات أخرى ، والعين جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله ؟ أفلاترى معى أيها الذكىّ أن عيوننا تحوى من العوالم نحو عدد ماتحويه مجرّتنا من الشموس ، وأن مخنا فى عظمته يشبه شمس الشموس فى عظمتها ، وأن جسمنا كله يشبه المجرّات كلها والسدم كلها فى عدد كراتها .

دهشا يا ألله من عجائب عيوننا ، ومن عجائب أجسامنا ، ومن عجائب عوالمك الكبيرة ، وبهذا عرفنا بصيصا من قولك : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » .

إن فى هذه السورة : (١) الرحمة فى السماء (٢) والنظر (٣) والسماء فى الآية ، ولمعرفة هذه الثلاث كتبنا هذه المقالة ، وسيدرس ذلك المسلمون بعدنا قرونا وقرونا . وستتمتع طوائف وأنواع فى هذه الثلاث ، ولكنهم بعد آلاف السنين يخاطبهم الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

أيها المسلمون : « ألسنة الخلق أقلام الحق » ، قد تشهر فى كل مجلس ومقام مقولة العامة والعلماء على حدّ سواء وهو : « القرآن لاتنتهى عجائبه ، ولا تنقضى غرائبه » . وفى الحديث : « إن أعلاه لمثمر ، وان

أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه » .

الله أكبر : هاهوذا باب العجائب قد فتح الآن ، فلجوه وادرسوا ، فتح على مصراعيه فاستبشروا بالسعادات والهناء والكمال .

تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات

سيقرأ هذا المقال فى تفسير الرحمة ، وتفسير : قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، فيقولون : اننا فى الرفع والاعتدال نقول : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شىء بعد » ، ثم يقولون : « إن الحمد ليس مادّة نملأ بها السموات ، وانما الحمد ثناء بالجميل على من له جميل اختيارىّ ، وهذا الثناء لفظى لا ينبعث إلا عن امتلاء القلب بجميل أفعال الممدوح ، إذن الحمد لا يصح إلا بعد العلم بمزايا الممدوح ، والله أبرز لنا هذه العوالم وكلها بديعة ، فنحن نحمده عليها وليس يصح حمدنا عليها إلا بعلمنا بها ، والعلم إنما هو حضور صورة المعلوم فى نفس العالم ، وعلى مقدار استكمال العلم فى نفس الحامد يكون استكمال حبه للمحمود ، وهذا الحب يحرّك اللسان بالثناء ، والجوارح بالأفعال ، فالمصلى يكون حمده على مقدار إحاطته بالعوالم ، فذكر المصلى للسموات والأرض وما بينهما وما بعدهما يراد علمها سواء أكان قليلا أم كثيرا والحمد على مقتضاه ، وكلما ازداد المصلى علما بهذا ازداد من ربه قربا .

هذا معنى ملء السموات والأرض إلى آخره ، لأن صفات الله ظهرت آثارها فى هذه العجائب ، وعبر عن إحاطتها بالعلم بلفظ الملء ، كأن المصلى العالم قد أدرك الأشياء فكأن علمه أحاط بها وملاها ، وكل امرئ يملأ العوالم ، هذا فى حال الرفع والاعتدال ، فأما فى حال السجود فان المصلى يقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشقّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فههنا ذكر المصلى السمع والبصر والله يقول : « فاسجد واقترب » فههنا الاقتراب لأن الدقة فى صنع السمع والبصر كما قدّمناه أحرى بأن تقرّب العبد من ربه » والنظر للسماء فى حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك ، فالمسلم فى ذكره السموات كالمبتدى ، وفى ذكره السمع والبصر فى السجود كالمنتهى ، وهذا هو الحق الصراح ، ألا ترى رعاك الله أن موضوع البصر الذى شرحناه فى هذا المقام يأخذ بلب العارف به ويرى فى نفسه شوقا وحبا وغراما ، ويكاد فؤاده يطير من الحب والبهجة والجمال ، ولكن ذلك لا يكون إلا لقليل من الأذكياء فى هذا النوع الانسانى ، بهذا يقترب الانسان من ربه اقترابا علميا مع الحب والبهجة .

هذا معنى قوله تعالى : « واسجد واقترب » فهاهوذا سبحانه ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع والبصر ، وتشريح السمع والبصر ، والوقوف على عجائبهما ، وهذا يذهل اللب فيكون الحب والقرب ، أما النظر إلى السماء فليس فيه هذه البدائع ، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام الكواكب ، ولكن المدار على احكامها ودقتها كدقة حدقة العين التى تقدّم شرحها .

الله أكبر : ان الآلات الدقيقة المعدنية الفلكية قد لا تساوى درهما أو دراهم قبل صنعها وهى بعد الصنع قد تساوى مئات الجنيهات ، وهل هذا الثمن إلا لدقة صنعها ؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام ، لا على عظم الأجرام حثنا الله فى هذه الأرض وأمرنا ألا نطير منها الى عوالم أخرى ، يريد منا أن ندرس هذه الأرض وما حولها وهو يعلم أننا لن نفرسها إلا اذا احتجنا إلى ما فيها ، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا نحن وبقائها فحكم علينا أن نعتنى منها هى ، وأوحى الى العمل لاستخراج كنوزها ، وكل هذا نتيجته ارتقاء نفوسنا ، كل هذا فهم من أقوال المصلى فى صلاته إذ شكر ربه على السمع والبصر بعد أن شكره على السموات والأرض ، ثم سمع الله يقول : « واسجد واقترب » إذن السجود به يكون الاقتراب ، لماذا ؟

لأنه درس أدق الأعضاء ، فأما دراسة العوالم كلها اجمالا فانما هو تشويق للباحث الجزئية .

اللهم إنا نحمدك حمدا كثيرا على نعمك ، ونشكرك على آلائك ، نحمدك على العلم ، ونشكرك على الفهم ، ومن أجل النعم أن دين الاسلام ممتزج بمصالح الدنيا بحيث ان أجل العبادات وأشرف الأعمال ما كانت وجهته المنفعة العامة للأمة ، فهاهي ذه مسألة العين وطبقاتها وابداعها وجمالها كيف كانت دراستها من أسباب حبك ، والاستغراق فى بهجة جمالك ، والهيام بالحكمة ، والازدياد من العلم ، وكيف كان المصلى فى رفعه ، وفى سجوده فى أقواله يجمع مابين مبادئ العلوم فى الأول ونهاياتها فى الثانى ، وكيف كانت اقواله فى الرفع منطبقة على الدراسة العامة فى المدارس الثانوية فى جميع مدارس العالم ، لأن تلك الدراسة يراد بها الالمام بالعوالم المحيطة بنا بقدر الامكان ، ثم كيف كانت أفواله فى السجود فى حال اقترابه منك موافقة كل الموافقة للدراسة الخاصة التى بها يكون الانسان مستحوذا على علم خاص قد ملك ناصيته .

ومن أعجب العجب أن ما تقدم فى دراسة العين ومافيها من دقة الوضع وحسن الاتقان بصائر للناس وهدى ورحمة .

تسبيح المخلوقات

فهذا يفهمنا بصيصا من معنى قوله تعالى : « وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » ، ألم تر يارعاك الله إلى سواد القزحية ، وضبطه للنور فيما تقدم ، وحفظه للصورة التى جلها حتى تصل الى المخ ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى ادراكه ، فأما العاشق فلا يهمه إلا أنه جمال ظاهرى فيكون إذ ذاك سببا للتناسل ودوام العيش فى الحياة ، وأما الطبيب فانه ينظر اليه من حيث الصحة والمرض ، وفى الحال الثانية يستعمل العقاقير ، فأما الحكماء فانهم أرقى منزلة ، وأرفع قدرا ، ألا ترى رعاك الله أنهم ينظرون نظرا عاما فيقولون : ان هذا السواد انما وضع هنا لحكم ، فيه حفظ الصورة وضبط الضوء ، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفى ﴿ سورة الروم ﴾ وكيف نرى أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئاتها ، وللرمال والجبال حولها ، وكيف كان سواد الفأر لكثرة أعدائه ، فلو كان بلون غيره لأظهره النور فصار طعمة للمفترسات ! ثم كيف نرى ذلك الطائر الأبيض فى أمريكا يظهر بذيله الطويل ليلا وهو غير خائف ولا وجل مما حوله من الفاتكات ، ذلك لأن له رائحة خبيثة يطلقها على كل من اقترب منه وآذاه ، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع فى القفار ، ثم كيف نرى الزنبور ظاهرا برقشه ونقشه لايخاف عدوا ، ولايبالى بصروف الأيام ، ذلك لأن له حمة تفتك بالأعداء .

هذا كله مشروح شرحا وافيا فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفى ﴿ سورة الروم ﴾ مع الصور الشمسية فارجع إليه ، أليس هذا كله تنزيها لله عن العبث فى أفعاله ، وأنه لايضع لونا ولاشكلا ولاحجما إلا لحكمة ، ولم يلوّن العين ويجعل فى قزحيتها السواد مثلا ، ولم يجعل لها قرنية ولا طوبة بيضية ولاقزحية ولاانسان عين وهى الفتحة فى القزحية ، ولا بلورية ، ولا طوبة زجاجية ، ولا شبكية ، ولا مشيمية ، ولا صلبة إلا لحكمة خاصة ترجع للنظر .

فياليت شعرى هل للتسبيح معنى إلا هذا ؟ هذا تسبيح وهذا حمد ، أما الحمد فعلى هذه النعمة وهى نعمة العين ، وأما التسبيح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها محكمة تفوق الوصف ، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى : «وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم»

أوليس من العجب أن التعبير بلفظ الفقه وهو دقة الفهم يذكرنا آية الأنعام إذ يقول : « وفلق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

ثم قال : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » جعل العلم فى جانب علم الفلك ، والفقه فى جانب الانسان وعلم التشريح ، إذن قوله تعالى : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » يشير إلى ما فى الطبيعة من العجائب كطبقات العين وبدائعها المذكورة ، وقوله : « إنه كان حليما غفورا » ، فأما حلمه فهو ظاهر ، فان الانسان منا يحلم على الأطفال والجهال إذا أخطأوا وجهلوا ، ويرى الانسان طفله لا يعقل نعمه ولا يفهم مقدارها فيحلم الانسان عليه لقلة إدراكه ، وهذا هو السبب فى قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » فهكذا يعامل الله عباده ، فهو يعلم أنهم يجهلون جهلا فاضحا ما أعطاهم من النعم ، فاننا لا نجد عالما ولا جاهلا فى نوع الانسان يدرك نعمة العين مثلا ، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به ، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح مجبا لمن أعطاه ، ولكنه قط لا يتذكر نعمة العين ، بل هو يجهل تفصيلها ، إذن الله يعامل عباده لجهلهم بنعمه معاملة أحدنا ولده ومعاملة أشرافنا وأنبيائنا الفقراء والمساكين لأنهم لا يعرفون نعم المحسنين لهم ، فهذا معنى كون الله « حليما » فى هذا المقام ، وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعدادا للعلم والفهم فدرسوا هذه العلوم فعرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العامى من أعطاه مالا ، أو كساه ثوبا ، والغفران هنا كالغفران فى أوّل سورة الفتح الذى جعل بابا للفتح بالعلم والمعرفة ، فالله حليم على عبده لجهله ، فاذا استعدّ للعلم وبه يعرف النعمة ويحب ربه يجعل الغفران مقدمة لذلك الفتوح والله هو الولىّ الحميد .

سرّ من أسرار حِكَم العين وسواد قزحيتها

سواد القزحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر ، وكما تحفظ القوّة الغضبية أشخاص الحيوان ، فههنا نور حفظه سواد القزحية فى العين ، وههنا ماء حفظه الجسور ، وههنا قوّة شهوية فى الحيوان أحاطت بها قوّة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفاتكات ، وههنا أمم تحفظها جيوشها من هجوم الأعداء ، إذن سواد العين ، وجسر النهر ، وغضب الحيوان ، وجيوش الدول ، كل هذه حافظات لما ينفع الناس من نور وماء وحياة فرد أو حياة أمة . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية فى آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها فروج » أى مبحثيها معا وهما مبحث العين وطبقاتها ، ومبحث السماء ونجومها ، وكل هذا قد لوحظ فى بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

فى هذه اللطيفة مقالتان

المقالة الأولى فى قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى العالم وقال : لقد تقدم فى هذا التفسير مقالات كثيرة فى النبات ، ولكنى أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامى . فقلت : أيها الأخ الذكىّ : إن هذه الأرض والعوالم حولها كثيرة كثيرة لا يضابط لها إلا العلم ، ولا جرم أن النباتات على الأرض مبعثرة مشتتة ولن يضبطها إلا الوحدة ، فقال ما معنى الوحدة هنا ؟ فقلت : إن عقول الناس فى هذه الأرض كلها مشغوفة بالوحدة لأن الوحدة هى التى تطمئن بها القلوب ، ألا ترى أنهم يجعلون لكل منزل رب أسرة ، ولكل بلدة رئيس ، ولكل أمة ملكا ، أو أميرا ، أو رئيس جمهورية ، كل ذلك للوحدة ، ونظير هذا فى العلوم فانهم

قسموها إلى مجموعات كل مجموعة سموها علما ، ثم قالوا : هذه العلوم كلها تسمى واحدا ، وهذا الواحد انقسم إلى علوم ، وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ويرجعون العالم كله الى الوحدة فيقولون : الله خلق العالم أى بعد البحث والتمحيص ، فهناك تطمئن القلوب الحديمة التى درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية ، أما العامة وصغار المتعلمين فهم من واد واحد يعيشون ويموتون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهى الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق ، لاسعادة لأهل هذه الأرض إلا فى هذه المسألة التى هى مسألة المسائل فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات ، وما علم النبات إلا كجميع هذه العوالم ، نراها مبعثرة مشتتة : نهر ، بحر أرض ، جل ، جبل ، خيش ، أكواخ ، سحب ، كواكب ، هواء ، ذئب ، أسد ، جمل ، حمار ، غزال مسك وهكذا أمور لايدرى الانسان أولها ولا آخرها ، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها ، كذلك علم النبات فانا نقول : أرز ، نخل ، حشائش ، عبل ، جل ، صنوبر ، قمح ، وهكذا لاضابط ولاقانون فلاعلم ، وانما هى أمور مبعثرات هنا وهناك ، فاذا رجعناها للوحدة سعدنا وأحسسنا فى أنفسنا بسعادة علمية جزئية ، ومتى درسنا مجملات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التى لانهاية لها فى نفس هذه الحياة سعادة محققة .

فقال صاحبى : والله لقد شوقتنى إلى هذه الوحدة فى النبات التى بها تكون سعادتى . فقلت : إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أوحيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية ، وهذه صورتها (انظر شكل ٨ الآتى)

وأشرحها لك فأقول : « اذا تركب جسم النبات من خلية واحدة سمى « وحيد الخلية » أما اذا تركب من جملة خلايا فيقال له « عديد الخلايا » وتتركب مادته من جدار خارجى مادته كربوأيدراتية صلبة مرنة شفافة تسمى « السليولوز » وفى داخل الجدار مادة لزجة تسمى « البروتوبلازم » وهو الجزء المهم فى الخلية ، لأنه هو المادة الحية ، ولسنا نعرف بالضبط كنه الحياة ، غير أن للمادة الحية المسماة « البروتوبلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها :

أولا : ان للبروتوبلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء [أى تحويله إلى مركبات بروتوبلازمية] .

ثانيا : انه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات .

ثالثا : ان له القدرة على النمو .

رابعا : ان له القدرة على الحركة .

خامسا : انه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة .

سادسا : ان له القوة على التكاثر والتوالد .

وبروتوبلازم الخلية يشمل جسما برّاقا أكثر كثافة منه يسمى « النواة » والمادة البروتوبلازمية التى حول النواة تسمى « السيتوبلازم » .

النواة

تتركب النواة من شبكة مكونة من قضبان صغيرة تسبح فى سائل يعرف « بالسائل النووى » ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووى » (انظر شكل ٨) وقد يوجد داخل النواة جسم كروى صغير يسمى « النوية » وقد تحتوى النواة على نوية واحدة أو أكثر .

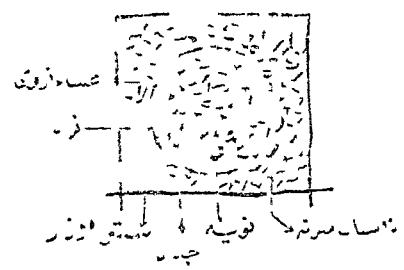

(شكل ٨)

والنواة أهمّ جزء فى الخلية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع خلية إلى قسمين : يشمل الأوّل منهما نصف البروتوبلازم بما فيه النواة كلها ، ويكون الثانى خاليا من النواة ، أما القسم الأوّل فينمو ويستعيد ما نقص منه ، وأما الثانى فيموت بعد فترة من الزمن اهـ

فقال صاحبى : إذن هذه الخلية هى أصل كل حيوان وكل نبات ؟ فقلت نعم . فقال : يظهر لى أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه محيطها والسليلوز يحفظ ما فى داخلها وهو الجزء المهم ، إذن هى كالجوزة ، أو كرأس الانسان لها عظام فى داخلها المخ ؟ قلت نعم نطقت بالصدق ، وأيضا فى الحيوان قوّة يحافظ بها على نفسه تسمى غضبية ، وقوّة بها يعيش وهى الشهوية ، فالأولى كالمسكن ، والثانية كالسكان ، إذن القاعدة واحدة فى هذا النظام العالمى ، وهذه الآراء هى مبدأ السعادة التى حدّثتك عنها ، فاذا أمكننا ارجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نفرّع عنها فروعا تشمل كل نبات كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات . فقال : أريد التفصيل بعد هذا الاجمال ؟ فقلت : إن النباتات على قسمين : دنيئة ومرتقية ، فالدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساما مباشرا ، والمرتقية يكون الانقسام فيها غير مباشر :

١ ـ الانقسام المباشر

تكون طريقة الانقسام فى خلايا بعض النباتات الدنيئة فى الغالب بسيطة ، فيحصل حزّ فى وسط النواة يمتدّ إلى باطنها شيئا فشيئا حتى تنقسم إلى قسمين : يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم ، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر .

٢ ـ الانقسام غير المباشر

انقسام النواة فى الخلايا العادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيدا منه فى الحالة السالفة (شكل ٩) فعند ماتأخذ النواة فى الانقسام تنفصل القضبان التى تتكوّن منها الشبكة النووية ، ثم ينشطر كل منها طوليا إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه ، وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية المقابل له ، فتجتمع أنصاف القضبان فى قطب ، والأنصاف الأخرى فى القطب الآخر ، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكوّنة بذلك شبكة نووية جديدة ، وينشأ بعد ذلك تكوّن غشاء فى السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين ، وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتاهما متشابهتين فى صفاتهما وعدد قضبانهما ، وتسمى هذه الطريقة بالانقسام غير المباشر اهـ

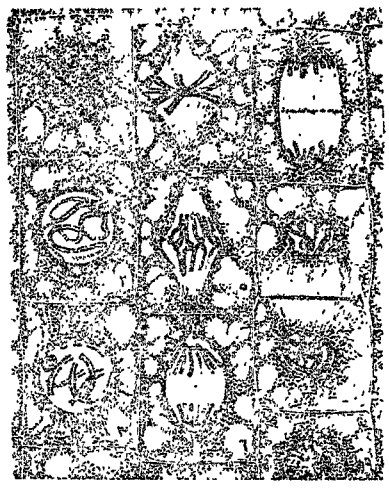

(شكل ٩)

انقسام الخلية غير المباشر ١ ـ ٩ أدوار مختلفة فى الانقسام

ثم قلت : انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة ، ألا تراها كمنزل تسكنه أسرة ، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تخالف طرائقنا فى بناء مدننا ، فنحن نبنى بيتا بجانب آخر ، أما هذه الخلية فانها تكبر وتنقسم بطريقتين مختلفتين . فقال : حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا شكلها واحد أم هى أشكال مختلفات ؟ فقلت : كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا ، بل ان هنا أمرا عجبا ! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس ، فان العقلاء يجعلون الهواء يتخلل بيوتهم هكذا هذه الخلايا فهى مختلفة فى صورها كالناس محكمة نظام وضعها بحيث يتخللها الهواء (انظر شكل ١٠)

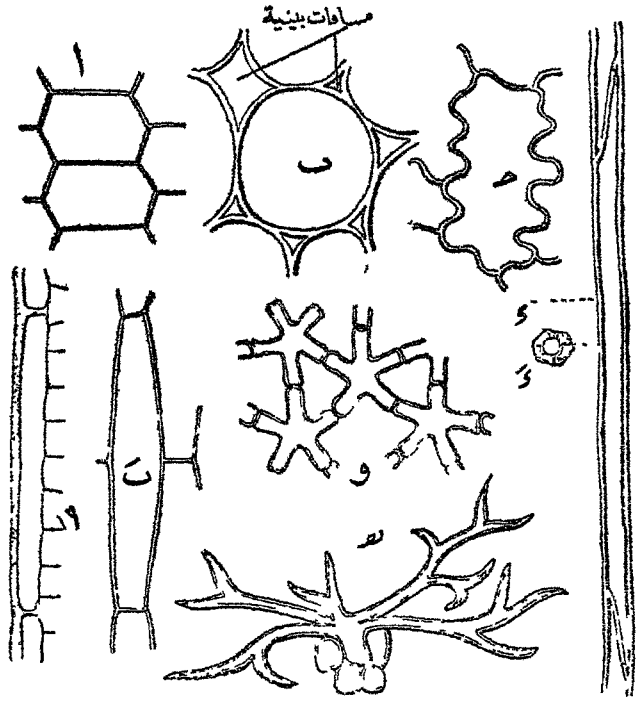

(شكل ١٠ — (ا) خلايا مرستيمية (ب ب') خلايا برنشيمية (ح ح') خلايا البشرة ويرى جدارها العلوى غليظا (د د') خلايا ليفية (ه) خلية شعرية وبرية متفرّعة ، (و) خلايا نجمية الشكل بينها مسافات بينية واسعة)

إن الخلايا البالغة متعددة الأنواع ، مختلفة التركيب ؛ فما كان منها متساوى الأقطار كرويا أومستطيلا قليلا رقيق الجدران ، وبه فجوة وسطية سمى بالخلايا البرانشيمية ، وعندما تنمو الخلايا البالغة تتفكك أركانها ، ويتكوّن بينها وبين بعضها مسافات يتخللها الهواء تسمى بالمسافات البينية (شكل ١٠ — ب) وهى موزعة فى النبات بحيث يتمكن الهواء من تخلل جميع أجزائه ، وقد تستعمل المسافات البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا كما فى نبات الصنوبر .

ثم قلت : انظر للصنوبر والبرتقال والليمون مثلا كيف فعلت ما تفعله نحن فنا نضع أمتعتنا فى الخلاء الذى فى داخل مساكننا ، والى العاب كيف تحللت منه خلايا ليكون فيها هواء كما تفعل الحكومات إذ تهدم أبنية لتجعل فيها الشوارع .

فقال صاحبى : أما الآن فانى قد فهمت وحدة النسات فهما حقيقيا ؛ فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات وأعلاها . فقلت : أما أدنى النبات فهى النباتات الدنيئة التى تتركب أجسامها من خلية واحدة ، تقوم هذه الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنمو والحركة والتناسل ، أما فى النباتات الراقية فيتكوّن جسم النبات الواحد من عدد لايحصى من الخلايا ، ولكى يقوم النبات بوظائفه خير قيام تتخصص مجاميع من خلاياه بأعمال خاصة ، وتسمى كل مجموعة بالنسيج ، وعلى ذلك يكون النسيج عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة فى الأصل ، وغالبا فى الشكل تقوم بعمل متماثل ، وأنسجة النبات الحى تتعاون جميعا فى تأدية وظائفه الحيوية ، ولايمكن للنسيج الواحد منها أن يستقل بذاته ويوصل عن باقى الأنسجة بل تتحلله تدريجا .

ثم قلت : انظر أليس تركيب النبات تقسيمه كتركيب جسم الانسانى هذا . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت :

ألست ترى أن النباتات الدنيئة التى هى من خلية واحـدة وهى التى لانراها بأعيننا التى تشبه فى صغرها أدنى وأصغر الحيوانات الذرّية التى لانراها أيضا قد أشبهت رجال البادية ، فان البدوىّ فى خيمته هوكل شىء ، هو الذى له السلطة على منزله ، وهوالمدافع عنه ، وهوالحافظ له ، و يعيش مستقلا كأنه دولة واحدة ، أما النباتات الراقية فهى حتما أشبه بالأمة التى فيها جماعات كل جماعة لها عمل كرجال المالية والعسكرية والزراعة والتجارة والطب الخ ، وكما أن كل جماعة من هؤلاء فى الجمعية الانسانية لاقيمة له مستقلا ، هكذا كل جماعة من جماعات الخلايا اذا استقلّ فان خلاياه تموت .

وسترى فى سورة الواقعة عند آية : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين الخ » أن الأمم كلما كانت أقرب إلى خط الاستواء كانت أكثر تعرّضا للأمراض ، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض ، وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض فى الأوّل ، وعلى ذلك اذا لم تقم كل جماعة بما يخصها من حفظ البلاد كدرس حال الجوّ وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فان الأمراض تكثر وتضعف الأمة كما يهلك النبات الراقى بدسل جماعات منه وضعفها .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أريد أن تشرح لى أوّلا النبات ذا الخلية الواحدة ، و بعد ذلك تشرح لى النبات المركب من خلايا كثيرة منه ؟ فقلت : أذكرك بما مرّ فى سورة حم فصلت فى المجلد التاسع عشر عند آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » فانك ترى هناك البكتريا وأنواعها مرسومة مختلفة الأشكال وبها الحياة و بها الموت ، فلولاها لم يكن نبات مما ننتفع به لأنها هى التى تفتت الموادّ الغذائية لتكون صالحة لأن يمتصها النبات ، ومنها تكون الجراثيم القتالة المهلكة لنوع الانسان ، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضرّها ، لذلك أبقاها الله فى الأرض ، ومن النبات الدقيق الفطرى الذى هوخلية واحدة الخميرة ونحوها ، هذا هوالذى تقدم .

فنحن إذن لانعيده هنا فانه موضح هناك أى إيضاح . فقال نعم . فقلت : إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة ، فاذا كان النبات المركب من خلية واحـدة قد تقدم شرحه فلنتمم الآن النبات المركب من خلايا ، ونبدأ بشرح ساقه سواء أكان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة ، فذوات الفلقتين مثل : الكرنب ، والقنبيط ، والفجل ، واللفت ، والشليك ، والتفاح ، والكمثرى والمشمش ، والخوخ ، والكريز ، والبرقوق ، والورد ، والباذنجان ، والطماطم ، والتبغ ، والبطاطس ، والفلفل ، والسنط ، والقثاء ، واللبخ ، والمستحية ، والتمرهندى ، والخروب ، والسنامكى ، والفول البلدى ، والفول الرومى والفاصوليا ، والعدس ، والحلبة ، والحمص ، والفول السودانى ، واللوبيا ، والبسلة ، واللبلاب ، والترمس ، والبرسيم البلدى ، والبرسيم الحجازى ، والقطن ، والباميه ، والخبازى ، واللوف ، والحنظل . فهذه كلها من ذوات الفلقتين .

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل : البصل ، والثوم ، والكراث البلدى ، والكرّاث أبوشوشه ، والهليون ، والصبار ، والنخل والدوم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرفيعة ، والشوفان ، والشيلم ، والدخن ، والدنيبه ، وقصب السكر ، والعاب .

فقال : هذا حسن ، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين ، وكنت أودّ أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم ، فأريد الآن أن تشرع فى شرح ساق كل منهما لأنك شوّقتنى إليه ، فانى أرى الفول والفاصوليا والعدس والحلبة والحمص مثلا وآكلها ، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها ، ومن العار أن يكون الجاهل حاضرا أمامه ونحن عنه غافلون كالعميان أمام الفادات الحسان ! فقلت : إن النبات ذا الفلقتين تكثر أنواعه عما يراها الانسان :

(١) مايسمى [كيوتين] وهى مادّة شفافة مرنة ، تمنع نفاذ الماء والهواء ، وبذلك تقى النبات تأثير الجفاف من زيادة بخر مائه الداخلى ، وقد يكون الكيوتين سميكا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الجافة ورقيقا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الرطبة ، هذه هى الطبقة الأولى . ثم قلت :

(٢) الطبقة الثانية : البشرة المركبة من طبقة سمكها خلية واحدة ، وهى خلايا متلاصقة حية ، وليست بينها مسافات .

(ا) وهذه البشرة قد يمتدّ منها شعر رفيع ، وكل شعرة من خلية أوخلايا ، وقد يفقد الشعر مافى داخله فيمتلئ بالضوء فيظهر كأنه أبيض ، وتارة تكون فيه مادّة لاذعة تحافظ على النبات مما يأكله ، فهى له وقاية حقيقية .

(ب) وفى هذه البشرة ثقوب ، وتسمى ثغورا ، وظيفتها أن يدخل منها الهواء ويخرج .

(٣) الطبقة الثالثة : القشرة وخلاياها رقيقة جدا ، بينها مسافات ، وتارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريبا .

(٤) الاسطوانة الوعائية ، ويليها كتل مثلثة الشكل ، مرتبة على شكل دائرة ، وهى قطاعات عرضية للحزم الوعائية .

(٥) الحزمة الوعائية :

(ا) وفى أعلاها حواجز تشبه الغربال تسمى الحاجز الغربالى ، وتسمى اللحاء .

(ب) وفى اسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أوالزيلم .

(ج) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى [الكمبيوم] .

(د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف ، وهذه قد تتكوّن منها اسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية .

(٦) النخاع .

(٧) أشعة نخاعية وهى تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تمرّ بين الحزم الوعائية .

فقال صاحبى : هذا حسن ولكنى لم أفهم منه شيئا ، لأنها أقوال وتعريفات صامتة ، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها فى العدد ، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال . فقلت : (انظر شكل ١١)

(شكل ١١ ــ قطاع عرضى فى ساق حديثة)

فهذه ظهر فيها : الشعاع النخاعى ، واللحاء ، والخشب ، والبشرة ، والكمبيوم ، والنخاع ، والقشرة .

فقال : ولكن أين [الكيوتين] ذلك الذى يحفظ للزرع مافيه من الماء إلى آخر ماتقدم . فقلت : انظر شكل ١٢ وهذه صورته

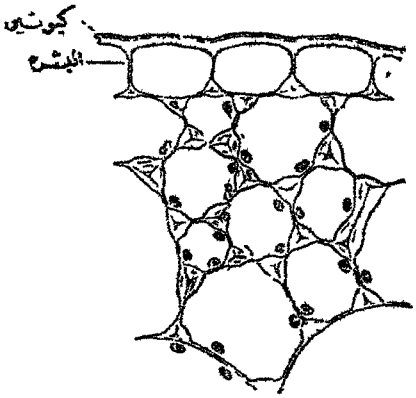

(شكل ١٢)

فقال : أنا مارأيت الحزم الوعائية ؟ فقلت : هاهى ذه (انظر شكل ١٣) :

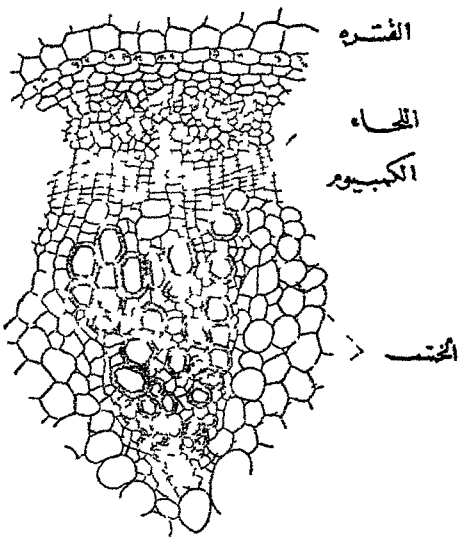

(شكل ١٣ ـ قطاع عرضى فى حزمة وعائية صغيرة)

فقال : وأين الحاجز الغربالى ؟ فقلت هاهوذا (انظر شكل ١٤)

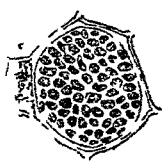

(شكل ١٤ ـ حاجز غربالى)

فقال : ولكن أين الخلايا الليفية ؟ فقلت (انظر شكل ١٥ فى الصفحة التالية)

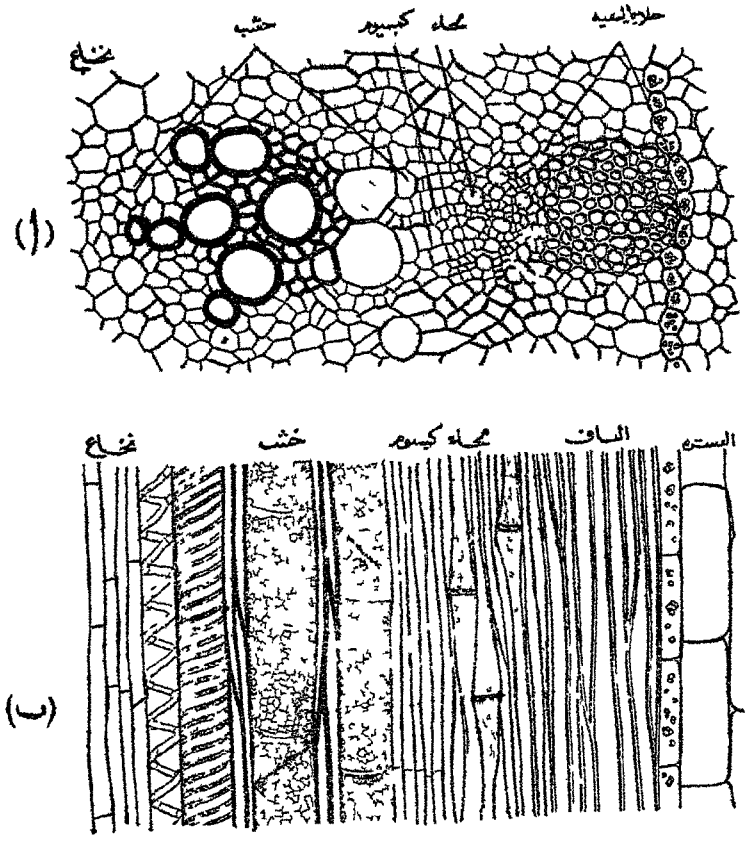

(شكل ١٥)

(أ) قطاع عرضى فى حزمة وعائية ، وترى الألياف بجوار المحاء

(ب) قطاع طولى فى نفس الحزمة .

فقال : قد فهمت سوق النباتات ذات الفلقتين ، ولكنى أريد أن أمتحنها بنفسى فى الخارج . فقلت : من السهل الميسور مشاهدة الخيوط الليفية التى تمتد طولا فى ساق نبات رخو كالحلبة أو الملوخية بازالة مايحيط بها من الأنسجة الرخوة ، ويعرف مجموع تلك الألياف فى الساق بالاسطوانة الوعائية ، والحيط الواحد بالحزمة الوعائية ، وتقوم هذه الحزم الوعائية بتوزيع الأغذية المختلفة فى النبات ، ومن السهل أيضا مشاهدة الأنسجة الرخوة التى تحيط بالاسطوانة الوعائية من الداخل والخارج ، فالنسيج الذى فى داخل الاسطوانة ويشغل الجزء المركزى من الساق يسمى [النخاع] والذى يحيط بالاسطوانة من الخارج يسمى [القشرة] وتغلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكوّن من طبقة واحدة من الحلايا يعرف بالبشرة كما فى شكل ١١ المتقدم قريبا .

فقال : وكيف تكون هيئة النباتات ذى الفلقة الواحدة ؟ فقلت : الحزم الوعائية فى سوق ذوات الفلقتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة ، أما فى سوق ذوات الفلقة الواحدة فانها كبيرة العدد مبعثرة بغير نظام واضح (انظر شكل ١٦ و ١٧ فى الصفحة التالية)

ولذلك لايمكن تمييز مناطق القشرة والاسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها ، وزيادة على ذلك فان

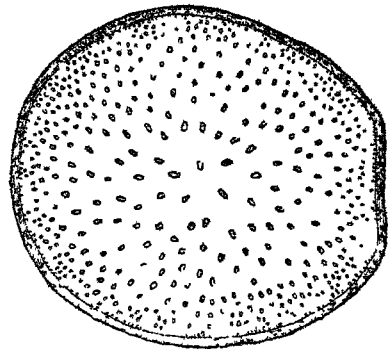

شكل ١٦
قطاع عرضى فى ساق من سوق ذوات الفلقة الواحدة

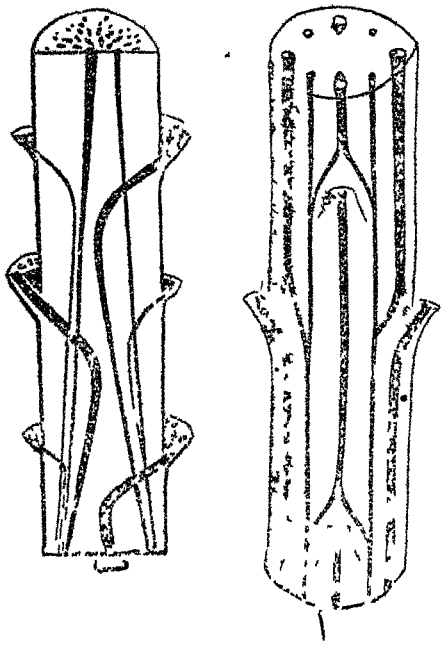

(شكل ١٧)
(ا) يبين سير الحزم الوعائية فى ساق ذوات الفلقتين .
(ب) يبين سير الحزم الوعائية فى ساق ذى الفلقة الواحدة .

حزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من الكمبيوم (انظر شكل ١٨)

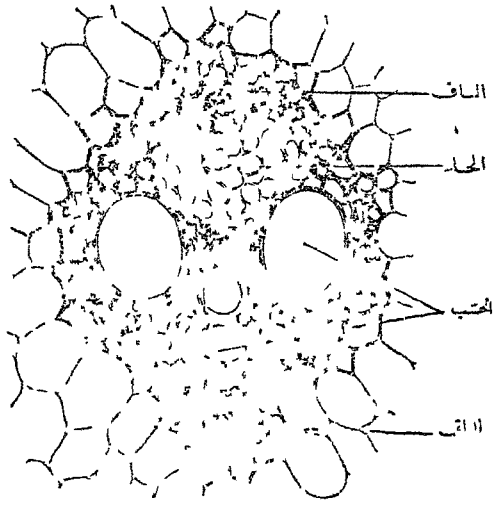

(شكل ١٨ ــ قطاع عرضى فى حزمة وعائية من ذوات الفلقة الواحدة)

فقال صاحبى : أريد أن أعرف الفرق بين نمو ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وساق النبات ذى الفلقتين
فقلت : إن ساق النبات ذى الفلقتين يزداد فى السمك عاما بعد عام إلا فى بعض أحوال شاذة (انظر شكل ١٩) مثلا فى شجر الجيز ، أو اللبخ أو السنط ، وكلها من ذوات الفلقتين ، يلاحظ أن أطراف الأفرع (أى أحدث أجزاء الساق سنا) رفيعة ، وأنها تأخذ فى الغلظ كلما اقتربت من أسفل الساق (أى جزء الساق الأكبر سنا) ، أما فى النخل وهو من ذوات الفلقة الواحدة ، فيلاحظ أن غلظ الساق متساو تقريبا على طول النبات ، وذلك لعدم حصول زيادة فى السمك .

شكل ١٩

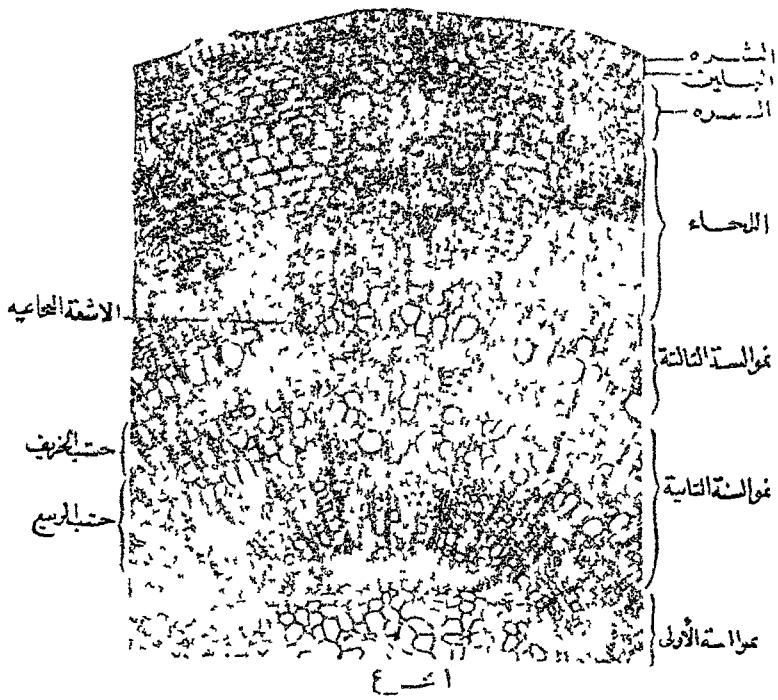

(شكل ١٩ ـ قطاع عرضى فى ساق عمرها ثلاث سنوات)

والزيادة فى السمك ترجع الى نشاط طبقة الكمبيوم التى فى حزم الساق بين الخشب واللحاء ، فتنقسم خلايا الكمبيوم مكوّنة خشبا فى الداخل (أى فى جهة النخاع) ولحاء من الخارج (أى فى جهة القشرة) وفى نفس الوقت تتحوّل خلايا الأشعة النخاعية التى توصل بين كمبيومى حزمتين متجاورتين إلى خلايا مرستيمية وتكون خشبا فى الداخل ولحاء من الخارج ، وتتصل بذلك حلقة الكمبيوم .

الحلقات السنوية شكل ١٩

الخلايا الخشبية التى تتكوّن فى الربيع تكون كبيرة الحجم ، رقيقة الجدر ، وذلك لأن النبات يحتاج فى فصل الربيع (أى فى فصل النشاط الذى يلى فصل السكون إلى مقدار وافر من العصارة لنموّ أوراقه وأزهاره الخ

أما فى فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجدر ، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة فى ذلك الوقت بعد أن يكون قد أتمّ نموّه السنوىّ وبدأ يستعدّ لطور السكون . وفى الربيع التالى تتكوّن الخلايا الخشبية الواسعة مرّة أخرى ، ولذلك يلاحظ فى القطاع العرضى للساق المسنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة (شكل ١٩) وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نموّ سنة كاملة ، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية ، ويمكن تقدير عمر الساق اذا عمل فيها قطاع عرضى وعدت حلقاته السنوية شكل ١٩ ثم ٢٠ فى الصفحة التالية .

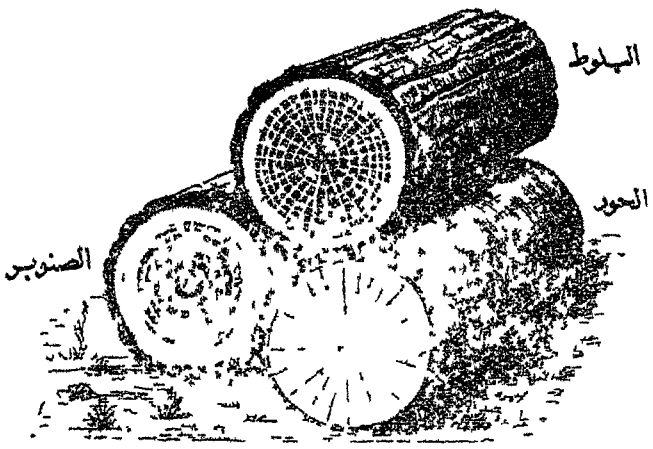

(شكل ٢٠)
شكل الخشب فى أشجار مختلفة . لاحظ الحلقات السنوية والقلف

وتشاهد الحلقات السنوية فى سوق النباتات التى تتساقط أوراقها فى أواخر الخريف ، وخصوصا فى البلاد التى فيها فارق عظيم بين درجتى حرارتها فى الصيف وفى الشتاء ، أما فى الأشجار المستديمة الاخضرار فمن الصعب تمييز هذه الحلقات ، وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريبا .

فقال صاحبى : كفى ماتقدم فى ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالا ، ولكنى أريد أن أعرف شيئا قليلا عن تركيب الجذر ؟ فقلت : إن الجذور يطول الكلام عليها ، ولكن أذكر منه أمرا واحدا ، وهى المنطقة الدائمة فيه (انظر شكل ٢١)

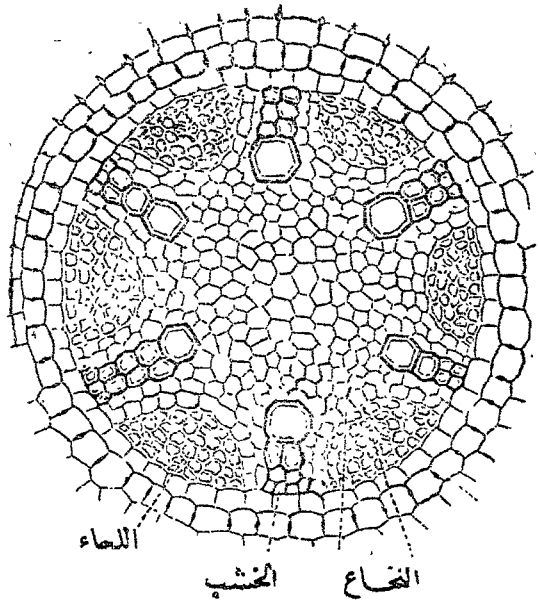

(شكل ٢١ ــ قطاع عرضى فى الإسطوانة الوعائية لجذر)

فقال : أنا الآن اكتفيت بما تقدم فى تشريح النبات ، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية .
فقلت : هى أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهى :

(١) مجموعة النباتات الثالوسية .
(٢) مجموعة النباتات الحزازية .
(٣) مجموعة النباتات السرخسية .
(٤) مجموعة النباتات البذرية .

ثم قلت : أما النباتات الثالوسية فهى التى تقدمت فى سورة فصلت ، وقد عرفت آنفا ملخص ماهناك فان فيها البكتريا والفطر [بضم الفاء والطاء] والطحالب ، وهـذه كلها واضحات هناك فارجع إليها ، فانك تعرف أكثر مما هو حاضر فى ذهنك ، وهناك صورجيلة توضح الموضوع . فقال : أريد معرفة النباتات الحزازية . فقلت (انظر شكل ٢٢ و٢٣ و ٢٤) وهاك صورها :

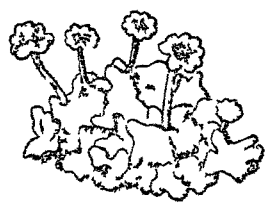

شكل ٢٢ نبات حزازى منبسط

شكل ٢٣ نبات حزازى قائم

(شكل ٢٤ ـ الخيط الأولى وعليه برعم)

فقال : وما مثال النباتات السرخسية ؟ فقلت انظر شكلى ٢٥ و ٢٦ فى الصفحة التالية

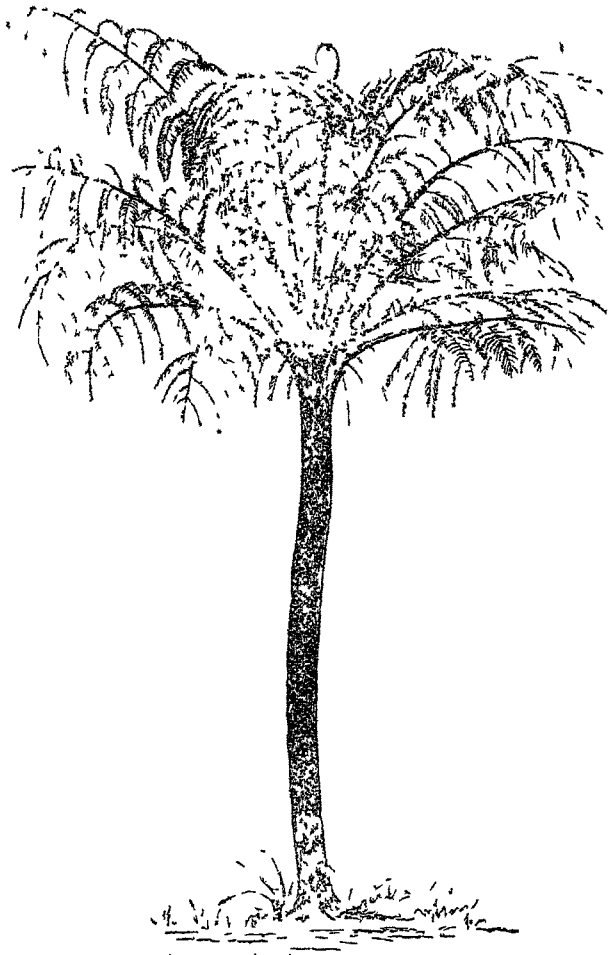

(شكل ٢٥ ـ أحد النباتات السرخسية الشجرية)

(شكل ٢٦)

فقال لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية . فقلت : الكلام عليها يطول ولكن نختصره هنا فنقول: تعتبر النباتات البذرية أرقى المجاميع النباتية ، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تكون في أعضاء خاصة تعرف بالأزهار ، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسيين : —

(١) النباتات المعراة البذور : وهي التي تكون بويضاتها معرّضة للخارج ، ولا تحاط بغلاف خاص (مبيض) كالصنوبر والسرو ، ونباتات هذا القسم في الغالب خشبية ، وكانت عظيمة الانتشار في العصور الجيولوجية الغابرة ، غير أنها أخذت في النقص والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة البذور .

(٢) النباتات المغطاة البذور : وهي التي تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى المبيض . وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة ، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له . وتنقسم النباتات المغطاة البذور إلى : —

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة .

(٢) النباتات ذوات الفلقتين .

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدة وجوه ، والجدول الآتي يبين أهم مواضع الاختلاف :

موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

ذوات الفلقتين	ذوات الفلقة الواحدة
(١) لأجنتها فلقتان .	لأجنتها فلقة واحدة .
(٢) الحزم الوعائية تحتوي على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهي مرتبة على شكل دائرة في الساق .	الحزم الوعائية لا تحتوي على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهي مبعثرة بدون نظام خاص في الساق .
(٣) تزداد سوقها في السمك عاما بعد عام .	لا تزداد سوقها في السمك إلا في أحوال نادرة وبطريقة تختلف عما في ذوات الفلقتين .
(٤) عروق الأوراق متفرّعة على شكل شبكة .	العروق عادة متوازية ، وفي النادر شبكية .
(٥) أجزاء الزهرة ثنائية أو رباعية أو خماسية .	أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكرّرات ثلاثة .

والى هنا تمّ الكلام على المقالة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية في قوله تعالى : تبصرة

اللهم إنا نحمدك على توفيقك ، وإلهامك ، واسعادك ، وامدادك ، ها نحن أولاء يا رباه عرفنا إبداعك في نباتك :

(١) فانك أبدعت في تركيبه بحيث جعلت في كل ساق مجموعات من النسيج الخلوي ، ولكل مجموعة منها عمل خاص ، فهي إذن أشبه بهيئة دولة لكل طائفة منها عمل ، وليس في عملك معطل : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

(٢) ونراك أبدعت البشرة (انظر شكل ١١) بحيث جعلت خلاياها ملاصقة تمام الملاصقة : وجعلت ما يلي الهواء أغلظ مما سواه لتقاوم على تحمل ما يحيط بها .

(٣) وجعلت الكيوتين لمنع الماء من البخر .

(٤) وجعلته سميكا فى البلاد الحارّة رقيقا فى غيرها .

(٥) واذا كانت هذه البشرة قد أعدّت لمنع دخول ماهوخارج عنها لحفظ النبات ، والنبات لايصبر عن الهواء الخارجى ، فقد قضت الحكمة أن تكون فيها ثقوب ليدخل منها الهواء لحياة النبات .

(٦) ثم كيف كانت نفس هذه البشرة مزروعة بشعر يخرج منهافيحفظ بكثرته ما فى باطن النبات من الماء ، ويمنع تأثير الضوء الخارجى ، فالشعر إذن ذومنفعتين داخلة وخارجة .

(٧) ولما كانت البشرة وشعرها لاتكفى لمنع الحيوان قضت الحكمة أن يكون فى الشعرمادّة يكرهها الحيوان فيحفظ النبات .

(٨) ياليت شعرى : ما هذه الكتل المثلثة المرتبة على هيئة دائرة فى الحزم الوعائية (شكل ١١) وما هذا التنظيم الجميل ؟ .

(٩) ثم ماهذا الخشب (شكل ١٥) الذى ينقل العصارة من الجذور إلى الأوراق وغيرها ، إذن هو فى النبات قائم مقام القطار فى سكة الحديد ، أوالمراكب الشراعية لنقل المير .

(١٠) ثم ماهذه العرابيل (شكل ١٤) التى تنقل ما تمّ نضجه فى الأوراق كالمادّة السكرية ونحوها إلى أجزاء النباتات الأخرى ، فهذه الغرابيل أشبه بالخدم يقدّمون الطعام إلى ساداتهم .

(١١) ثم ماهذه الألياف ؟ وماهذا المسمى [الكمبيوم] الذى يتحوّل تارة إلى لحاء وتارة إلى خشب (شكل ١٥) فيزداد الساق غلظا ، إذن هوأشبه بمقوّم لما نرفع عليه بيوتنا ، فهو مقوّ للساق ، والساق يرتفع عليه البنيان .

(١٢) ثم ماهذه الحلقات السنوية (شكل ١٩) و (شكل ٢٠) .

(١٣) ثم ماهذه الحلايا التى جعلت مخازن لنحو السكروالنشاء والزيت .

(١٤) عناية جليلة وأمر بديع ، وهنا نسائل أنفسنا : ماهذه الأعمال كلها ، وماهذه البدائع ، أعراس والله وأفراح ، وزينة منصوبة ، لجلّ الله الذى غشى على عقولنا فلم نعرف هذه الزينة البديعة ، شمس تضيء ونورها يمتدّ على الأرض ، وبه حياة النبات ، ولكن النبات اذا أحسّ بشدّة ضوئها ظهرله شعركشعرالانسان ، وذلك الشعر يحميه من شدّة ضوئها كمايساعد البشرة فى حفظ الماء فى داخل النبات من البخر .

هذه أعمال عجيبة وجيلة ، ولِمَ كانت هذه كلها ، إنما كانت لأجل حياتنا نحن فى الأرض ، ربع مليون من أنواع النبات ، وكلها ذات أفراح وأعراس وجمال و بهجة ، وكلها لأجلنا نحن ، ثم اننا نرى فى أنفسنا من العجائب والبدائع أضعاف مارأينا فى النبات ، والا فما هذه القرنية فى العين [انظر هذا المقام مفصلا فى سورة آل عمران وفيما تقدم فى هذه السورة قريبا فهى أكثر تفصيلا : تلك القرنية الشفافة ، ومن تحتها العنكبوتية والقزحية ، وانسان العين فى وسطها ، ثم ماهذه البلورية ، وهى المسماة أيضا عدسية وجليدية أيضا ، ثم ماهذه الرطوبة البيضية فى أوّل العين ، والرطوبة الزجاجية التى بعدالعدسية ، ثم ماهذه الشبكية والمشيمية والصلبة ، تلك الطبقات والرطوبات المنتظمات اللاتى أدهشن العلماء بنظامهن الدقيق ، واذا كنا نرى النبات قد حفظت الشعرات الدقيقة على البشرة ما فيه من ماء ، ومنعت عنه مايزيد من الضوء ، وهكذا نرى فى البشرة ثغورا مدخلات فى الذات الهواء ، فهكذا رأينا أهداب العين حفظها من دخول الغبار وان أباحت دخول الضوء ، وساعد على ذلك شعر الحواجب .

سبحانك اللهم يا خالق هذا الكون القدوس ، تقدست أن تفعل الا بالحكمة ، صنعت هذه النباتات كلها ،

وجعلتها قوادم لنا ، وأودعت فينا حكما لاحدّ لها كلها للمحافظة على حياتنا ، إذن حياتنا أمر عظيم ، وكيف لا يكون عظيما ، وهذه العين كما سبق قد كملت أوصاف وضعها ، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها لايزيد سمكها عن الورقة مقسمة عشر طبقات ، وفى آخرهنّ اسطوانات ومخروطات تعدّ بالملايين كلهنّ جعلن لأجل ابصارنا ، هذا كله لحياتنا نحن .

الله أكبر : حياتنا لاقيمة لها والله إلا بأن نعلم هذه العجائب ، وهذه هى التبصرة المذكورة فى الآية ، فبدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتكون لنا بصائر ، وتتمرّن على النظام والحكمة ، وتتسع قوانا وتنفع أممنا ، هذه هى التبصرة ، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم فى أوروبا وأمريكا واليابان ، لماذا ؟ لتعطيهم التبصرة فلذلك ارتقوا فى الحياة ، إن الانسان عند مشاهدة هذه الحكم يكون مطلعا على أعمال معلم النبيين والمدرّسين فى الأرض ، بل الانسان إذ ذاك يشهد الملكوت بنفسه .

رجال أوروبا وقوّاد شعوب أمريكا كلهم يدرسون أمثال هذا بهيئة أوسع ، وهذا عين قوله تعالى : « تبصرة » والانسان بدون تبصرة لاقيمة لحياته . ذلك أن هذه النباتات ونحوها الموزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء فحسب ، وانما هذه المذكورات مغريات بالدراسة ، والدراسة توسع العقول وهو المقصود ، وهذا معنى التبصرة ، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها فى المدارس الثانوية كما تدرس فى جميع الأمم حولنا لنفهم قوله تعالى : « تبصرة » . فأفّ لمن مات وهو بهذه العجائب جهول ، وأفّ لأمم الاسلام بعدنا اذا هم أهملوا ما ذكرناه . وأقول وأنا واثق بما أقول : ان أمم الاسلام بعدنا خير أمة أخرجت للناس ، وسيكون رقّ الانسانية على يديهم ، وهذا الكتاب من مقدّمات نهضتهم ، والله هو الولىّ الحميد .

المقالة الثالثة فى قوله تعالى : وذكرى لكل عبد منيب

عرفنا اجمال علم النبات ، وعرفنا كيف كان تبصرة فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكرى ، درسنا النبات ، وعرفنا عجائبه ، وازدادت بصائرنا فصارت عقولنا راجحة لأنها مرنت على ما رأته من الحكمة ، فهى لامحالة تكون حكيمة فى أقوالها وأفعالها ، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول : لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتى أنا ؟ ، والاجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تتذكر : أى تتذكر عالمها الذى أخرجت منه ، إن المادّة جميعها نقط ضوئية أصلها كهارب ، والكهارب نواتج من موجات فى بحر الأثير ، وهذه الأضواء صارت موادّ نراها مختلفة الأشكال وهى غليظة ، ولكن أرواحنا أرقى منها ، فهى جاءت من عوالم أرقى ، فهذه الدروس تذكرها بعالمها ، وهو عالم الجمال والحكمة .

ايضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت الملهم المعلم خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاما تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء ، ثم خلقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها ، وقلت لنا : « هاؤم اقرءوا كتابيه » فقرأناه فوجدنا عجبا ! وجدنا أننا نعمل لازالة هذه الآلام ، وفى أثناء ذلك نجد عندنا أمرا عجيبا ! وهى لذات نحسّ بها فى نفوسنا من الدراسة ، وهذه اللذات نوع آخر شريف نحسّ به عقولنا كما نحسّ بالطعام معدتنا ، نرى الناس ما داموا أحياء لايسعدون إلا بصور تدخل عقولهم فتفرحهم ، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والنثر ، ومحادثات الاخوان ، وقراءة الجرائد والأخبار ، ولن نرى أحدا فى الأرض يشبع من دخول الصور عقله كل لحظة ، لأن التفكر لايقف لحظة ، ولامعنى للعقل إلا بصور ذهنية ، وكما تنوّع

النبات فكان منه مايمتد على الأرض ، ومنه مايوضع فوق عروش ، ومنه شجر ، ومنه نجم : أى لاساق له وهو أنواع شتى ، وكل منها له غرض فى حياتنا ، هكذا الصور الذهنية ، فالسمع أعدّ لمدارس العالم كلها وللروايات والمحادثات ، والبصر أعدّ لصور العوالم كلها ، وأمامه كل نبات ، وكل حيوان ، وبحر وبرّ ، فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتغتذى بها ، النفس لاتفتأ تقبل كل صورة أرضية وسماوية من منظار العين ، وكل صورة مصدرها منطق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى ، وتقبل الروائح من الأنف وأنواع اللذات من حاسة اللمس والذوق ، إذن هنا صور لاحدّ لها غذاء لأرواحنا ونحن لانعلم أنها غذاء لنا ، أوّلا لأنها كثيرة جدّا فغفلنا عنها كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفعته ، وثانيا لأنها لايصحب غيبتها آلام كآلام الجوع والعطش بغيبة الطعام والشراب بل يكون الشوق بدل الألم ولاحياة للانسان بدونها بل هى ملازمة له ماد ام حيا ، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنما هو الطعام ، وفاتهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائما ، فغذاؤها دائم لامقطوع ولاممنوع ماداموا فى الحياة وهو ألزم لهم من الطعام ، وهذه الحال أشبه بضرب مثل للذات الناس فى عالم الأرواح ، لأن الروح لاغذاء لها أفضل من العلم والحكمة اذا كانت من الأشراف العظماء ، غاية الأمر أن الصور هناك لاسخافة فيها كسخافة الصور العقلية لذوى النفوس الضعيفة فى الأرض فهم يشمئزون بالأعداء فيظنون أنهم سعداء بهذه الشمائة وهم غافلون ، فهذا غذاؤهم كما تتغذى الفيران والحشرات بالقاذورات .

أما الأرواح الشريفة العالية بعد الموت فانها تتوارد عليها صور جميلة علمية ، وهذا الذى نراه فى عجائب العين نوع منها ، فهذه كما أنها غذاء لعقول شريفة هنا هكذا تكون تغذيتها أعظم للروح اذا خلصت من الجسم ويشير إليه ماورد فى الأخبار أنهم يلهمون التسبيح كما نلهم نحن النفس ، وماهو التسبيح ؟ هو التنزيه والله منزه عن النقص فى أفعاله فتكون أفعاله كاملة ، وهذا هو الكمال والحكمة ، هذا الذى تقدّم فى النبات ونحوه نموذج لحكمة الله تعالى ، وهذه الحكمة هى التى بها تنزه الله عن النقص فى فعله ، وهذه اللذة العلمية يحسّ بها الناس الآن فى الدنيا ، بل يرونها أعظم اللذات ، فهى هى حقائق التسبيح ، فالتسبيح اللفظى عنوان عليه والا فلامعنى لحقيقة التسبيح إلا بأمثال ما ذكرناه والله يقول : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض » الخ ويقول : « يسبح لله مافى السموات والأرض » الخ .

التسبيح والتحميد والتكبير

جاء فى الحديث : « ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر » وجاء فى القرآن : « وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » والمسلم يسبح فى كل ركوع وسجود ، ووراء الصلوات ، وقبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة ، فهذا التسبيح والتحميد والتكبير غراس الجنة ، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون : « إن كما يفعل تسبيح المخلوقات باللفظ ونحن لانسمع » ويقول آخرون . كلا . بل هو تسبيح بلسان الحال .

واعلم أن الناس ماداموا على شاطئ بحر المعرفة فانهم يختلفون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ نهر أو بركة فى كثرة الأسماك وقلتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التى يراها ، فاسمع الحقائق الواضحة ودع القشور ، هذا التفسير فيه من كل فاكهة من فواكه العلم زوجان ، فاعجب لما ذكرتك به آنفا كيف ترى هدب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات ، وكيف تكون مادّة [الكيوتين] حائطة للماء فى داخل النبات كما يحفظ لون القرحية الصور الداخلة فى العين من التشويش كما رأيته مبرهنا

عليه فى أوّل هذه السورة فى تفسير البسملة مع آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وههنا حكمة ومعها آلاف الحكم مرّت وستمرّ فى هذا الكتاب ، ألست أيها الذكىّ تحسّ فى نفسك متى طاب الوقت ، وصفا الزمان ، وخلوت من المشاغل الشاغلة لك أنك أسعد من على الأرض لأنك كأنك فى حضرة الجمال والحكمة ، ألست ترى فى نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك فى ذلك الجمال والحكمة ، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم المعجب بهذا الجمال فى الدنيا حياة فوق كل حياة ، والناس فى الأرض جميعا تبع لهذه الطائفة الممتازة بصفاء البصيرة والحكمة ، إن العين وطبقاتها ، والنبات وعجائبه ، وكل نظام منظور ومسموع يحدّثنا حديثا حقا ويقول : أنتم شهدتم الحكمة ، وشهدتم النظام ، وهذا الحديث الذى نشعر به هو سرّ التسبيح ، لأن العقل حالا يشهد شهادة عيان أن العالم فى غاية النظام ، وإذن منظمه حكيم ، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لاحدّ لها ، وهذا هو الحمد بعينه ، فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك » إذ لا معنى لتنزيه عن النقص إلا بالكمال ، فالله منزه عن النقص فى أفعاله ، وذلك بالحكمة فى النظام ، والحكمة فى النظام نجم عنها نعم كثيرة ، وهى التى تستوجب الحمد ، ومع هذا كله فهذه النعم وهذه الحكم كلها شىء يسير بالنسبة لصانع العالم ، فإذن يقال : الله أكبر : هذا هو السر فى طلب التسبيح والتحميد والتكبير فى كل آن فى الدين الاسلامى ، إذن هذه بذور بذرت فى بلاد الاسلام كما أن الله عزّ وجل أودع فى نباتات البرية وغيرها بذورا ، وأمر الرياح أن تحركها فجرت هنا وهناك ، ونبتت فى أماكن شتى لمنفعة كل حيوان ، ولكن رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندر من الكبريت الأحمر ، ونظيرهم هنا فى التسبيح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين سيكثرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ولكنهم قوام هذه الأمة ، وهم هم الذين عرفوا سرّ التسبيح والتحميد ، وهم الذين يفهمون سرّ الحديث الشريف : « وأن الجنة غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقولون ان الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الجنات الحسية ، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسبيح وهو العبادة بتكرار اللفظ فى المناسبات المتقدّمة ، والعامة لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون .

أما أكابر الأمة فهم هم الذين شهدوا هذا النظام ، وأصبحوا فى نعمة لاحدّ لها ، مبدؤها فى الدنيا وبعد الموت مباشرة يحسون بمالا حدّ له من النعيم لأن أرواحهم تفرّغت لما كانوا يعشقون فى الدنيا ، إذن التسبيح اللفظى فى الحقيقة أشبه بمقدّمة للتسبيح الحقيقى الذى يفقهه الحكماء فى الاسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : ماذا تقول فى الشيخ الدباغ ؟ فقلت : لقد نقلت عنه فى التفسير كثيرا ، وهو رجل مفتوح عليه فقال انه يخالفك فانه يقول انه كان فى بداية أن فتح عليه يستحم فى ماء فسمع أصواتا لاحصر لها تسبح الله ، فخرج يجرى من فوره ، وسمع أصوات الأحجار بلغات مختلفات ، وسمع حجرا منها له أصوات مختلفات فى التسبيح ، ثم بحث عنه فعرف أنه معجون من أحجار كثيرة .

فهذا دليل على أن تسبيح المخلوقات لفظى . فقلت : أوّلا نحن لاندرى هل هذا القول المنسوب له ورد عنه أم لا ؟ وان كان فى نفس الكتاب . ثانيا أنه سمع ذلك وهو فى أوّل أن فتح عليه ، وما هذه الأصوات المختلفات بالتسبيح إلا كتسبيحنا نحن ، وما تسبيحنا إلا أنماط تدل على معان ، وإملاء عقولنا بالمعانى المفصلة

هوالمطلوب كما أن تسبيح هذه العوالم يقصد منه ماوراءه وهوأنها تعرف هذه المعانى على التسليم بأنها تعقل ، وما تسبيح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلاخوارق للعادات ، وخوارق العادات غير مقصودة لحكماء الأمم الاسلامية وعقلائها ، والقرآن صرّح بأنه لا مدار عليها ، فرجع الأمر إلى أن المسبحين بعد أن كانوا عددا معلوما وهم بنوآدم أصبحوا أعدادا لانهاية لها ، واذا كان تسبيح المسلمين العقلاء أنفسهم لاقيمة له إلا بمدلوله ومدلوله هى هـذه العلوم التى ندرس بعضها فى هذا التفسير ، فاذن التسبيح الحقيقى لكل عاقل من ملك وانس وجنّ إنما هوماشرحنا بعضه فى هذا الكتاب ، إذن التسبيح اللفظى إنما هونموذج والتسبيح الحقيقى هوالمقصود ، فاذا سمعنا الله يقول : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض » واذا سمعناه يقول : « يسبح له مافى السموات والأرض وهوالعزيزالحكيم » عرفنا أن هذا هومعناه ، فأما عقلاء بنى آدم فان تسبيحهم اللفظى مقدمة لهذا التسبيح ؟ فليسبح المسلمون فى جميع الأوقات ، فهذا عبادة فى حدّ ذاته ، وأكابرهم يصلون للحقائق وينفعون بها اخوانهم فى الدنيا والدين ، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان ، وبنوآدم له زارعون ، وعلماء النبات فى نوع الانسان كحكماء الاسلام فى أمة الاسلام .

فقال صاحبى : هذا حسن ولكن أليس الكلام على التسبيح والتحميد كان الأليق به آخر ﴿ سورة الطور ﴾ عندقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم» الآية ، أوأوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ : « سبح لله الخ » فقلت نعم ان هذه المعانى كلها خطرت لى وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بهاتين الآيتين اللتين ذكرتهما ، ولكنى بعد ذلك حين قدّمت هذه السورة للمطبعة وجدت أن الآية فى هذه السورة يعوزها الكلام على النبات ، ووجدت المناسبة تامّة فجعلتها فى هذا المقام لهذه المناسبة . فقال : وهنا سؤال آخر ، وهو : هل آية « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » يعوزها هذا كله ؟ فلت نعم وأكثر منه . فقال : ولكن المتقدّمون لم يطيلوا فى مثل هذا كما أطلت أنت . فقلت : قد أطالوا أكثر مما أطلت أنا . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التى بها يضبطون تلك الأمم فكان علم الفقه إذ نبغ أمثال امامنا الشافعى وأبى حنيفة ومالك وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضى الله عنهم أجمعين فعلموا ملوكهم ، وأقاموا الدين بالقسط ، ولم يدعوا العامّة يتخبطون فى ديجور الظلام ، بل سهلوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها ، فهم رحمهم الله أفادوا وأجادوا فيما يحفظ كيان دولهم ، ويحفظ العبادات ، ونحن جئنا فى زمان وجدنا الأمم الاسلامية كثيرة ، والأحكام مدوّنة ، والعلماء كثيرون والحمد لله ، ووجدنا الأمم فى الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم ، ووجدنا القرآن اهتمّ بها اهتماما عظيما ، فرأيت بل أيقنت أننى يجب علىّ أن أؤلف لهذه الأمم الاسلامية أعظم علوم الاسلام لكى نترك لعظماء الاسلام بعدنا الطريق ممهدة ، ليربوا هذا الشعب المسكين التربية التى لم تكن لتحدث فى الزمان الماضى لأن الأمم لم تكن مستعدّة لها ، والقرآن جاءنا بأمرين اثنين : أوّلهما نظام الأمم وحكمها وتهذيبها ، وثانيهما تربية العقول تربية راقية علمية حكمية ، ولما كانت الفرس والروم أيام السوّة قد اختلت دولهم ، وورث المسلمون أرضهم وديارهم ، ونساءهم وأموالهم ألهم علماءهـم وأئمتهم أن يعينوا ملوكهم بتلك الأحكام ، ويعينون المحكومين بما يجب عليهم فى أحوالهم الخاصة فنفعوا عباد الله ، ثم دالت دولهم ، وأصبحنا اليوم نرى أممنا وأممنا وعلوما وعلما ، فلنفعل نحن فى هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم مافعله آباؤنا فى تلك الأحكام ﴿ وبعبارة أصرح ﴾ اذا رأينا آيات الطلاق المعدودات ، وآيات الدين وغيرها تؤلف لها كتب تعدّ بالآلاف عند الطوائف المختلفة ، وذلك كان واجبا فى ذلك الزمان ، فهكذا نحن فى زماننا نفعل ما فعله آباؤنا فى زماننا بعد أن أتموا ماعليهم ، واذا سمعنا الشافعى رضى الله عنه يستخرج من آية : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » نحو ربع الأحكام الشرعية وهو القياس ،

ويقول انها توجب علينا القياس ، واذا رأينا آية الوضوء تستنفد جهد العلماء فى التأليف وتشغلهم شغلا عظيما فأولى ثم أولى ثم أولى منها آية « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . إن الوضوء شرط للصلاة ، والصلاة للتسبيح والتحميد ، والتسبيح والتحميد نتيجتهما هذه المعارف ، والعلوم والمعارف هى المخبوءات فى نحو هذه الآية ، وأنا واثق جدّ واثق ، بل كأنى أشاهد أمامى أمم الاسلام فى أقرب زمن وفيما بعد إلى ماشاء الله ، وهم يدرسون كل علم ، ويرون أن مانكتبه الآن ان هو إلا مذكرات لما يدرسون ، ومقدمات لما يعلمون ، ونور لما هم به مستبصرون ، والله من ورائهم محيط . والله بكل شىء عليم ، وفوق كل ذى علم عليم ، والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الثلاثاء ٦ اكتوبر سنة ١٩٣١ م

جمال العلم وبهجة الحكمة

ها نحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها ، والسماء وسعتها وكواكبها ، فاذا كانت أعيننا لاحدّ لعجائبها ، وهى مركبة فى أجسامنا المشتقة من أرضنا فكيف تكون عجائب أرضنا ! هى بالأولى لاحدّ لها ، ونذكر منها قلا من جلّ بعد ما كتبناه فيما سبق فى هذا التفسير مثل ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » وغيرها ، فنشرح وادى الموت وغور الشيطان والجليد الخ :

(١) أما وادى الموت فهو فى الجنوب الشرقى من أمريكا ، ومادخله أحد إلا مات لشدّة حرارته ، فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان ، ولكن فيه كنوز عجيبة ، وماهى هذه الكنوز ؟ هى [البورق] وقد كشفه رجل اسمه [هارون ونترس] كان يسكن بعيدا عن ذلك الوادى بمئات الأميال ، فذكر له رجل أنه اذا مزج البورق بمادّة كيماوية معلومة اشتعل بلهب أزرق ، فتذكر راسبا أبيض فى طرف ذلك الوادى ، فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل ، وابتاعا بعض ذلك من الأمريكيين الحمر ، وامتحن ذلك الراسب الأبيض ، فوجد لهبه أزرق ، فطار فرحا ، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه ، ولقد وجدوا فى ذلك الوادى مناجم كثيرة للبورق ، ولكن الصعوبة فى نقله ، لأنه يميت من يدخله ، وقد مدّوا لوادى الموت سكة حديدية ، وأنشئت قرية للعمال فى نفس الوادى ، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدما ولهم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم ، فيه جميع مايلزم للراحة ، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس ، والآجر الذى بنى به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة ، واذا كانت درجة الحرارة فى الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهى فى غرف النوم لم تزد عن ٨٩ درجة ، لأنهم يبرّدون هواء البناء بجعله يمرّ فى رشاش الماء ، ويستخرجون من ذلك الوادى كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق ، وهى تساوى نصف مليون جنيه ، واذا بيعت فى بلاد الانجليز فانها تساوى ستة ملايين وستمائة ألف جنيه ، هذا ماجاء فى كتاب العلم والعمران ، وهل لك أيها الأخ الذكىّ أن تتذكر ماتقدّم فى ﴿سورة ابراهيم﴾ إذ ذكرت لك هناك «البحر الميت» وأن ثروته أكبر من ثروة جميع المسلمين الآن فى الأرض ، وقد جهلها المسلمون وعرفها الفرنجة وهم يستخرجونها ، وهاهو ذا وادى الموت الذى لايصلح للحياة ظهر أنه كنز عظيم ، وهذا هو قوله تعالى : «والأرض فرشناها فنعم الماهدون» وقوله تعالى هنا «والأرض مددناها الخ» نعم الله ممدوح على تمهيد هذه الأرض ، فلمعادن الجيلة النافعة يجعل استخراجها صعبا ، والمزارع يجعلها فى غاية السهولة ، وما أشبه إدراك الحقائق التى يجهلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت فى فلسطين ووادى الموت فى أمريكا ، كلاهما يعرفه الناس فى حال جهالتهم ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء ، فاذا جاء أهل العلم استخرجوا مايشاءون من الكنوز ،

هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا ، يراها العالم والجاهل على حدّ سواء ، فالجاهل يحقر البحث فى هذه العجائب والعالم هوالذى يعرف قيمتها و يصرف نفيس عمره فى المعرفة كما تجشمت انكلترا مشاق الحرب فى الحرب العظمى ، و بلغت ما ربها فى البحراليت ، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات فى استخراج كنوز وادى الموت وهوالبورق الكثير هناك .

أيها الذكىّ : اصرف عمرك كله فى استخراج حقائق العوالم فأنت سعيد بذلك الاستخراج وقوم بعدك سيقلدونك فى ذلك ، وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالتى فى وادى الموت والتى فى البحراليت ، فهذه كنوز أقلّ من كنوز العلم ، ونفس مانكتبه الآن وأمثاله كما يحث الناس على الأعلى يحثهم على الأدنى ، ولكل من الناس درجة فى عمله والله هوالولىّ الحميد .

(٢) [غورالشيطان] : أما غورالشيطان فهو غور فى أرض صخرية بولاية [اريزونا] من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر وهوكبير مستدير ، قطره نحو ١٣٠٠ متر وعمقه ١٧٥ مترا ، وهذا الغور انما حصل بسبب جرم سماوى مزّق ما وقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع ، وكانت سرعته تزيد على سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفا ، فكسرالصخورالصلبة وسحق الهشة ، فانتشرت الكسر والسحيق حول الغور فى أرض مساحتها ٧٥ ميلا مربعا ، ولقد زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى ، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية ، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاتين والاريديوم ونحوها من المعادن الثمينة ، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لحفر بئر يصل إلى الجسم النيزكى الذى أحدث هذا الغور ، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه ، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدما ، وهناك أصابت جسما أشدّ صلابة من الفولاذ ، لا تفعل فيه القنابل وترتدّ عنه ارتداد الحصى عن الصخر ، وهذا الجسم العجيب النيزكى الذى ترى هذه الشركة أنه كنز عظيم ، يقدّر قطره بنحو ٣٠٠ قدم ، ويقدّر ثقله بمليون طن ، و بعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ماذكر ، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها مائة أكثر من ٣٠٠ مليون طن و بعثر ماحوله

(٣) الكلام على الجليد والفحم القطبى : إن العصر الجليدى الأخير الذى أصاب الجانب الشمالى الغربى من أوروبا : أعنى ارلندا واسكتلندا وأسوج ونروج والبلطيك ، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة و ١٨ ألف سنة ، ودام الى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، إن القطب الجنوبى قد كشفت فيه طبقات ضخمة سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل ، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبى ، و بعض هذه الطبقات رقيق جدا ، ووجدت آثار الجذور فى الطين الذى وجد مع الفحم الحجرى ، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارّة وكانت الأشجار تغطيها عصورا متطاولة ، وذلك على مقتضى انتقال القطبين ، انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة فى آية : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى » الخ والحمد لله رب العالمين .

ههنا ثلاث جواهر

الجوهرة الأولى فى بهجة العلم فى قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

الجوهرة الأولى

بهجة العلم فى قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

سيأتى فى ﴿ سورة الذاريات ﴾ الكلام على الذكور والأناث من النبات ، وأن علماء النبات حاروا فى تقسيمه ، فان قسموه بواسطة مايرون من شجرات وشجيرات وأنجم ، وهى الزروع المعروفة التى لاساق لها فان ذلك التقسيم لايفيد وكيف يفيد إلا بتحديد الاقسام تحديداتاما ، وان قسموه بواسطة أنه نبات سنوى وغير سنوى كما سيأتى ، فهذا غير كاف ، لأن البرسيم مثلا وحده بعضه سنوى و بعضه غيرسنوى ، فاذن قدالتجأوا أخيرا إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة فانتظمت الأقسام حينئذ ، ورأوا أيضا أن من الأزهار ما يكون ذكرانها على شجرة و إناثها على شجرة أخرى كما سيأتى إيضاحه هناك ، وذلك كشجرالنخل ، فاذا كان بين النخلة والاخرى مسافة بعيدة ، فان الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى ، والانسان لاعلم له بهذا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

حكاية

جاء فى كتاب [الآيات البينات ، فى علم النبات] للاستاذ أحمد أفندى قدرى مانصه : « إن التلقيح فى النباتات ذات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم ، وهناك عدّة أمثلة نافعة لبيان هذه الظاهرة فكان منذ زمن طويل يستنبت شجرتان من الفستق الأنثى ، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهارا ولايتحصل منهما ثمار أصلا ، فتعجب المعلم [جوسيو] لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعقدت ثمارهما ونضجت على ماينبغى فى سنة من السنين ، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لابدّ أن يكون ببار يز أوفى أكنافها شجرة فستق ذكر حاملة لأزهار ، فشرع فى البحث عن ذلك ، فعرف أن شجرة فستق ذكر أزهرت أول مرّة فى جنينة تربية النباتات الكائنة بقرب [لوكسامبور] فأتى الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريز ولقح نبات الاناث ، وهناك نبات يسمى [السنيريا سيرالس] أى الحلزونى الذى هو نبات ذومسكنين (من الفصيلة البشنينية) ينبت بمقدارعظيم فى الترع وفى القنوات ، ففى هذا النبات ظاهرة عجيبة جدا فى زمن تلقيحه ، وهى أن يكون النبات موضوعا فى قاع الماء أى فاطنا فيه تماما ، وذكوره وإناثه تنبت مختلطا بعضها ببعض ، فالأزهار الاناث المحمولة على ذنيبات زهرية طولها قدمان أوثلاثة تقريبا ، وملفة على هيئة حلزون تأتى على سطح الماء لكى تبتسم ، وأما الأزهار الذكور فكل جلة منها تكون موضوعة فى لفافة غشائية وهى محمولة على ذنيب زهرى قصير جدا ، فاذا أتى زمن التلقيح تفتح وتمزق الملفافة القرطاسية ، وتنفصل من حاملها الزهرى العام ، وتأتى على سطح الماء فتبتسم وتلقح الأزهار الاناث ، و بعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الاناث تحت الماء ، ثانيا بالتفاف الذنيبات الزهريه الحلزونية التى تحملها ، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام » انتهى

أقول : وهذا من أعجب العجب ! ان هاتين العجيبتين تفتح لنا أبواب علوم كثيرة ، كيف لا وهذه شجرة الفستق كانت لاتثمر وهى أنثى ، ولكن لما طهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت ، إن هذه الدنيا جميلة وبديعة ، أليس هذا من أعجب الابداع ، يلقح النبات من نبات آخر والناس لايعلمون . وكيف يكون البشنين نابتا فى برك بلادنا ونحن ننظر إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت فى البرك ولكنا نراه نضحك وهيئة أزهاره جميلة ، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب فى حال طفوليتنا أن هذه الزهرة الضاحكة المستبشرة هى الأنثى ، وأن الذكران قد انتبذوا مكانا قصيا فى قاع البركة ، وانهم وقت الالقاح هم بدورهم سيخرجون

من أجدادهم سراعا وهم فرحون مستبشرون ، فيجدون هؤلاء العانسات واقفات منتظرات قدومهم فيحصل الالقاح فى أمن وأمان ، ولم يبق لهؤلاء الذكران من فائدة ، أما الاناث فانهن ينزلن إلى قاع البركة ، وهناك يتم نموّ الثمرات « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فلنتذكر فى أمر السياسة ونقول :

إن الله الذى خلق النبات هو نفسه الذى خلق الأمم ، ولقد يخيل لى الآن أن فى الشرق عقولا وتلك العقول كانت مغطاة فى قاع بركة هذه الدنيا كما ان ذكران البشنين كانت ملتفة بأغشية فى قاع بركة الماء وهاهوذا اليوم أقبل الزمان الذى فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتلقى على العالم دروسا كما ظهرت ذكور البشنين فى وقت الالقاح وفعلت ماخلقت له وتمّ الالقاح .

إن للشرق لصولة فوق صولة الغرب ، ومن هذه العجائب نفهم قوله تعالى : « لكل أجل كتاب » ، وقوله : « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير » . وقوله : « وكل شىء عنده بمقدار » .

واذا كان لقاح البشنين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لا بدّ منه ، وهل اللقاح غير التعليم ؟ الله أكبر ان من أنواع اللقاح فى الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير ، إن لقاح العقول الشرقية اليوم حاصل ، والشرق يغلى كما تغلى القدور : « وربك يخلق مايشاء ويختار وهو اللطيف الخبير » انتهى يوم الأربعاء أوّل يونيو سنة ١٩٣٢ م

الجوهرة الثانية

في قوله تعالى : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

رباه : جل فعلك ، وحسن قولك ، كم نتفيأ ظلال الأشجار ، ونجلس فى الحقول ، ونأكل من الفاكهة والحب مالذ وطاب ، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال ، وعن الحكمة ، وعن عجائب الابداع ، كم من ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولاندرى ماحكمتها ، تشرق الشمس وتغرب ، ويطلع القمر ويأفل ، ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوبار ، ولاندرى لماذا كانت هذه الأوبار أو الأشعار ، نظرت فى كتاب [جمال الطبيعة] للورد أفبرى صفحة ١٠٩ فألفيته شرح هذا الموضوع شرحا واضحا ، فاستبان به أن الوبر أعدته العناية الإلهية ، إما ليقى النبات من شرّ هاجم من خارج النبات ، واما ليكون حافظا لما فى النبات من قوّة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته ، فأما أوّل الأمرين فذلك :

(١) ان من النبات ما تعترضه الحيوانات السائمة فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الوبر وقاية له .

(٢) ومنه ماتهاجمه الحشرات فيكون ذلك الوبر حصنا حصينا .

(٣) ومنه ماتحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الوبر الكاسى للاوراق .

(٤) ومنه ماتلح عليه حرارة الشمس فيكون ظلّ تلك الأوبار حافظا النبات من البوار كما يحفظ جسم الانسان من الحر بالملابس : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »

ولوعلم المسلم أن نعمة الملابس ليست خاصة به ، بل هناك ملابس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له أيضا ومتاعا لحرّ صعقا ولدهش من تلك العناية التى تحير الألباب . هذا هو الأمر الأوّل .

أما الأمر الثانى فذلك أن من النبات ماينبت فى الصحراء فتلح عليه الشمس فيتطاير منه البخار ، فما الذى يحفظ حياة النبات إذن اذا حرج بالحاح الشمس بقية الرطوبة فى ذلك النبات ؟ أعدّ الله تلك الأنابيب

الشعرية الوبرية ، فهى المانعات من ذلك البخر فيعيش ذلك البات . هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

أيها المسلمون : لاحياة إلا حياة العلماء ، والجاهلون جميعا موتى ، فليكن الانسان عالما أومتعلما أومستمعا أومحبا كما فى الحديث ، وليحذر أن يكون كارها للعلم فذلك من الأخسرين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة

فى قوله تعالى : مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

لقد تقدم الكلام على هذه الآية فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ وقد ذكرنا هناك عشرا من آفات اللسان من [إحياء علوم الدين] للغزالى رحمه الله ، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا [جوهر التقوى] وأرجأنا بقية مافى الاحياء ومافى كتاب [جوهر التقوى] إلى هذا المقام هنا فى سورة ق فلنبدأ بالكلام على مافى الاحياء فنقول :

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرّم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والايماء ، واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة ، قالت عائشة رضى الله عنها : (١) حاكيت انسانا فقال لى النبىّ ﷺ والله ما أحب أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » : ان الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك ، وهذا اشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر ، وعن عبدالله بن زمعة (٢) أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال علامَ يضحك أحدكم مما يفعل ، وقال ﷺ (٣) « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلمّ هلمّ فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى ان الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه » . وقال معاذ بن جبل (٤) قال النبىّ ﷺ : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » وكل هذا

---

(١) حديث عائشة : حكيت انسانا فقال لى النبى ﷺ مايسرّنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا أبوداود والترمذى وصححه .

(٢) حديث عبد الله بن زمعة : وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل متفق عليه .

(٣) حديث : ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلمّ هلمّ فيجىء بكربه وغمه فاذا جاء أغلق دونه . الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا وروياه فى ثمانيات البجيب من رواية أبى هدبه أحد الهالكين عن أنس .

(٤) حديث معاذ بن جبل : من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله . الترمذى دون قوله قد

يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له ، وعليه نبه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيرا منهم » أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وانما المحرّم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه اذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أوعلى أفعاله اذا كانت مشوسة كالضحك على خطه وعلى صنعته أوعلى صورته وخلقته اذا كان قصيرا ، أوناقصا لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها . انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهىّ عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبىّ ﷺ (١) اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة ، وقال (٢) مطلقا (كذا) الحديث بينكم أمانة ، وقال الحسن : ان من الخيانة أن تحدث بسرّ أخيك ، ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسرّ إلى الوليد بن عتبة حديثا فقال لأبيه يا أبت ان أمير المؤمنين أسرّ إلىّ حديثا وما أراه يطوى عنك ما بسطه الى غيرك قال فلا تحدّثنى به فان من كتم سرّه كان الخيار اليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل و بين ابنه فقال لا والله يابنىّ ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السرّ ، قال فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال ياوليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فافشاء السرّ خيانة ، وهو حرام اذا كان فيه اضرار ولؤم إن لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السرّ فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الاعادة . انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فان اللسان سباق الى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا ، وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال ﷺ (٣) « العدة عطية » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « الوأى مثل الدين أو أفضل » والوأى الوعد ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال : « انه كان صادق الوعد » قيل انه وعد انسانا فى موضع فلم يرجع إليه ذلك الانسان بل نسى فبقى اسماعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره ، ولما حضرت عبد الله بن عمر

تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(١) حديث : اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة ، أبوداود والترمذى وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث : الحديث بينكم أمانة ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

(٣) حديث : العدة عطية الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبونعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا .

(٤) حديث : الوأى مثل الدين أوأفضل ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية أبى طيبة مرسلا ، وقال : الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث علىّ بسند ضعيف .

الوفاة قال انه كان خطب الى ابنتى رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله ثلث النفاق أشهدكم أنى زوّجته ابنتى (١) . وعن عبدالله بن أبى الحمساء قال : بايعت النبىّ ﷺ قبل أن يبعث و بقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال يافتى لقدشققت علىّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، وقيل لابراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلايجىء ؟ قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء ، وكان رسول الله ﷺ (٢) اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لايعد وعدا إلا و يقول ان شاء الله وهوالأولى ، ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلابدّ من الوفاء إلا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لايفى فهذا هو النفاق ، وقال أبوهريرة قال النبىّ صلى الله عليه وسلم (٣) « ثلاث من كنّ فيه فهومنافق وان صام وصلى وزعم أنه مسلم : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان » . وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « أربع من كنّ فيه كان منافقا ، ومن كانت فيه خلة منهنّ كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أوترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليه ماهو صورة النفاق ، ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ، ولاينبغى أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) كان وعد أباالهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين و بقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألاترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لأبى الهيثم فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم ؟ فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق بموعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة (٦) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس ، فقال : ان لى عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت ، فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها قال هى لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه

---

(١) حديث عبد الله بن أبى الحمساء : بايعت النبىّ صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال يابنىّ قدشققت علىّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، رواه أبوداود ، واختلف فى اسناده ، وقال ابن مهدى : ماأظن ابراهيم بن طهمان إلاأخطأ فيه .

(٢) حديث : كان اذا وعد وعدا قال عسى ، لم أجد له أصلا .

(٣) حديث أبى هريرة : ثلاث من كنّ فيه فهومنافق الحديث وفيه اذا وعد أخلف متفق عليه وقدتقدم .

(٤) حديث عبد الله ابن عمرو : أربع من كنّ فيه كان منافقا الحديث متفق عليه

(٥) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين و بقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة .

(٦) حديث : انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت الحديث ، وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك الحديث ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف ، قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر .

السلام فقالت حكمى أن تردّنى شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « ليس الحلف أن يعد الرجل وفى نيته أن يفى » وفى لفظ آخر : « اذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، قال اسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال (٢) قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال : إياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار ، وقال أبو أمامة (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » . وقال الحسن : « كان يقال : ان من النفاق اختلاف السرّ والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وأن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب » وقال عليه السلام (٤) : « كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا هو لك به مصدّق وأنت له به كاذب » ، وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) « لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (٦) ومرّ رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لأنقصك من كذا وكذا ويقول الآخر : والله لا أزيدك على كذا وكذا فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة ، وقال عليه الصلاة و السلام (٧) « الكذب ينقص الرزق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث : ليس الحلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى ، وفى لفظ آخر : اذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه ، أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى إلا أنهما قالا فلم يف .

(٢) حديث أبى بكر الصدّيق : قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال إياكم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبى بكر ، وانما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن .

(٣) حديث أبى أمامة : ان الكذب باب من أبواب النفاق ، ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ، ويغنى عنه قوله ﷺ : ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وحديث أربع من كنّ فيه كان منافقا قال فى كل منهما واذا حدث كذب وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها

(٤) حديث : كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا هو لك به مصدّق وأنت له كاذب ، البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان باسناد جيد

(٥) حديث ابن مسعود : لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، متفق عليه

(٦) حديث : مرّ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبو الفتح الأزدى فى كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى ، وهكذا رويناه فى أمالى ابن سمعون ، وناسخ ذكره البخارى هكذا فى التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ .

(٧) حديث : الكذب ينقص الرزق ، أبو الشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أبى هريرة وروياه

(١) « إن التجار هم الفجار فقيل يارسول الله أليس قد أحلّ الله البيع قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « ثلاثة نفر لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره ، وقال ﷺ (٣) « ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة » وقال أبوذرّ الغفارى (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يحبهم الله : رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أوظعن ، ورجل كان معه قوم فى سفر أوسرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل ، وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر ، أوالبياع الحلاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنان . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » . وقال ﷺ (٦) رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فاذا مدّه رجع الآخر كما كان فقلت للذى أقامنى ماهذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة ، وعن عبد الله بن جراد قال (٧) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت يانبىّ الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ، ثم أتبعها ﷺ بقول الله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ، وقال أبوسعيد الخدرىّ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) يدعو فيقول فى دعائه : اللهم طهر قلبى من النفاق ،

كذلك فى مشيخة القاضى أبى بكر واسناده ضعيف .

(١) حديث : ان التجار هم الفجار الحديث ، وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهقى من حديث عبد الرحمن بن شبل .

(٢) حديث : ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر اليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمسبل إزاره ، مسلم من حديث أبى ذرّ .

(٣) حديث : ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة الترمذى والحاكم وصحح اسناده من حديث عبدالله بن أنيس .

(٤) حديث أبى ذر : ثلاثة يحبهم الله الحديث ، وفيه ثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أوالبائع الحلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولايعرف حاله ورواه هو والنسائى بلفظ آخر باسناد جيد ، وللنسائى من حديث أبى هريرة أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف الحديث واسناده جيد .

(٥) حديث : ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ، أبوداود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

(٦) حديث : رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس الحديث : البخارى من حديث سمرة بن جندب فى حديث : طويل .

(٧) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبىّ ﷺ هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب ؟ قال لا ، الحديث ابن عبد البرّ فى التمهيد بسند ضعيف ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب ، وجعل السائل أبا الدرداء .

(٨) حديث أبى سعيد : اللهم طهر قلبى من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب ، هكذا وقع

وفرجي من الزنا ، ولساني من الكذب . وقال صلى الله عليه وسلم (١) ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر . وقال عبد الله بن عامر (٢) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبيّ صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : ياعبدالله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : أما انك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لوأفاء الله عليّ نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ، وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا (٤) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال ألا وقول الزور . وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) : « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به . وقال أنس (٦) قال النبيّ ﷺ « تقبلوا إليّ بست أتقبل لكم بالجنة فقالوا وماهنّ ؟ قال اذاحدّث أحدكم فلا يكذب ، واذا وعد فلايخلف ، واذا ائتمن فلايخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب ، وأما كحله فالنوم . وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال (٨) : قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشوالكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف و يشهد ولم يستشهد . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم (٩) « من حدّث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقال صلى الله عليه وسلم

فى نسخ الاحياء عن ابن سعيد ، وانما هو عن أم معبد ، كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله وفرجي من الزنا ، وزاد : وعملي من الرياء ، وعيني من الخيانة ، واسناده ضعيف .

(١) حديث : ثلاثة لايكلمهم الله ولاينظر اليهم الحديث وفيه : والامام الكذاب ، مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عبدالله بن عامر جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبيّ صغير فذهبت لألعب فقالت أمي ياعبد الله تعال أعطيك ، فقال وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : ان لم تفعلي كتبت عليك كذبة ، رواه أبوداود ، وفيه من لم يسم ، وقال الحاكم : إن عبد الله بن عامر ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ، قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهرى لم يسمع من أبي هريرة .

(٣) حديث : لوأفاء الله عليّ نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا كذابا ولاجبانا رواه مسلم وتقدّم فى أخلاق النبوّة .

(٤) حديث : ألاأنبئكم بأكبر الكبائر الحديث ، وفيه ألاوقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكرة

(٥) حديث ابن عمر : ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به ، الترمذى وقال حسن غريب

(٦) حديث أنس : تقبلوا الىّ بست أتقبل لكم بالجنة اذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، الحديث الحاكم فى المستدرك والخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائى ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد

(٧) حديث : ان للشيطان كحلا ولعوقا الحديث الطبرانى وابونعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٨) حديث : خطب عمر بالجابية الحديث وفيه ثم يفشو الكذب الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر

(٩) حديث : من حدّث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين ، مسلم فى مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب .

(١) « من حلف على يمين بأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حقّ لقى الله عزوجل وهوعليه غضبان » . وروى عن النبي ﷺ (٢) أنه ردّ شهادة رجل فى كذبة كذبها وقال ﷺ (٣) « كل خصله يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب » . وقالت عائشة رضى الله عنها (٤) : ما كان من خلق أشدّ على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم انه قد أحدث توبة لله عزّوجل منها . وقال موسى عليه السلام : يارب أىّ عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه . وقال لقمان لابنه : يابنىّ إياك والكذب فانه شهىّ كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال عليه السلام فى مدح الصدق (٥) : أربع اذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة طعمة . وقال أبو بكر رضى الله عنه (٦) فى خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما فى الجنة . وقال معاذ قال لى ﷺ (٧) أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح .

[وأما الآثار] فقد قال علىّ رضى الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت علىّ إزارى . وقال عمر رضى الله عنه : أحبكم إلينا مالم نركم أحسنكم اسما ، فاذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا ، فاذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبى شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف ان أنا كتبته زينت الكتاب ، وكنت قد كذبت عزمت على تركه فعزمت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . وقال الشعبى : ما أدرى أيهما أبعد

(١) حديث : من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : انه ردّ شهادة رجل فى كذبة كذبها ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا ، وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل .

(٣) حديث : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب ، ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث أبى أمامة ورواه ابن عدى فى مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبى وقاص وابن عمر أيضا وأبى أمامة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب ، قاله الدارقطنى فى العلل .

(٤) حديث : ما كان من خلق الله شىء أشدّ عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبى مليكة أوغيره ، وقد رواه أبو الشيخ فى الطبقات فقال ابن أبى مليكة ولم يشك وهو صحيح .

(٥) حديث : أربع اذا كنّ فيك فلا يضرّك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث ، الحديث الحاكم والحرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة .

(٦) حديث أبى بكر : عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما فى الجنة ، ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة ، وقد تقدّم بعضه فى أوّل هذا النوع .

(٧) حديث معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أبو نعيم فى الحلية وقد تقدّم .

غورا فى النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السماك : ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى انما أدعه أنفة . وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار : قرأت فى بعض الكتب : مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله ، فان كان صادقا صدّق ، وان كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك فى شىء ، فقال له كذبت ، فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقلّ درجاته أن يعتقد المخبر الشىء على خلاف ماهو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران : الكذب فى بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى اليك فقال أرأيت فلانا ؟ ما كنت قائلا ؟ ألست تقول لم أره وماتصدق به ، وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام وان أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فهما كان فى الصدق سفك دم امرئ مسلم قداختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ، ومهما كان لايتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغى أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى مايستغنى عنه والى مالايقتصر على حدّ الضرورة فيكون الكذب حراما فى الأصل إلا لضرورة ، والذى يدل على الاستثناء ماروى عن أم كلثوم قالت (١) ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الاصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدّث امرأته ، والمرأة تحدّث زوجها . وقالت أيضا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أونمى خيرا » . وقالت أسماء بنت يزيد (٣) قال رسول الله ﷺ « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما » وروى عن أبى كاهل (٤) قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبىّ ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ؟ فقد سمعته يحسن عليك الثناء ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبىّ ﷺ فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس

(١) حديث أم كلثوم : ماسمعته يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث ، مسلم وقدتقدم .

(٢) حديث أم كلثوم أيضا : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ، الحديث متفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا .

(٣) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب كتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما أجد بزيادة فيه ، وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه .

(٤) حديث أبى كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه : ياأبا كاهل أصلح بين الناس ، رواه الطبرانى ولم يصح .

أى ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار (١) قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أكذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب ، قال أعدها وأقول لها ؟ قال لاجناح عليك . وروى أن ابن أبى عذرة الدؤلى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتى يتزوّج بهنّ ، فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبدالله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لاتنشدنى ، قال فانى أنشدك الله ، قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أتسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه ، فقال : إنكم لتحدّثون أنى أظلم النساء وأخلعهنّ فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل الى امرأة ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها ، فقال : أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : إنى أوّل من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدنى فتحرجت أن أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قل نعم فاكذبى ، فان كانت إحداكنّ لاتحبّ أحدنا فلاتحدّثه بذلك ، فان أقلّ البيوت الذى يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والأحساب وعن النواس (٢) بن سمعان الكلابى قال قال رسول الله ﷺ « مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لامحالة إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فان الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها » . وقال ثوبان « الكذب كله إثم إلا مانفع به مسلما ، أودفع عنه ضررا » ، وقال علىّ رضى الله عنه : إذا حدّثتكم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلأن أخرّ من السماء أحبّ الىّ من أن أكذب عليه ، واذا حدّثتكم فيما بينى و بينكم فالحرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أولغيره . أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم و يسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه و بين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول مازنيت وماسرقت ، وقد صلى الله عليه وسلم (٣) « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » وذلك أن اظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وان كان كاذبا . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سرّ أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرّات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحبّ إليه ، وان كانت امرأته لاتطاوعه إلا بوعد لايقدر عليه فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها ، أو يعتذر الى انسان وكان لايطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودّد فلابأس به ، ولكن الحدّ فيه أن الكذب محذور ، ولوصدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشدّ وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردّد فيهما ، وعند ذلك

(١) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب قال أعدها وأقول لها ؟ قال لاجناح عليك ، ابن عبد البرّ فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا ، وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم بعضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

(٢) حديث النوّاس بن سمعان : مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب مكتوب ، الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بلفظ تتبايعون إلى قوله فى النار دون مابعده فرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب .

(٣) حديث : من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها . فمن ألمّ بشىء منها فليستتر بستر الله ، واسناده حسن .

الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أوحاجة مهمة ، فان شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحترز الانسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما اذا تعلق بغرض غيره فلاتجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به ، وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فواتها محذورا ، حتى ان المرأة لتحكى عن زوجها ماتفخر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرّات ، وذلك حرام ، وقالت أسماء (١) : سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لى ضرّة ، وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارّها بذلك فهل علىّ شىء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من تطعم بما لايطعم ، أوقال لى وليس له أوأعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة . ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لايتحققه وروايته الحديث الذى لايثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لاأدرى وهذا حرام . ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فان الصبى اذا كان لايرغب فى المكتب إلابوعد أو وعيد ، أوتخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الاصلاح ، ويتطرّق إليه غرور كثير وانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه ، وانما يتعلل ظاهرا بالاصلاح ، فلهذا يكتب ، وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهمّ فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا ، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لايجوز تركه كما لوأدّى إلى سفك دم ، أوارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح ، وهو خطأ محض إذقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار » وهذا لايرتكب إلالضرورة ولاضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إن ذلك قد تكرّر على الأسماع ، وسقط وقعه ، وماهو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس ، إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ، ويؤدّى فتح بابه إلى أمور تشوّش الشريعة ، فلايقاوم خير هذا شرّه أصلا ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لايقاومها شىء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض مايكفى الرجل عن الكذب ، وروى ذلك عن ابن عباس وغيره ، وانما أرادوا بذلك اذا اضطر الانسان الى الكذب ، فأما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلايجوز التعريض ولاالتصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون .

(١) حديث أسماء : قالت امرأة إن لى ضرّة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ، الحديث متفق عليه ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصدّيق .

(٢) حديث : من تطعم بما لايطعم ، وقال لى وليس له ، وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة ، لم أجده بهذا اللفظ .

(٣) حديث : من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار ، متفق عليه من طرق ، وقد تقدم فى العلم .

ومثال التعريض ماروى أن مطرّفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض ، وقال مارفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا مارفعني الله . وقال ابراهيم : اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب : فقل ان الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء : فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعنده للإبهام ، وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ماجئت به مما يأتي به العمال الى أهلهم ، وما كان قد أتاها بشيء : فقال كان عندي ضاغط . قالت كنت أمينا عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا ، وقال بعثت معك ضاغطا . قال لم أجد ما أعتذر به اليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئا : فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيبا ، وأراد به الله تعالى ، وكان النخعي لايقول لابنته أشترى لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لايتفق له ذلك ، وكان ابراهيم اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذبا ، وكان الشعبي اذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا ، وهذا كله في موضع الحاجة . فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب ، وان لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة . قال دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعليّ ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ، فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لي أبي يابنيّ اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا عرض باطل لافائدة فيه ، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح . كقوله ﷺ : « (١) لايدخل الجنة عجوز » ، وقوله للأخرى : « الذي في عين زوجك بياض » ، وللأخرى : « نحملك على ولد البعير » : وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرير . إذ قال له أنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمق بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدّي الى إيذاء قلب فهو حرام ، وان لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال ﷺ : « (٢) لايكمل للمرء الايمان حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب في مزاحه » ، وأما قوله عليه السلام « (٣) ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من الثريا » أراد به مافيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح ، ومن الكذب الذي لايوجب الفسق ماجرت به العادة في المبالغة ، كقوله طلبتك كذا وكذا مرة : وقلت لك كذا مائة مرة فانه لايريد به تفهيم المرّات بعددها . بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه إلا

---

(١) حديث : لايدخل الجنة عجوز ، وحديث : في عين زوجك بياض ، وحديث : نحملك على ولد البعير تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة .

(٢) حديث : لايستكمل المؤمن ايمانه حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب في مزاحه ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الدماري وقال فيه نظر ، وللشيخين من حديث أنس : لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة : لايؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه ، قال أحمد بن حنبل منكر .

(٣) حديث : ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم في الآفة الثالثة .

مرة واحدة كان كاذبا ، وان كان طلبه مرات لايعتاد مثله فى الكثرة لايأثم ، وان لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرّض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ، ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام فيقول لا أشتهيه ، وذلك منهىّ عنه وهو حرام ، وان لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد (١) قالت أسماء بنت عميس : « كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ، ومعى نسوة . قالت فوالله ماوجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن . فشرب ثم ناوله عائشة . قالت فاستحيت الجارية . فقلت لاتردّى يد رسول الله ﷺ خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولى صواحبك فقلن لانشتهيه . فقال لاتجمعن جوعا وكذبا . قالت فقلت يارسول الله : ان قالت إحدانا لشىء تشتهيه لاأشتهيه أيعدّ ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة » ، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب . قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه . فيقال له لو مسحت عينيك . فيقول وأين قول الطبيب : لاتمس عينيك . فأقول لا أفعل ، وهذه مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسلّ لسانه فى الكذب عن حدّ اختياره فيكذب ولايشعر . وعن خوات التيمى . قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه . فقالت كيف أنت يابنىّ خلس الربيع . وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ماعليك لو قلت يابن أخى فصدقت ، ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لايعلمه . قال عيسى عليه السلام : ان من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لايعلم وربما يكذب فى حكاية المنام ، والاثم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام « (٢) ان من أعظم الفرية أن يدّعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم يرأو يقول علىّ مالم أقل » ، وقال عليه السلام « (٣) من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، وليس بعاقد بينهما أبدا » .

الآفة الخامسة عشرة ، الغيبة والنظر فيها طويل

فلنذكر أوّلا مذمة الغيبة وماورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة . فقال تعالى : ـ ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ـ ، وقال عليه السلام « (٤) كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والغيبة

(١) حديث : مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث : وفيه . قال لاتجمعن جوعا وكذبا ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى الكبير ، وله ونحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ، وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن فى طبقات الاصبهانيين لأبى الشيخ من رواية عطاء بن أبى رباح عن أسماء بنت عميس زففنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث ، فاذا كانت غير عائشة ممن تزوّجها بعد خيبر فلامانع من ذلك .

(٢) حديث : ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم ترياأو يقول علىّ ماء أقل ، البخارى : من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفرى أن يرى عينيه مالم ترياً .

(٣) حديث : من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، البخارى من حديث ابن عباس .

(٤) حديث : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، مسلم من حديث أبى هريرة .

تتناول العرض ، وقد جمع الله بينه و بين المال والدم . وقال أبو برزة . قال عليه السلام « (١) لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وعن جابر وأبى سعيد « (٢) قالا . قال رسول الله ﷺ إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا : فان الرجل قد يزنى و يتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وان صاحب الغيبة لايغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم . فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس و يقعون فى أعراضهم » ، وقال سليم بن جابر (٤) أتيت النبى عليه الصلاة والسلام . فقلت علمنى خيرا أنتفع به . فقال « لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصبّ من دلوك فى إناء المستقى ، وأن تلقى أخاك بشر حسن ، و إن أدبر فلاتغتابنه » ، وقال البراء (٥) خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتهن . فقال «يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه : لاتغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم : فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » ، وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام « من مات تائبا من الغيبة : فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرّا عليها فهو أول من يدخل النار » ، وقال أنس (٦) أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم . فقال « لايفطرن أحد حتى آذن له : فصام الناس حتى اذا أمسوا جعل الرجل يجىء . فيقول يارسول الله ظللت صائما فائذن لى لأفطر : فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل . فقال يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وانهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا ، فأعرض عنه ﷺ فأعرض عنه ثم عاوده . فقال إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا : فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم فرجع الى النبى ﷺ فأخبره . فقال ، والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار » ، وفى رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك ، وقال يارسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال ﷺ (٧) ائتونى بهما فجاءتا

---

(١) حديث : أبى برزة لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولايعتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا متفق عليه من حديث : أبى هريرة وأنس دون قوله ولايعتب بعضكم بعضا ، وقد تقدم فى آداب الصحبة .

(٢) حديث : جابر وأبى سعيد اياكم والغيبة . فان الغيبة أشد من الربا ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير

(٣) حديث : أنس مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبوداود مسندا ومرسلا ، والمسند أصح

(٤) حديث : سليم بن جابر أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به ، الحديث أحمد فى المسند وابن أبى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحد واذا أدبر فلايعتابه ، وفى اسنادهما ضعف

(٥) حديث : البراء يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لاتعتابوا المسلمين ، الحديث ابن أبى الدنيا هكذا ورواه أبوداود من حديث أبى برزة باسناد جيد

(٦) حديث أنس أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال لايفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس الحديث فى ذكر المرأتين اللتين اعتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم : ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ، ويزيد ضعيف .

(٧) حديث المرأتين المذكورتين ، وقال فيه ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحداهما قيئي فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى قيئي فقاءت كذلك . فقال ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم الله عليهما جلست احداهما الى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس ، وقال أنس (١) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه . فقال : ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، وقال جابر « (٢) كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما . فقال إنهما يعذبان ، وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لايستنزه من بوله ، فدعا بجريدة رطبة أوجريدتين فكسرهما ، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر . وقال أما أنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أومالم ييبسا » ، ولما رجم رسول الله ﷺ (٣) ماعزا فى الزنا . قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فمرّ صلى الله عليه وسلم ، وهما معه بجيفة . فقال انهشا منها . فقالا يارسول الله نهش جيفة . فقال ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبوهريرة « (٤) من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرّب اليه لحمه فى الآخرة ، وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فينضج ويكلح » ، وروى مرفوعا كذلك وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان نحشا فترك ذلك فقالا لقد بقى فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس فجاك فى أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وأمرهما ان يقضيا الصيام ان كانا صائمين ، وعن مجاهد أنه قال فى ـ ويل لكل همزة لمزة ـ الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة الذى يأكل لحوم الناس ، وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لايرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكف عن أعراض الناس ، وقال ابن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فذكر عيوبك . وقال أبوهريرة يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه ، وكان

الله عليهما الحديث أحد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسمّ ، ورواه أبو يعلى فى مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المبهم

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث ، وفيه وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، ابن أبى الدنيا بسند ضعيف

(٢) حديث : جابر كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما انهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآدب باسناد جيد ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسى فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبرانى من حديث أبى بكرة نحوه باسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذى ، قال لصاحبه فى حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمرّ بجيفة فقال انهشا منها . الحديث أبوداود والنسائى من حديث أبى هريرة نحوه باسناد جيد .

(٤) حديث : أبى هريرة من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب اليه لحمه فى الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ، الحديث ابن مردويه فى التفسير مرفوعا وموقوفا ، وفيه محمد بن اسحاق رواه بالعنعنة .

الحسن يقول : « ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لاتعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك ، وأحبّ العباد الى الله من كان هكذا » ، وقال مالك بن دينار مرّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب . فقال الحواريون ماأنتن ريح هذا الكلب . فقال عليه الصلاة والسلام ماأشد بياض أسنانه كأنه ﷺ نهاهم عن غيبة الكلب ، ونبههم على أنه لايذكر من شىء من خلق الله الا أحسنه ، وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر . فقال له إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس ، وقال عمر رضى الله عنه « عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فانه داء » : نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أونسبه أوفى خلقه أوفى فعله أوفى قوله أوفى دينه أوفى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته ، أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع مايتصوّر أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب فبأن تقول أبوه قبطى أرهندى أوفاسق أوخسيس أواسكاف أوزبال أوشىء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سيىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر ومايجرى مجراه . وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أوكذاب أوشارب خمر أوخائن أوظالم أومتهاون بالصلاة أوالزكاة أولايحسن الركوع أوالسجود أولايحترز من النجاسات أوليس بارا بوالديه أولايضع الزكاة موضعها أولايحسن قسمتها أولايحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لاعراض الناس . وأمافعله المتعلق بالدنيا فكقولك انه قليل الأدب متهاون بالناس أولايرى لأحد على نفسه حقا أويروى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام كثير الأكل ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فكقولك إنه واسع الكمّ طويل الذيل وسخ الثياب ، وقال قوم لاغيبة فى الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ماروى أن رسول الله ﷺ (١) ذكرت له امرأة وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها . فقال هى فى النار (٢) وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة . فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم الى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولايحتاج اليه فى غير مجلس الرسول ﷺ والدليل عليه إجماع الامة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو معتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ فى حدّ الغيبة ، وكل هذا وان كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ماروى أن النبى ﷺ (٣) قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكرهه : قيل أرأيت ان كان فى أخى ماأقوله ؟ قال ان كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته . وقال معاذ بن جبل (٤) ذكر رجل عند رسول الله ﷺ

---

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها ، لكن تؤذى جيرانها . فقال هى فى النار ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة . قال فما خيرها اذا ، الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسلا ورويناه فى أمالى ابن شمعون هكذا .

(٣) حديث هل تدرون ماالغيبة ، قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث ، مسلم من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا ما أعجزه ، الحديث الطبرانى بسند ضعيف .

فقالوا ماأعجزه . فقال ﷺ اغتبتم أخاكم قالوا يارسول الله قلنا مافيه . قال ان قالم مالیس فيه فقد بهتموه ، وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها (١) انها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة . فقالت انها قصيرة . فقال ﷺ اغتبتها . وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والافك ، وكل فى كتاب الله عز وجل : فالغيبة أن تقول مافيه ، والبهتان أن تقول مالیس فيه ، والافك أن تقول مابلغك ، وذكر ابن سيرين رجلا . فقال ذاك الرجل الأسود : ثم قال أستغفر الله انى أرانى قد اغتبته ، وذكر ابن سيرين ابراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الاعور . وقالت عائشة (٢) لايغتابن أحدكم أحدا فانى قلت لامرأة مرّة وأنا عند النبى صلى الله عليه وسلم « ان هذه لطويلة الذيل . فقال لى : القظى القظى فلفظت مضغة لحم » .

بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل مايفهم المقصود فهوداخل فى الغيبة وهو حرام : فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها (٣) دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدى أنها قصيرة . فقال عليه السلام اغتبتها ، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة ، بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم فى التصوير ، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت امرأة قال (٤) مايسرنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا ، وكذلك الغيبة بالكتابة فان القلم أحد اللسانين ، وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه فى الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شئ من الأعذار المحوجة الى ذكره كما سيأتى بيانه . وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة انما الغيبة التعرّض لشخص معين إماحىّ وإماميت ، ومن الغيبة أن تقول بعض من مرّ بنا اليوم أو بعض من رأيناه اذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المحذور تفهيمه دون مابه التفهيم فأما اذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله ﷺ (٥) اذا كره من انسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لايعين ، وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدّعى العلم ان كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولايدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة

(١) حديث : عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتها رواه أحمد وأصله عند أبى داود والترمذى وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة ، وكذا هو فى الصمت لابن أبى الدنيا ، والصواب عن أبى حذيفة كما عند أحمد وأبى داود والترمذى ، واسم أبى حذيفة سلمة بن صهيب .

(٢) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم القظى فلفظت بضعة من لحم ، ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لاأعرفها .

(٣) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها . ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها ، وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات .

(٤) حديث : مايسرنى انى حكيت ولى كذا وكذا تقدم فى الآفة الحادية عشرة .

(٥) حديث : كان اذا كره من انسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث . أبو داود من حديث عائشة دون قوله ، وكان لايعينه ، ورجاله رجال الصحيح .

والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء ، نسأل الله أن يعصمنا منها ، وانما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك و يمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة ، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم و يحبط بمكايده عملهم ، و يضحك عليهم ، و يسخر منهم ، ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى إليه و يعلم ما يقول فيذكر الله تعالى و يستعمل اسمه آلة له فى تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول : ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام وفى اظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه ، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفى قصده ، وهو لجهله لا يدرى انه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهروا ، ومن ذلك الاصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب ، فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب . قال ﷺ (١) : « المستمع أحد المغتابين » ، وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما (٢) أن أحدهما قال لصاحبه ان فلانا لؤم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله ﷺ ليأكلا به الخبز فقال ﷺ قد ائتدمتما فقالا ما نعلمه ، قال بلى انكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جعلهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا ؟ . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أفعص الرجل كما يفعص الكلب (٣) انهشا من هذه الجيفة ، فجمع بينهما ، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وان قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرجه من الاثم مالم يكرهه بقلبه ، ولا يكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فان ذلك استحقار للمذكور ، بل ينبغى أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس

(١) حديث : المستمع أحد المغتابين ، الطبرانى من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وهو ضعيف .

(٢) حديث : ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه : ان فلانا لئوم ، ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتدمتما ، فقالا ما نعلم ، فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما ، أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه .

(٣) حديث : انهشا من هذه الميتة ، قاله للرجلين اللذين قال أحدهما أفعص الرجل كما يفعص الكلب ، تقدم قبل هذا بإثنى عشر حديثا

(٤) حديث : من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، الطبرانى من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن لهيعة .

الخلائق» . وقال أبو الدرداء (١) قال رسول الله ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة » ، وقال أيضا : (٢) « من ذبّ عن عرض أخيه بالعيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » ، وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة ، وفى فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطيل باعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد فى حقّ العامّة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة : أما الثمانية [فالأوّل] أن يشفى الغيظ ، وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشتفى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة [الثانى] موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أوقطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم اظهارا للمساهمة فى السرّاء والضرّاء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى [الثالث] أن يستشعر من انسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادتى الكذب فانى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت [الرابع] أن يذهب الى شىء فيريد أن يتبرّأ منه فيذكر الذى فعله وكان من حقه أن يبرّئ نفسه ولايذكر الذى فعل فلاينسب غيره اليه أو يذكر غيره بانه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله [الخامس] ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك [السادس] الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلايجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه واكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو عين الغصب والحقد ، فان ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق [السابع] اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب [الثامن] السخرية والاستهزاء استحقارا له فان ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضا فى الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان فى معرض

---

(١) حديث ابى الدرداء : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ : ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة ، وفى رواية له : كان له حجابا من النار ، وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار ، أحمد والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشرّ [الأوّل] أن تبعث من الدين داعية التعجب فى انكار المنكر والخطأ فى الدين فيقول ما أعجب مارأيت من فلان فانه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولايذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى اظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لايدرى . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحبّ جاريته وهى قبيحة ! وكيف يجلس بين يدى فلان وهوجاهل [الثانى] الرحمة وهوأن يغتم بسبب مايبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شرّ من حيث لايدرى ، والترحم والاغتمام يمكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه [الثالث] الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر قارفه انسان اذا رآه أوسمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولايذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا فى ذكر الاسم وهوخطأ ، بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لامندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتى ذكره . روى عن عامر بن واثلة (١) أن رجلا مرّ على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم ، فردّوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى ، فقال أهل المجلس : لبئس ماقلت والله لنبئنه ، ثم قالوا يافلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم ، فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ماقال ، وسأله أن يدعوه له . فدعاه وسأله ، فقال قد قلت ذلك ، فقال ﷺ لِمَ تبغضه ؟ فقال أماجاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال فاسأله يارسول الله هل رآنى أحرتها عن وقتها ، أوأساءت الوضوء لها ، أوالركوع أوالسجود فيها ؟ فسأله فقال لا ، فقال والله مارأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البرّ والفاجر ، قال فاسأله يارسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه ، أونقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال لا ، فقال : والله مارأيته يعطى سائلا ولامسكينا قط ولارأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤدّيها البرّ والفاجر ، قال فاسأله هل رآنى نقصت منها ، أوماكست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك .

بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمجموع العلم والعمل ، وانما علاج كل علة بمضادّة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كفّ اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل ، أما على الجملة فهوأن يعلم تعرّضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التى رويناها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فانها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهومع ذلك معرّض لمقت الله عزّوجل . ومثله عنده بآكل الميتة . بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما نقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها

(١) حديث عامر بن واثلة : أن رجلا مرّ على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم فردّوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : انى لأبغض هذا فى الله ، الحديث بطوله ، وفيه : فقال قم فلعله خير منك ، رواه أحمد باسناد صحيح .

الرجحان و يدخل بها النار، وانما أقلّ الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال ﷺ (١) « ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد » . وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ؟ فقال مابلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى ، فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفامن ذلك ✲ و ينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه ، وذكر قوله ﷺ (٢) : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ، ومهما وجدعيبا فينبغى أن يستحيى من أن يترك ذمّ نفسه و يذم غيره ، بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذمّ للخالق ، فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم : ياقبيح لوجه ، قال ما كان خلق وجهى إلىّ فأحسنه . واذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولايأمن نفسه بأعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لوأنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب ✲ و ينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فاذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لايرضى لغيره مالايرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جلية ✲ أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة ، فان علاج العلة بقطع سببها ، وقد قدّمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب [آفات الغضب] وهو أن يقول : انى اذا أمضيت غضبى عليه فلعلّ الله تعالى يمضى غضبه علىّ بسبب الغيبة إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت بزجره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إن لجهنم بابا لايدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من اتقى ربّه كلّ لسانه ولم يشف غيظه » . وقال ﷺ (٥) « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أىّ الحورشاء » . وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلاأمحقك فيمن أمحق » . وأما الموافقة فأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك اذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لايوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغى أن تغضب لله أيضا على رفقائك اذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة . وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستعمى عن ذكر الغير فعالجه بأن تعرف أن التعرّض لمقت الخالق أشدّ من التعرّض لمقت المخلوقين ، وأنت بالغيبة متعرّض لسخط الله يقينا ولاتدرى انك تتخلص من سخط الناس أم لا فتحلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذمّ الله تعالى نقدا وتمتطر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان ✲ وأما عذرك كقولك ان أكلت الحرام فلان يأكله ، وان قلت مال السلطان فلان يقبله ، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لايجوز

(١) حديث : ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد ، لم أجد له أصلا .

(٢) حديث : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث : إن لجهنم بابا لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله ، البزار وابن أبى الدنيا وابن عدىّ والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٤) حديث : من اتقى ربه كلّ لسانه ولم يشف غيظه ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ، ورويناه فى الأربعين البلدانية للسافى .

(٥) حديث : من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، الحديث أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

الاقتداء به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ، ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنطر الى المعزى تردى نفسها من قلة الجلد فهى أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر . وقالت العنزأ كيس منى وقد أهلكت نفسها ، وكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها ، وحالك مثل حالها ، ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك . فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك اذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت اليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك فى الدنيا فصرت أيضا خاسرا فى الآخرة لتجمع بين الخاسرين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت اليه حسناتك فاذا أنت صديقه وعدوّ نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل اليه حسناتك أو تنقل إليك سيآته ولا تنفعك ، وقد جمعت الى خبث الحسد جهل الحماقة ، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل

واذا أراد الله نشر فضيلة ✲ طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه اخزاء غيرك عند الناس باخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت فى حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق الى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فانك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ، ويسوقك تحت سيآته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك ، وأما الرحمة له على إنه فهو حسن ، ولكن حسدك ابليس فأضلك واستطفك بما ينقل من حسناتك اليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبرا لاسم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما إذ حط أجرك ، ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغض لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبب اليك الغيبة ليحبط أجر غضك ، وتصير معرّضا لمقت الله عز وجل بالغيبة ، وأما التعجب اذا أخرجك الى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فاذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التى هى من أبواب الايمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك امكنه لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، ولست أعنى به الاعتقاد المستقر وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه من الشك أيضا معفو عنه . ولكن نهى عنه أن يبنى ، والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب . وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من

الظن إن بعض الظن إثم » وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها الا علام العيوب فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعندذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ماعلمته وشاهدته ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع فى قلبك فانما الشيطان يلقيه اليك ، فينبغى أن تكذبه فانه أفسق الفساق ، وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » فلا يجوز تصديق إبليس ، وان كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق فى خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها ، وماشربها أوحمل عليه قهرا فكل ذلك لاحالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال ﷺ «(١) إن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وان يظن به ظن السوء» فلا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال ، وهو تفسق مشاهدته أو بينة عادلة ، فاذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغى أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مارأيته منه يحتمل الخير والشر ، فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فنقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه ، وقد قال ﷺ «(٢) ثلاث فى المؤمن ، وله منهن مخرج» فخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أى لا يحققه فى نفسه بعقد ولا فعل لا فى القلب ولا فى الجوارح . أما فى القلب فبتغييره الى النفرة والكراهة ، وأما فى الجوارح فبالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقى اليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أحبرك به عدل فمال طبعك الى تصديقه كنت معذورا لانك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل إذ طعنت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن . فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد ، وتسىء بالآخر ، نعم ينبغى أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه فقد ردّ الشرع (٣) شهادة الأب العدل للولد للتهمة ، وردّ شهادة العدوّ فلك عند ذلك أن تتوقف ، وان كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول فى نفسك المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى وكل أمره محجوبا عنى ، وقد بقى كما كان لم ينكشف لى شىء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل . فان المغتاب فاسق ، وان كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير فان ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى اليك الخاطر السوء خيفة من استغالك بالدعاء

---

(١) حديث : أن الله حرم من المسلم دمه وماله . وان يظن به ظن السوء : البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث : ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج : الطبرانى من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف

(٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدوّ : الترمذى من حديث عائشة ، وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غمر لأخيه ، وفيه ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ، ولأبى داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّ شهادة خائن وخائنة وذى الغمر على أخيه

بالمراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السر ولايخدعك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه ، وإذا وعظته فلاتعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر اليك بعين التعظيم ، وتنظر اليه بعين الاستحقار ، وتترفع عليه بابداء الوعظ ، وليكن قصدك تخليصه من الاثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان فى دينك ، وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحبّ إليك من تركه بالنصيحة فاذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الاعانة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فان القلب لايقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضا منهىّ عنه . قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهىّ عنه فى آية واحدة ، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لايمكن التوصل اليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهى ستة أمور [الأوّل] الظلم فان من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان معتايا عاصيا ان لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم إذ لايمكنه استيفاء حقه الا به . قال ﷺ « (١) إن لصاحب الحق مقالا » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٢) مطل الغنىّ ظلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٣) لىّ الواجد يحلّ عقوبته وعرضه » [الثانى] الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصى الى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مرّ على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يردّ السلام فذهب الى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » الآية ، فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وانما اباحة هذا بالقصد الصحيح فان لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما [الثالث] الاستفتاء : كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجنى أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص ، والأسلم التعريض بأن يقول ماقولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت (٤) للنبى ﷺ « إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطى ما يكفينى أنا وولدى أفآخذ من غير علمه ؟ فقال خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء [الرابع] تحذير المسلم من الشر ، فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أوفاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه فلك أن تكاشف له ببدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لاغيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ،

---

(١) حديث : لصاحب الحق مقال : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث : مطل الغنى ظلم : متفق عليه من حديثه

(٣) حديث : لىّ الواجد يحل عرضه وعقوبته ، أورده أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح

(٤) حديث : ان هندا قالت ان أبا سفيان رجل شحيح : متفق عليه من حديث عائشة

ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فان فى سكوتك ضرر المشترى ، وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك المزكى اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا ، وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الامانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة . فان علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية ، وان علم انه لا ينزجر الا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله ﷺ «(١) أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس ، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس » وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الامام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه .

[الخامس] أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول : روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجرى مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص [السادس] أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فاذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (٢) من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له » ، وقال عمر رضى الله عنه « ليس لفاجر حرمة » وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذ المستتر لا بد من مراعاة حرمته ، وقال الصلت بن طريف . قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة ، وقال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن بفسقه ، والامام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ، نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج . فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ المرائى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفى الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال ، وربما استدل فى ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « (٣) كفارة من اغتبته أن تستغفر له » ، وقال مجاهد « كفارة أكلك لحم أخيك

(١) حديث : أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس ، الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت

(٢) حديث : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث كفارة من اغتبته أن تستغفر له ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من

أن تثنى عليه وتدعوله بخير » ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة . قال أن تمشي الى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت . فان شئت أخذت بحقك ، وان شئت عفوت ، وهذا هو الأصح وقول القائل العرض لاعوض له ، فلايجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف اذقد وجب فى العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به بل فى الحديث الصحيح ماروى أنه ﷺ قال « (١) من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أومال فليستحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولادرهم انما يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته » وقلت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى انها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها ، فاذا لابد من الاستحلال ان قدر عليه فان كان غائبا أوميتا فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات . فان قلت فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ فى الثناء عليه والتودّد اليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودّده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة ، وكان بعض السلف لايحلل . قال سعيد بن المسيب لاأحلل من ظلمنى ، وقال ابن سيرين إنى لم أحرمها عليه فأحللهاله ان الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلل ماحرم الله أبدا . فان قلت فمامعنى قول النبى ﷺ ينبغى أن يستحلها وتحليل ماحرمه الله تعالى غير ممكن . فنقول المراد به العفو عن المظلمة لاأن ينقلب الحرام حلالا ، وماقاله ابن سيرين حسن فى التحليل قبل الغيبة فانه لايجوز له أن يحلل لغيره الغيبة . فان قلت فمامعنى قول النبى ﷺ « (٢) أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ، كان إذا خرج من بيته . قال : اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس » فكيف يتصدق بالعرض ، ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لاتنفذ صدقته فمامعنى الحث عليه . فنقول معناه انى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ولا أخاصمه والا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب الا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لايخاصم . فان رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن «اذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم الا العافون عن الناس فى الدنيا» ، وقد قال الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال النبى صلى الله عليه وسلم « (٣) ياجبريل ماهذا العفو ، فقال « ان الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك » وروى عن الحسن أن رجلا قال له ان فلانا قد اغتابك فبعث اليه رطبا على طبق ، وقال قد بلغنى أنك أهديت الىّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها وعذرنى فانى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

حديث أنس بسند ضعيف

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أومال فليتحلله ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم انى تصدقت بعرضى على الناس ، البزار وابن السنى واليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة . قلت ونعم هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى .

(٣) حديث نزول خذ العفو الآية قال ياجبريل ماهذا قال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك ، تقدم فى رياضة النفس .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى : « همازمشاء بنميم » ثم قال « عتلّ بعد ذلك زنيم » . قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به الى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دلّ على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل : « عتلّ بعد ذلك زنيم » والزنيم هو الدعىّ ، وقال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » قيل الهمزة النمام ، وقال تعالى : « حمالة الحطب » قيل انها كانت نمامة حمالة للحديث ، وقال تعالى « فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ « (١) لايدخل الجنة نمام » ، وفى حديث آخر « لايدخل الجنة قتات » ، والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة . قال رسول الله ﷺ « (٢) أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وان أبغضكم الى الله المشاءون بالنميمة . المفرّقون بين الاخوان . الملتمسون للبرآء العنات » ، وقال ﷺ « (٣) ألا أخبركم بشراركم . قالوا بلى ؟ قال المشاءون بالنميمة . المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب » . وقال أبو ذرّ (٤) قال رسول الله ﷺ «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة . وقال أبو الدرداء (٥) قال رسول الله ﷺ « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا : كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار » . وقال أبو هريرة (٦) قال رسول الله ﷺ « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوّأ مقعده من النار » ويقال ان ثلث عذاب القبر من النميمة ، وعن ابن عمر عن النبى ﷺ « (٧) ان الله لما خلق الجنة قال

---

(١) حديث : لايدخل الجنة نمام ، وفى حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة ، وقد تقدم .

(٢) حديث أبى هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا ، الطبرانى فى الأوسط والصغير ، وتقدم فى آداب الصحبة .

(٣) حديث : ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاءون بالنميمة : الحديث ، أحمد من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم .

(٤) حديث أبى ذرّ من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الأخلاق ، وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث .

(٥) حديث أبى الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار ، ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم .

(٦) حديث أبى هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوّأ مقعده من النار ، أحمد وابن أبى الدنيا ، وفى روايه أحمد رجل لم يسمّ أسقطه ابن أبى الدنيا من الاسناد .

(٧) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت سعد من دخلنى . قال الجبار وعزتى وجلالى لايسكن فيك ثمانية . فذكر منها ولاقتات ، وهو النمام لم أجده هكذا بتمامه . ولأحمد لايدخل الجنة عاق لوالديه ولاديوث ، وللنسائى من حديث عبد الله بن عمر ولايدخل الجنة منان ولاعاق ولا مدمن خمر ، وللشيخين من حديث حذيفة لايدخل الجنة قتات ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : لايدخل الجنة قطع ، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله

لها تكلمي . فقالت سعد من دخلي . فقال الجبار جل جلاله ، وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصرّ على الزنا ، ولا قتات . وهو النمام ، ولا ديوث ، ولا شرطي ، ولا مخنث ولا قاطع رحم ، ولا الذي يقول عليّ عهد الله ان لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » . وروى كعب الأحبار أن بني اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فاسقوا فأوحى الله تعالى اليه اني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصرّ على النميمة . فقال موسى يارب من هو دلني عليه حتى أخرجه من بيننا قال يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا ، ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه . قال اني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ، وعن النار وما أحرّ منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه ، وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البريء أثقل من السموات والحق أوسع من الارض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرّ من النار ، والحاجة الى القريب اذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام اذبان أمره أذل من اليتيم

بيان حد النميمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الاكثر على من ينمّ قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المقول عنه أو المقول اليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء وسواء كان المقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه الا اذا حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما اذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وافشاء للسر . فان كان ماينمّ به نقصا وعيبا في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة . فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له أو التفرّج بالحديث ، والخوض في الفضول والباطل ، وكل من حملت اليه النميمة وقيل له ان فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا . أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوّك أو تقبيح حالك أو مايجري مجراه فعليه ستة أمور [الأوّل] أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » [الثاني] أن ينهاه عن ذلك و ينصح له و يقبح عليه فعله . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » [الثالث] أن يبغضه في الله تعالى فانه بغيض عند الله تعالى ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى [الرابع] أن لا تظن بأخيك العائب السوء لقول الله تعالى : « اجتنبوا كثيرا من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » [الخامس] أن لا يحملك ماحكي لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى : « ولا تجسسوا » [السادس] أن لا ترضى لنفسك مانهيت النمام عنه ، ولا تحكي نميمته . فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نماما ومغتابا وتكون قد أتيت ماعنه نهيت ، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل وذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر ان شئت نظرنا في أمرك فان كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية « ان جاءكم فاسق بنبأ

الجنة قال لها تكلمي تزيني فتزينت . فقالت طوبى لمن دخلني ورضي عنه إلهي . فقال الله عز وجل : لا يسكنك مخنث ولا نائحة

فتبينوا » وان كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية « همماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو ياأمير المؤمنين لاأعود اليه أبدا ، وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض اخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم : قد أبطأت فى الزيارة وأتيت بثلاث جنايات : بغضت أخى الىّ ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة ، وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فىّ وقلت كذا وكذا . فقال الرجل مافعلت ولاقلت . فقال سليمان ان الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهرى لايكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت : ثم قال للرجل اذهب بسلام . وقال الحسن . « من نمّ إليك نمّ عليك » ، وهذا اشارة الى أن النمام ينبغى أن يبغض ولايوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لايبغض وهو لاينفك عن الكذب ، والغيبة ، والغدر ، والخيانة ، والغل ، والحسد ، والنفاق ، والافساد بين الناس ، والخديعة ، وهو ممن يسعى فى قطع ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . وقال تعالى : «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » ، والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « (١) ان من شرار الناس ، من اتقاه الناس لشرّه » ، والنمام منهم ، وقال « (٢) لايدخل الجنة قاطع : قيل وما القاطع ؟ قال . قاطع بين الناس ، وهو النمام . وقيل : قاطع الرحم » ، وروى عن علىّ رضى الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل . فقال له ياهذا نحن نسأل عما قلت . فان كنت صادقا مقتناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت أن نقيلك أقلناك . فقال أقلنى ياأمير المؤمنين ، وقيل لمحمد بن كعب القرظى : أىّ خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام ، وافشاء السرّ ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا : بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قال فأخبرنى بما قال لك حتى أطهر كذبه عندك . قال ماأحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبى أنى لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين ، فقال ماظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم ، وقال مصعب بن الزبير . نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول اجازة ، وليس من دل على شىء فأخبر به كمن قبله وأجازه فانقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان اثما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسعاية هى النميمة إلا أنها إذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية ، وقد قال ﷺ « (٣) الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة » يعنى ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام . وقال انى مكالمك ياأمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، وان كرهته فان وراءه ماتحب ان قبلته . فقال قل : فقال ياأمير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم : خافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ماائتمنك الله عليه ، ولاتصغ اليهم فيما استحفظك الله إياه : فانهم لن يألوا فى الأمة خسفا ، وفى الأمانة تضييعا ، والاعراض قطعا وانتهابا كما أعلى قدرهم الغى والنميمة ، وأجلّ وسائلهم العيبة

(١) حديث : ان من شر الناس من اتقاه الناس لشره ، متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث : لايدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جبير بن مطعم

(٣) حديث : الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة ، الحاكم من حديث أبى موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أوفيه شىء منها ، وقال له أسانيد هذا أصلها ، قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر فى التذكرة منكر الرواية قال ، والحديث لاأصل له ، وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ لايسعى على الناس الاولد بغىّ والامن فيه عرق منه ، وزاد بين سهل وبين بلال بن أبى بردة أنا الوليد القرشى

والوقيعة ، وأنت مسئول عما أجرموا ، وليسوا المسئولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسعى رجل بزيادة الأعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل . وقال :

فأنت امرؤ ما اتمتنك خاليا * خفت وأما قلت قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا * بمنزلة بين الحياة والاثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد أن الأسوارى مايزال يذكرك فى قصصه بشر . فقال له عمرو باهذا مارعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ولاأديت حق حين أعلمتنى عن أخى ماأكره ، ولكن أعلمه ان الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ورفع بعض السعاة الى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها : السعاية قبيحة وان كانت صحيحة ، فان كنت أجريتها مجرى النصح فسرائرك فيها أفضل من الرمح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك . فتوق يابلعون العيب فان الله أعلم بالعيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله . وقال لقمان لابنه يابنى أوصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تزل سيدا ، إبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع أوسماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن اخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم يعبهم ولم يعيبوك ، وقال بعضهم : النميمة مبنية على الكذب ، والحسد ، والعاق ، وهى أثافى الذل ، وقال بعضهم لوصح مانقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا ، وقال للمشترى مافيه عيب إلا النميمة . قال قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه : ان سيدى لايحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك : ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها . فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله . فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين

الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر [1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » ، وقال أبو هريرة [2] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » ، وفى لفظ آخر : « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة لاينبغى لذى وجهين أن يكون أميا عند الله ، وقال مالك بن دينار قرأت فى التوراة نعت لابسة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يملك الله تعالى

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة . البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بإسناد حسن

(٢) حديث أبى هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الحديث متفق عليه بلفظ تجدون من شر الناس لفظ البخارى ، وهو عند مسلم أبى الذى بلفظ مختلف

يوم القيامة كل شفتين مختلفتين ، وقال ﷺ « (١) أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم والذين اذادعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء ، واذادعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا » . وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم إمّعة قالوا وما الامعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح ، واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها ، وقدروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصلّ عليه حذيفة فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصلّ عليه . فقال ياأمير المؤمنين انه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا . قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وماحدّ ذلك ؟ فأقول اذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولاذالسانين فان الواحد قديصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لاتنتهى الى حد الاخوة اذلوتحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كماذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوّة ، نعم لونقل كلام كل واحدمنهما الى الآخر فهو ذولسانين وهو شر من النميمة إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ماهو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذولسانين ، وكذلك اذاوعد كل واحد منهما بان ينصره ، وكذلك اذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته ، وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذاخرج من عنده يذمه فهو ذولسانين بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعاديين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوّه . قيل لابن عمر رضى الله عنهما (٢) إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه فلواستغنى عن الدخول ، ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لأنه الذى أحوج نفسه الى ذلك ، فان كان مستغنيا عن الدخول لوقنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق ، وهذا معنى قوله ﷺ « (٣) حبّ المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » لأنه يحوج إلى الأمراء والى مراعاتهم ومراآتهم . فأما اذا ابتلى به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور . فان اتقاء الشرّ جائز . قال أبو الدرداء رضى الله عنه « إنا لنكشر فى وجوه أقوام ، وان قلوبنا لتلعنهم » . وقالت عائشة رضى الله عنها « (٤) استأذن رجل على رسول الله ﷺ . فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يارسول الله قلت فيه ماقلت ثم ألنت له القول ، فقال ياعائشة ان شرّ الناس الذى يكرم اتقاء شرّه » ، ولكن هذا ورد فى الاقبال وفى التكشر والتبسم . فاما الثناء فهو كذب صراح ، ولايجوز إلا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه فى آفة الكذب بل لايجوز

---

(١) حديث أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم ، الحديث لم أقف له على أصل

(٢) حديث : قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره . قال كنا نعدّ ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبرانى من طرق

(٣) حديث : حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف الا أنه قال حب العشب كما ينبت البقل

(٤) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذى يكرم اتقاء لشره ، متفق عليه ، وقد تقدم فى الآفة التى قبلها

الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع فى المادح ، واثنتان فى الممدوح [فأما المادح : فالأولى] أنه قد يفرط فينتهى به الى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح اماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤوس الاشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه [الثانية] انه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا [الثالثة] انه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، روى (١) أن رجلا مدح رجلا عند النبى ﷺ . فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال ان كان أحدكم لابد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكى على الله أحدا حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك ، وهذه الآفة تتطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة : كقوله انه متق وورع وزاهد وخير ومايجرى مجراه ، فأما اذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله انه عدل رضا فان ذلك خفى ، فلا ينبغى أن يجزم القول فيه الا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل . فقال أسافرت معه . قال لا . قال أخالطته فى المبايعة والمعاملة ؟ قال لا . قال فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال والله الذى لا إله إلا هو لا أراك تعرفه [الرابعة] انه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله ﷺ « (٢) ان الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق » . وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه ، والظالم الفاسق يغنى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح [وأما الممدوح : فيضره من وجهين] أحدهما . أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر . فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة ، فقال مالى ولك ياأمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها . قال سمعتها من فيه . قال خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك [الثانى] هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وانما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما اذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ، ولهذا قال عليه السلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ، وقال ﷺ (٣) : « اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا » وقال أيضا لمن مدح رجلا (٤) « عقرت الرجل عقرك الله » . وقال مطرف

---

(١) حديث : ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبى بكرة نحوه ، وهو فى الصمت لابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

(٢) حديث : ان الله يغضب اذا مدح الفاسق ان أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ، وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى : بلفظ اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش . قال الذهبى فى الميزان منكر وقد تقدم فى آداب الكسب

(٣) حديث : اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا ، ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا .

(٤) حديث : عقرت الرجل عقرك الله ، قاله لمن مدح رجلا ، لا أحد له أصلا .

« ماسمعت قط ثناء ولامدحة إلا تصاغرت إلىّ نفسى » . وقال زياد بن أبى مسلم : « ليس أحد يسمع ثناء عليه أومدحة إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما ، أما ماذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ماذكره مطرّف فذلك قلب الخواص » وقال ﷺ (١) « لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه » . وقال عمر رضى الله عنه : المدح هوالذبح ، وذلك لأن المذبوح هوالذى يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ، أولأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به ، فان سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه ، ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة فقال (٢) : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لرجح » . وقال فى عمر (٣) « لولم أبعث لبعثت يا عمر » ، وأىّ ثناء يزيد على هذا ! ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق و بصيرة ، وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يحقهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا ، بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال ﷺ (٤) « أنا سيد ولد آدم ولافخر » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله و بالقرب من الله لابولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لابتقدّمه على بعض رعاياه ، و بتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح و بين الحثّ عليه . قال صلى الله عليه وسلم (٥) وجبت لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لبنى آدم جلساء من الملائكة ، فاذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثله ، واذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك ، فهذه آفات المدح .

بيان ماعلى الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولاينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمّل مافى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه مالايعرفه المادح ولوانكشف له جميع أسراره ومايجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال ﷺ (٦) : « احثوا التراب فى وجوه المادحين » . وقال سفيان بن عيينة :

(١) حديث : لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه ، لم أجده أيضا .

(٢) حديث : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح ، تقدم فى العلم .

(٣) حديث : لولم أبعث لبعثت ياعمر ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة ، وهومنكر ، والمعروف حديث عقبة بن عامر : « لوكان بعدى نبىّ لكان عمر بن الخطاب » . رواه الترمذى وحسنه .

(٤) حديث : أنا سيد ولد آدم ولافخر ، الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرىّ والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد ، وله من حديث عبادة بن الصامت : « أنا سيد الناس يوم القيامة ولافخر » ولمسلم من حديث أبى هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٥) حديث : وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض الموتى ، متفق عليه من حديث أنس .

(٦) حديث : احثوا فى وجوه المادحين التراب ، مسلم من حديث المقداد .

« لا يغمر المدح من عرف نفسه » ، وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم ان هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى . وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم ان عبدك هذا تقرب إلىّ بمقتك ، وأنا أشهدك على مقته . وقال علىّ رضى الله عنه لما أثنى عليه : « اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون » . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال « أتهلكنى وتهلك نفسك » . وأثنى رجل على علىّ كرّم الله وجهه فى وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال : أنا دون ما قلت ، وفوق ما فى نفسك .

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وبرتبط بأمور الدين فلا يقدر على متتبعه والتيقظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله ، مثاله ما قال حذيفة : قال النبىّ ﷺ (١) : « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت » وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما (٢) : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم : أجعلتنى لله عديلا ؟ بل ماشاء الله وحده . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٣) : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى » ، فقال : قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فكره رسول الله ﷺ قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع . وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله و بك . ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال : اللهم اعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يكون بعد الورود ، وكانوا يستجيرون من النار و يتعوّذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة : إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين . وقال ابراهيم اذا قال الرجل للرجل ياحمار ياخنزير قيل له يوم القيامة حمارا رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته . وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة ، وقال عمر رضى الله عنه (٤) قال رسول الله ﷺ ان الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا آبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ، قال عمر رضى الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال ﷺ (٥) « لا تسموا العنب كرما انما الكرم الرجل المسلم » . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، وليقل غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى ، وليقل سيدى وسيدتى ، فكلكم عبد الله ، والرب الله سبحانه وتعالى . وقال ﷺ (٦) : « لا تقولوا للفاسق سيدنا

---

(١) حديث حذيفة : لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت الحديث ، أبو داود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال : أجعلتنى لله عدلا ؟ قل ماشاء الله وحده ، النسائى فى الكبرى باسناد حسن ، وابن ماجه .

(٣) حديث : خطب رجل عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، الحديث مسلم من حديث عدى بن حاتم .

(٤) حديث عمر : ان الله ينهاكم أن تحلفوا آبائكم ، متفق عليه .

(٥) حديث : لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم ، متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٦) حديث : لا تقولوا للفاسق سيدنا ، الحديث أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح .

فانه ان يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم » . وقال ﷺ (١) : « من قال أنا برىء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال ، وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما » فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه اذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : « من صمت نجا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فان كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف ، وانها قديمة أو محدثة ، ترك حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعامى يفرح بالخوض فى العلم إذ الشيطان يخيل إليه انك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو لا يدرى ، وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعادات ، والايمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة ، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالاضافة اليه عامى ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) « ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » . وقال أنس (٤) : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد المنبر وقال سلونى ولا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال يارسول الله من أبى ؟ فقال أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا يارسول الله من أبونا ؟ فقال أبوكما الذى تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال يارسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال لا بل فى النار ، فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا ، فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، فقال : اجلس يا عمر رحمك الله ، انك ما علمت لموفق ، وفى الحديث (٥) « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » . وقال صلى

(١) حديث : من قال أنا برىء من الاسلام ، فان كان صادقا فهو كما قال ، الحديث النسائى وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح .

(٢) حديث : من صمت نجا . الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان .

(٣) حديث : ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث : سأل الناس رسول الله ﷺ يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلونى فلا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به . الحديث متفق عليه مختصرا . وفى سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر . ولمسلم من حديث أبى موسى : فقام آخر فقال من أبى ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة .

(٥) حديث : النهى عن قيل وقال ، واضاعة مال ، وكثرة السؤال ، متفق عليه من حديث المغيرة ابن شعبة .

الله عليه وسلم [١] « يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فاذا قالوا ذلك فقولوا « قل هو الله أحد ، الله الصمد » حتى تختموا السورة ، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال جابر [٢] : « مانزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال » ، وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : « فان اتبعتنى فلاتسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : « لاتؤاخذنى بما نسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا » فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا « قال هذا فراق بينى وبينك » وفارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهومن المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشىء منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لامحالة ، فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم . انتهى ما أردته من كتاب [إحياء علوم الدين] للامام الغزالى ، والحمد لله رب العالمين .

***

ولنشرع الآن فى ذكر ما جاء فى كتابى [جوهر التقوى] فقد جاء فيه فى صفحة ١٢٩ ومابعدها تحت العنوان الآتى مانصه :

الحسد

الحسد هوكراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ، ومن ثمى مثل نعمة غيره فهو الغابط والمنافس ، وهوليس بحاسد :

أسبابه

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبوبة (٦) حب الرئاسة (٧) حب النفس وبخلها ، فينور الحسد فى النفس على مقتضى الأسباب .

فمن كره امرأ ثقلت عليه نعمته ، وسرته بليته ، واستعذب سقاءه ، ومرت عليه حلاوته ، ومن لم تلن شرته دامت حسرته ، وكم من امرئ كانت نعمته الموهوبة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد فى قلب قرينه ، ويأبى إلا التعزز عليه فلايخضع لاستطالته ، ولايصغر لعظمته ، ومن كانت الكبرياء صفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم يساوونه ، ولم يطق صبرا على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ، ليبقى عليهم ظاهرا ، وفوقهم قاهرا ، ذلك بسبب الكبر الذى فى نفسه وان لم يتعاظموا عليه . وكم من فتى أثار الحسد فى قلبه ، واشتعل نيرانه ، وألهب سعيره ، تعجبه من ترادف النعم على من يخالفونه ، واستغرابه من تتابع المواهب ، وتواصل المنح ، وتوارد اللطائف ، وقد يشفق من زوال محبوب يبتغيه ، أوفوات مطلوب يرتجيه ، اذا ذاق معارفه نعمة من يبغضه ، فيتأسفون على مصابه ، ويزاحمونه فى سلوك سبيله ، كأمر يملكها أوعرس يبتغى بها ، أودرجة يرقى بها . أونعمة يتمتع بها . ومن الناس من يحسد حب الرياسة ، ويتخشاه من وهن سلطانه ، وانخفاض بنيانه ، وتقويض عزه وانتقاله ، وآخرون خشت نفوسهم ، وضل سعيهم ، فيحسدون

---

(١) حديث : « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق » الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث جابر : مانزلت آية الملاعنة إلا لكثرة السؤال . رواه البزار باسناد جيد .

الناس على ما آتاهم الله من فضله بلاسبب إلا مرض نفوسهم وشحها ، وسوء طويتهم ، يودّون أن لومنع الله الرحمة عن العباد لايطلبون الانفراد بها ، ولا السيادة على غيرهم ، ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديمة الفطن ، قليلة الخير ، ميتة الأفئدة ، أولئك هم الحاسدون الضالون .

وكلما تضافرت الأسباب بالاجتماع فى المجالس ، والتجاور فى المنازل . والاشتراك فى الحرمة ، والاقتراب بالنسب أوالمصاهرة كان اضطرام نارالحسد أشدّ ، وامتداد لهيبها أسرع ، وازداد سعيرها ، وطغى شررها ، وغلت مراجلها ، فزاد احراقها لموادّ المحبات ، و إبادتها للذات المودّات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ ذاك شرا و بيلا ، وعذابا أليما . قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عليه السلام : « لاتحاسدوا ولاتقاطعوا ولاتباغضوا ولاتدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » . وقال أنس : « كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبىّ ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقاله فى اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبىّ ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ولزمه ثلاثة أيام فى بيته فلم يجده يصلى بالليل ، فاحتقر عمل الرجل ، فسأله ما الذى بلغ بك ؟ فقال هومارأيت ، غيرأنى لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولاحسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت هى التى بلغت بك وهى التى لانطيق . وقال ﷺ : « ثلاثة لاينجومنهنّ أحد : الظنّ ، والطيرة ، والحسد ، وسأحدّثكم بالمخرج من ذلك : اذا ظننت فلاتحقق ، واذا تطيرت فامض ، واذا حسدت فلاتبغ » . وقال الشاعر :

يا أحد اقنع بالذى أوتيته * ان كنت لاترضى لنفسك ذلها
واعلم بأن الله جلّ جلاله * لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لاتسلط على قلبك نيران الحسد التى يثيرها أسبابها ، وتفكر فى مصائبه ورذائله ، وماينجم عنه من العذاب الأليم فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى .

ومن ابتلى بالحسد والعياذ بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأزرى به الكمد ، وتنغص عيشه ألاترى أن نعم الله مترادفة لاينقطع مددها ، ولاينفد خيرها ، ومن ذا أشقى ممن عدّ نعم الله شقاء عليه وجنته نار عذابه ، ودارشقائه ، فهل يمسك الله المطر خشية عليه ، أو يمسك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده . والشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهارمسخرات للعباد وهنائهم وراحتهم وسعادتهم ، فسبحانك اللهم أشقيت قلوبا بالرحمات ، إذ نسوا أنفسهم فتاهوا فى أودية الضلالات ، فعدّوا نعم الله على الناس نقما ، وحسبوها لهم شقاء دائما ، فما أكثر نعم الله ، وما أدوم شقاءهم ، وقلت :

وفى القلب نيران وفى القلب جنة * وما أكثر الآلام إلا من الفكر

وكفى الحاسد عذابا أنه معذب بنعيم غيره ، مع قب على الحسد بنفس الحسد ، فلذلك كان طول الحياة له شقاء وموته راحة له ، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسودين يشفى غليل صدور محسوديه أن تطول حياته فيطول عذابه كما قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة * فانما الكامل من يحسد

الثبات والعزيمه

الثبات المداومة على العمل ، والعزيمة من أحوال الارادة ، والثبات حال داعية لادامة العمل إلى النهاية . كم فى الناس من عامل ، وقلّ أولوالعزم ، ولم ينل الرغائب ، و يحظ بالمطالب ، إلا من صحح العزم ، وشمر عن ساعد الجدّ ، وامتطى العمل .

درك المعالى فى اقتحام المخاوف ✲ ونيل الأمانى فى ارتقاء التنائف
وما نال مجدا من أدار عروسه ✲ وباتت تعاطيه سلاف المراشف

وقد قلت

إلى ذروة العلياء ياسائق الحرف ✲ فانى شممت اليوم منهاشذا العرف

وما جمع امرؤ أمره ، وجدّ فى طلب مايروم ، إلا خضعت له الآمال ، ودانت له المعالى ، وفاز بالسعادة والكمال ، وتأمّل كيف مدح الله أولى العزم فقال : « فاصبر كما صبر أولوالعزم من الرّسل » وقصّ عليه أنباءهم ، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون ، وخسر أولئك الجاهلون .

الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة فى مقابلة الباعث للشرّ والرذيلة ، وذلك أن الانسان يشارك الدواب فى الشهوة والغضب ، وليس للصبى ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقهر الشهوات ، ولامن رادع يردع عن اللذات ، الا إنما يظهر جهادهما ، و يبين التغاضى عنهما ، والتخلى من غائلتهما ، لمن عقل واستبصر وادّكر وتفكر ، ورأى سبيل الرشد فاتخذه سبيلا ، وسبيل الغىّ فلم يتخذه سبيلا .

و بذلك يمتاز العاقل من الانسان عن المجنون والصبى والحيوان ، فالحيوان أسير شهواته ، والعاقل من الانسان عليم بما يعقب الأسر من الاذلال ، ومايجرّ من الوبال ، وهنالك تبتدئ داعية المجاهدة ، وتتولد فى النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة ، فهذه الحال هى المسماة بالصبر الناجة من العلم والهداية الداعية لترك الضلال والغواية ، ألا وان العلم بمغبة الشهوات وغائلة اللذات باعث لقيام حال النيات بالأنفس ، وتلك الحال تثمر الأعمال ، فالعلم شجرة ، والأحوال أغصانها ، والأعمال أثمارها .

أسماء الصبر

الصبر فى الأخلاق كالحديد فى الصناعات والملح فى الطعام ، فلاترى طاعة ، ولاخلقا حسنا إلا والصبر مفتاحه وعماده وقوامه ، ألاترى كيف شمل الأعمال البدنية ، والأحوال النفسية ، فن احتمل المرض والألم والجراح المصمية ، وقام بالأعمال الشريفة فى عبادة يقيمها ، أوزراعة يتقنها ، أوصناعة يحسنها ، أوتجارة يديرها ، أوادارة ينظمها ، فهو من الصابرين فى الدرعين : الاحتمال والأعمال .

العفة

ومن ركى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتى البطن والفرج فهوالعفيف حتى لايطيع داعى اللهو والزينة ، ولايتدانى من المحرّمات ؛ ومن تعالت نفسه عن الخضوع لنائبات الدهر سمى صابرا ، والافهوالجازع والهلوع ، برفع الصوت ، وضرب الخد ، وشق الجيب .

ضبط النفس والبطر والمرح

واذا لم تستفزه داعيات الغنى ، فهو الضابط لنفسه ، والافهو البطر المرح .

الشجاع والجبان

وان قاوم الأقران فى ساحة الحرب والميدان ، فهو الشجاع والا فهو الجبان ، وان كظم غيظه ، ولزم السكينة عند اهتياج الغضب ، فهو الحليم والا فهو الأحمق السفيه .

كتم السرّ وافشاؤه

واذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو الكتوم للسرّ ، والا فهو المفشى للأسرار ، فان اطمأنت نفسه فلم تجزع على فصول العيش فهو الراضى ، والا فهو الحريص .

القناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى أن الصبر ماترك بابا من الأخلاق إلا ولجه ، ولاخصلة إلاقرعها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الايمان [هو الصبر] .

ولما كانت أحوال الانسان لاتخلومن مكروه يحتمله ، أومحبوب يشكرعليه ، روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « الايمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » ولما كان المصبور عليه إما شهوة واما غصبا ، كان الصوم صبرا عن شهوتى البطن والفرج ، لا العضب ، ولذا طهر سرّ قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر » فيكون الصوم ربع الايمان ، وقد يراد بالايمان مايشمل العلم والعمل ، ولاعمل إلا مع الصبر تركا أو فعلا ، فيكون الايمان راجعا ليقين وعمل على مقتضاه ، فلذلك قال ﷺ : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحبّ إلىّ من أن يأتينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه ، ثم قرأ قوله تعالى : [ماعندكم ينفد وما عند الله باق] » .

وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الايمان فقال : الصبر والسماحة . وقال صلى الله عليه وسلم : الصبر كنز من كنوز الجنة » . وعن عطاء عن ابن عباس قال : لما دخل رسول الله ﷺ قال أمؤمنون أنتم ؟ فسكتنا فقال عمر نعم يارسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكرعلى الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة . وقال تعالى : « والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس » أى المصيبة والفقر والحرب .

الصبر واحد ، وانما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار والثمار فتختلف الألوان لتعدّد الأشكال ، واحذر أن تضلّ فى الألفاظ ، وارع المعانى ، واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة .

الشجاعة

الشجاعة هى الاقدام على الأهوال مع الروية والتدبير ، ومن أقدم بلاروية أوأحجم وقد فاجأه العدوّ فليس بشجاع ، وانماهوفى الأولى متهوّر ، وفى الثانية جبان ضعيف . الشجاعة أحدالأركان الأربعة ومنزلتهامنها

منزلة الجنود من الممالك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ، وحضوا عليها أممهم ، فالعظيم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل بينه وبينها ، الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح ، لايقضون له حاجة ، ولايسمعون له قولا ، الجبان أشبه شيء بالدجاجة يؤكل لحمه وهو مهين ، والشجاع كالأسد ، يحترم ويحرم أكله ، وهو مصون ، ومامن أمة فقدت شجاعتها ، واستسلمت ، ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون ، ألم تر الى عمرو بن كلثوم ، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب لليلى بنت المهلهل ابن ربيعة أخي كليب وائل أم عمرو بن كلثوم ياليلى ناوليني الطبق كيف تحمس ابن كلثوم وقتله وقال في معلقته :

أبا هند فلاتعجل علينا * وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا * ونصدرهن حمرا قد روينا
بأي مشيئة عمرو بن هند * نكون لقيلكم فيها قطينا

ومنها

لنا الدنيا ومن أمسى عليها * ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا * ولكنا سنبدأ ظالمينا

افرط وغلاهنا في القوة الغضبية ، وتجاوز الحد كزهير وعنترة فيما سيأتي وهذا مذموم كالجبن . الجبن مذموم ، والتهور مذموم ، والشجاعة الوسط . وقال زهير :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه * يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

ثم انظر كيف قتل جساس البكري كليبا التغلبي بناقة سعد جارهم ، وكيف طلب التغلبيون من البكريين قتل جساس قاتل سيدهم ، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالاثم وأبى تسليم القاتل فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهماء ، وتفاني الحيان بكر وتغلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الذمار ، ويدفعون العار ، ويوقدون النار ، ويحفظون الجار ، تلك فضيلة وأي فضيلة ، دلك شرف وأي شرف ، فخر وأي فخر ، ولكنه مصحوب بالجهل تابع لنزعات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم معوجها ، ويصلح فاسدها ، ولو تبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحمية فيها جاهلية ، والنصر تابعا للعصبية ، لا للعدل في القضية ، فترى الناس سكارى في تشاجرهم وماهم بسكارى ولكن الجهل عظيم .

فنحن أحوج إلى عقل يقومنا ، وتمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب ، ألا تتعجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة ، فقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وقال : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » ولقد مدح الاعتدال في القوة إذ قال : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ونفر من الطمع فقال : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

بذلك ذهبت تلك الحمية ، حمية الجاهلية الأولى ، الحمية المكانية الوقتية ، واستبدلت بأحسن منها وهي الشجاعة التي بها دوخوا المعمورة شرقا وغربا . وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : « وقعدوا لاخوانهم لو أطاعونا ماقتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين » . ما أشأم هذه الخلة الخبيثة العزيمة الضعيفة القوى ، الميتة الصبر تصاحبها الأيام قليلا ، وتسم على أثرها بسمة مستمرة ، وتسم لها بعور الزهر على أشجار الحظل في ساحة العرس الحي ، حتى إذا وقت موعده . وورمت القارعة ، وحكمت القاضية

والقضب فى أعناق الرجال ، عبست الأيام بعد ابتسامها ، وذاقوا مرّ الحنظل فقطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلهم ورقه الناضر ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا فى ديارهم صاغرين .

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب . كلا . فليس يتمّ للناس عمل إلا بقوّة القلب وتحمل المكروه فى قول الحق ، ومامن عالم إلا ابتلى بمن يشنؤه .

لن ينقضّ بنيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحقّ ولوكره الحاسدون ، ولن تموت الرذيلة ، وتحيا الفضيلة ، إلا اذا قاوم المصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخامدة . ولعمرك إن الشجاعة فى مقال الحق لأعلى منارا ، وأرفع شأنا ، وأشرف منالا من اقتحام الهيجاء ، والحرب قائمة ، والرماح مشرعة ، والسيوف مصلتة ، ألا ان العالم بقوله يصلح الألوف والألوف ، ولذلك كان الصدّيقون أعلى من الشهداء مقاما ، وأقرب إلى الأنبياء مجلسا .

ألا أحدثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضى الله عنهم ورضوا عنه ، إذ كانوا يصدعون بالحق و به يعدلون كأبى بكر الصدّيق وطاووس اليمانى وسفيان الثورى وعطاء بن أبى رباح وأبى حازم وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم ، أولئك الذين هدى الله فقالوا الحقّ وصدقوا فى المقال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله .

[روى] عن ضبة بن محصن العنزى قال : كان علينا أبوموسى الأشعرى أميرا بالبصرة ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه ، قال فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكونى يقول : إن ضبة بن محصن العنزى يتعرّض لى فى خطبتى ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلىّ قال فأشخصنى إليه ، فقدمت إليه ، فضربت عليه الباب ، فخرج إلىّ فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لى : لامرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لى ولامال ، فبماذا استحللت ياعمر اشخاصى من من مصرى بلاذنب أذنبته ، ولاشىء أتيته ، فقال ما الذى شجر بينك و بين عاملى ، قال قلت الآن أخبرك به : انه كان اذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبىّ ﷺ ثم أنشأ يدعو لك ، فعاظنى ذلك منه ، فقمت إليه وقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكونى ، قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا وهو يقول : أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبى يغفرالله لك قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع باكيا وهو يقول : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت نعم . قل : أما الليلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبوبكر وجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره ، فقال رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك ! فقال يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرّة عن يمينك ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال فمشى رسول الله ﷺ ليلة على أطراف أصابعه حتى حفيت ، فلما رأى أبو بكر انها قد حفيت حمله على عاتقه . وجعل يشتدّ به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال : والذى بعثك بالحقّ لاتدخله حتى أدخله فان كان فيه شىء نزل بى قبلك قبل فدخله فلم ير فيه شيئا فحمله وأدخله ، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شىء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه ، وجعلت دموعه تنحدر على خدّيه من ألم مايجد ورسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله السكينة عليه والطمأنينة لأبي بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلى ولانزكى فأتيته لا آلو نصحا فقلت ياخليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ فبماذا أتألفهم ، قبض رسول الله ﷺ فارتفع الوحى ، فوالله لومنعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه .

ثم كتب إلى أبى موسى يلومه . أما طاووس اليمانى فانه كان من التابعين ، وكان من حديثه مع هشام ابن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظنى ، فقال : سمعت من أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه يقول : إن فى جهنم حيات كالقلال ، وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لايعدل فى رعيته .

وأما سفيان الثورى فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبى جعفر المنصور ، قال له أبو جعفر : ارفع إلينا حاجتك ، فقال : انما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المنصور رأسه .

وأما عطاء بن أبى رباح فانه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وأجلسه معه عليه ، قال ماحاجتك ؟ فقال ياأمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فانهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك المسئول عنهم .

وأما أبو حازم فانه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله : أىّ الكلام أسمع ؟ أجابه : قول الحق عند من تخاف وترجو ، قال فأىّ المؤمنين أخسر ، قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه .

وأما عمر بن عبد العزيز فانه كان يوما مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره فى مقدمة الرحل ، قال عمر : هذا صوت رحمته فكيف اذا سمعت صوت عذابه ! قيل ان عبد الملك ابن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان فقال مهلا ياأمير المؤمنين اقض لصاحبى هذا بحقه ثم اخطب ، فقال وماذاك ؟ فقال ان الناس قالوا له مايخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بينه و بينه الكلام ، فقال له الرجل ياأمير المؤمنين : انكم تأمرون ولاتأتمرون ، وتنهون ولاتنتهون ، وتعظون ولاتتعظون ، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فان قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غشّ نفسه ؟ وان قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ، أوماتعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ فى العظات ، فان كانت الأمانة قد عجزت عن اقامة العدل فيها فخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم فى البلاد وشتتم شملهم بكل واد . أما والله لئن بقيت فى يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحلنّ حقوق الله وحقوق العباد ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال لأن من كلمكم فى حقه زجر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلاقوله مسموع ، ولاظلامه مرفوع ، ولامن جار عليه مردوع ، و بينك و بين رعيتك مقام تذوب فيه الجمال حيث ملكك هناك حامل ، وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليك عادل ، فبكى عبد الملك على وجهه يبكى ، ثم قال له فماحاجتك ؟ فقال عاملك بالسمارة صلحنى ، وليله لهو . ونهاره لعو ، ونظره زهو . فكتب إليه باعطائه ظلامته ثم عزله .

قال الجاحظ فى كتاب [البيان والتبيين] حدّثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنما ، فكتب إليه زياد : « ان أمير المؤمنين معاوية كتب إلىّ يأمرنى أن أصطفى له كل صفراء و بيضاء ، فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ماسوى ذلك » .

فكتب إليه الحكم : « إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ووالله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبد فاتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا والسلام » ثم أمر المنادى فنادى فى الناس أن اغدوا على غنائمكم فقسمها بينهم .

وانا نحمد من ضبة ومن بعده صدقهم ولكن لا نشاد الناس مشادّتهم ، قل الحق وتاطف ، لا تكن فظا فلكل مقام مقال ، وللكلام مواطن . ولقد جرّب الناس قديما القول فرأوا أنجعه فى العقول ألطفه ، وأنفعه فى النفوس أجله . قال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . وقال تعالى على لسان نبيه عليه السلام : « و إنا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

فاياك أن تقلد كل ما تسمع ، بل اعرض كل شىء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتذكر قول الله تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » . واذا قرأت فى تاريخ اليونان أن سولون الحكيم قابل اكرسيوس فى مملكة ليديا وهو فى أبهته وسلطانه وعظمته متجملا بأفخر الثياب ، متحليا هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الحلى الملكية ، والجواهر الغالية الثمينة ، فقال اكرسيوس لسولون : هل رأيت أحدا يلبس ملابسى ؟ فقال نعم الديوك الأهلية والبرّية والطاووس ، فغضب ثم قال : هل رأيت أحدا أسعد منى ؟ فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أثينا مات سعيدا قرير العين بنصرة وطنه ، ولقد حزن عليه سائر البلاد ، ويليه أخوان اسم أحدهما [كليو بيس] واسم الآخر [بيطون] ، كانا فاضلين صالحين ، أكرما أمهما الصالحة ، حتى انهما جرّا عربتها إلى المعبد ، فدعت لهما ، وأثنى الناس عليهما فانا صالحين ، مرضيا عليهما من الله والناس ، وعند ذلك غضب اكرسيوس وظنّ أن سولون مجنون ، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليحرق فصرخ بقوله [سولون] فزحزح عن النار ، وسأله الملك عدوّه فأخبره بما جرى له مع سولون فانخلع قلبه وأطلقه .

واذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندى [بيدبا] مؤلف كتاب [كليلة ودمنه] وقد دخل على ملك الهند وأغلظ له فى القول ، وقال : لقد ظلمت الرعية ، وأضعت ملك آبائك ، وخربت البلاد ، وأضعت العباد ، فحبسه ثم أطلقه ، وولاه الملك بعد حين ، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحقّ ، ووطنوا أنفسهم على المكاره ، فخذ من الأمر ضوءها ، واعتدل فى قولك ، وتابعهم فى قول الحق ، واصلاح شأن الأمة ، واعدل عن الشتم ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، واقرأ قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للانسان عدوّا مبينا » ، وقوله : « وقولوا للناس حسنا » وقوله : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولىّ حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » وقوله تعالى : « وليتلطف » .

واعلم أن الأطباء انما يضعون الدواء المرّ فى غلاف ليسهل تعاطيه ، فلتكن أطباء صالحين . واذا رأيت نفسك خائرة القوّة ، هيابة ، تفرّ من الظلام ، وتفزع من الأحلام ، فسلط على الجبن ضده ، وأيقظ النفس من خمولها وخمودها ، وحركها إلى الأنفة والشمم والاباء ، وعدم تحمل الضيم ، وافعل ما حكاه ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين أنه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها و يحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرّض لها ،

ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعوّد نفسه الثبات فى المخاوف ويهيج منها القوّة التى تسكن عند الحاجة الى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه .

ولقد كنت وأنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب ، فأخذت أعلم نفسى علم الشجاعة كما فى ابن مسكويه ، وما أحسن مدارس التعليم ، فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكرى ، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموما النظام العسكرى كما فى سويسرا ، ألا فلتفعل مصر ذلك كما أوضحنا فى كتابنا [نهضة الأمة وحياتها] الذى قصدت به نظام الأمة علما وسياسة وعملا .

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين ، قيدهم بأغلال وصفدهم فى الأداهم ، ولعلكم قرأتم كتاب [السبق والرمى] فى علم الفقه والناس غافلون لا يعلمون لم وضع هذا الباب ، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة ، فاذا لم توقظ الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرهم الانسانية ، فذلك أبقى للأمم وأحسن وأشجع للأفراد ، فاذا ماتت الشجاعة حلّ محلها الجبن ، واستولى الترف ، وحاق بالناس الهلاك : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا » .

أسئلة

(١) اذكر شجاعة العرب الجاهلية .
(٢) قارن مابين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية فى الشجاعة .
(٣) ماذا ترى فى الشجاعة الوقتية المكانية أهى نافعة للأمم ؟ .
(٤) وماذا يجب على مربى الأمة المصرية فى شجاعتهم ؟ .
(٥) قارن حال انتقال الأمة العربية من حية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .
(٦) ماقصة ضبة مع عمر بن الخطاب ، وماترى فى شجاعته الأدبية ؟ .
(٧) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية فى صدر الاسلام .
(٨) قارن ذلك بحالنا اليوم .
(٩) ماداواء الجبن ؟ .
(١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة فى الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجا آخر للجبن .
(١١) اذا قسا المعلم على التلاميذ فماذا تكون شجاعتهم ؟
(١٢) اذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فماذا تكون حال الأمة ؟ .
(١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لا يميتوا الشجاعة ؟ .

الكرم والبخل

من أدّى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به فهو الكريم ، ومن قصر فيما وجب عليه منهما فهو البخيل ، فمن شاح فى المحقرات وضايق فى الصغائر والهنات مع الخدم ، أوأصال فى مشاحة عياله وأهله أوقريبه على نفقة وسم بالبخيل ، ولاقيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخلاء إلا العادة والعرف ، فلقد ينفق الرجل كثيرا ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فانه قصر حيث ينبغى الايفاء ، ومنع حيث يجدر الاعطاء ، لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوبا ، والعطاء مرغوبا ، والافتكرم وتكلف ، سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورحمة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمجيء الرزق ، وعشق المال لذاته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلظى مهما أمدّها بالوقود احتدم وطيسها ، وغلت مراجلها ، وارتفع لهبها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليتذكر الاخوان والأقران الذين طمعوا كما طمع ، وجمعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه ان يكن من المؤدّبين المتعلمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ، ولله فى خلقه شؤون ، وان كان ممن ارتطموا فى أوحال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للموبقات ، وعكفوا على اللذات ، فالمال طامّة كبرى ، وآفة عظمى ، ومجلبة لشقائه ، وزيادة فى بلائه .

ومن خاف الفقر وقلت ثقته بالله عزّوجل فليكشف الغطاء عن عينه ، وليتفكر فى الحشرات والطيور والبهائم « وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهوالسميع العليم » . ومن أصبح عاشقا للمال مغرما بجمعه كان كالشيخ الهرم الذى جمع مالا وعدّده ، يحسب أن ماله أخلده ، تحت أطباق الثرى حتى لايرى فلقد علم أنه لاينفعه فى حياته ، ولاينتفع به بعد مماته ، ومن ابتلى بهذا الداء فقلما يرجى علاجه . وقد قلت :

وما هذه الدنيا سوى البرق لامعا ✲ فهذا به يلهو وذا رائد القطر
وماهذه الدنيا سوى الروض يانعا ✲ وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه ، وأنفق ماله ، انطلقت الألسنة بمدحه ، وتناقلت الركبان ثناءه ، وحنى ثمرات عمله مرتين فى الدنيا والآخرة كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فمن أنفق فلنفسه يرجع الثناء ، وله يكون الهناء ، ومن قتر فهوالمحروم ، المبعد عن الله والناس . هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه . وتذكر ماخاطب به حاتم ماوية بنت عفزر :

أماوى ان المال غاد ورائح ✲ ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى انى لا أقول لسائل ✲ إذا جاء يوما حلّ فى مالى النكر
أماوى إما مانع فمبين ✲ واما عطاء لاينهنهه الزجر
أماوى مايغنى الثراء عن الغنى ✲ اذاحشرجت يوما وضاق لها الصدر
أماوى ان يصبح صدای بقفرة ✲ من الأرض لا ماء لدىّ ولاخمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرّنى ✲ وأن يدىّ مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لوأن حاتما ✲ أراد ثراء المال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموسا مشرقة وآنية فياضة ، فيجودون بالموجود من صدقة ، ويأملون لقلة ذات اليد حرصا على الكرم . قال الامام الشافعى :

ياهف قلبى على مال أفرّقه ✲ على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ✲ ماليس عندى لمن إحدى المصيبات

ومما يسرّ عند السمر ، ويحلو فى البدو والحضر ، مايروى أن أبا تمام دخل على ابراهيم بن شكلة وامتدحه بأبيات وكان عليلا فتقبلها وأمر حاجبه أن يبوّئه مبوّأ صدق ، ويعدّ له نزلا ومرحباسهلا حتى يبل من مرضه ، فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

ان حراما قبول مدحتنا ✲ وترك مايرتحى من الصفد (١)
كما الدنانير والدراهم فى الـ ✲ ـبيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم قال لحاجبه : كم أقام بالباب ؟ قال شهرين ، قال أعطه ثلاثين ألفا وجئنى

(١) العطاء

بدواء ، فكتب إليه يقول :

أعجلتنا فأتاك عاجل برّنا ✻ قلا ولو أمهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ✻ ونكون نحن كأننا لم نفعل

أذلك خير أمن صار مثلا فى الآخرين ، ونكالا فى الغابرين ، كمثل أعرابىّ أقبل يطلب رجلا و بين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابى ، فقال له الرجل : هل تحسن شيئا من القرآن ؟ قال نعم ، فقرأ « والزيتون وطور سينين » . فقال : وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك . انتهى ما أردته من كتابى « جوهر التقوى » و بهذا تمّ الكلام على اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم التى لا نعمة تفضلها ، وأشكرك على جزيل مواهبك ، وجميل آلائك ، فلقد فتحت باب العلم فتحا مبينا ، وشرحت صدرى لهذا التفسير ، وأصبح مافى كتابك من المعانى العائبة عن الناس أشبه بالملموس باليد ، المنظور بالعين ، المسموع بالأذن ، فأنت يارب العلم والملهم ، وأنت رب العالمين . من ذا الذى كان يختلج فى صدره أن معانى هذه الآية التى ذكرت فى أحوال الآخرة أصبحت كالمشاهد المحسوس الذى تدل أوائله المشاهدة على أواخره الغائبة ، إن هذه الآية قد ضمت فى خواها جميع مايلتاب الناس فى الحياة الدنيا من الاذلال والآلام وهم لايشعرون :

(١) إن أوّل ما أيقظنى لمعناها ما اتفق لى وأنا شابّ ، وقد جلست مع الفلاحين فى قريتنا ، وسمعتهم يذكرون رجلا انتابه مرض خاص لاأتذكره ، وكلما وضعوا البطيخ فى فمه فأكله اعترته حال شديدة فعطش فأعطوه غيره ، فخطرت لى هذه الآية حالا ، وقلت فى نفسى : هذه جهنم قد ظهرت فى معدات الانسان ، وفى حرصه وطمعه ، وجميع أحواله ، وهذا الذى سمعته الليلة ماهو إلا اعلام من الله لى بتفسير هذه الآيه ، إن إلحاح الشهوات والعطش المستمرّ على هذا المريض هوعينه مايحسّ به الفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والملوك والسوقة من الرغبات التى لاحدّ لها فى جميع أطوار الحياة ، إذن هذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يتفطن لها الناس .

(٢) ولما دخلت مدرسة [دار العلوم] وكنت مرّة فى زمن العطلة الصيفية ، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجيزه يوما ثم رجعت قابلنى وأنا راجع عبد الكوبرى رجل جعتى وإياه المصادفات فى المدة التى فتح فيها الكوبرى لمرور المراكب فقصّ علىّ قصصا ، قال : أنا كنت متعلما فى مدرسة الألسن التى أنشأها المرحوم محمد على باشا . ثم صرت موظفا ، وهناك أحوال حاصة أرمتنى المنزل فأصبحت لاعمل لى فلزمت بيت الخان ، وصرت مدمنا ، ولى أصدقاء مدمنون مثلى . ولكنى وقتما هو ما أذكر ما كنت أسمعه من الأساتذة : « إن شارب الخمر مصابون بأمراض تفتك بهم » وهما تقوم حرب شعواء بين هذه الشهوة التى ملكت قيادى و بين العلم الذى لا أشكّ فى صدقه القاطع بضرر الخمر . وهما لعذاب الواصب الذى ملأه من دافع ، فأنا دائما بين نارين : نار الخوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض ، و نار الشهوة المحرقة المطلعة على فؤادى ، وطالما ذهبت إلى سيدنا الحسين ، وصليت فى مسجده ، وطفت من الله أن يريحنى من هذا المصاب ، فأتوب يومين ، فيرجع لى إخوان السوء ، ويلحون علىّ ، فأرجع كرة أخرى . ولكن هذه

المرّة قد تركت تعاطى الخمر (١٤) يوما ، فأنا فرح بهذه النعمة ، وعسى الله أن يتوب علىّ إنه هو التوّاب الرحيم ، وهنالك أقفل الكوبرى فمررنا عليه وسلم علىّ وانصرف اهـ

ولاجرم أن هذه حال هذا الانسان كله فيما يحيط به ، غاية الأمر أن السكارى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات ، وأحوالهم صورة ظاهرة واضحة لآيات كثيرة فى وصف أهل جهنم كقوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » وقوله : « ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت » الآية ، وقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » . وقوله : « فان له جهنم لايموت فيها ولايحيى » ، وقوله : « وقالوا ياليتنا نردّ ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » وقوله : « كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » .

ومن أعجب العجب أن يذكر فى الاهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ وبين هذا الحديث والحديث الذى سقته لك الآن ٤٠ سنة ، والحديثان متشابهان غاية الأمر أن الحديث فى هذه السنة (١٣٥٠ هجرية) وهى سنة طبع هذه الأجزاء يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر فى بلادنا المصرية تقدما محسوسا ، فان الفتى الذى قابلنى عند الكوبرى كان يبكى ويحزن لأجل الادمان على شرب الخمر ، وأقوى عامل أورث شيوع الخمر فى بلادنا اضلال الاستعماريين من أهل أوروبا لشبابنا ، وبهم استأصل داء الجهالة والغواية ، والفقر والدين واستحكم وأفسد الطباع ، ونجح الاوروبيون نجاحا عظيما فى إفساد أبنائنا بسبب الامتيازات الأجنبية ، وأهل الرأى فى البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب ، وأكثر العقول منصرفة عن حقائق العلوم ، عاكفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات ، وذلك كله بفتنة الاستعمار التى لم تجد لها مرتعا خصيبا إلا فى بلادنا : و « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

واعلم أن هذا الشاب الذى قابلنى عند الكوبرى هو وأمثاله مثل ساقه الله لتفسير هذه الآية ، وهذا المثل ليس خاصا بهذا الفتى ، بل الناس كلهم تحكمهم عادات وأخلاق لايجدون عنها محيصا كما قدّمت ذلك من قبل فهم نحن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتدنا على ملابس وما كل ومشارب وأحوالا اجتماعية لانجد منها مخرجا ونقول نفس مايقوله هذا الفتى سواء بسواء ، نحن نأكل الأطعمة الضارّة بالصحة ثم نذم هذه العادة التى ملكتنا ، وهانحن أولاء نسمع بحديث الفيتامين المتقدم المذكور فى [سورة ص] عند قوله تعالى : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » فنريد أن نحافظ على صحة أجسامنا ، وجمال عقولنا ، فنأكل الفواكه والخضر والحبوب ونحو ذلك فنجد العادات التى ورثناها لنا بالمرصاد ، ونسمع علماء الطب يقولون لنا : « إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أو أكثرها تورث صحة وعافية ، وأن كثرة الملابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء وهما النعمة العظمى للصحة » فنجد العادات تقول لنا : لتبقوا محجوبين عن الشمس ، ولتكونوا ضعافا خوفا من الفضيحة والعار ، ونرى المحرم بالحج قد لبس الملابس الخفيفة تعبدا ، فنقول : هذا ديننا قد فتح لنا باب الصحة ، فمالنا لانلبس كما يلبس العرب فى البادية والمحرم بالحج ، فتقف عاداتنا سدّا حصينا بيننا وبين الصحة والعافية ، ونرى الأمم الاوروبية قد أخذت علوم آبائنا وانتفعت بها والقرآن يحضّ عليها ، والطيارات أحاطت بنا من كل جانب ونحن أبناء العرب ممزقون متفرّقون ، فالمصريون أمة ، وأهل تونس أمة ، وأهل الجزائر أمة ، وأهل مراكش أمة ، وفى سورية أمم بفعل أهل أوروبا تفريقا لنا ، وفى العراق أمة ، وفى نجد ، وفى الحجاز أمة ، وفى اليمن أمة ، وكل هؤلاء متباعدون متفرّقون ، وبنى أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرّق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم ، وما ورثوه من آبائهم فى القرون المتأخرة ، فاستمرّ التفريق ودخول الدخلاء بينهم

مما لم تتصف به أمة غيرهم فى زماننا من الفرس والألمان والانجليز والأسبان وغيرهم ، ولكن هذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات الموروثة ان شاء الله تعالى ، وستزول الآلام الشخصية والاجتماعية « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى اعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب فى بلاغة آية : يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد

فى يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ قابلنى الأديب المصرى الاستاذ كامل كيلانى فحدثنى حديثا عجيبا كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع ، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التى ظهرت فى آية : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » فهاك حديثه :

قال : كنت مع الاستاذ [فكل] وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين ، وكانت بينى و بينه صلات أدبية وثيقة : وكان يأخذ برأيى فى ذكر المشاكل التى تقابله فى الأدب لما يعتقده فىّ من الصراحة ، ففى ذات يوم همس فى أذنى متهيبا ، فقال : خبرنى عن رأيك بصراحتك المعروفة ؟ أممن يعتقدون اعجاز القرآن أنت ، أم لعلك تجارى جمهور المسلمين الذين يتلقنون ذلك كابرا عن كابر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لاتخفى على أحد وهو يحسب أنه قد ألقى سهما لاسبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لى وقلت : لكى نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده فلنحاول ليظهر لنا أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده ، فلنجرّب ان نعبر عن سعة جهنم فماذا نحن قائلون ؟ فأمسك بالقلم وأمسكت به ، فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الأسلوب نعبر بها عن هذا المعنى أذكر منها :

(١) إن جهنم واسعة جدّا .
(٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون .
(٣) إن سعة جهنم لايتصوّرها عقل انسان .
(٤) إن جهنم لتسع الدنيا كلها .
(٥) إن الجنّ والانس اذا دخلوا جهنم لتسعهم ولا تضيق بهم .
(٦) كل وصف فى سعة جهنم لايصل إلى تقريب شىء من حقيقتها .
(٧) إن سعة جهنم لتصغر أمامها سعة السموات والأرض .
(٨) كل ماخطر ببالك فى سعة جهنم فانها لأرحب منه وأوسع .
(٩) سترون من سعة جهنم مالم تكونوا لتحلموا به أو تتصوّروه .
(١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصر ولن تصل إلى شىء من حقيقتها .
(١١) إن البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشدّ العجز عن وصف سعة جهنم .
(١٢) إن سعة جهنم قد تخطت أحلام الحالمين وتصوّر المتصوّرين .
(١٣) متى أمسكت بالقلم وتصديت لوصف سعة جهنم أحسست بقصورك وعجزك .
(١٤) إن سعة جهنم لايصفها وصف ، ولايتخيلها وهم ، ولا تدور بحسبان .
(١٥) كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان .

إلى آخر هذه الجمل التى لا أذكر إلا ماذكرت لتقدم العهد وصرف الزمن . فقلت له مبتسما ابتسامة الظافر

الوائق : الآن تتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه فى هذا المدى ، فقال : هل أدّى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أدّيناه ؟ فقلت لقد كنا أطفالا فى تأديته ، فقال مدهوشا : وماذا قال ؟ قلت له : قال « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ، فصفق أوكاد ، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة ، وقال لى : صدقت نعم صدقت ، وأنا أقرّر لك ذلك مغتبطا من كل قلبى (هذا لفظه) فقلت له : ليس عجيبا أن تذعن للحق وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب ، وهذا المستشرق بجيد الانجليزية ، لأنها لغة بلاده فى أمريكا ، والألمانية لأنها اللغة التى درس بها الأدب ، والعبرية لأنها لغة الاموميّة ، والعربية لأنها اللغة التى وقف حياته على درس أدبها ، فهو رجل متخصص للأدب ، وقد جعل حياته وقفا عليه . انتهى الحديث .

هذا حديث الاستاذ [كامل كيلانى] ذلك الشاب الذى ظهر ببلادنا المصرية فى هذه السنين ، وله كتب منشورة نهج فيها منهجا حديثا .

موازنة بين الأدب فى هذا العصر أى سنة ١٩٣٢

وفى المدة الأولى أيام شبابى فى نحو سنة ١٨٨٧ م

ذلك أن مصر فى ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء ، وأنا كنت أتعلم إذ ذاك فى الجامع الأزهر ، ومن العجب أن السؤال الذى وجه إلى هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذى العلامة الشيخ محمد النجدى ، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة إذ كنا نقرأ كتاب السعد للتفتازانى فى الأدب ، وكذلك الأشمونى فى النحو والصرف ، ونصرف زمن الشباب فى ذلك الأدب ، ونحن لانذوق منه شيئا ، ذلك أنى سألته خارج الدرس قائلا : ياسيدى أنت أعلم العلماء فيما أعلم بفن الأدب ، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حق و بأنه معجز فى فن البلاغة ، ولكن هل دقت أنت نفس هذه البلاغة ، وأحسست من غير أن تتأثر مما تلقيته عن الأشياخ ؟ فأجابنى قائلا . كلا . ياشيخ طنطاوى : ألاترى أننا نضيع حصة كاملة فى إعراب بيت فى كتاب الاشمونى أو اجراء استعارة تصريحية أومكنية أونحو ذلك ، وهل خرجنا من هذا السجن إلى جوّ البلاغة المضىء البهيج البديع ؟ . انتهى

عجبا يارباه : أمم الاسلام التى خلقت فيها هاهى ذه لما كنت أدرس الأدب وأناشاب لم يكن ذلك الأدب إلا آثارا ، أمم تذهب وأمم تجىء والأدب يقرأ والغاية منه مجهولة والطريق وعرة .

اللهم لك الحمد والمنة ، ها أناذا الآن أرى الأحوال قد تغيرت ، والوجهة انتظمت ، والعقول استنارت ، هاهوذا الأديب المصرى مع الأديب الأمريكى يرجعان بالأدب إلى حقيقته ويوازنان بين القرآن وكلام الناس ، وكانت النتيجة أن القرآن بليغ .

أيها المسلمون : قد استبان من هذا الحديث أن التعاليم القديمة فى الأدب أخذت تمحى ، وهاهى ذه الأجيال القادمة يظهر لى كما قلت مرارا فى هذا التفسير مقبلون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء . أوليس من العجب أن يكون سؤالى لأستاذى رحمه الله تعالى فى شبابى معادا عينه فى مشيبى ، مع تكون الآخرة خيرا من الأولى ، أوليس من المدهش هذا الانقلاب السريع فى أمة الاسلام ، إذن ما كنت أتوقعه لأمة الاسلام وذكرته كثيرا فى هذا التفسير آت لاريب فيه والحمد لله رب العالمين .

[تذكرة] فى سورة الفاتحة موازنة بين بلاغة سورة الفاتحة وفواتح السور و بين بلاغة فواتح المعلقات فارجع إليها إن شئت . والى هنا تم الكلام على سورة ق والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الذاريات

هى مكية

آياتها ٦٠ — نزلت بعد الأحقاف

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۞ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۞ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۞ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۞
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۞ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۞ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ
يَوْمُ الدِّينِ ۞ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۞ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۞
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۞
كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۞ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ
تَنْطِقُونَ ۞ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ۞ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۞ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ
فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۞ قَالُوا كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ
الْعَلِيمُ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۞ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ
فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۞ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ فَتَوَلَّى

بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۞ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۞ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۞ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۞ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۞ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۞ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۞ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۞ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۞

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفى ذكر جزاء المتقين ، وأخبار الأمم المروية من أول السورة إلى « لعلكم تذكرون »

القسم الثالث فى تسلية النبى ﷺ ، وفى الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد ، المحفوفة بالمخاطر ، من قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

رباه لك الحمد على نعمة العلم وبهجة الحكمة وسعادة الكشف والايضاح ، رحمتك طلسم الوجود ولغز الحياة ، وأحجية الدنيا والدين ، حرنا يار بنا فى رحمتك ، رأيناها حاصلة بالضدّين : الخير والشرّ ، والضرّ والنفع أوليس من العجب أن نرى الجهل من نوع الانسان وأكثرهم جاهلون ، والدواب جميعا تسوقهم للعمل الشهوات وماهى الشهوات ؟ إن هى إلا مهاميز وسياط ونيران تلظى فى هذه الحياة تسوق الناس إلى أعمالهم ،

ينشط العامل لعمله ، والتاجر لتجارته ، والسياسى لنظام دولته ، بم نشط هؤلاء ؟ لم يكن ذلك إلا لما يحسون فى أنفسهم من ألم الجوع وبوار التجارة وضياع المجد والخزى والعار أمام الأعداء والأهل والأصحاب .

سبحانك اللهم وبحمدك ، سبحانك ربنا ، إذن حسراتنا وأحزاننا وآمالنا ومسرّاتنا الوقتية وعداواتنا إن هى إلا محركات لهممنا ، سائقات لعزائمنا ، جعلتها يارب أسواطا بها تسوقنا كما نسوق نحن بهائمنا وأنعامنا بما لدينا من سياط وعصىّ وأدوات .

يركب أحدنا الحصان والحمار والفيل والجمل ، ويسوقه بما معه من السياط ، وانما نفعل ذلك لما نعلمه من أن هذه الدواب لا تسير سيرا على مقتضى رغائبنا غالبا إلا اذا نظمنا سيرها بايقاظها بضرب السياط واعمال المهاميز ، نفعل ذلك ونحن نجهل أنك أنت تفعل معنا مانفعله نحن مع دوابنا ، الله أكبر : نحن فى عالم المادة والمادّة هذا شأنها ، عالمنا مادّى ، فالمادّة كلها آلاته ، لذلك قضيت علينا وحكمت حكما عدلا أن يكون جوع وشبع ، وخير وشرّ ، وضرّ ونفع ، وحبيب وعدوّ . فان كان خير فرح الحبيب فأفرحنا ، وان كان شرّ شمت العدوّ فحركنا للعمل كما نسرّ بتعاطى الطعام ، وبمسرّات اجتماع الزوجين الذكر والأنثى ، والصحة والجمال ، ونحزن للفقر والمرض والذل والخضوع للأعداء ، فنجدّ للعمل حتى نستردّ ما كنا به فى بهجة وحبور ، هما ضدان اتخذتهما برحمتك سوطين يسوقاننا لأعمال الحياة ، أفليس من عجب أن تكون شماتة الأعداء أكبر مقوّم لنا ومرقّ فى الحياة من رضا الحبيب وغفلته أو تغافله عن عيوبنا ، إذن الضدان لابدّ منهما لرحمتنا حتى نحيا سعداء سعادة مّا . يشير لذلك قوله تعالى فى هذه السورة : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله » .

اللهم إن أكثر نوع الانسان مسوقون بهذين السائقين وهم فى رحمتك بهما ، وهذا قوله فى سورة أخرى « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » . وهناك صنف من الناس ارتقى عن هذه الطوائف فكان عمله للخير المحض والسعادة المطلقة ، وهذه هى النفوس العالية التى تشرق على هذا النوع الانسانى آنا فآنا .

الله أكبر : هو الرحمن الرحيم ، الله أكبر : هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم ، والجبال والشجر والدواب خلقها برحمته هو ابداعا ، وصقل الدنيا كلها بصقال الجمال ، وجعل فى العقول الانسانية من يكونون فى الأرض أشبه بتلك النجوم والشموس والأقمار ، يضيئون على الناس كما تضىء الكواكب والشمس والقمر على الأرض .

الله أكبر : ما أكثر غفلة نوع الانسان ، هذه الطائفة هم الذين قال الله فيهم : « وقليل من عبادى الشكور » ، ألا ترى أن شكر النعمة أن يوجه الانسان جميع مواهبه إلى وجهتها ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ يكون مع الناس ومع ربه أشبه بالشمس والكواكب فى عموم النفع بلا طلب مكافأة ولا مجازاة ، وكما أن الشمس منقادة تسير على النظام المجيد الذى رسمه لها المبدع ، وتطيعه طاعة أشبه بطاعة المحب لمحبوبه طلبا لرضاه ، وسعيا لامتثال أوامره ، هكذا هذه الطائفة فى هذا النوع الانسانى نزلوا إلى الأرض لهذه الفضيلة ، شأنهم مع الناس شأن الأمهات مع أولادها ، وشأن الاستاذ الصادق مع تلاميذه النجباء والبلداء ، وشأن الشمس مع الأرض الطيبة والقفراء ، وهؤلاء الشاكرون من نوع الانسان هم الأنبياء والحكماء الذين يخلقون فى الأمم جيلا فجيلا ، هم فى الأرض مع الله أشبه بالكواكب فى إطاعة النظام ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ هم يرقون الأمم بما يحسون فى نفوسهم من حب لها ، وغرام برقيها واسعادها ، لا يرقبون جزاء ولا شكورا ، ولن يتمّ لهم ذلك إلا بحبّ وهيام وغرام بمبدع الشموس والأقمار ، فهم عن الله يأخذون ، ولعباده يعطون ، والله يلهم النفوس

العاليـة وهم الملائـكة أن تمدهـم من الأنوار التى استمدّتها منـه تعالى ، فهؤلاء العلماء فى الأرض والنفوس الشريفة فى العالم الأعلى هم الذين يشهدون نظام السموات والأرض المذكور فى نظرات الخليل عليه السلام واذن يشهدون الحكمة والجمال والبهجة فى العوالم ، هم المعطوفون على الملائكة فى آية : « شهد الله أنه لاإله إلاهو والملائـكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلا هوالعزيزالحكيم » .

وستكثر هذه الطائفة فى ديارالاسلام بعد نشرهذا التفسير فى زماننا . وفى الملائـكة المذكورين يقول الله فى هـذه السورة : « فالمقسمات أمرا » ، وفى تربية الناس ليستخرج منهم من هو مستعدّ للتلقى عن تلك النفوس العالية وان كانوا قليلا يقول فيها أيضا : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحارهم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . هـذه أوصاف العابدين ، ومن هؤلاء العابدين من تسمو نفوسهم إلى هذه الطائفة بما ركب فيهم من الاستعداد والقوى النفسية وهم المفكرون فأسمعهم مابعد ذلك فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » .

فلتنظرأيها الذكىّ فى نفسك فان كان عملها للناس لعرض المكاسب كما هودأب أكثرهذا النوع الانسانى أوللشهوة ، أواللذة ، أوالعلوّعلى الناس ، فأنت لاتزال فى الدرجات الدنيا من العبادة ، وان كان عملها بسائق الحب كما تفعل الأم بولدها فأنت فى الذروة العليا ، ثم انظر فى آخر هذه السورة : « وماخلقت الجنّ والانس إلا ليعبدون » فان كانت هذه العبادة لأجل الجنة ومافيها فهى المرتبة الدنيا ، وان كانت الأعمال والعبادات صادرة بحب خالص فان السعادة والبهجة تعجل لصاحب هذا العمل فى نفس الحياة الدنيا ، وهذه الطائفة من الآن سعداء ، دنياهم كآخرتهم ، يعبدون الله كأنهم يرونه ، ومن عبد الله كأنه يراه فهذا لاينتظر جزاء بعد ذلك فقد نال مقصوده ، فكن أيها الحبيب ذلك العبد إن شاء الله .

هذا مافتح الله به صباح يوم الثلاثاء ٢٩ شوّال سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م وكتبته وقت الضحى . وبهذا تمّ الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى من السورة

فى دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفى ذكر جزاء المتقين ، وأخبار الأمم المروية من أوّل السورة إلى قوله تعالى : « لعلكم تذكرون »

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والذاريات ذروا) الرياح تذرو التراب وغيره (فالحاملات وقرا) أى الرياح الحاملات للسحاب (فالجاريات يسرا) أى الرياح الجارية فى مهابها بسهولة (فالمقسمات أمرا) هى الرياح التى تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، فالفاء هنا لترتيب الأفعال ، والذات واحدة وهى الرياح ، وجواب القسم قوله (انما توعدون لصادق) فان هبوب الرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها فى الهواء بسهولة ، وتقسيمها للأمطار كل ذلك مخالف لناموس الجاذبيـة ، إن كل ما على الأرض منجذب لها واقع عليها ، ولكن هنا تصرّفت الرياح تصرّفا عجيبا ، وهـذا التصرّف تابع لسير الكواكب ، لأنها بحريها وبجرى الشمس تؤثر جميعها فى أرضنا وفى هوائها فيتم ماذكر ، وهـذه الكواكب والشمس تجرى بنظام مقدّر محكم يدل على تدبير عقلى

ونظام حكمى ، فاذن يكون ذرو التراب ، وحمل السحاب ، وجريه وتفريقه تابع لنظام سير الكواكب التابع لتدبير النفوس والعقول العالية ، وهم الملائكة المدبرون للعالم الأرضى ، فما ذرت الرياح التراب ، ولاحملت السحاب ، ولاقسمت المطر على البقاع إلا بالحركات الفلكية المنظمة بالعقول الملكية ، وهذا يجمع لك كلام المفسرين رحمهم الله ، فاذا سمعت بعضهم يقول : الذاريات الكواكب ، و بعضهم يقول الملائكة فاعلم أنهم جميعا لاخلاف بينهم لأن الأسباب والمسببات مرتبطات محكمات ، أعلاها سبب فى أدناها ، وليس من الحكمة أن يكون هذا النظام محكما من الأعلى الى الأسفل كما قال تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ثم تكون نتيجة ذلك الفناء المطلق الذى يدل على أن لاحكمة فى خلق هذا الانسان ، لذلك جعل الله تلك المذكورات مقسما بها ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ براهين على البعث إذ لولا البعث لكان هذا كله عبثا ، فالمدبرات لهذه العوالم لم تدبره ليفنى ، لذلك قال (انما توعدون لصادق ، وان الدين لواقع) أى وان الجزاء لحاصل نفيا لفعل العبث من هذه النظم المحكمة (والسماء ذات الحبك) ذات الطرائق جمع حبيكة كطريقة ، * وطرائق السماء قسمان : محسوسة وهى مسير الكواكب ، ومعقولة وهى مسير العقول فى التفكير فيها للتوصل إلى العلوم والمعارف ، أوذات النجوم ، والنجوم تزين السماء كما تزين طرائق الوشى الثوب ، وتحسن شكله ومنظره ، يقال فى هذا أيضا حبيكة وحبك وحباك وحبك ككتاب وكتب ، يقسم الله بالسماء [ذات طرائق النجوم وطرائق العقول بالتفكر ، أوطرائق الوشى والزينة بنفس النجوم ، ومعلوم أن طرق النجوم ونفس النجوم كلها مرتبطات متعاضدات متحدات المقاصد والأغراض] (إنكم لفى قول مختلف) فى الرسول وفى القرآن ، وفى القيامة ، وفى أمر الدين كأن يقولوا : ان الرسول شاعر ، أوساحر ، أومجنون الخ ولقد كانوا يتلقون الرجل فيقولون له : إياك وأن تسمع محمدا انه ساحر أوكاهن الخ فيصرفونه أى عن الايمان به ، ولذلك قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أى يصرف عن القول المختلف أى بسببه من صرف عن الايمان وهذه الجملة صفة بعد صفة للقول (قتل الخرّاصون) الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وهذا دعاء بالقتل ولكنه جرى مجرى اللعن (الذين هم فى غمرة) فى جهل يغمرهم (ساهون) غافلون عما أمروا به (يسألون أيان يوم الدين) أى فيقولون متى يوم الجزاء : أى وقوعه ، وجواب هذا السؤال أنه يقع ذلك (يوم هم على النار يفتنون) أى يحرقون حال كونهم مقولا لهم تبكيتا (ذوقوا فتنتكم) أى نقول لهم خزنة النار : ذوقوا عذابكم واحراقكم فى النار (هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى هذا العذاب هو الذى كنتم به تستعجلون (إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم) قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به وآخذين (إنهم كانوا قبل ذلك) قبل دخول الجنة فى الدنيا (محسنين) قد أحسنوا أعمالهم ، وذكر منها هنا مايأتى : (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) ينامون ومازائدة : أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل ، أوهجوعا قليلا (وبالأسحار هم يستغفرون) فهؤلاء يحيون الليل متهجدين ، فاذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم ، والسحر السدس الأخير من الليل . ويقال انهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم اذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » كانوا قلّ ليلة تمرّ بهم إلا صلوا فيها شيئا إما من أوّلها أومن وسطها . وقال أنس بن مالك : « كانوا يصلون بين المغرب والعشاء » أخرجه أبوداود (وفى أموالهم حق) نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقرّبا إلى الله وإشفاقا على الناس (للسائل والمحروم) للمستجدى والمتعفف الذى يظن غنيا فيحرم الصدقة (وفى الأرض آيات للموقنين) أى فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان والنبات والعجائب (وفى أنفسكم) آيات (أفلا تبصرون) تنظرون نظر من يعتبر . وصف الله المحسنين بأنهم مجدّون فى العبادة

البدنية ، واخراج المال لمستحقه ، وفيهما إشارة الى الزكاة والصيام والحج ، لأن الأوّل معلوم من الآية والثانى من نوع العبادة البدنية ، والثالث مركب من المال والبدن ولم يبق إلا الايمان والعلم فلذلك أتى بهذه الجمل وهى النظر فى الآفاق وفى الأنفس بأسلوب آخر كأنه كلام مستقل مع أن هذا من قبيل العلم والأوّل من قبيل العمل ، وكل متمم للآخر ، وانما فصل هذا لأنه مختص بطائفة راقية العقل تنبغ فيه ، فالأوّلون صالحون ، والآخرون هم الصدّيقون قال تعالى تتميما لمسائل العلم (وفى السماء رزقكم) أى أسباب رزقكم أوتقديره (وما توعدون) من الثواب ، ذلك لأن الجنة فوق العوالم السماوية ، أو يقال : إن الأعمال وثواب الأعمال مقدّرات فى العالم الأعلى (فورب السماء والأرض إنه) أى ماتوعدون (لحق) حقا (مثل ماأنكم تنطقون) أى مثل نطقكم ، فكما أنه لاشكّ لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لاتشكوا فى تحقق ذلك . ويمكن أن يقال انه أى الرزق ، وعليه ما يأتى :

[حكى الأصمعى] . قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابىّ على قعود ، فقال من الرجل ؟ فقلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الله تعالى . قال اتل علىّ ، فتلوت : « والذاريات ذروا » فلما بلغت : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون) ، قال حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى . فلما حججت مع الرشيد ، وطفقت أطوف فاذا أنابمن يهتف بى بصوت رقيق ، فالتفت فاذا بالأعرابى قد نحل واصفرّ فسلم علىّ واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح . وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا . قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : فورب السماء والأرض إنه لحقّ ، فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف : لم يصدّقوه بقوله حتى حلف قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

واعلم أن مثل هذه الحكاية لاتؤخذ بظاهرها ، وكم للأصمعى من حكايات من عنده . واعلم أن الله عزوجل هوالذى تكفل بالرزق وحده ، فأمازرع الأرض مثلا فليس إلا عملا قليلا جدا ، فماهو إلا وضع حب وانزال ماء وخدمة ، ولكن النموّ والخلق وجميع الرزق حاصل بأسباب سماوية من حرارة تارة وبرودة أخرى وعمل عظيم فى الخلق والتصوير والتقدير والعجب العجاب ، فأىّ دخل للناس فى هذا ؟ هذا معناه إذا أرجع الضمير للرزق فافهم .

ولما فرغ من الدلائل العقلية ، والعبادات البدنية ، وماتقدّمها شرع يقصّ القصص وابتدأ بقصة ضيف ابراهيم التى جاء فى آخرها : « وتركنا فيها آية » للمناسبة بينها و بين : « وفى الأرض آيات للموقنين » قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم) فى هذه الجملة تفخيم للحديث ، والضيف فى الأصل مصدر يطلق على الواحد والمتعدّد ، وقوله (المكرمين) أى المكرمين عند الله تعالى وعند ابراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته وكانوا اثنى عشر ملكا فى صورة الضيف حين أضافهم ابراهيم (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما (قال سلام) أى عليكم سلام ، والابتداء جملة فعلية ، والردّ جملة اسمية تفيد الثبات والأولى للحدوث ، فالردّ أوكد ، فهذه تحية أحسن من الابتداء . ثم قال أنتم (قوم منكرون) فعرّفونى من أنتم (فراغ إلى أهله) فذهب إليهم فى خفية من ضيفانه ، وذلك لأن من أدب الضيافة أن يبادر ربّ الدار بالقرى خيفة أن يمنعه الضيف أو يطول انتظاره (فجاء بعجل سمين) لأنه كان عامة ماله البقر (فقرّبه إليهم) بأن وضعه بين أيديهم (قال ألاتأكلون) منه ، وذلك حثّ منه لهم على الأكل من العجل المشوى لأنه لايؤكل منه إلا بعد ذلك فلم يأكلوا من الطعام (فأوجس) فأضمر (منهم خيفة) خوفا فان من لم يأكل طعامك لايحفظ ذمامك ، وكان فى زمانه اذا أكل الرجل من طعام صاحبه أمنه كما هوحاصل اليوم عند طوائف من العرب ، فلما علموا خوف ابراهيم

(قالوا لا تخف) منا يا ابراهيم إنا رسل ربك (و بشروه) من الله (بغلام) بولد (عليم) يبلغ و يعلم أو نبيّ وهو اسحق (فأقبلت امرأته) سارة (فى صرّة) أى حال كونها فى صيحة وهى من الصرير (فصكت وجهها) فلطمت بأطراف الأصابع جبهتها كما يفعل المتعجب (وقالت) أنا (عجوز عقيم) فكيف ألد (قالوا كذلك) مثل ذلك الذى قلنا وأخبرنا به (قال ربك) فنحن نخبرك عن الله والله قادر على ما تستبعدينه (إنه هو الحكيم) فى فعله (العليم) فلا يخفى عليه شىء . فلما علم أنهم ملائكة (قال فما خطبكم) أى فما شأنكم، وما طلبتكم، وفيم أرسلتم ؟ (أيها المرسلون) أى أ إلى البشارة وحدها أرسلتم أم هناك أمر آخر؟ (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قوم لوط (لنرسل عليهم حجارة من طين) أى طين مطبوخ كما يطبخ الآجر حتى يصير فى الصلابة كالحجارة (مسوّمة) معلمة من السوم وهو العلامة، وعلامتها تدل على أنها ليست من أحجار الدنيا (عند ربك للمسرفين) أى المجاوزين الحدّ فى الفجور (فأخرجنا من كان فيها) فى قرى قوم لوط (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) أى غير أهل بيت من المسلمين وهم لوط وابنتاه، وهم موصوفون بالاسلام والايمان (وتركنا فيها آية) علامة (للذين يخافون العذاب الأليم) فانهم المعتبرون بها وهى تلك الأحجار . ثم قال تعالى : (وفى موسى) وهو معطوف على : « وفى الأرض » (إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) هى معجزاته كاليد والعصا (فتولى بركنه) أى فتولى بما كان يتقوّى به من جنوده، والركن اسم لما يركن إليه الشىء و يتقوّى به (وقال ساحر) أى هو ساحر (أو مجنون) فكان ما ظهر من الخوارق على يديه منسوب إلى الجنّ (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ) فأغرقناهم فى البحر (وهو مليم) آت بما يلام عليه (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وانما كانت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم (ما تذر من شىء أتت عليه) مرّت عليه (إلا جعلته كالرميم) كالرماد، من الرم وهو البلى والتفتت (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) وفى آية أخرى : « تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام » فهذا هو الحين هنا (فعتوا عن أمر ربهم) فاستكبروا عن امتثاله (فأخذتهم الصاعقة) أى العذاب بعد الثلاث (وهم ينظرون) إليها فانها جاءتهم معاينة بالنهار (فما استطاعوا من قيام) وهو قوله فى آية أخرى : « فأصبحوا فى دارهم جاثمين » (وما كانوا منتصرين) ممتنعين منه (وقوم نوح) أى وأهلكنا قوم نوح (من قبل) من قبل هؤلاء المذكورين (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان . ثم رجع إلى ذكر آيات الآفاق المذكورة من الأرض والسماء سابقا فقال (والسماء بنيناها بأيد) بقوّة، والأيد القوّة (وانا لموسعون) أى لموسعون ما بين السماء والأرض، أو وانا لقادرون، من الوسع وهو الطاقة، والموسع القوىّ على الانفاق (والأرض فرشناها) بسطناها ومهدناها (فنعم الماهدون) نحن (ومن كل شىء) من الحيوان والنبات (خلقنا زوجين) ذكر وأنثى (لعلكم تذكرون) فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث من السورة

فى تسلية النبىّ صلى الله عليه وسلم، وفى الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد، المحفوفة بالمخاطر

قال تعالى (ففرّوا إلى الله) من الشرك، ومن طاعة الشيطان، ومن كل ما سواه (إنى لكم منه نذير مبين، ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين) مبين ما يجب أن يحذر منه (كذلك) أى كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون كذلك (ما أتى الذين من قبلهم) أى من قبل كفار مكة فى الأمم الخالية (من رسول) يدعوهم إلى الايمان والطاعة (إلا قالوا ساحر أو مجنون) قال الله تعالى (أتواصوا به) أى كان الأولين

والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضا بهذا القول حتى قالوه جميعا (بل هم قوم طاغون) جمعهم على هذا القول طغيانهم (فتولّ عنهم) أى أعرض عنهم (فما أنت بملوم) أى لا لوم عليك فقد أدّيت الرسالة وما قصرت ، فلما نزلت هذه الآية حزن النبيّ ﷺ وظنّ أن الوحى انقطع وأن العذاب نازل فنزل (وذكر فانّ الذكرى تنفع المؤمنين) فلما نزلت هذه الآية طابت نفوسهم ، والمعنى عظ بالقرآن فان الذكرى تنفع من علم الله من استعداده أنه يؤمن منهم (وما خلقت الجنّ والانس إلا ليعبدون) إلا أن أمرهم وأكلفهم : أى ما خلقت الجنّ والانس إلا لأمرتهم أن يوحدونى ويعبدونى ، وهذا تفسير سيدنا علىّ كرّم الله وجهه ، وقراءة ابن عباس : [وما خلقت الجنّ والانس من المؤمنين إلا ليعبدون] . ويصح أن يراد الجميع من حيث انهم مستعدّون بفطرهم للتوحيد ، وانما منعهم عن ذلك الاستعداد ما حصل من الأبوين فانهم يهوّدان المولود وينصرانه ويمجسانه ، فالمقصود على هذا الرأى أنهم خلقوا على الفطرة فلا ينافى أن العوارض أزاحتهم عن فطرهم : أى إلا ليكونوا مستعدّين بفطرهم ، وجعل ذلك غاية للمبالغة فى ذلك (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) ما أريد أن أصرفكم فى تحصيل رزقى ، فاشتغلوا فيما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به ، فلست معكم كالسيد مع عبيده من الآدميين يعملون ليطعمون ، إن الأمر هنا بالعكس فانى أنا أرزقكم (إنّ الله هو الرزّاق) الذى يرزق عباده لا أنهم هم يسعون لرزقه (ذو القوّة المتين) شديد القوّة ، واذا كان شديد القوّة فانه قادر أن يعذب الذين ظلموا (فانّ للذين ظلموا ذنوبا) أى فان للذين ظلموك من أهل مكة نصيبا من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) مثل نصيب نظائرهم من الأمم السالفة ، وقد كانت السقاة يقتسمون الماء بالدلاء ، والذنوب هو الدلو على شرط الامتلاء بالماء . وقال الزجاج : الذنوب فى اللغة النصيب (فلا يستعجلون) بقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) من يوم القيامة ، أو يوم بدر وأمثاله فى الدنيا . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ، إن ماتوعدون لصادق ، وان الدين لواقع . والسماء ذات الحبك » .

(٢) وفى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » .

(٣) وفى قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » .

(٤) وفى قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » .

اللطيفة الأولى والثانية

فى هاتين اللطيفتين مبحثان

المبحث الأول علمى ، والمبحث الثانى أدبى .

المبحث العلمي

لقد سبق لك فى [سورة ق] والحجرات أنهما قد جمعتا بين الأخلاق النفسية فى الحجرات ، والعلوم الطبيعية والفلكية فى [سورة ق] وأن لفظ ق قد جىء به فى وسط العلمين كالتذكرة لهما ، وقد بينا أن الأمم الاسلامية اليوم أحوج ما يكون إلى علوم الأنفس والآفاق ، وأن مافى السورتين المذكورتين نموذج لهما

وأن رقيهم لا يكون إلا بها ، وأن أوروبا المحيطة بنا من كل جانب نبغت فيهما ، وأن الله لم يذر وسيلة من وسائل الارشاد للفتنا إلى ذلك إلا جعلها فى هذا القرآن ، لعلمه أننا بعد القرون الطويلة سننام على علم الفقه ونظن أنه كاف فى اسعادنا فى الدنيا والآخرة . كل هذا قد تقدم فى السورتين .

أفلا تنظر معى الآن كيف جعل هذه السورة كالمؤكدة لما تقدم فانه ابتدأها بذكر الرياح التى تذرو التراب وغيره ، وتحمل السحاب ، وتجرى بسهولة ، وتفرق المطر على الأقطار ، وبأن السماء ذات الحبائك ، وأنواع الوشى والزينة من كل نجم مشرق اللون ، باهر الجمال ، يزينها السماء بزينة باهرة (وقرئ كالبرق والنعم والجبل والسلك والابل والقفل) كل هذا بنحو ذلك المعنى ، كأنه عز وجل يقول : هاأناذا ياعبادى قد أمرتكم أن تنظروا السماء ، وتعتبروا بالأرض فى [سورة ق] فماذا بعد تو بيخكم على التقاعد عن النظر وحثكم بقولى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » فماذا بعد ذلك إلا أن أجعل العجائب الأرضية ، والطرق السماوية ، وأنواع الزينة الكوكبية قسما أقسم به ، وهل بعد إعظام هذه العجائب مقال لقائل ؟ وهل بعد أن يحلف بها خالقكم من محيص عن النظر فيها والتفكر ؟ .

أقول : ياعجبا لأمة الاسلام ، يظنون أن ما يخاطب به الكافر قد نجوا منه ، يظنون أن الايمان الموروث عن الآباء كاف ، وأن توبيخ الكافرين على التقصير فى العلم لايوجب توبيخ المسلمين فيه ، وكأن المسلم يفهم أن الجهل مغتفر منه متى نطق بالشهادتين ، فقد قال الله تعالى فى حق الكافرين : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ولقد تقدم فى حديث عبد الله بن زياد مع عمر أنه رضى الله عنه خاف من هذه الآية ، وقال : لوشئت لملأت هذه الرحاب سبائك ورقاقا وصنابا ، ولكنى رأيت الله نعى على قوم فقال : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » فهاهوذا عمر خاف من هذه الآية مع أنها عملية وقد قيلت فى حق الكفار فما بالك بهذه الآيات التى فى هذه السورة المؤكدة لما قبلها ، قد ذكر الله العجائب الأرضية والعجائب السماوية على طريق القسم وأعاد ذكرهما فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين » الى آخر السورة ، ثم ثلث ذكرهما فقال : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » الخ .

هاهوذا الله يذكر السموات والأرض ثلاث مرات متفرقات فى هذه السورة عناية بنا ولفت نظر ، وذكر النفس كما ذكر أخلاقها وتطهيرها فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ من أدناس الغيبة والسخرية وما أشبه ذلك وفى النفس آيات ثلاث أصليات لها فروع كثيرات ، إن النفس تعقل وتغضب وتشتهى ، فالشهوة بها حياة الأجسام ، والغضب به حفظ النظام ، وبالعقل التدبير والعلم والاحكام ، وكأنما النفس نهر له ثلاثة جداول ، أو قبيلة لها ثلاث بطون ، أو شجرة لها ثلاثة فروع ، أو رجل فهو من جهة حداد ، ومن جهة نجار ، ومن جهة كاتب فله أسماء باعتبار صفاته كما ترى التفاحة حمراء ذات رائحة طيبة حلوة ، فهذه ثلاث صفات لشىء واحد ، فالنفس واحدة ولها الحواس الخمس تجلب لها أنواع الألوان والأشكال وأمثالها بالعين ، وأنواع الأصوات بالأذن ، وأنواع المشمومات بالأنف ، وأنواع الطعوم من حلو وحامض ، ومر ومن ، وحار وملح وما أشبه ذلك بالذوق . وأنواع الملموسات من ثقل وخفة وحرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وما أشبه ذلك بحاسة اللمس ، فهذه المعلومات التى عدها علماء المقولات ستا وثلاثين نوعا تستخرج من المحسوسات وتجتمع عند الحس المشترك . وهناك تحفظ فى القوة المخيلة كما يجفف الناس الطين بالحرارة فتقلب اللبن وتجعله آجرا . وكما أن الناس يوقدون على اللبن فيصير آجرا هكذا فى نفوسنا قوة تحفظ صور المحسوسات وتخزنها فيما يقال له الخيلة ، والحس المشترك يأخذ الصور من الحواس ويسلمها لتلك القوة فتتصرف فيها فى اليقظة وفى النوم وهى حال سكر وجنون . فتفعل أفعالا غريبة فى الصور وتركيبها بأحوال مختلفات وتركيب بعضها مع بعض على أشكال وعلامات

البلاغة والشعراء ومؤلفو الروايات ، ثم ان الناس كما يتخذون الآجر فى البناء هكذا النفس لها قوّة تقوم مقام البناء تسمى المفكرة وهى تتصرّف فى المعانى المأخوذة من الصور تصرّف البناء فى البناء بالاجادة و بضدها ، ثم ان هناك قوّة تدرك المعانى الجزئيـة تسمى الواهمة ، وهناك قوّة أخرى تحفظ تلك المعانى تسمى الحافظة فعندنا صورأتت بها الحواس والحس المشترك قبلها والمخيلة خزنتها وتصرّفت فيها والمفكرة استخلصت المعانى وخزنتها فى العوالم العلوية الروحية ، والمعانى الجزئية تدركها الواهمة كعـداوة الذئب للشاة ، وخزانتها تسمى الحافظة . هذه هى القوى التى فى نفوسنا ، وقد أبدع علماء العصر الحاضر فى أمر النفس وجعلوا أن الدماغ مقسم أقساما كل قسم له جزء مخصوص من العلوم بحيث يكون الدماغ أشبه بمناطق الأرض لكل منطقة مزارع خاصـة بها ، فكما لاينبت النخل فى البلاد الباردة ، ولا البندق فى البلاد الحارّة ، هكذا لاتكون العلوم الرياضية فى مواضع العلوم الطبيعية فى الدماغ ، ولاتكون مخازن العلوم فى الدماغ مستعدة لقبول علوم اللغات . هذا جزء يسير من عجائب النفس التى ذكرها الله إذ قال : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم » أى آيات ، فهذه بعض آيات الأنفس .

والمتأمّل لهـذه الآيات يجد فيها عجبا عجابا ! يقول الله : « والسماء ذات الحبك إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك » كأنه يقول : أى عبادى : هاأنا ذا زينت السماء بالنجوم و بطرقها ، وجعلتها حبائك ترونها مزينة لها وأنتم ترون زينتها وحبكها ، وكلما كانت الزينة أكثر عددا وأبدع نظاما كان السرور بها أكثر ، وكانت الحكمة فيها أعظم ، وقد قلت لكم : إن فى هذه السماء ذات الزينة رزقكم وماتوعدون ، فلم لاتوجهون نظركم إليها ؟ ولاتعوّلون فى بحثكم عليها وعلى الأرض وآفاقها ، وكيف تكون أنواع الزينة والأنوار فى السماء التى هى قبلة الأنظار ، وأنتم تستمدّون منها جميع ماتعيشون به ، ثم تكون سيركم مخالفة لنظامها ، فان طرقكم ظلمانية ، وأعمالكم شيطانية ، أفلاتنظرون السماء مشرقة وأنتم مظلمون ، طرقها هداية وطرقكم ذات ضلال ، أحاطت بكم السماء المزينة المرصعة التى فيها رزقكم وفيها الجنة ، فوعزّتى وجلالى لاتسكنون هناك إلا اذا كانت أعمالكم مشاكلة لزينة السماء فكيف تكون السماء ذات حبك وأعمالكم ذات ظلمات ، فهل يستوى الأعمى والبصير ، ألم أقل فى القرآن : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » فأبواب السماء والجنة محالّ مشرقة بهجة لايدخلها إلا من تربوا تربية تناسب ذلك الجمال ، فكيف تكون السماء ذات حبك وزينة وجمال ونظام ، وأعمالكم ذات ظلمات واختلاف واختلال ، وعزتى وجلالى لأحرّمنّ السماء والجنة على كل من لا يكونون على نسق ذلك الجمال . وقد تقدّم فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ إيضاح الكلام فى أن الجنة فى السماء المناسب لقوله تعالى هنا « وفى السماء رزقكم وماتوعدون » .

ياعجبا كيف أصبح المسلمون أبعد الناس عن عالم الجمال ، وقد تولوا عن النظر فى السموات والأرض ، اللهم انى أشهدك وأشهد العالم الاسلامى أن أحوال المسلمين اليوم ذات نقص محزنة ، وكيف لاتكون نقصا ونحن الآن نجعل كل همنا نقل أقوال الأئمة رضوان الله عليهم ، ونكتر نقل الخلاف فى علم واحد وأصوله وهوالفقه ، وقد أعرضنا عن الذاريات ذروا الخ وعن السماء ذات الحبك ، وشغلنا أنفسنا بطرق وعلوم تغشى على عقولنا ، فلا ننظر الطرق السماوية ، والعلوم الحكمية ، والبهجة الربانيـة ، إن للمسلمين طرفا من هذه الآية ، ان بعضهم عن السماء محجوبون ، محجوبون بالتقاليد و بدراسة علم الفقه ، و بقول الشيوخ بأنها تكفى للارتقاء يوم القيامة كأنهم ماقرءوا « والذاريات ذروا » ولاقرءوا « والسماء ذات الحبك » ولاقرءوا « والسماء بنيناها بأيد » .

فلينظر المسلمون فى العلوم ، وليعلموا أن أوان ما أقوله قد أقبل ، وتدهور الاسلام قد أدبر ، وسيظهر فى الاسلام جيل يكون نبراس الأمم فى العلم والحكمة ، والله هو الولىّ الحميد . انتهى المبحث العلمى فى هاتين اللطيفتين . وان أردت سرّ قوله تعالى : « ومن كلّ شىء خلقنا زوجين » فانظره فى أوائل [سورة الأنعام والشعراء] وهكذا تنظر عجائب النبات فى سور كثيرة أقربها [سورة ق] .

المبحث الأدبى

ههنا أخذ الله يقسم بعجائب المخلوقات ، وسيقول : [والطور وكتاب مسطور] الخ والنجم وقوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » فى [سورة الواقعة] وهكذا ، كل هذه ذكرها الله تعالى إعظاما لأمر الأنفس والآفاق ، وتذكيرا للمسلمين أن يتعلموها ، ثم ان العرب لم تكن تعرف القسم بهذا الأسلوب ، وسنوازن فى هذا المقال بين أسلوب العرب وأسلوب القرآن نقلا من كتابى [مذكرات آداب اللغة العربية] الذى ألفته لتلاميذ المدرسة الخديوية ، فهاك ماجاء فيه تحت العنوان الآتى : وهذا نصه .

أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ أقسم كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ✲ لكان لكم يوم من الشرّ مظلم

وبلفظ يمين كقوله :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ✲ ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وبلفظ العمر كقوله :

لعمرك ماأدرى وانى لأوجل ✲ على أينا تعدو المنية أوّل

وبلفظ يمينا قال زهير :

يمينا لنعم السيدان وجدتما ✲ على كل حال من سحيل ومبرم

ومن عجب مانرى من أقسام القرآن فنراه يقسم بما لم يقله عربى قط . قال : أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق . يقول أحلف بما ترون من ذلك النور المتوسط فلا هو غاية فى الاضاءة ، ولاهو حالك الظلام أرسلته الشمس بعد مغيبها ، وعكسته على السحب العاكفة فى جهات المغارب المسماة بالشفق ، وبالليل وما جمع من كل مخلوق نائم ومتحرك وساكن ، وبالقمر اذا تمّ ضوؤه وتكامل نوره ، وبالجملة . يقول أقسم بأحوال الليل من أنواع الأنوار المختلفة ، وما أجنّ الليل من مخلوق فى الأرض . إنكم معاشر الانس ستنقلون من حال الى حال من هذه الحياة بالرقىّ فى المدنية ، أو أن تخلف دولة دولة ، وبالانتقال من الحياة إلى البرزخ ، إلى جنة أو إلى نار كما يكون الليل بألوانه الثلاثة على الأجسام وكأن القسم جاء تمهيدا للقضية المقسم بها وتشبيها لها وتنظيرا أو كشبه العلة لشبه المعلول لحركات الأفلاك تحدث الأنوار والظلمات وتحيط بالمخلوقات ، ومنها الانسان الذى قضى عليه بالتنقل فى الدنيا من حال الى حال تبعا لحركات الاجرام السماوية بتقدير العزيز العليم الذى دبر الحريف ، والربيع ، والشتاء ، والصيف والدهور والعصور ، واختلفت الدول والممالك باختلاف الأحوال العلوية ، واحركات الفلكية : ثم يأتى بعد ذلك يوم الدين ، وحشر العالمين : فما فى جنة وإما فى جحيم .

وقال : أقسم بالليل إذ يغطى كل شىء ، وبالنهار اذا تجلى ، وبخلق الله الذكر والأنثى من انسان وحيوان

ونبات بالتزاوج والالقاح . ان أعمالكم مختلفات فأما من جاد بالمال واتقى عذاب ربه وصدّق بالحسنى فله اليسر يوم القيامة ، وأما من بخل بالمال وأعرض عن الله وكذب بالدين فسيكون فى عسر .

أقسم باختلاف الليل والنهار والذكور والأناث وجعله كالدليل على اختلاف مساعينا فى حياتنا وثمراتها بعد موتنا قال : « والليل إذا يغشى والنهار اذا تجلى وماخلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » وقال : « أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون . إنه لقول رسول كريم ذى قوّة عندالعرش مكين » فى هذا اقسام بكل ماذرأ الله مما يحس بالحواس من الجواهر والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والأفلاك والأنوار وكل مالا يبصر من القوى والعقول والنفوس والأرواح وما فوق ذلك من ملائكته ، والمقسم به أن القرآن كلام نزل به رسول كريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والرسول هو جبريل عليه السلام يقول فى القسم : ان المخلوقات قسمان : محسوسات ، ومعقولات ، وجبريل من آخر القسمين أفلا تؤمنون ، وليس من قول شاعر ولا كاهن مما ترون « وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين » .

وقال : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر » أقسم بالفجر ، وبالليالى العشر ، الأولى من الشهور العربية لازدواج ظلامها بضيائها كما أن الفجر نوره مزدوج بظلامه ، وأقسم بالأعداد كلها أزواجها وأفرادها ، وماحوت من أسرار الارتماطيق ، والحواص المدهشة العجيبة ، وبالليل إذا يسر مقبلا ومدبرا ، ان هذا القسم عجيب لم يسمعه العرب . ثم قال : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ثم أتبعه بقوله : « ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » الخ كأن المقسم به محذوف تقديره . ان الكافرين لامحالة هالكون : لأنا أنذا لهم خبر الحكمة ، ومبادئ العلم كأنها أوائل الشهر ، فان هلال الحكمة يبتدئ ضئيلا ، ثم يتسق ويمتلئ ، وحسبما أعمالهم شفعا ووترا ، ولم يؤمنوا ، فسنعذبهم مرتين : فى الدنيا بالخزى ، وفى الآخرة بالنار كما فعلنا بعاد وثمود وفرعون : « ألم تركيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصبّ عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » .

إنذار من الله للأمم التى أضاء لها نور العلم فأشرقت على وجوههم الحكمة ان هم لم يقتبسوها ، ولم ينتفعوا بها أهلكهم كما أهلك الأمم البائدة كما حصل لأهل أمريكا الحمر الأصليين ، وكما فعل بمسلمى الأندلس إذ أراهم اتحاد الاسبان ، والاتحاد نور من الله فلم يتحدوا « فصب عليهم ربك سوط عذاب » وهكذا كل أمة ودولة أنذرها علماؤها ، وعلمها حكماؤها ، فجاهلت الانذار ، وتعاضت عن الحكمة . ساء مصيرها ، وقطع دابرهم كدولة الرومان إذ عصوا حكماءهم فى أواخر عهدهم ، وإدبار سعدهم فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ، وتكأكأت عليهم الأمم المتوحشة . فورثوا أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وعلومهم وقوانينهم . ان فى السحر وليالى الشهر الأولى أضواء ضئيلة ستؤول للكمال باشراق الشمس وبتمام الدور من عطل اتمام نور الحرية ، والحكمة ، وهلال العلم ، والمعرفة باء بظلام حالك ، وأمحى من الهالكين وهذا بطريق الاشارة والمفهوم بشارة الى الأمم التى طيرت فيها مبادئ الحكمة وأوائل الحرية انها ستنال قسطها من الحكمة ، وحظها من الحرية . إذا هى سعت لاتمام الأنوار ، ولم تقف فى سبيل العلم كما يصير السحر نهارا ، والهلال بدرا كاملا . انتهى ماأردته من كتابى مذكرات أداب اللغة العربية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون

آخر هذه السورة مناسب لأوّلها ، وأوّلها مناسب لآخر السورة قبلها ، وآخر هـذه السورة يناسب أوّل سورة الطور الآتية بعد هذه ، لأنه أقسم أن عذاب ربك واقع وهو مذكور هنا فى قوله : « وان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون » . اهـ

اللطائف العامة فى هذه السورة [1]

(١) اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » .

(٢) اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعـدها من الآيات ، وهاتان اللطيفتان فى الآيات التى أوّلها « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حقّ للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعـدون ، فورب السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » .

(٣) اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ،

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون »

هذه آيات ثلاث متلاصقات ، متتابعات ، متصلات ، معطوفات ، وآخرها ذكر فيها الرزق ، فهنا علاقة بين عجائب الأرض وطبائع نفوسنا ورزقنا الذى مصدره السماء فى هذه الدنيا والجنة التى وعدنا بها وهى فى السماء أيضا . نبات الأرض وحيوانها وجمادها ونفوسنا وأضواء الكواكب والشمس وأرزاقنا ، ثم الجنة التى وعدنا بها ، كل هذه بينها اتصال .

محاورات بينى و بين صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

اطلع على ما كتبته الآن وهو هـذا العنوان ، فقال : هذا عنوان ضخم ، وماذا أنت قائل الآن ؟ نعم العلاقة بين هـذه العوالم معقولة ، ولكن ما لرزقنا ومالجنة ! فقلت : سأوضح هذا المقام ما حقّ الايضاح بعد ما أوضحته فى مواضع كثيرة بطرق مختلفة ، إن للأغذية المستخرجة من الأرض تأثيرا على نفوسنا فى أخلاقها وعاداتها وأحوالها وصحتها ومرضنا ، ثم ان أحوال نفوسنا وأخلاقها يتبعها نتيجتها وهو ارتقاء النفوس وصفاؤها فتكون الجنة فى الآخرة ، أو انحطاطها وانحطاطها وسوء فعلها فتكون جهنم ، فان زعم الناس أن علم الأخلاق يكفى وحده لتهذيب النفوس ، أو العلوم الدينية ، فقد جهلوا جهلا بينا . فالصحة من أهمّ عوامل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهناك يمكن التحلى بمكارم الأخلاق بواسطة الدين ، أو بواسطة التهذيب والتربية والنصائح الدينية ونحو ذلك ، وأيضا المعارف والعلوم التى تورث اليقين المذكور فى هذه الآية لن تكون

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع المؤلف

إلا لصحيح الجسم ، فاذا انحرف الجسم انحرف العقل فلا علم ولا يقين : « وفى الأرض آيات للموقنين » لا يتم للانسان ذلك إلا بالصحة ، والصحة تتوقف على جودة الغذاء أى موافقته للبنية ، والنبات متوقف على الأضواء ، والأضواء آتية من السماء كما أن نفوسنا كذلك ، هذه هى المناسبات .

فقال : الآن أرجو أن تذكر لى كلاما عاما فى هذه الأنفس الانسانية ينحو نحو الصحة والمرض ، فان ازدواج هذه الآيات وتتابعها يدعو إلى ذلك . فقلت : لقد تقدم الكلام على ذلك فى [سورة الفتح] فانى ذكرت نظام الجسم الانسانى هناك من حيث انه أشبه بمدينة حصينة والأعداء يحيطون بها من كل جانب لمناسبة قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض » فها أنا ذا ألخصه هنا لك ، ثم أتبعه بما يناسب المقام هنا من حيث علاقة أجسامنا بما حولنا من عوالم الأرض والسماء ، وقصرت الكلام على أجسامنا لأنه المناسب لهذا المقام ، ولم أرد الخوض فى علم النفس ، [فهنا فصلان : الفصل الأول] فى ملخص ماتقدم فى [سورة الفتح] عند آية : « ولله جنود السموات والأرض » [الفصل الثانى] فى علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض ومايتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض ، ليكون المسلمون بعدنا أصح أجساما ، وأصفى عقولا ، وأجل نفوسا ، وأرقى اجتماعا ، وأصح مدنية ، لأنهم سيفهمون مانكتبه ، وسيعملون به ، ويرونه من أسرار القرآن المحجوبة التى ظهرت فى زماننا ، ويعلمون أن الله هو الذى علمهم ذلك بواسطة عباده فى الشرق والغرب ، وأن هذا التعليم مصداق لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ولقوله « سأريكم آياتى فلا تستعجلون » وانما قال « فلا تستعجلون » لأن لكل عمل وقتا يكون فيه ، والأمم قبلنا لم تكن مستعدة لهذه العلوم ، فأما فى زماننا فالأمم مستعدة للفهم ومنها أمة الاسلام ، فأما كاتب هذه الأسطر الآن فأحس فى نفسى بمسرة لأنه وقر فيها أن هذا كائن لامحالة وحاصل فى زماننا هذا أثناء قراءة هذا الكتاب ، وبعد انتقالى من هذه الدار وأنا مغتبط منشرح الصدر بما أعلم من سعادة أممنا الاسلامية وصحة أبدانها ، وعزتها القومية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الأول فى ملخص ماتقدم فى سورة الفتح

المناسب لآية : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون »

ذلك أن الجسم الانسانى ان هو إلا مدينة محصنة منيعة الجوانب ، وفى داخلها أمم وأمم ، وهل حصنها إلا الجلد ، وحول هذا الحصن آلاف آلاف من الأعداء التى تتربص دخول هذه المدينة العظيمة ، وليس لهؤلاء من مقصد إلا أن يعشن من الأقوات المدخرة فيه التى خزنها الانسان فى أحشاء ، فهى دائما تحاول دخوله ، ولكن الجلد يمنعها ويصدها ، وهل هؤلاء الأعداء اللاتى تعد بالملايين إلا الميكروبات ولاتجد لها طريقا إلا من الفم فتدخل مع الطعام والشراب ، فاذا وصلت إلى المعدة وجدت هناك حصنا منيعا وقوة دافعة وهى السوائل المطهرة القاتلة لتلك الميكروبات ، فاذا كانت المعدة سريعة هضم الطعام بحيث ينزلق بسهولة إلى الأمعاء . هنالك لاتموت تلك الميكروبات ولكنها تموت فى نفس الأمعاء ، لأن الأمعاء خالية من الاكسوجين ، والاكسوجين ضرورى لحياة تلك الميكروبات المهلكة فتموت ويساعد على موتها ما أنعم الله به على الانسان فى الامعاء من الميكروبات الصالحة النافعة التى تعيش هناك عيشة هادئة نافعة فانها تساعد على هضم الطعام .

الله أكبر : هما حصن الجلد وحصن عصير المعدة ، والحصن الأخير هو حصن الامعاء ، هذا اذا دخلت الأعداء من باب المدينة وهو الفم ولم يتعد ماذكرناه ، ولكن الضر كل الضر والأذى كل الأذى أن يدخل

الاعداء من نفس السور وهو الجلد أو يتكاثرون على أى وجه كان ، فهنالك تعم البلوى ويعظم الخطب ، ولكن العناية الإلهية قد أعدت لحياة الانسان كل وقاية ونعمة ، وذلك أن أولئك الأعداء متى تكاثروا فى الداخل أسرعت الجنود (وهى الكرات البيضاء) فأخذت تصطف صفوفا وراءها صفوف حتى تبنى حول أولئك الأعداء حصنا منيعا ، وهناك تكون المجزرة ويحمى وطيس الحرب ، ويشتد الكرب ، ويعظم الخطب وتشمر الحرب عن ساقها ، وتجندل الأبطال فى ساحات الوغى ، وكل يقول : يارب سلم سلم ، حتى اذا وقعت الواقعة ، وسقط من الجنود فى ساحات القتال ألوف وألوف ومن الميكروبات كذلك ، وأخذت الجنود المدافعة تذيب تلك الخلايا التى هجمت عليها الأعداء ، فهنالك يكون الدمل أو الحراج أونحوهما .

سبحانك يارب : ما أبدع صنعك : كنا نحسب الدماميل ونحوها أمراضا مؤلمة ، وماهى بأمراض ، إن هى إلا أودية هى ساحات القتال التى اشتعلت فيها نار الحرب بين جنود وجنود .

الله أكبر : حاصرت جنودنا الداخلة فى أجسامنا جنود الأعداء الداخلة فيها لتقصيرنا وجهلنا ولرداءة أغذيتنا ، ولاسرافنا فى طعامنا وشرابنا ، فاذا حاصرت جيوشنا المحاربة جيوش الأعداء ارتفعت الحرارة لكثرة القتلى من الجانبين فيكون الدمل . الله أكبر : الدمل ساحة للحرب وقلعة للقتال والقتال لبقاء حياتنا .

الله أكبر : صدق الله : « إن كل نفس لما عليها حافظ » . « وربك على كل شىء حفيظ » . « قتل الانسان ما أكفره » .

إن جهلنا بالأغذية وبالظاهرة وبالرياضة هو الذى ساق لنا هذه الجيوش الجرارة التى تتغلب عليها جيوشنا وهى الكرات البيضاء فتجعلها داخل هذه القلعة الحصينة ثم تهلكها ويكون ماتقدم من القيح ، وهذا القيح يخرج من الجلد الذى ترقئه جنود الجسم بأكلها إياه ليفتح فتخرج رمم الأموات وهو الصديد ، ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ تقذف رمم الأعداء خارج الجسم ، ولكن المسألة اذا وقفت عند الأورام والبثور والدماميل كان ذلك خيرا ، وانما الأمر فوق ذلك ، فان هذه الجيوش قد تتغلغل فى الجسم وتدخل فيه أفواجا وهم من كل حدب ينسلون ، ولكن العناية الالهية قد أعدت لهذا الحادث عدته فأمدت الجسم بالعدد اللفاوية التى تقدم شرحها فى هذا التفسير ورسمها بالتصوير الشمسى ، وهذه هى القلعة الثالثة بعد الجلد وبعد قلاع الدماميل ونحوها ، ومعلوم مما تقدم فى التفسير أيضا أن العدد اللفاوية تربى فيها مخلوقات حية تتوارد بكثرة وتتجه الى محل الحوادث الطارئة من تكاثر العدو الخارجى .

اللهم انك أنت الحكيم وأنت العليم ، هل كان يدور بخلد أحد من الأرض قبل الآن أن الانسان اذا جرح فى أصبعه ودخلت من ذلك الجرح ميكروبات لاعدد لها ، وها انك ترى ورما تحت الابط .

أقول : هل كان يدور بخلد أحد أن ذلك الورم الذى تحت الابط إن هو إلا تكتلات لجنود الدفاع ورباط عسكرى ومقام تقوم فيه الجيوش لتسرع إلى محل الجرح لتحارب الجيوش الجرارة المنظمة .

سبحانك اللهم وبحمدك : جل وجهك ، وعز جاهك ، ولا إله إلا أنت . ولقد قلنا فى بعض أجزاء هذا هذا التفسير ان [اللمفا] يساعد على نموها أكل الزيت ، فلزيت إذن غذاء لجنود المحوقين فى [اللمفا] والجنود تطرد الميكروب ، ولها تكتلات تحتفظ عند الحاجة نسميها ورما . وأخرى نسميها حراجا أو دمالا ، وتارة يشتد المرض ، ويعظم الخطب ، فتحصل الحمى .

اللهم أنت الحكيم أحكمت صنعك ، فما هى الحمى ؟ هى من هذا القبيل ، هى نعمة ، هى نعمة ، وان الجسم اذا لم يكن مترفا فى نفسه من الأمراض فقد يتعرض لكثير من الأمراض ، وكذلك الدخلة بالكهرباء ، أو بالهواء الساخن ، أو بالحرارة الساخنة ، أو حرارة الشمس ، كل ذلك علاج له يرجع له

التوازن ، لأن ذلك كله يرفع درجة حرارته درجة من الدرجات المئوية ، أو أكثر من درجته فيحترق الدم ، وهذا الاحتراق يوجب ذلك الاتزان ، فاذا قصر الانسان فى ذلك أوجهله فلم يصنعه فان الحمى هى التى تفعل ذلك فان ارتفاع الحرارة بها يوجب احتراق الدم الذى يكون به ذلك الاتزان ، فاحتراق الدم فى الحمى وغيرها يكون بتلك المواد المخزونة فى الجسم والأخلاط المتراكمة ، إن الاستحمام بالشمس ومباشرتها للجسم يفعل ذلك فيجب المبادرة إلى ذلك والاكثار منه ، ومثل ذلك كثرة التمرينات العضلية ، أوالمشى ، أوكلاهما .

فقال صاحبى : عجب والله ! إذن الحمى والدمامل والأورام والقروح ليست أمراضا ؟ قلت . كلا . فقال : ههنا ظهر الحق ، انا أريد أن أقول لك الحق ، أنا كنت فيما مضى أسمعك تقول : ان المصائب ان هى إلا نعم واقرأ كثيرا مما تقدم ، ومع ذلك كنت غير موقن بها ، نعم عندى تصديق ولكن البراهين فى هذا المقال واضحة ، إن العلم اليوم وضح وظهر ، انه اليوم يقين .

يقول الله : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » ويقول المسلم فى صيغة اسلامه مانصه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعاهده على الاسلام وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله .

هذه الجملة يقولها المسلمون كلهم وهى فى القرآن ، يقول الله : « قل كل من عند الله » واذا كان الأمر كذلك فالله من عنده الخير والشر ، واللغة العربية لا تقول ان الحمد يكون على الشر ، بل يقولون ان الحمد هوالوصف بالجميل على الجميل الاختيارى على جهة التعظيم ، إذن الشرور لاحمد عليها لأنها ليست جميلا بل هى قبيحة ، والنبوة تحثنا على الحمد على الخير والشر والله يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ويقول المسلم فى صلاته : « فلك الحمد على ماقضيت » والقضاء جاء بالشر و بالخير ، فأحد شقى القضاء لايحمد عليه ، وهذه عقدة العقد ولغز الوجود ، فههنا أخذت هذه العقدة تنحل ، وألفينا الدمل والخراج والأورام والحمى كلها منقذات لامهلكات ، واذا كانت هذه من نوع الشرور فيما يظهرلنا وقد ظهرأنها خيرات فالحمد عليها حتم ، إذن صدق الله وصدق رسوله فلك الحمد على ما قضيت ، لأنك اذا قضيت بما يؤلمنا فقدجعلته لمسرتنا وسعادتنا ، فهكذا موتنا وويلاتنا فى الحياة الدنيا كلها نعم لانقم ، هنالك قلت . له : الحمد لله الذى ألهمنا الحكمة وعلمنا الصواب وبهذا انتهى الفصل الأول فى تلخيص ما تقدم فى ﴿ سورة الفتح ﴾ مع زيادة عليه من نفس الكتاب السنوى الثانى للمجمع المصرى للثقافة العلمية .

الفصل الثانى فى علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض

وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض الخ

ولأذكر لك ملخصا مما ألقاه مواطننا الدكتور [محمد شاهين باشا] وكيل الداخلية للشؤون الصحية عند طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٣١ فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى سنته الثانية ، وهذه من نعم الله عزوجل علينا فى هذا الزمان الذى ظهرت فيه بعض الحقائق ، وظهرلنا أن هذه النفوس الانسانية قد ظلمها الناس فذلت بسبب الجهل بمقدار ماتتناوله من أرزاق السموات والأرض التى أنعم الله علينا بها ، إن محاضرته ألقاها فى ثمانية فصول :

(١) فى التعمير وأسبابه .
(٢) وفى هضبة الحياة والعوامل التى تعمل فيها ، والمراد بهضبة الحياة زمن الشباب و بعض مابعده .
(٣) وفى منحدر الحياة : أى فى آخر الكهولة وزمن الشيخوخة .
(٤) وفى أسباب الشيخوخة والموت .

(٥) ومنذرات الشيخوخة .
(٦) ثم الغدد التناسلية .
(٧) وتجديد الشباب .
(٨) ووسائل التجديد وإطالة العمر الخ .

وهـذه الفصول الثمانية ليست تهمنا كلها لأننا فى تفسير هذه الآيات ، فليكن كلامنا حول محورها ، لأن الفصول الأولى فيها مباحث خاصة فى أمر الغذاء والشمس ، وهذه هى آيات السموات والأرض المحيطة بالجسم فنستفيد [فائدتين : الأولى] التفكر فى هذه العجائب النافعة لأجسامنا [الثانى] نفس الانتفاع بها فى حياتنا الدنيا ، فيكون قوله تعالى : « أفلا تبصرون » راجع للعلم وللعمل معا ، لأننا اذا أبصرنا آيات الله بعقولنا فذلك لايتمّ إلا اذا كانت أجسامنا سليمة معافاة ، وهذان الأمران فى هذا المقام :

(١) أوّلا : قد جاء فى هذه الخطبة أن الأطباء فى العالم الانسانى شرحوا جثث الشيوخ الذين ماتوا فاتضح لهم أن النادر منهم مات بسبب الشيخوخة ، وجمهورهم هم الذين ماتوا بأمراض كانت هى السبب المباشر لموتهم ، فعرفوا من ذلك أن هذا النوع الانسانى جاهل بالغذاء جدّ جاهل ، والحيوان أقرب منه إلى حفظ صحته بتعاطى مايـنفعه وترك مايضرّه .

(٢) ثانيا : ان الجسم البشرى يتمّ نموّه فى سن (١٨) والسبب فى ذلك أن الجهاز العصبى معقد كل التعقيد فيطول زمان نموّه فيعوق الجسم حتى يبلغ ١٨ وهناك يتمّ النموّ ، هذا قوله [وقد تقدم أن نموّ الانسان لايتمّ إلا فى (٢٥) سنة ، فهذان رأيان ، وانما نقلت لك الرأى الثانى لأنه تقدم فى هذا التفسير ، فربما تظنّ أن هذا خطأ فى النقل ولكن لاخطأ هما رأيان والرأى الذى يقول انه (١٨) سنة لم أعرفه إلا فى هذا المقام ، يقول : ولولا تعقد الجهاز العصبى لكان الانسان يتمّ نموّه فى ٤ سنين ، ثم يموت فى سن (٢٠) . هذا قوله ، وأقول : وقد قرأنا فى الجرائد قريبا أن صبيا بلغ (٤) سنين فى تركيا فطلب أن يتزوّج ، فهذا هو الذى عاش بجهاز عصبى أشبه بجهاز البهائم فتمّ نموّه فى ٤ سنين . ثم قال : إن الانسان يجب أن يكون سن الكهولة له من (٧٠) إلى (٨٠) سنة وهنالك تبتدئ الشيخوخة وتنتهى فى سن (١٢٠) . يقول : وهذه السن أى سن (١٢٠) لايصل لها من الناس فى زماننا إلا القليل ، وأبان أن الناس فى زماننا تبتدئ أجسامهم فى الضعف من سن (٥٠) وأخذ يذكر السبب فى ذلك فقال فى صفحة ٥٠ وما بعدها من كتاب [المجمع المصرى] للثقافة العلمية مانصه :

« يتنازع الانسان فى سياحته الأرضية قوّتان : القوّة الحيوانية ، والقوّة النفسانية ، وللقوّة الأولى أكبر غلبة عليه فى الشطر الأوّل من عمره ، وهو شطر القوّة والشباب وبدء دور الكهولة ، ثم يأخذ فى التغلب عليها تدريجيا كلما تقدّم فى السن حتى يفوز عليها عند بلوغه الستين من عمره ، هذا ماوصل الانسان إلى هذا الدور ، دور الرزانة والاتزان . وتقلب بما كسبه من صروف الدهر وتجاربه على ما كان يتنازعه من متزاحم الأمانى والأحلام نضج عقله وأخذ يتفرّغ إلى الاشتغال بالأعمال الجدية بحسب ماوهب من ملكة واستعداد ولكن المشاهد أن الانسان عند مايبلغ الستين تعترضه ، وتخمد جذوة نشاطه ، مع أن هذه السن هى سن النضج والانتاج العقلى ، وسبب ذلك الافراط فى مختلف الشهوات فى الأدوار الأولى من الحياة ، والاهمال فى اتباع شتى القواعد الصحية ، ولذلك قلّ من يحتفظ بشىء من قوّة جسمه بعد سن الستين ، والغالبية العظمى تعمل على هدم بنيانها ، وتدفع بنفسها إلى الشيخوخة لجهلها ، وتمضى إلى تقصير الأجل ، وتقريب يوم

الرحيل من هذه الدنيا التي يرى الانسان على الدوام جدّ حريص على إطالة بقائه فيها بكل الوسائل الممكنة فيتخلف عن هذا التفريط الكثير من الأمراض التي يقع فريستها ، ويمتنع عليه الشفاء منها ، مع أنه بمجهود قليل يبذله الانسان في سبيل العناية بصحته والاحتفاظ بجسمه يحيا معافى سليما ، وهذا المجهود ليس شيئا مذكورا في جانب الجهود الكبيرة التي يضطر لبذلها في التماس الشفاء من هذه الأمراض ، وهذه قد يشفى بعضها وقد يستعصي البعض الآخر على العلاج مع أن النجاة من هذه الأمراض لا يكلفه سوى العناية باتباع أوّليات علم الصحة في معيشته . ولقد كان الانسان منذ القدم شديد الحرص على الاستدفاء والاكتنان ، واجتناب البرد والهواء ، وفي سبيل حصوله على أوفر قسط من الدفء ، كان يعلق منافذ مسكنه ، ويكثر من التدثر والغطاء هربا مما رسخ في اعتقاده من مضارّ الهواء ، وقد درج على ذلك أجيالا عديدة ، ولم يتمكن علماء الصحة من رحزحته عن هذا الظن الخاطئ إلا من عهد قريب ، إذ نجحوا في إقناعه بمضار الاكتنان في المساكن المغلقة و بفوائد المعيشة في الهواء الطلق الخالص من الفساد والأدران كما يعيش الحيوان الذي ألهمته غريزته بأن الهواء من ضروريات الحياة . و يشتغل علماء الصحة الآن بمحاربة عادة ذميمة أخرى في الانسان هي أشدّ ضررا بصحته من الانحباس في المساكن المغلقة وهي عادة الافراط في الغذاء ، لأن الانسان قد تعوّد (بحكم تغلب الحيوانية عليه) أن يرخي لنفسه العنان في التلذذ بما تصل إليه يده من شهيّ الأطعمة والمأكولات فيتناول منها دائما أكبر من القدر الذي يستطيع جهاز الهضم أن يمثله و يستخلص منها لتجديد قوى جسمه ، ومما يؤسف له أن جهل الانسان بأصول التغذية الصحيحة فاش بين جمع الناس على اختلاف طبقاتهم والافراط في الغذاء هو منشأ كثير من أمراض الجهاز الهضمي التي تكون عالما مستعصية الشفاء وتودي بحياة الانسان قبل الأوان ، وقد جاء في الأحاديث الشريفة : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء » .

ويبدأ في عصرنا هذا أن يدبّ الوهن إلى جسم الانسان بعد بلوغه سن الثلاثين ، ومتى وصل إلى سن الخمسين تبدأ حاله جسمه في التردّد بين القوّة والضعف ، ويمكن الاستدلال بكل سهولة على شذوذ حالته بما يشاهد من ضخامة بطنه ، وقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى السمن بعد سن الأربعين كأنه أمر طبيعيّ ، ولا يهتمّ الواحد منهم بأن يزيد وزن جسمه في هذه السن خمسة كيلوجرامات أو سبعة وهو لا يعلم أن زيادة وزن الجسم في هذه السن هي من الامور الضارّة به ، وأن حصول الجسم على هذه الزيادة إنما هو دليل على أن أجهزته قد كلفت ما هو فوق طاقتها وخصوصا الجهاز الهضمي ، ولذلك فلا يستغرب إذا ضعفت هذه الأجهزة قبل الأوان . ومع أن المادّة الشحمية التي يزدردها الجسم فوق حاجته تختزن في الأنسجة التي تحت الجلد إلا أن الثابت أن بعضها يتسرب إلى بعض الأعضاء الرئيسية والأعضاء الرئيسيه والأعضاء المجاورة لها فيزداد وزنها ، وبعد ذلك تقلّ كفاءتها الأدبية وظائفها ، ويمكن أن نقرّب للأذهان إدراك مقدار ما يحدثه السمن من الضرر بالجسم بذكر ما ينشأ من ضرر لأحد خيول السباق اذا زيد ثقل رطلين مثلا فلعله عسى أن يكون تأثير زيادة سبعة كيلوجرامات في أنسجة جسم انسان في سن الخمسين ، فان هذه الزيادة قد تحول دون وصول هذا الانسان إلى ما بعد السبعين ، وليس من الشكّ في أنه من أخصّ الأسباب التي تحمل رواد الاسبار هي [illegible] والاحتباس

وبالاختصار فان المفرطين فى الأكل يحملون أجسامهم أعباء ثقيلة ويسوقونها نحو التلف والدمار ، ويتبين من ذلك بأجلى وضوح أن الاعتدال فى الغذاء هو الطريق الأكيد المؤدّى إلى التعمير الطويل ، وقد يتساءل البعض عن مدى هذا الاعتدال والجواب عن ذلك هو أنه يجب على الانسان أن يوازن بين مقدار ما يكسبه جسمه بواسطة الغذاء ، ومقدار ما يفقده بالحركة والعمل ، ويشمل هذا الواجب عناية الانسان بنوع ما يتناوله من الغذاء ومقداره ، ولو أننا وازنا بين تغذى الانسان وتغذى الحيوان لاتضح لنا أن الطريقة التى يسير عليها الانسان فى غذائه انما هى طريقة خاطئة ، وبما أن الانسان لايختلف تركيب جسمه فى شىء عن الحيوان والحيوان لايتغذى إلا بالموادّ الطازجة فكذلك الانسان فى حاجة قصوى إلى هذا النوع من الغذاء .

انظر إلى اللحم ، فمع انه أهمّ غذاء يحصل منه الانسان على المواد البروتينية وعلى الفيتامين لدرجة مّا إلا انه يفقد ما به من الفيتامين بالطبخ ، وكذلك الخضر ، ونذكر بهذه المناسبة ذلك الخطأ الشائع بين معظم الناس : وهو انهم يخصون الحيوان بقصد أن يزيدوا من مقدار لحمه وشحمه ، وهذا خطأ فاحش لأن هذا الحيوان وان ازداد سمنه بالحصى فان اللحم تقلّ قيمته الغذائية ، ويصير أقلّ تغذية من لحوم الأسماك والطيور . والسكر هو من الأغذية التى تؤدى الانسان اذا أفرط فيها لأن الخمائر التى تؤثر فى السكر وتمثله فى الجسم محدودة المقدار ، فاذا تناول مقدارا من السكر أكثر من مقدار الخمائر التى تؤثر فى تمثيله كانت نتيجة هذا الاكثار أن يصاب الانسان بعسر الهضم ، واذا أحد فى قوام سوائل مركزة فانه يسبب تهيجا فى المعدة ويجعلها تفكر من امرار الموادّ المخاطية ، وقد ينشأ عنه نوع من البول السكرى الذى ربما انقلب إلى بول سكرى مستديم وهذا من أسباب قصر العمر بلا نزاع ، من ذلك يرى انه يجب على الانسان أن يعود إلى الغذاء الطبيعى وهو المركب من الموادّ غير المطبوخة .

ولا بدّ لنا هنا من التكلم عن الأملاح التى هى من مقوّمات الجسم ، واذا كان دم الانسان لايختلف فى تركيبه عن تركيب ماء البحر ، ويشتمل على الكربات والموادّ العضوية السابحة فيه ، فمن المحتم تجديد أملاح الجسم من وقت لآخر ، لأن سائلها يعمر جميع الأنسجة . فأملاح الحديد واليود والمغنسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد ليست ضرورية فقط لصحة بل هى ضرورية أيضا لحفظ الحياة وهى لاتوجد بمقدار واف فى غذائنا المطبوخ . واليود مثلا نحصل عليه من المحيطات عند أكله من أسماكها ونحصل عليه فى ملح الطعام ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الانسان بجهله ينزع اليود من ملح الطعام بتكريره وتقديمه للطعام باسم ملح المائدة ، ونحصل على الكلسيوم من اللبن والخضر وبعض الفواكه ، وعلى الفوسفور من اللبن والبيض وبعض الحبوب كما نحصل على اليود أيضا من الخضر وزيت كبد الحوت . ونحصل على القلويات من الخضر والفواكه . وكل خضر تكثر بها الأملاح يكون الفيتامين موجودا فيها بكمية وافرة ، ويمكننا أن نعتبر أن الموادّ الغذائية المستمرئة للملح هى نوع من أنواع السموم ، وما دام الانسان مستمرا على التغذى بها فلاشك أنه سيبقى فريسة هذه السموم التى تهدم كيانه وتحول بينه وبين التمتع فى هذه الحياة مدة أطول مما كان من حقه أن يقضيها فيها .

ورجوب تخلص الجسم من فضلات الغذاء لأن بقاءها فى الجسم يؤدى إلى تسمم الدم وتلوثه بها والخطر الناشئ عن كبس الأمعاء فى حالات الصمم لايقل عن الخطر الناشئ عن كبس الأمعاء فى حالات الصمم لأن هذا التعبير عند يكون سببا فى مرض شديد [illegible] يحصل أذى شديد فى [illegible] فى شىء ضروريا فيها ،

ويمكننا أن نجزم أيضا بأن الكسل الذى يصيب الامعاء ينجم غالبا عن السموم التى تحملها الموادّ التى توجد فى هذه القناة إذ معلوم أنه توجد بعض موادّ مهيجة للقناة المعوية كما توجد بعض موادّ أخرى مسكنة لها وكذلك توجد بعض الأغذية أوفضلاتها أحد للفعلين ، واذا كان الغذاء الذى نتناوله غير صالح ومنزوعا منه الموادّ الضرورية للجسم فيحق لنا القول بأن غذاء كهذا لايمكن أن ينبه عضلات الامعاء ، بل ربما كانت موادّه معطلة لها ، أومسببة لشلل فى حركتها ، ومن هذا نرى أن الأطعمة الخالية من الفيتامين ، أوالمركزة التى اعتاد الانسان أن يتناولها لاشك أن لها دخلا كبيرا فيما تصاب الامعاء به من كسل ، وكلما نعلم أن الأطعمة التى لاتترك فضلات كافية يتولدعنها إمساك ، وغنىّ عن الذكر أن الأغذية المطهية أوالمركزة الشائعة الاستعمال الآن تنقصها هذه الموادّ الضرورية وهى الفضلات ، وهذه الأطعمة المطبوخة تكون خالية أيضا من موادّ ضروريتها للانسان كضرورة الفيتامين ، وهذه الموادّ لاتوجد إلا فى الأطعمة التى بحالتها الطبيعية ، وهذه الموادّ وان كانت تصعب الآن معرفتها إلا أن فعلها قد أصبح معروفا وهى موادّ مجرّد وجودها يوقظ النشاط فى بعض التفاعلات الكيمائية التى تحصل فى الجسم ، ولولا وجودها لما نشطت تلك التفاعلات . خذ مثلا ثانى اكسيد الهدروجين فانه ينحل مع وجود مادّة غير قابلة للذوبان كفلز الفضة بينما الفضة لايحصل بها أى تغيير ، وكذلك خمائر الامعاء تنشط فى عملية تحليل الغذاء مع وجود موادّ كهذه فى الأطعمة بحالتها الطبيعية ، وقد تكون هى أهمّ عامل فى عملية الهضم ، ويستخلص من ذلك أن الانسان مع كونه أرقى مخلوق هو الحيوان الوحيد الذى لايعرف كيف ينتقى غذاءه ، وكأنه قد فقد من هذه الناحية غريزة الابقاء على النوع ، وأكبر شاهد على ذلك استسلامه للتسمم المزمن الذى يصيبه من التغذية الخاطئة وهو قانع راض عن ذلك ، بينما هو فى الواقع يعرّض جسمه وعقله للتلف والهلاك بسبب شرهه وجهله وتكون النتيجة التى لابد منها أنه لايعيش بأىّ حال من الأحوال فى هذه الدنيا المدة التى هى حقّ من حقوقه كما عاش آباؤه الأولون .

ومما يجلب التلف للصحة مايتناوله الانسان من سموم مختلفة كادمان شرب الكحول وغيره من السموم مع أنه لوتوفر على العناية بنفسه وهو أكمل مثال لأقصى ماوصل إليه الارتقاء فى أنواع الحياة لعاش متمتعا بالصحة الجيدة إلى أقصى مدة ممكنة ، ولاستقبل الموت بعدها ضاحكا مستبشرا ، لأن هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، بل هذه هى النتيجة الفسيولوجية للحياة بحسب ماوصلت إليه معلوماتنا وان كان البحاث قد تمكنوا من استنبات الخلايا على مختلف أنواعها ولكنها الخلايه السليمة من العطب ، وكل هذا يزيد ماذهبنا إليه من أن الاستهانة بآلة الجسم المحكمة الصنع التى هيئت للقيام بكل عمل من عظائم الاعمال يؤدّى بها إلى الدمار ، والعناية بها تمكن كل انسان من حياة طويلة مقرونة بالعافية والرفاهية مع التفوّق فيما يباشره الانسان من الأعمال » .

هذا ما أردت نقله من كلامه بنصه ، وأزيد عليه ملخص ماذكره بعد ذلك ، فهو يقول فى صفحة ٦٥ من الكتاب المذكور مانصه :

(١) « إن [ميتشنكوف] يقول : إن التعمير ممكن بتدابير تتخذ لتطهير الامعاء . وقال : إن هذه النظرية لاتزال بعيدة لم يعترف بها العلماء . وقال : يجب اجتناب جميع الأطعمة الدسمة من كل نوع ، وخصوصا اللحم ، وعدم تناول الخمر . ثم قال : ويقول [ميتشنكوف] أيضا بأنه اذا وصل الانسان صحيحا إلى متوسط طول العمر الطبيعى ولم يصبه الانحلال الشيخوخى فانه يكتسب غريزة جديدة وهى غريزة الاستحقاف بالموت ، فيصبح الموت والحياة عنده سيان ، ويستقبل الموت كما يستقبل اليوم التالى ، وقد اتفق الكثيرون من البحاث على أن لكل نوع من الكائنات طولا طبيعيا

للعمر ، لأن العمليات الفسيولوجية التى تجرى فى أجسامها تعين عدد السنوات التى يصل إليها كل نوع من أنواع الكائنات » .

(٢) ثم أخذ يشرح فى صفحة ٦٩ ومابعدها هذا المقام فقال : « أولا ان الناس لا يكادون يبلغون سن الخمسين حتى ينحدروا إلى الضعف فالموت ، ذلك لأنهم لايملكون زمام أنفسهم ، بل يتركونها فريسة للشهوات ، فلذات الشباب مقرّبات للمشيب والهلاك والردى والموت ، فالانسان يصل إلى قمة الحياة فى سن الثلاثين ، ثم بعد ١٥ سنة أونحوها ينحدر إلى أدنى ثانيا بخطئه وجهله ، واذا وصل إلى مابين ٥٠ و٦٠ سنة تظاهر على أساريرِ وجهه علامات الضعف وانهك القوى من فعله هو وجهله ولذاته ، وكثرة أغديته الخاطئة ، ويضعف سمعه وشمه ، وتيبس مفاصله ، ويزداد وزنه من خمس كيلوجرامات إلى ١٠ ويشكو الامساك ، ويشكو تمدد الأوردة فى ساقه فيضعف » .

(٣) ثم أخذ فى صفحة (٧٠) يذكر مايجب أن يكون عليه العذاء . قال مانصه بالحرف فى الكتاب الثانى للمجمع المصرى للثقافة العامة : « لا أحاول هنا أن أشرح وسائل التغذية فى كل أدوار الحياة وانما أمرّ عليها لماما ، لأنه ليس من شكّ فى أن لها دخلا كبيرا فى حفظ الصحة ، وبالتالى فى التعمير ، وأعيد هنا أنه يجب على الانسان أن يتناول موادّ الأطعمة بحالتها الطبيعية ، لأن الانسان فى مبدأ خلقه لم يجد لحفظ حياته إلا الجذور والفواكه والأعشاب ومنتجات اللبن ، واذا أراد لحما كان يجده فى الجراد ، ومن الراجح انه كان يأكله نيئا ، فلكى نتجنب أذى السموم التى تؤذى الامعاء الغلاظ ، وبالتالى تسمم الغدد الصماء يجب أن نتعلم هذا الدرس البسيط من الانسان الأول ألاوهو وجوب استعمال الموادّ الطبيعية غير المطبوخة فى غذائنا وهى الخضر والفواكه ومنتجات اللبن ، وليس معنى الاقتصار فى العذاء على ماذكر بل نقصد بهذا أن يشمل غذاؤنا كمية وافرة من هذه الموادّ مع غيرها ، ولاشك أن الطعام المتوافرة فيه هذه الموادّ الطازجة يؤدّى إلى عدم تعرّض الشيوخ إلى أمراض عديدة كالتهاب المفاصل وعسر الهضم وارتفاع ضغط الدم والاكزيما . ولايخلو من الفائدة أن أذكر هنا بعض ملاحظات عما يجب تناوله من الأطعمة فى الأوقات المختلفة من اليوم ، فطعام الافطار يجب أن لا يكون مثقلا بالأطعمة المتنوّعة ، إذ من الواجب على الشخص أن يبدأ نهاره بغذاء خفيف ، لأن الصباح هو وقت اخراج مفرزات الجسم ، فلو أرهقنا أعضاء الهضم بالعمل فى ذلك الوقت فان جزءا عظيما من نشاط الأعضاء (طاقتها) يقلّ ، وفى هذا ضرر بلاشك لأن الأنسجة تعمر بالسائل اللمفاوى أثناء النوم فى العمل وتلقى إليه بفضلاتها ، وهذه الفضلات يتخلص منها فى الساعات الأولى التى تعقب النوم ، ولذلك فان قاعدة تناول وجبة طعام خفيفة فى الصباح تركز على أساس فسيولوجى ، ولهذا السبب كان الأرق مجلبا للنحافة . وجذا لوكان طعام افطارنا مماثلا لما كان يتناوله آباؤنا الأولون ، وهو لم يكن إلا فاكهة طازجة أوخضرا . وأما الوجبة الثانية فيلاحظ فيها أن تكون خفيفة أيضا ، لأنه ليس من الحكمة فى شىء أن تثقل أعضاء الهضم بالعمل بعد فترة راحة قصيرة عن الوجبة السابقة بعد أن يكون قد استراح بعض العمل سواء كان عقليا أوجسميا ، وذلك عند معظم الناس . ولا تصر الانسان اذا أكل أكلة ثقيلة فى غفوة بعدها وحده ، لو اتبع الناس بأكل الخضر والفواكه بدل طعامهم الحالى لاستراحوا من كثير من أمراضهم ، ومن المستحسن جدا أن يستعاض بالفاكهة الصارخة عن الحلوى المطبوخة بتاتا ، ولو اتبع المبدأ الذى أشرت إليه فى وجبة الظهر لأمكن كل انسان أن يقوم بعمله هذه الأكلة عيرمس وفتور

أوشعور بثقل فى الدماغ ، أوميل للنوم ، وقبل أن أتكلم عن طعام العشاء أشير إلى عادة استحدثت فى بلادنا وهى عادة تناول أكلة خفيفة وقت العصر ، وهى المعروفة بأكلة الشاى ، وهذه الأكلة ضارّة من الوجهة الفسيولوجية ، ولاحاجة لها ألبتة ، لأن المعدة تحتاج إلى أربع أوخمس ساعات لهضم أكلة الظهر ، فاذا فرضنا أن أكلة الظهر تنتهى عند غير الموظفين حوالى الساعة الثانية ، وعند الموظفين حوالى الساعة الثالثة فلاشك أن الجهاز الهضمى يكون مشغولا فى الهضم حتى الساعة السابعة أوالثامنة ، فكيف يكون حال هذا الجهاز عندما يتناول أكلة أخرى حوالى الساعة الخامسة أوالسادسة لاشكّ أنه يصبح فى حال سيئة ، ولايمكن أن يسمح بهذه الأكلة مهما قيل عن الشاى أوالقهوة من أنهما منبهان لذيذا الطعم . ولا يغيب عن البال مايؤخذ معهما من كعك وزبد وغيرهما وأما أكلة العشاء فلابأس من احتوائها على نوع من اللحوم مع تناول مقدار قليل منه وعلى شىء من الخضر المطهى ، ويجب أن تحتوى كذلك على جانب من الفاكهة ، ويلاحظ أنه أحيانا ماينشأ عسر الهضم أوالأرق عن تناول فنجان القهوة الذى يؤخذ عادة بعد العشاء ، ولأنبه هنا إلى أن الأرق الذى يكون منشؤه مرضا معروفا أومشاغل ذهنية لاشك فى أن سببه عسر الهضم ، وعلاجه لا يكون بتعاطى المنوّمات ، أوالمخدّرات ، بل بفحص حالة الجهاز الهضمى وتنظيمها مع تناول دواء بسيط للمعدة . ويلاحظ أنى لم أذكر شيئا عن أنواع الفيتامين وفوائدها ، وقد تعمدت ذلك لأنى وجدت أن لاضرورة لذكر شىء عنها مادمت أحضّ على تناول المواد الغذائية بحالتها الطبيعية ، وهى المصدر الوحيد للفيتامين . ومن الأضرار البليغة التى تنجم عند متوسطى العمر ، أوالشيوخ من الافراط فى التغذية عجز الكبد عن القيام بتنقية الدم الذى يمرّ فيها فينشأ عن ذلك التسمم العام الذى تشهد أعراضه عند المصابين بعسر الهضم بسبب الافراط فى التغذية فضلا عن التأثير السيئ الذى يحدث للكبد وللجسم عموما من تعفن وتخمر الغذاء الزائد عن الحاجة فى الجهاز الهضمى ، هذا علاوة على الاضطراب الذى يحدث فى الغدد الصماء ، ويظهر أثر ذلك جليا ، وخصوصا عند المرأة ، ولاسيما فى سنّ اليأس لأنها تكون قد فقدت الافراز الداخلى للمبيضين ، والمسألة لاتتعلق بما تطيقه المعدة وما تقدر عليه من العمل ، بل انها أيضا مسألة مايتيسر للأجهزة المخرجة قذفه من الجسم ، فلوفقد الجسم التوازن فى إجراء كل هذه العمليات لما أمكنه أن يقضى مدة طويلة فى الحياة وهوسليم ، ولتأثرت جميع الأجهزة الهامّة كالدورة الدموية والجهاز البولى ، ولاينجوأى جهاز آخر حتى الجلد نفسه من الاختلال ، وقد عرف العلم حديثا بعض الخاصيات الطبيعية المهمة بعد أن درست بعناية ، ومنها تأثر الجلد ضوء الشمس ، وقد أصبح فنا خاصا يعرف بالمعالجة بالشمس وصار المعتقد الآن أن لضوء الشمس علاوة على وظيفة تنقية سوائل الجسم من المواد السامة خاصية تنبيه عملية الاستحالة الغذائية . أوالميتابولزم بدرجة أنه يعيد نشاط الأنسجة المريضة إلى العمل الصحيح . وغنى عن البيان أن ضوء الشمس هوالمطهر الطبيعى الذى يقتل الميكروبات بغير شك وهذه الخاصية تمتاز بها الأشعة التى فوق البنفسجية المنبعثة من طيف ضوء الشمس ، ولهذه الأشعة مزايا أخرى ، منها أنها تعين على تمثيل المواد الجيرية بمقادير وافرة فى الجسم كما أنه يستعاض بها عن عدم اتزان الغذاء نتيجة نقص الفيتامين فيه ، فيتضح من ذلك أن فعل هذه الأشعة مقاوم مع افرازات الغدد الصماء ومع الفيتامين ، هذا ولاشك فى أن ماتحدثه من صبغ الجلد انما هو ذوعلاقة أكيدة بالغدد الصماء ، وخصوصا الغدد التى فوق الكلى والغدد النخامية . وقبل أن

ننتقل من موضوع الغذاء أجدنى فى غير حاجة إلى أن أتكلم عن الخمر وعن أثرها فى منع التعمير لأن هذه الأضرار أشهر من أن تذكر ، وجدير بى أن أشير بكلمة عجلى إلى باقى أجهزة الجسم ، وخير الطرق للمحافظة على سلامتها إذ لايحتمل المقام الاطالة ، فأبدأ بالرئتين ولانزاع فى أن خير مايجدد قوتهما هو الهواء النقى ، وهو لهما بمثابة الحمام للانسان ، لأنه بلاجدال العامل الأقوى فى تجديد شباب كل عضو من أعضاء الجسم من المخ حتى الجلد . ومما يؤسف له أن كثيرا من مواطنينا الأعزاء لايقدرون هذه الأداة الفعالة حق قدرها ويهملون الانتفاع بها مع أنها فى متناول الجميع هبة من الله تعالى بلاعوض . وأما الجهاز العصبى وجوهره المخ ، فهو للانسان بمثابة الطبقة الحاكمة من الشعب تدبر أموره ، فتدر عليه المنافع ، وتدرأ عنه العوائل ، وأكبر أعداء هذا الجهاز اثنان وهما القلق والمشاغل الفكرية اذا تمكنتا منه كانت نتيجة ذلك الحتمية قصر العمر . أما الترياق الفسيولوجى لهذه الحالة فهو اجراء التمارين العضلية الشديدة لتجديد نشاط الأعصاب ومنع طاقتها من الفقدان دون الاستعاضة عما يفقد منها بقدر جديد من الطاقة ، ومادام جهازنا العصبى سليما نستطيع أن نتغلب على جميع الأمراض الجسمية والنفسية بقوة الارادة » اهـ

(٤) ثم أخذ يشرح فى صفحة ٨٠ ومابعدها [منحدر الحياة] فقال : « مهما عنى الانسان بصحته ومهما كان قويا متين البنية فلاشك انه يأتى عليه يوم يشعر فيه بأنه يهوى فى منحدر الحياة حتما لأنه ليس من الضرورى أن تتناقص القوى العقلية كلما تقدم الانسان فى السن ، ويمكن تعليل بقاء القوى العقلية سليمة حتى سن متقدمة أو حتى نهاية الشيخوخة بأن المخ يستمر نشطا على حساب العضلات والمفاصل وباقى الأنسجة التى كلما تقدمت السن قل عملها ومايلحق من نشاط فى جهاز الدورة الدموية ينصرف طاقته إلى العضو الأكبر احتياجا إليه ، وهو العضو الذى يستمر نشطا حتى آخر الحياة ألا وهو المخ ، وهناك تعليل آخر وهو انه بما أن المخ آخر مايتم نموه فى الجسم فطبيعيا يكون آخر مايتأثر بالشيخوخة ، ولذلك نجد أن الأوعية الدموية التى تكون تامة النمو عند الولادة هى ضمن أجزاء الجسم التى تبدأ فى التأثر بالشيخوخة ، ولكن مع ذلك فالمخ يصله نصيبه من الدم كاملا بينما يكون قد قل نصيب أجزاء أخرى من الجسم ، وكلما استبقى مجرى الدم فى حالة معقولة من النقاوة كلما كانت قوى المخ لاتتأثر ، وعندئذ يأتى دور استحالة الأوعية الخية عادة متأخرا ، وهذه الاستحالة تنشأ عن تأثير السموم إما على جدر الأوعية أو على الدم كما سبقت الاشارة إلى ذلك . وليس معنى ذلك أن النشاط المخى لايتأثر بدور الهبوط الجثمانى بل العكس ، وان هذا النشاط تتغير طبيعته ، ولو أن هذا التغير يتناول نوعه أكثر من مقداره (صفحة) فالانسان بمجرد مايجد نفسه فى المنحدر يلحق الخيالات ظاهريا ، ولو أنه يستبقى ما اعتبره التى لأعنى من أفكاره وتعقد الشهوات والعواطف حدتها حتى ان مهرج مظاهرها كالعزل وروايات الحب تتوقط شعوره كثيرا ، وكذلك لاتستهويه تلك الحادية العجيبة التى انفرد بها الخمس مطلقا ، ورغم ذلك يستبقى نشاطه الذهنى ، فأمام هذه الاعتبارات [illegible]

يندر أن تصيبهم أمراض فى أطرافهم السفلى كما يندر أن يصاب الذين يشتغلون أشغالا عقلية بالتهاب سحائى ، ولكن هذا لايمنع من أن الذين أسرفوا فى استعمال بعض أعضائهم يكونون عرضة لأن يجنوا عواقب سيئة نتيجة إسرافهم ، أما المخ فالغالب أنه لايمكن أن يحلّ به الاجهاد لدرجة تسبب انحطاطه قبل الأوان ، وهذا بطبيعة الحال لايصدق على العواطف ولكن يقصد به النشاط العادى ، لأن الانسان قد يدفع نفسه إلى التفكير لمدة طويلة ولكن يأتى وقت لايتيسر له فيه أن يستمرّ فى التفكير ، فبينما يستمرّ المخ فى حاجته إلى نصيبه كاملا من الدم تكون حاجة معظم باقى أعضاء الجسم للدم قد قلت وهذا واضح فيما يتعلق بالعضلات والعظام والمفاصل ولكنه يحتاج إلى شىء من الايضاح فيما يتعلق بأعضاء الهضم ، وتعليله هو أنه بضمور العضلات تقلّ كفايتها للتصرّف فى منتجات الهضم ، ولذلك وجب أن تخفض كمية المواد الغذائية التى تدخل الجهاز الهضمى ، وهذا يقلب معتقد أسلافنا رأسا على عقب من جهة تغذية الشيوخ لأنهم كانوا يعتقدون وجوب تغذية الشيوخ بسخاء ، وكانوا يظنون أن مثل ذلك كمثل الدعائم التى تقام لتوطيد الجسم الشائخ الهش الهيكل ، ولاشك أن هذا المبدأ كان أضرّ ما يكون بالشيوخ ، لأن الاعتدال فى الغذاء ليس لازما للشيوخ فحسب ، بل للناس فى كل الأعمار . ومما يشاهد أثناء الهبوط فى منحدر الحياة تساقط الأسنان ، وهذا أمر غير طبيعى ، وحدوث ذلك نتيجة لازمة للافراط فى أكل اللحوم والمواد السكرية وعدم العناية بالأسنان بعد هذا الافراط ، وهاهو السير اسحق نيوتن لم يفقد إلا سنا واحدة فى سن الخامسة والثمانين ، وكذلك ضعف الابصار ، وهو معظم الأحيان ينشأ عن تيبس العدسة ، ويبدأ مابين سن ٤٥ و ٥٠ سنة ، وضعف العضلة الهدبية ، وقد يصحب تأثر جهاز الابصار فى هذه الفترة من الحياة ظاهرة فقد حدّة السمع ، حتى انه يندر وجود شخص يتمتع ببصر وسمع سليمين بعد سن الستين . وضعف السمع ينشأ عادة بسبب ضمور العصب السمعى وان كان تحصل أحيانا بأسباب أخرى كتثبيت عظم الركاب أو اصابة صماخ الأذن الظاهرة بالاكزيما القرسية ، أوتجمع الصملاخ به كما قد يصابون بطنين الأذن أو بسماع أصوات داخلية متعددة وهذا يسبب لهم مضايقة كبيرة ، وكذلك قد يشعرون فى هذا الدور بدوخة قد تكون بسبب مرض فى الأذن ، أو ورم فى المخيخ ، أوغير ذلك من الأمراض المخية ، أوأمراض العيون ، وقد أشرنا إلى الدوخة الوقتية التى يصاب بها الشيخ عند قيامه من الفراش ، وقلنا ان سببها ناشىء عن ضغط الدم الذى قد يرتفع بسبب انقباض الأوعية الدموية من تصلب الشرايين ، وكلما انحدر الانسان نحو نهاية العمر كلما ظهرت علامات ذلك على الجلد وملحقاته حيث يجف الجلد ويرق ويصير أملس وتظهر فيه تجعدات ، فيتغضن الوجه بسبب اختفاء النسيج المرن والنسيج العضلى ، وهذا يدل أيضا على أن الأوعية الشعرية تقل فى الحجم والعدد حيث تضمر بسبب عدم الاستعمال ، فتتأثر تغذية الجلد . ويعقب ذلك اصفرار أوشحوب اللون ، وان كان يشاهد عند بعض الشيوخ نوع من التلوّن فى جلودهم ، ويظن البعض أن هذا انذار بمرض خبيث ، كما ان هذا التلوّن ربما يكون وسيلة لوقايته من بعض الأشعة التى فى طيف الشمس حتى انه اذا ظهر هذا التلوّن يكون ذلك دليلا على نقص فسيولوجى فى الانسان ، وهذا النقص خطر فى بلاد المنطقة الحارة ، وقد يفسر هذا النقص بعدم كفاية الغدد التى فوق الكلى ، أوالغدد الجنسية ، وقد يكون النمش محرضا لنمو الجلد فيحل محل التلوين . ويسبب هذا التلوين أيضا التعرّض للشمس ، وقد

يستعاض عن عدم التلوين بنموّ الشعر غير الطبيعى ، لأن اللون فى جلد الانسان يقوم مقام الشعر فى القردة من حيث الوقاية ، ولذلك يتأثر الجلد كثيرا خصوصا فى زمن الشيخوخة فى الذين ليس عندهم استعداد لحدوث التلوّن فى جلودهم ، أولنموّ الشعر فيها بغزارة غير طبيعية » .

(٥) ثم أخذ فى صفحة ١٢٢ ومابعدها يشرح وسائل تجديد الشباب واطالة العمر ، فعوّل كثيرا على نظام الغذاء ، وقال : « قد ألمعنا فى كلماتنا السابقة إلى وسائل تجديد الشباب واطالة العمر ، وأتينا على بعضها ، وتحقيقا للغرض الذى حدانى للعناية بهذا الموضوع أفرد هذا الفصل لجمع شتات هذه الوسائل . تنقسم الوسائل التى نحن بصددها إلى ثلاثة أقسام ، والقسم الأوّل يتعلق بالمحافظة على الصحة الشخصية منذ يوم أن يتنسم الانسان أوّل نسمة فى الحياة حتى سن الكهولة ، والقسم الثانى موضوعه طرق العناية بالكهولة فى أطوارها المتأخرة وبالشيخوخة ومندراتها ، ويبحث القسم الثالث فى وسائل مداركة مضاعفات الشيخوخة ، وسنتوّج هذه المواضيع ببسط أثر المحافظة على الصحة العامة فى تجديد الشباب والتعمير — :

(١) فأما وسائل المحافظة على الصحة الشخصية حتى سن الكهولة فهى عديدة ، وقد قتلت بحثا ووضع فيها المختصر والمطوّل من المؤلفات ، ويحّ صوت رجال الصحة والاجتماع فى تلقين مبادئها للناس كافة فى قطرنا المحبوب أوفى غيره من الأقطار ، وقد أخذ الكثيرون من أفراد المجتمع فى اقتطاف ثمار هذا المجهود العظيم حتى أصبح كل بيت لايخلو من مبشر للصحة . ومما أذكره بالاعجاب أنه يغلب فى بلادنا أن يكون هذا المبشر من أبنائنا الشباب فتيانا وفتيات ، ولذلك سأذكر بعض المخالفات البارزة لسنن الطبيعة ، وألحقها بطرائق معالجتها فأقول : —

(١) يشمل هذا النوع من الوسائل ، وهو الذى له الفضل الأكبر فى إطالة العمر العناية بالصحة الشخصية من كل ناحية من نواحيها كالانتفاع بالهواء النقى ، وقضاء معظم الوقت فى الهواء الطلق والعناية بالثياب من حيث تناسبها مع الفصول ، والاهتمام بأمر الطعام والتغذية من حيث النوع والكمية ، والامتناع عن اعطاء الفرصة لأىّ سبب كان من التسرّب إلى الجسم سواء كان من الداخل أوالخارج ، ومعنى ذلك العناية التامّة بالنظافة الشخصية ، فى حكم الحديث الشريف القائل « النظافة من الايمان » لأنه جمع فأوعى ، ومن الوسائل الهامّة والموصلة إلى إطالة العمر بلا نزاع الوقاية من الأمراض المسرّبة ، وكذلك العناية بالأسنان واللثة التى تتسرّب عن طريقها سموم جمة بسبب العفونة التى تنشأ عن فضلات الطعام الراسبة عليها . والمتخلفة لها ، ولايفوتنا أن نلفت إلى فائدة الحركة سواء بالاستعانة بأى نوع من أنواع التمرينات الرياضية . أو الصلاة ، أوالألعاب ، وكذلك نوجه الأنظار إلى مزية الرياضة العقلية اما بالقراءة الصحية ، وهذه تقاس كلية مع القصص المحشوة بسائل المعنى والفحش والعبارة ، أو بوسائل أخرى ، إذ من الرياضة العقلية أيضا بعض الألعاب التى تحتاج لفكر وروية وهى بسيطة لحد بعيد لاترهق أواجهاد . ومن أمور البدهية حاجة الجسم والعقل إلى الراحة ، وأهمّ عنصر لتحقيقها هو النوم الهادئ ، ولأهمّ من ذلك كله أن يكون للانسان عمل يقوم به بعيدا عنه وفى جانبه ، لأن البطالة من موارد المهلكة للجسم والعقل .

(٢) ومما يساعد كل المساعدة على إطالة العمر الاقتصاد من سموم الأدوية المركبة الكيماوية التى تعمل على هدم كيان الجسم ، وأن يرد الانسان بأدوية طبيعية قوامها أنسب الأعشاب

ولذلك أرى أنه جدير بى أن أذكر (بعد أن أجلت فيما سبق لى قوله) موضوع العناية بالغذاء والتغذية بشيء من التفصيل الذى يسعه المقام ، لأن اهمال هذا الأمر الحيوى عام بين كل الطبقات وعند جميع الأمم . إن فائدة موادّ الغذاء التى تؤكل بحالتها الطبيعية تظهر بجلاء فى تأثير باشيلس القولون العادى عليها ، لأن فعل هذا الباشيلس يتوقف على طبيعة المزرعة التى يتناول غذاءه منها فاذا زرع على بروتيين حيوانى كما يحصل فى حالة أمعاء الانسان فانه يحدث تعفنا ويصبح من ألد خصوم الانسان ، ولا يقتصر تأثيره على الأمعاء الغلاظ وحدها ، بل يؤثر أيضا تأثيرا شديدا فى الأحشاء المجاورة ، ويسبب لها أمراضا عدّة مع انه اذا زرع هذا الباشيلس القولونى العادى فى مزرعة تحتوى على موادّ نشوية أوخضرية فانه لايحدث تعفنا ويتحوّل إلى جرثومة تخمرية : أى ينقلب من خصم لدود إلى صديق نافع ، فمتى عرفنا هذا أمكننا أن نحل معضلة كيفية توصيل الموادّ النشوية والخضرية من الفم حتى الأمعاء الغلاظ بدون أن تتأثر أقلّ تأثير بالعصارات المختلفة التى فى القناة الهضمية ، وأظنّ أن الجواب على ذلك قد أصبح جليا ، وهو أن تؤكل هذه الموادّ الغذائية بحالتها الطبيعية معلمة بغلافها السليولوزى الذى لاتنفذه عصارات الهضم ، والذى يمكن هذه المواد من الوصول إلى مقر باشيلس القولون العادى ، ومعنى هذا أن الذين يعيشون على الأغذية الطبيعية لايشكون ألبتة من كسل الأمعاء ، وكما أدركنا حكمة ذلك فى الحيوان يجب أن ندرك حكمة الصوم الذى تصومه الحيوانات الدنيا ، فهو يحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه ، وعندما يصاب الانسان بالبول السكرى يكون دخل جسمه أكثر من خرجه ، والصوم يعادل بين ذلك ، ولكنّ هناك أمرا مهما يجب الالتفات إليه عند ممارسة الصوم وهو التأكد قبل ذلك من عدم وجود فضلات فى الجزء الأسفل من الأمعاء الغلاظ حتى لاتمتص الأمعاء المذكورة هذه الموادّ أثناء الصوم ، ولذلك يجب أن يسبق الصوم بمسهل ، وهناك أمر آخر لايقلّ أهمية عن الأوّل وهو أن يكون الصوم صوما مطلقا بحيث لايتعدّى الشفتين إلا الماء ، لأن الانسان اذا تناول شيئا من الطعام كان ذلك محرّضا له على طلب المزيد ، أما اذا اقتصر على الماء دون غيره ، فان شهوة الأكل تنعدم عنده ، ولاسيما اذا كان الصائم دائم الاشتغال أثناء الصوم عقلا وجسما ، لأن شهوة الطعام تقلّ بسرعة فى اليوم الثانى ، وفى اليوم الثالث تنعدم بتاتا . وقد قيل : انه يحسن بالصائم أن يلازم فراشه أثناء الصوم ، ولكن اذا كانت صحته جيدة فالأنسب أن يمارس عملا أثناءه أولى من ملازمة الفراش كالمرضى والضعاف العاجزين ، ولأمر الثالث الواجب على الصائم الالتفات إليه هو أن يكتفى عند الافطار بوجبة صغيرة فى اليوم الثالث ، وبوجبتين أقلّ من هذه فى اليوم الرابع . والمتفق عليه أن صوم ثلاثة أيام كاف لاعادة التوازن . هذا والصوم يمارسه الحيوان غريزيا عند مرضه . وقديما قيل : « جوعوا تصحوا » . ومن ذلك يمكننا أن ندرك أهمية الصوم فى تصحيح الأبدان ، لأن غريزة كهذه ما كانت لتوجد فى الحيوان إلا ولها أساس فسيولوجى متين ، ونحن أولى بالانتفاع به . وقد دلت التجارب على أن فوائد الصوم لاتقتصر على تخليص الجسم من بعض أنواع السموم المولدة لكثير من الأمراض التى توهن فيه روح الهمة والنشاط ، وبما أن الصوم قد يحدث أحيانا بعض التسمم الهضمى - فصحيح عادة الصائمين تتناول كميه وافره من سائل قلوى أثناء الصوم كما فيشى .

(١) وتوجد وسيلة أخرى لحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه وهى الاستحمام بالماء الدافئ

ويكون مصحوبا بالتدليك ، أو بالمعالجة بالكهرباء ، لأن هذا الاستحمام سواء كان بالماء الساخن أو بالهواء الساخن ، أو بالبخار الساخن ، أو بالحرارة المشعة ، يكون من نتيجته رفع حرارة الجسم نحو درجة مئوية أو أكثر ، فينشأ عنها احتراق فى الدم كان لا يمكن الحصول عليه إلا باصابة حية أو برياضة عضلية ، ولذلك كثيرا مايقال ، ولعله قول حق : إن الانسان تتحسن صحته من إصابته بحمى عما كانت عليه قبلها ، ولاشك أن سبب ذلك هو الاحتراق الذى أحدثته الحمى فى المواد التى كانت مختزنة وغير محترقة فى الجسم ، ولذلك يجب الحث على الاستحمام بالشمس الذى يباشر الآن كثيرا ، وأظن انه لم يحن الوقت بعد للحكم على قيمة الاستحمام بالأشعة فوق البنفسجية ولكن مما لاشك فيه أن الفوائد التى تجنى من التعرض لهذه الأشعة تنشأ عن ازدياد الاحتراق وتنبيه الاستحالة الغذائية (ميتابولزم) .

(٤) ولكن الوسيلة التى تفضل كل هذه الوسائل الصناعية هى الوسيلة الطبيعية وهى تنبيه الاستحالة الغذائية ، وحبذا لو أمكن الحصول على هذه الاستحالة بمقادير كافية بواسطة الرياضة العضلية التى لا تفضلها أية واسطة أخرى ، لأن فائدة هذه الرياضة بما تحدثه من التأثير الحسن على الجهازين العصبى والهضمى لا تعادلها فائدة أخرى من حفظ الصحة ، إذ ليس من شك فى أن الافراط فى الغذاء الغير صالح ، وعدم قيام الأشخاص الذين تضطرهم أعمالهم للجلوس بالقسط الكافى من الرياضة البدنية هما من أخص العوامل التى تجلب الأمراض المزمنة لهؤلاء الأشخاص ، وهى الأمراض التى تهدد حياتهم بالخطر . ويمكن لسكان المدن أن يمارسوا الرياضة البدنية فى منازلهم باستعمال الآلات الخاصة بها ، غير أن ممارسة هذه الرياضة فى الهواء الطلق أفضل بكثير ، وأحسن أنواع هذه الرياضة هى المشى ، ويمكن لكل انسان أن يمشى يوميا من أربعة إلى خمسة كيلومترات وأخص من يجب عليهم مباشرة هذه الرياضة هم الأشخاص الذين لا تتاح لهم الفرصة لعمل تمرينات رياضية منتظمة ، والعائق الوحيد الذى يمنع بعض الناس من ممارسة هذا التمرين الطبيعى هو انهم لا يعرفون كيف يمارسونه فالمشى الصحى ليس العرض منه مجرد جر الأرجل بل العرض منه أن يمشى الانسان وقوامه منتصب وصدره مرفوع الى الأمام كما يفعل الجندى فى مشيه حتى تنقبض عضلات جدر بطنه والاضاعت الفائدة المرجوة من المشى ، ويجب دائما على الانسان أن يمارس بعض التمارين التى تقوى عضلات البطن ، لأنها اذا استرخت نشأ عنها هبوط الأحشاء ، وهو من الأسباب الرئيسية لكسل الأمعاء ولأمراض أخرى ، وهذه التمارين يجب أن تمارس بانتظام كل صباح ، ومثلها فى ذلك مثل حمام الصباح وتسويك الأسنان .

(٥) ويحسن بنا أن نشير أيضا الى المشروبات الروحية التى لا نرى أى ضرورة لتعاطيها حتى ولو كان ذلك لايقاظ شهوة الطعام . لأن تأثيرها فى هذه الحالة هو احداث تهييج فى المعدة ينشأ عنه ميل كاذب لتناول الطعام ، وهذا يؤدى إلى عسر الهضم وأمراض أخرى .

(ب) — وأما وسائل العناية بالكهولة فى أطوارها المتأخرة ، وتشيخوخه ومشيخوخته ، فقد أشرنا أيضا إلى الكثير منها فيما تقدم (انتهى ما أردنا ذكره من كلامه) .

وهذا ما يذكر من كلامه وقصور يسكن عن جميع ما يذكر عنه ووسيلته إلى أن قال : وقد أشرنا فى فصل سابق فى المعالجة بأشعة الشمس الطبيعية والصناعية ، وأكتفى بأن أذكر هنا بعض أخطار المعالجة بأشعة الشمس وأشعة مشابهة لها . وهذه الأخطار هى

ضربة الشمس (الرعن) والصهر والحرق ، ويحدث الأوّل بسبب الرفع الموضعى لدرجة حرارة المخ والجسم جميعه بينما ضربة الحرارة تحدث بسبب رفع حرارة الجسم فقط ، واذا ارتفعت حرارة المخ لدرجة عالية نشأت عن ذلك الوفاة ، ولهذا السبب وجب وقاية الرأس والعمود الفقرى من حرارة الشمس ، ويسبق ضربة الحرارة عادة خلل فى عملية إفراز العرق التى يتوقف عليها تنظيم حرارة الجسم ، ولاسيما فى البلاد الحارّة ، ويساعد على حدوث الرعن الاصابة بمرض آخر ، وتعالج هذه الحالة بالتعريق الصناعى ، وتحصل ضربة الحرارة فى الجوّ الجاف الذى لاريح فيه ، وكذلك فى الأماكن المرتفعة الحرارة ، وقد يتولد عن الاصابة بالحرق استعداد للحالتين السابقتين بما يحدث عند الانسان من ضعف المقاومة بسبب امتصاص متخلفات الأنسجة المحروقة ، أما معالجة الحروق الناشئة عن حرارة الشمس فلاتختلف عن الحروق الناشئة عن أسباب أخر ، و بعض الأشخاص لايطيقون المعالجة بالشمس كالصغار والمسنين والمصابين بأمراض عصوية مزمنة ، وأولئك الذين يطيقون المعالجة الشمسية يتمتعون بمناعة ممتازة من البرد والتهابات الجهاز التنفسى ، ولهذا السبب حبذا لو انتفع كل مواطنينا بالشمس الجميلة التى أنعم الله بها على بلادنا ، والتى لايوجد شك فى أنها لواستعملت بحذق لكانت من الأسباب العظيمة لتقوية بناء الجسم ولإطالة العمر . أما أهمية ضوء الشمس فهى فى حيازته لخاصية قتل الجراثيم ، وهو ماتقوم به الأشعة التى فوق البنفسجية الموجودة فى الطيف الشمسى ، هذا عدا عن فعلها فى تنشيط ميتابولزم الكالسيوم ، ولهذه الأشعة علاقة متينة بالفيتامين ومفرازات الغدد الصماء كما تكسب الدم خاصية اهلاك الجراثيم كما كشف عن ذلك الاستاذ [ليونارد هل] » .

(٦) ثم أخذ يشرح حمام الرئة فقال فى صفحة ١٣٣ مايأتى : « إن الرئة لاتقوم بوظيفة اخراج الحمض الكربونيك فحسب بل هى عند الضرورة تخرج سواه ، ولذلك تشم رائحة الكحول فى زفير المخمور ، والطريقة الوحيدة لتطهير الرئة هى التنفس العميق ، أوالتنفس أثناء المرانة البدنية فى الهواء الطلق ، وبهذه الطريقة يجدّد شباب كل عضو من الأعضاء من المخ حتى الجلد » .

(٧) وهنا شرح أمراضا كثيرة لا داعى لذكرها ، ولنقتصر على مايفيدنا . قال فى صفحة ١٥٣ وما بعدها ما يأتى : « فالمحور الذى تدورحوله كل جهود رجال الصحة هوسعادة الانسان ، أوبالتالى إطالة عمره فى صحة وعافية لأنها والسعادة توءمان ، وبديهى أن السعادة ليست فى وفرة المال فحسب ، بل هى السلام وهدوء البال ، وأهمّ أركانها التمتع بالصحة ، ونعمة الصحة تدعم حياة الانسان اذا توافر له الغذاء الجيد النوع الكافى المقدار ، وما يقيه من الملبس والمسكن ونحوذلك ومتى رزق النفس الصحيح البنية ، وهذه هى المسائل الأربع الهامّة التى تبذل المصالح الصحية المختلفة فى أنحاء العالم كل جهودها لتوفيرها لبنى الانسان ، ولذلك كان من رأيى أن العناية بالصحة العامّة هى الوسيلة الأولى لاطالة العمر . لأنه لاتوجد عقبة فى سبيل طول حياة الانسان اذا توفرت لديه كل هذه الوسائل . ولو كان يعيش الناس سعداء آمنين مطمئنين لوأتيح لكل منهم أن يحصل على نصيبه من الوسائل لآنفة الذكر ، وكيف كانت تكون حال الدنيا من الهناء اذا طالت أعمار بنيها إلى الحدّ الأقصى فى صحة ورخاء ، شك انهم كانوا يستهينون بالموت ، بل وينتظرونه كحادث طبيعى لابدّ من . لوله فى أوانه ، و ته انه اذ أدركنا هذه الغاية بلغنا منتهى مايتمنى الانسان فى الحياة . ولايخفى أن طول الحياة فى هذه الحالة سيكون خير واسطة لتقدّم الانسان ، وذلك لامكان

زيادة الانتاج العلمى والأدبى والمادّى ، ولاسيما فى سنّ النعقل والرزانة ، والله المستعان على مافيه خير الأمة والانسانية جمعاء » .

« أصبح التعمير أواطالة العمر من الامور العلمية بعد أن كان من الأمانى والأحلام التى لايرجى أن تحققها الأيام ، وقد وضعت له أسس وقواعد أملاها العلم وأيدها الاختبار ، وخصوصا علم الصحة العامة الذى تقدّم تقدّما كبيرا فى السنين الأخيرة ، لأن التعمير من أهمّ مايعنى به رجال الصحة فى كافة البلاد ، حتى انه بفضل جهودهم أصبح متوسط عمر الانسان فى العصر الحديث أطول منه فى العصور الغابرة فلقد زاد متوسط مايعيشه الانسان فى الخمسين سنة الأخيرة نحو اثنتى عشرة سنة » انتهى ما أردنه شرحا وتلخيصا ونقلا من كلام طبيبنا مواطننا [شاهين باشا] ولقد أجاد وأفاد ، وبان أن كلامه كله يرجع أهمه إلى الأغذية والأهوية والمشى والتمرينات العضلية .

ولاجرم أن الأغذية هى ما حولنا من المخلوقات ، وقد قال : « إن الشمس نافعة للصحة » فباجتماع التمرين العضلى مع ضوء الشمس على الجسم مع الأغذية الطازجة التى لاافراط فيها يعيش الانسان عيشا أهنأ وهو سعيد فى نفس هذه الحياة .

واعلم أن الاستحمام بالشمس تقدم فى ﴿ سورة يونس ﴾ عند آية : « هوالذى جعل الشمس ضياء » الخ وقد تقدّم الكلام على الأغذية ونحوها فى سور كثيرة ، فى سورة البقرة عند آية : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هوخير » وفى سورة الأعراف عند آية : « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا » وفى أوّل الحجر عند الاشارة إلى آدم ، وفى سورة [طه] عند ذكر آدم أيضا ، وفى سورة الشعراء عند آية : « واذا مرضت فهو يشفين » وفى سورة [ص] عند آية آدم فى آخرها وعند ماقبلها فى قصة داود وفى سور أخرى .

اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، لأنك علمتنا مالم نكن نعلم ، وهديتنا الصراط المستقيم ، وأزلت عنا الحجب المانعات من سعادتنا وهنائنا فى نفس هذه الحياة الدنيا ، وأريتنا تفسير قولك فى كتابك العزيز : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون ، وفى السماء رزقكم وماتوعدون » فوجدنا هناك تآلفا واتحادا بين الخضر والفاكهة مما فى الأرض مع ضوء الشمس على صحة أجسامنا . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » ومابعدها . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٣١ .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » ومابعدها

كتب قبيل الفجر ليلة السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣٢ م

تفسير : « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » الداخلة فى قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل مايهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حقّ للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون ، وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون »

كتبت هذا العنوان لحضرة صديقى العالم الذى اعتاد أن يستشيرنى فى هذا التفسير ، فقلت : ماذا تريد من أمر النفس اليوم والتفسير مشحون بعجائبها ؟ فقلت : إن العجائب التى سأذكرها هنا لايسبق لها نظير .

فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن فى النفس لحدائق و بساتين ، وجنات وعيونا ، وبهجة غفل عنها الناس . فقال : الناس أجمعون ؟ فقلت نعم أجمعون . فقال : إنى أخاف منّ اطلاق هذا القول ، ان علم النفس اليوم ارتقى ارتقاء مدهشا ودخـل فى تربية المدارس فى هذا القرن بهيئة عجيبة . فقلت : أنا سأبرهن لك فى هذا المقام على ما أقول وسأريك أوّلا حدائق النفس و بساتينها وأشجارها بهيئة تسرّ الناظرين ، ثم أقفى بتبيان أن هذه الحدائق انتفع الناس بظلها الظليل ، فتفيؤا ظلالها ، وعاشوا فى مناكبها ، وذلك فى علوم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات ، وأبين ذلك بالأمثلة الواضحة ، ثم أثلث بأن الأمم كلها وان استظلت بظل تلك البساتين فى العلوم والصناعات لم تجن الثمرات ولم تتناول القطوف الدانية من الغصون الوارفة فى تلك الأشجار الباسقة ، بل هـم لايزالون مفتونين بالظواهر ، مشغولين عن نفوسـهم ودراستها ، ولوأنهم كما درسوا نظام هذه الدنيا درسوا نفوسهم أيضا من حيث نظامهم لبنوا سياستهم فى الحياة الدنيا على نظام أقلّ مافيه انه يشبه نظام النحل أوالنمل أوالأرَضة ، ولـكنهم إلى الآن جهال مبعدون عن هذه السعادة فى أرضنا هذه وهم غافلون . فقال : والله ان هـذا الـكلام عليه مسحة الحق ، لقد شاقنى هـذا البيان أن أسمع منك فقلت انها فصول ثلاثة الفصل الأول منها فى الجذر والتربيع والمتوالية العـددية والهندسية والـكسر الدائر ونحوها . ثم قلت : انظر هذه الحديقة :

الجذر والتربيع

قواعد . ارتفاعات . أوتار . أعداد . رواسم					
٣	٤	٥	١	و	٢
٥	١٢	١٣	٢	و	٣
٧	٢٤	٢٥	٣	و	٤
٩	٤٠	٤١	٤	و	٥
١١	٦٠	٦١	٥	و	٦
١٣	٨٤	٨٥	٦	و	٧

٤ من ١٢	١٢ من ٢٤	٢٤ من ٤٠	٤٠ من ٦٠	٦٠ من ٨٤
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤

هذه فروق متساوية فى الارتفاعات

٥ من ١٣	١٣ من ٢٥	٢٥ من ٤١	٤١ من ٦١	٦١ من ٨٥
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤

فروق متساوية فى الأوتار

هذه هى الحديقة الغناء . فقال : اللهم إنى أتهم فى رقعـة الشطرنج وأنواع الألعاب ولا أفهم فى هذه الحديقة شيئا . فقلت : أيها الصـديق : إن هذا الجدول كه يرجع لأمر يعرفه العالم والجاهل وهو ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ الخ ولـكن المعرفة السطحية جاهلة ، فانظر فى الجدول المرسوم تحت عنوان أعداد رواسم أليس هذا الجدول عبارة عن نفس هذه الأعداد ؟ قال نعم . فقلت : أتدرى ماذا حصل فيها ؟ قال لا . قلت ربعوا ١ و ٢ ثم طرحوا مربع الأوّل من مربع الثانى فـكان باقى الطرح ٣ ثم جمعوهما فـكان المجموع ٥ وضربوا ١ فى ٢ ثم ضربوا الحاصل فى ٢ فصار ٤ فالعمل إذن رجع إلى التربيع وطرحه وجمعه ، والى ضرب نفس الجذرين فى بعضهما ثم تضعيفهما . فقال : مامعنى جذر ؟ فقلت ٢ جذر و ٤ تربيع له ٣ جذر و ٩ تربيع له وهكذا . فقال فهمت . فقلت : إذن عندنا ٣ و ٤ و ٥ قال نعم . قلت : وهـذه ناتجة من عددى ١ و ٢ فان حقا بسبب التربيع طرحا وجمعا ، والجذر ضربا وتضعيفا . قلت : الحمد لله قد فهمتنى .

ثم قلت : هذا هو المثلث القائم الزاوية [ا ب ج] :

فخط (ا حـ) ارتفاع ، وخط (ب حـ) قاعدة ، وخط (ا ب) وتر ، فاذا كان خط (ب حـ) (٣) فى المثلث القائم الزاوية (حـ) فان (ا ب) فيها يكون ٥ و (ا حـ) يكون ٤

فانظر أيها الذكى ألست ترى أن مربع ٥ وهو ٢٥ يساوى مجموع المربعين وهما ١٦ و ٩ — قال حقا والله . قلت : أليست هذه هى النظرية المشهورة فى الهندسة وهى مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين . فقال : أهى هذه ؟ قلت نعم هى هى التى كشفها [فيثاغورس] . فقال عجب ! أهذه البدائع كلها ترجع إلى ١ و ٢ فقط . فقلت نعم وغاية الأمر جعلناهما جذرا ورمعناهما تارة وضربناهما أخرى واستعملنا الطرح والجمع والضرب فخرج هذا كله . فقال هذا حسن ، وحسن جدا ، واذا دمت فى الافهام على هذا المنوال حتى استوفيت المسائل إلى أن تصل علم السياسة فان عقلاء الأمم يفهمونها وتحدث أثرا على مقدار طاقة نوع الانسان فى هذه الأرض . فقلت : ثم انظر إلى عددى ٢ و ٣ فى نفس هذا الصف وهو صف أعداد رواسم فلنجعلهما جذرا والمربعان ٤ و ٩ اذا جمعناهما كان المجموع ١٣ وبالطرح يكون الباقى ٥ وبضرب ٢ فى ٣ وتضعيف الحاصل وهو ٦ يكون عندنا ١٢

فهذه هى أضلاع المثلث السابق مكبرا ، فان ١٣ وتر و١٢ ارتفاع و٥ قاعدة ، ولاجرم أن مربع ١٣ وهو ١٦٩ يساوى مجموع مربعى ١٢ و٥ وهما ١٤٤ و٢٥ . فقال بالله ما أبهج العلم وألذ الحكمة وأبدعها إذن بقية الأعداد هكذا : أى ٣ و ٤ ثم ٤ و ٥ ثم ٥ و ٦ . قلت نعم كلها على هذا النمط قواعد وارتفاعات وأوتارا بحيث يستمر الحساب إلى مالانهاية له من غير حصر .

ملاحظات

بالنظر فى هذه الجداول نجد أن ترتيب المثلثات المذكورة على الأعداد البسيطة أنتج أولا أن الفرق بين القواعد عدد ٢ لأنها ٣ ٥ ٧ ٩ الخ — ثانيا : ان بين كل ارتفاع ومايليه نسبة وباقى طرح أحدهما من الآخر اذا قابلناه بباقى طرح مايليهما كان الفرق بين باقى الطرح ٤ مثلا ارتفاع ٤ نطرحه من ارتفاع ١٢ والباقى ٨ وارتفاع ١٢ نطرحه من ارتفاع ٢٤ فالباقى ١٢ وهكذا فاننا نجد الفرق بين كل باق ومايليه ٤ ، ومثل مافعلنا فى الارتفاعات نفعل فى الأوتار سواء بسواء ، فنفعل فى ٥ و١٣ و ٢٥ الخ مثل هذا فيكون الفرق أيضا ٤ وهذا هو العجب ، إذ نرى الأعداد البسيطة على ترتيبها تظهر منها هذه الأعاجيب . نظام مقدس فى القواعد لأن الفرق ٢ ونظام مدهش فى الارتفاعات والأوتار . لأننا نجد الفرق بينهن ١ وهذا أمر عجيب جدا ونظام غريب فى بواقى طرح الارتفاعات والأوتار وهو ٤

مساواة مربع الوتر لمربعى الضلعين الآخرين

وذلك كله بدخول الجمع والطرح والضرب على مقتضى الأحوال . أليست هذه هى الحقيقة لهذه من ١ و ٢ و٣ وهكذا . فهذه الأعداد البسيطة عند الجهلاء [illegible] لكنها لا يعقل نفسه لا يعقل

جمال هذه الأعداد ، بل هذه الأعداد جزء من النفس ، فالنفس الانسانية فى أوّل أمرها مبهمة غير مفصلة ، ولكن كشف هذه الحقائق لها يجعلها مفصلة واضحة لأن إحساسها بعد ان كان امرا مجملا أخذ الحساب يفصله ، وأخذ يطالع فى نفسه هذه العجائب الناتجة من الأعداد البسيطة السهلة ، إن أمر الحساب لعجب ! أمر الحساب عظيم ، انظر كيف يقول الله : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر » ثم يقول : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ثم ذكر أمم الدول وخرابها ، ويقول فى آخر السورة : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » فأىّ مناسبة للشفع والوتر مع الفجر والليالى ؟ ثم ماسبة هذه كلها للنفس وصاها ودخولها الجنة .

هذه إشارات بعيدة الغور ستعرفها الانسانية فى المستقبل ، فان الحساب ونظامه لبنات جيلة بنى بها هيكل النفس فى أوّل أمرها أشبه بخلية الجسم فى أوّل أمره ، خلية الجسم واحدة تنقسم إلى ٢ وهذه تكون ٤ و٨ و١٦ و٣٢ وهكذا ، فهذه متوالية هندسية كل الأجسام فيها سواء ، وعمدة حياة هذه العوالم كلها الحساب ، والحساب الذى هو جزء مهمّ من نفوسنا هو الذى بنى عليه نظام أجسامنا وأجسام العالم كله ، فكما أن خلية الجسم الأولى صارت آلافا وآلافا من الخلايا . ولكل خلية حياة خاصة ترجع إلى الجسم العام هكذا النفس الواحدة المشبهة الخلية تتسع لكل محسوس ومعقول ، فهذه المعلومات تزيدها اتساعا كما يزيد الجسم حجما بالأغذية ، والفرق بينهما أن الجسم يتحرأ والنفس لا تتجزأ ، فهى تعظم بهذه الصور الروحية وترداد عظما روحيا لا جسميا ، ولو أن الأعداد وما ماثلها من جميع العلوم ذهبت من النفس لأصبحت أشبه بالدودة الضعيفة

اذا تقرّر هذا نقول : إن الجداول المتقدمة المنتظمة أمر ثابت فى نفسه مجرّد عن المادّة ، ولما كانت النفوس أقرب إليه دخل فى أمزجتها وصار جزءا منها لا يتجزأ ، جميع هذه الجداول وبدائع الحساب ثابتات كلها فى نفوسنا ، وهذه النفوس تكشف هذه الخبايا بالدراسة فترداد سعادة .

مثلا : فى هذا اليوم ١١ ابريل سنة ١٩٣١ م زار بلادنا المصرية [جراف زبلن] وهذا المنظاد مرّ فوق القاهرة ، ورأيته أمس آخر النهار يطوف بالعباسية ، وهو أشبه بالحوت فى البحر ، له لون فضى جميل ورأيته صباح اليوم قبيل كتابة هذا المقال ، ولفّ حول الحى الذى أنا فيه الآن (شارع زين العابدين) وكنت أمس واليوم أجد جميع سكان القاهرة رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا يقفون فوق السطوح فرحا بهذا الأمر العظيم المدهش ، لأنه أمر عجب ! ولم يروا مثله ، وأعوزه جهاد عظيم وعلم غزير حتى برز للوجود . إن هذا سرور للنفس ، ولا جرم أن خبايا النفس اذا ظهرت لكاشفها تكون أكبر سعادة لها .

إن فى الأعداد المستقرّة فى النفس الشفع والوتر المذكورين فى الآية ، أما الوتر فقد ظهرت أمثلة له فى قواعد الجداول المتقدمة . وهما يدهش الفيلسوف من قاعدة واحدة تكفل آلافا مؤلفة من المثلثات القائمة الزاوية المختلفات اختلافا تاما بحيث ان ما قلناه فى المثلث الأوّل ينطبق على كل مثلث بعده . ولما أن نجعل الارتفاعات والأوتار السابقات فى الجدول المتقدّم رواسم لها . وكما اتخذنا ١ و٢ و٣ الخ رواسم لتلك الجداول نجعل ما ترتب على تلك الرواسم من الارتفاعات والأوتار قواعد فماذا يكون إذن ؟ يكون هذا الجدول فتكون القواعد كلها مربعات لقواعد المتقدمة فى الجداول السابقة :

قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد رواسم	قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد رواسم
٩	٤٠	٤١	٤ و٥	٨١	٣٣٨٠	٣٢٢٨١	٤٠ و٤١
٢٥	٣١٢	٣١٣	١٢ و١٣	١٢١	٧٣٢٠	٧٣٢١	٦٠ و٦١
٤٩	١٢٠٠	١٢٠١	٢٤ و٢٥	١٦٩	١٤٣٨٠	١٤٢٨١	٨٤ و٨٥

فههنا أصبحت القواعد أعدادا مربعات ، ولهم طرق أخرى يجعلون فيها القواعد كلها زوجية مثل هذه :

قاعدة	ارتفاع	وتر	عدد راسم
٦	٨	١٠	١ و٣

وهو يجرى على القاعدة عينها ، فلنكتف بهذا فى هذا المقام . انتهى الكلام على الجذر والتربيع من الفصل الأوّل والحمد لله رب العالمين .

الكلام على المتوالية العددية والهندسية

المتوالية العددية مثل ١ و٣ و٥ و٧ و٩ و١١ الخ ، وهذه متوالية عددية تصاعدية ، أو تقول هكذا ١١ ٩ ٧ ٥ ٣ ١ فهذه متوالية عددية تنازلية ، والفرق بين كل عددين متواليين يسمونه أساسا للمتوالية وهو فى هذه ٢ ويكون ٤ فى الآتية ٢٦ ٢٢ ١٨ ١٤ ١٠ ٦ ٢ ولو أخذ ثلاثة أعداد (حدود) كان مجموع الطرفين ضعف الوسط كحدود ١٤ و١٠ و٦ من التنازلية فان ضعف ١٠ وهو الوسط ٢٠ ومجموع الطرفين وهما ١٤ و٦ يساوى ٢٠ وفى التصاعدية كذلك مثل ١٤ و١٨ و٢٢ فان ١٤ فى ٢٢ يساوى ١٨ فى ٢ فاذا أخذنا ٤ حدود كان مجموع الطرفين يساوى مجموع الوسطين وهو ظاهر .

الكلام على المتوالية الهندسية

هى مثل ٣ و٦ و١٢ و٢٤ و٤٨ و٩٦ وهذه تصاعدية ، ويقال فيها نسبة ٣ الى ٦ كنسبة ٦ إلى ١٢ كنسبة ١٢ إلى ٢٤ وكل حد يساوى الحد الذى قبله مضروبا فى الأساس مثل ٦ يساوى ٣ مضروبا فى ٢ أى يساوى الحد الذى قبله مضروبا فى الأساس و٢ هنا هو الأساس ، وهو الخارج من قسمة كل حد على الحد الذى قبله وهو لا يتغير ، وهذه المتوالية تكون تنازلية كما تكون تصاعدية ، وماقيل فى الوسطين والطرفين هناك يقال هنا ولكن بطريق الضرب فنقول هنا حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ، أو حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسط فى نفسه (مربع الوسط) مثلا ٣ و٦ و١٢ مربع الوسط فيها وهو ٣٦ يساوى حاصل ضرب ٣ فى ١٢ وهذا واضح .

إنما ذكرت ذلك هنا ليكون ذلك تذكيرا لمن لم يعرف علم الحساب ، وأريد هنا أن آتى بعض المقصود فأقول : إن للمتوالية العددية والمتوالية الهندسية فوائد فى علم الأوفاق ، وقد تقدّم فى هذا التفسير صدرات منه ، ولكنى أريد هنا أن أذكر منه عجبا :

جدول وفق فردي

٣	٢٠	٧	٢٤	١١
١٦	٨	٢٥	١٢	٤
٩	٢١	١٣	٥	١٧
٢٢	١٤	١	١٨	١٠
١٥	٢	١٩	٦	٢٣

كل قطر أو صف أفقي أو رأسي هنا اذا جمع يساوى ٦٥ أى يساوى حاصل ضرب جذر عدد الخانات ، وهو ٢٥ فى عدد ١٣ الذى هو وسط المتوالية الذى هو (فى مربع تقاطع قطرى هذا الجدول) فالجذر ٥ فى ١٣ يساوى ٦٥ وكيفية تعمير هذا الجدول تراها فى كتاب أستاذنا المرحوم على مبارك باشا فى كتابه [خواص الأعداد] وفى كتابى [بهجة العلوم] فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة .

جدول وفقي زوجى

١	١٥	١٤	٤	٣٤
١٢	٦	٧	٩	
٨	١٠	١١	٥	
١٣	٣	٢	١٦	٣٤

هذان الوفقان المنتظمان العجيبان فيهما متوالية عددية أولها ١ وآخرها ٢٥ فى الأول و١٦ فى الثانى ، وفيهما بدائع وعجائب ، فالخط الأفقي والرأسى والقطر كلها متساوية ، وجذر العدد الفردى وهو ٢٥ بضربه فى وسط المتوالية الموضوع فى الوسط يكون هو نفسه ذلك المجموع ، ولا كتف بما ذكرته الآن فى أوفاق المتوالية العددية .

أوفاق المتوالية الهندسية

إن كل ماقيل فى أوفاق المتوالية العددية يقال نظيره فى أوفاق المتوالية الهندسية ، ولكن الأمر هنا يكون بالضرب وهناك بالجمع ، فنجد فى الوفق المثلث الآتى أننا عمرناه بهذه المتوالية : —

١ ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ ٢٥٦ فهنا ترتيب كترتيب الوفق العددى لكل قطر وكل صف أفقي أو رأسى حاصل ضرب أعداده يساوى ٤٠٩٦ وهو مكعب ١٦ الذى فى الخانة الوسطى ، وطريقة التعمير هنا كالطريقة هناك :

٨	٢٥٦	٢
٤	١٦	٦٤
١٢	١	٣٢

وفق مثلث للمتوالية الهندسية .

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

وفق مثلث للمتوالية العددية .

فوازن بينهما أيها الذكى فانك تجد عدد كل صف وكل قطر فى الفردية ١٥ وهو من ضرب ٥ الذى هو فى الخانة الوسطى وهو وسط المتوالية أيضا ، ٣ الذى هو جذر عدد الخانات وهو هنا ٩

أما فى وفق المتوالية الهندسية فانك تجد حاصل ضرب أعداد كل صف أفقي أو قطرى أو رأسى مساويا لمكعب تلك الخانة التى فى الوسط وهى هنا ١٦ ففى الفردية ٥ مضروبة فى جذر عدد الخانات ، وهنا مكعب ذلك العدد التى هى فى الخانين يمر بهما القطران معا وتكون وسط الوفق بالضبط ، فهى فى الوفق كقلب الانسان أو خير من .

عند ذلك قال صاحبي : لقد فهمت المتوالية بقسميها ، وفهمت أوفاق العددية بقسميها ، ولكن لم أطلع على وفق للمتوالية الهندسية يكون زوجيا ، فقلت : إن الأمر يطول ، وأنا لم أذكر شيئا من ذلك هنا إلا مقدمة لما سأذكره في الفصل الثاني ، والثاني مقدمة للثالث أعني أني كما قلت لك سابقا أريد بهذه المقدّمة أن أبين عجائب الأعداد في نفوسنا ، ولكني لا أطيل أكثر من اللازم ، وأقفي بأن أمثال هذه القوانين التي في نفوسنا وجدت في نفس الطبيعة ، ثم أقفي بأن أقول : من العار على هذا الانسان (الذي وجد في نفسه تلك القوانين ، ثم عرفها في الطبيعة ، ثم استعملها في الصناعات التي يعيش بها) أن يكون غافلا أشدّ الغفلة ، جاهلا أخس الجهل ، إذ لم يطبقها على نفس الانسان ، فالذي أريده من ذلك كله أن أبين أن للانسان في نفسه بصيرة ولكنها محجوبة عنه ، ومادامت محجوبة فانه يكون معذبا في حياته الدنيا والآخرة ، وهذا أصبحت به موقنا ، فعليّ إذن أن أبينه لنوع الانسان . قال : إذن فلنكتف في هذا الفصل بما ذكر ونبتدئ في الفصل الثاني . فقلت : نعم ولكن بقي أن آتي بلمعة يسيرة لأتم هذا المقال ، وذلك بذكر الأعداد المتحابة وذكر الأعداد الكاملة لتدهش أيها الذكيّ من عجائب نفوسنا البديعة . فقال : أرجو أن توضحه هنا ايضاحا تاما . فقلت : انه سيأتي في ﴿ سورة الرحمن ﴾ عند قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » فاني سأبين هناك أن العوالم كلها مبنية على الحساب كنص الآية ، ولكني أشير إليه هنا إشارة بسيطة لاستيفاء المقام :

اعلم أن العدد الكامل هو الذي يساوي مجموع مضاريبه ، أما الناقص والزائد فهما على خلافه فعدد ٦ من ضرب ٢ في ٣ ومن ضرب نفس العدد في ١ وبجمع ٢ و٣ و١ يكون المجموع ٦ وهذا العدد نادر جدا ، وعدد ٢٨ ناتج من ضرب ٢ في ١٤ ومن ضرب ٤ في ٧ ومن ضرب ٢٨ في ١ وبجمع ١ و٢ و٤ و٧ و١٤ يكون المجموع ٢٨ وليس في الأعداد من ١ الى ١٠٠ سوى هذين العددين ، وله جدول تجده في هذا التفسير عند ذكر خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وهنا أذكر قاعدة استخراج الأعداد الكوامل لمناسبة المتوالية الهندسية المذكورة التي رأينا فيها عجائب الأوفاق العددية السابقة ، فانظر ما يأتي :

٢	٤	٨	١٦	٣٢	٦٤	١٢٨	٢٥٦	٥١٢
٦		٢٨		٤٩٦		٨١٢٨		١٣٠٨١٦
٣ في ٢		٧ في ٤		٣١ في ١٦		١٢٧ في ٦٤		٥١١ في ٢٥٦

فلما نظره قال : لم أفهم شيئا ؟ فقلت : إن هذه هي المتواليه الهندسية ، فانك في الصف الأعلى تجد ٢ و٤ و٨ و١٦ وهكذا ، وفي الصف الذي تحته تجد الأعداد الكوامل وهي ٦ و٢٨ وهكذا ، أما في الصف الأسفل فانك تجد أن ٢ التي في أوّل الفاصل الأوّل من أعلى قد نقلت تحت ٤ في نفس الفاصل وتجد عدد ٣ في نفس الفاصل قد وضعت في محاذاة ٢ وعدد ٣ هذا هو عدد ٤ في الفاصل لأوّل المذكور نقصنا منه واحدا ، وبضرب ٣ في ٢ يكون الحاصل ٦ وهذا هو المطلوب ، وهكذا نفعل في الفاصل الذي دون عدد ٤ الذي في أعلاه قد وضعناه في أسفل الصف الذي في عدده ثمنية و٧ التي هي في محاذاة ٤ هي عين ٨ التي عند الفاصل الذي وقعت نقصت واحدا ، وبضرب ٧ في ٤ يكون عدد ٢٨ وهو العدد الكامل . ونفعل من هذا على الدوام في كل المتواليات الهندسية بالاحصاء ، ويمكن أن نضع جدولا بأعداد كوامل من غير نصب يبلغ عددا وآلافا ، وقد ذكرت هذا الجدول المذكور بما تقدم من هذا التفسير ، ولكن لم أذكر هذه القاعدة هناك ، وبقاعدة سابقة خير مما سبق .

فقال : إن هذا عجب عجاب ! كيف تكون المثوالية الهندسية ذات خواص على هذا المنوال ، فلها ذات أوفاق عددية وزوجية عجيبة ، وبها أمكننا استخراج الأعداد الكوامل ، ولكن لم أعرف الأعداد المتحابة فقلت : انها واضحة هي وطريقة استخراجها فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ فيما يأتى . فقال : ولكنى أرجو أن أعرف طرفا منها هنا لأتصور أمرها ؟ فقلت : هي من أسرار عدد ٢ كالتى قبلها ، فانك تجد عددى ٢٢٠ و٢٨٤ متحابين ، لأن مضاريب ٢٢٠ يساوى مضاريب ٢٨٤ والعكس ، لأن ٢٢٠ يساوى ١ و٢ و٤ و٧١ و١٤٢ وهذه عينها مضاريب ٢٨٤ و٢٨٤ يساوى مضاريب ٢٢٠ وهى ١ و٢ و٤ و٥ و١٠ و١١ و٢٠ و٢٢ و٤٤ و٥٥ و١١٠ واستخراج هذا كله بسبب عدد ٢ لأنه اذا ضرب فى ٣ ثم فى ٦ ثم ضرب مربعه وهو ٤ فى ١٨ حصل عندنا ٦ و١٢ و٧٢ فاذا نقصنا من هذه الثلاثة واحدا واحدا كان هكذا ٥ ١١ ٧١ واذا ضربنا ٥ فى ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ فى ٤ كان الناتج ٢٢٠ وهو أحد العددين السابقين ، ويمكن إيجاد العدد الآخر بضرب ٧١ فى مربع ٢ المذكور ، وهو ٤ فيكون الناتج ٢٨٤ وهو العدد الثانى وهو المطلوب ، وهكذا يمكن استعمال أىّ قوّة من قوى عدد (٢) على هذا النمط لاستخراج الأعداد المتحابة ، وهذا سيتضح اتضاحا تاما فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ فانتظره . فقال : حقا قد استوفينا هذا المقام بقدر الامكان . فقلت : بقى الكلام على الكسر الدائر البسيط والمركب ، فانظر ½ فهو اذا جعل كسرا اعشاريا يكون هكذا ٠٫٣٣٣٣ وهكذا إلى مالانهاية له فهذا كسر دائر بسيط ، وانظر الكسر الدائر المركب فهو كهذا ½ وهكذا إلى مالانهاية ٠٫١٤٢٩٥٧١٤٢٩٥٧ وترى كسر ⅙ ٠٫١٦٦٦ إلى مالانهاية له . واعلم أن الأعداد البسيطة على ثلاثة أقسام : زوجية وكلها كسورها منتهية وهى ½ و¼ و⅛ فهى تساوى ٠٫٥ و٠٫٢٥ و٠٫١٢٥ وفردية وهى كلها غير منتهية ، وقد تقدّمت هنا ، وأعداد أوّلية مثل ½ و⅓ والأوّل ٠٫٢ فهو مسته كالأعداد الزوجية ، والثانى غير مسته كالأعداد الفردية .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أنت الجليل ، أنت الحكيم ، أنت البديع ، أبدعت نفوسا وملأتها بالجمال أنت العليم تعلم كل شىء ، ولما أبدعت أرواحنا أشرق عليها نورك فأصبحت الأعداد من كيانها ومزاجها وحقيقتها ، وهذه الأعداد لها نظام جميل ، فاذا كانت الكسور المتقدّمة قد اختلفت (فمنها ماله نهاية ، ومنها مالانهاية له ، ومالانهاية له إما كسر دائر بسيط ، واما كسر دائر مركب ، ولكل من هذه الأقسام التى امتزجت بنفوسنا تتائج طاهرات فى العوالم حولنا) فان أمر نفوسنا إذن لعجيب ، إذ كيف نرى ماحسبناه فى الأعداد الممتزجة بنفوسنا تصير مظاهره فى العوالم حولنا كما سيأتى فى الفصل الذى يلى هذا وما بعده مثل :

(١) إن سير الكواكب لم يخرج عن الكسر الدائر المركب ، وذلك بسبب تكرار الأدوار فى القرون والدهور .

(٢) ومثل ان هذا النوع الانسانى لايعلم لأجزاء المادّة نهاية عند تحليلها الكيمائى كما لاعلم له بنهاية الكسر الدائر .

(٣) ومثل عدم علمه بنهاية العالم من حيث المكان من جهاته الست .

(٤) وكذلك هو لايعلم متى ابتدأ الزمن متى ينتهى . إن هذا كله قد أوضحه الكسر الدائر الذى وعته نفوسنا إذن نفوسنا كمنت فيها العوالم وتماديها .

(٥) ومن هذا أيضا ندرك أن الله لانهاية لعلمه ، واذا كان الكسر الدائر لانهاية له وقد انطوت عليه نفوسنا وصار فيها محملا . وعلمنا بالنسبة لعلم الله أقلّ آلاف مرات من نسبة أجسامنا إلى العوالم كلها ، فهو إذن فى علم الله مع عدم نهايته معقلا . واذا نحن عرفنا الكسوف والخسوف بعد آلاف

آلاف السنين معرفة مجملة فالله يعلم ذلك مفصلا ، ويعلم كل الحوادث الصغيرة والكبيرة التي لانهاية لها مفصلة وذلك التفصيل ضرب له المثل بما سيأتي :

(٦) ألم تر المثلثين اللذين رسمناهما آنفا وفيهما المتواليتان العددية والهندسية ، أفلا تعجب معي أيها الأخ الذكي ، أفلا تدهش أن ترى عدد ٥ في المتوالية العددية وعدد ١٦ في المتوالية الهندسية قد جاء وضعهما في المربع الذي هو في وسط المثلثين ، فكما كان عدد ٥ هو وسط ٩ هكذا عدد ١٣ وسطها ثم إن ضرب ٥ في جذر ٩ هو عين مجموع الصفوف الأفقية والرأسية والقطرية ، هكذا تكعيب ١٦ هو حاصل ضرب كل صف وكل قطر ، هذا النظام الذي تقدم فيهما يدلنا على أن نظام العالم على هذا النمط كما نرى نظيره في ترتيب العناصر الذي تقدم ذكره في سورة العنكبوت ، فان صانع العالم رجنا بعلم الحساب وبهذه العجائب فيه التي أرتنا مفصلات الجداول منظمة مرتبة لاخلل فيها ولاخطأ ، ولواختل منها واحد لاختل الجميع ، وهذا هو الذي نفهم به على سبيل اليقين والمشاهدة ولو بطريق التنظير قوله تعالى : « وكل شيء فصلناه تفصيلا » وقوله « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وقوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » وقوله : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وذلك لأن الحساب لايغير ، ولوغير الحساب لاختل نظام المجموع ، فكل امرئ في الأرض أشبه بعدد في مربع من تلك الأعداد ، وكل أمة أشبه بجدول أفقي أو رأسي وبين الأفراد علاقات لاخلل فيها ، وكل فرد وكل أمة تختلف عن الأخرى ، وهكذا خلق كل حيوان وكل انسان وكل معدن الخ .

(٧و٨) نظام الأمم ، وتشريح الأجسام : وكما أن علم الله مبني على نظام واحد وهو حساب محكم ظهر لنا نموذجه الذي تقبله عقولنا الضعيفة هكذا يجب أن يكون نظام أمم الأرض جميعا ، لأن اختلاط الأمم الآن دلنا أنهن متعاونات مرتبطات ارتباط هذه الأعداد ببعضها ارتباطا لا انفصام له ولاانقطاع ، وأي فرق بين ارتباط الأمم وتعاونها وارتباط أعداد هذه الأوفاق وتناسب أعضاء الجسم الواحد ؟ فالرجل لونطقت لقالت أنا أحب العين وكلاهما يحب الكبد والكلية والعظم وما أشبههن .

الله أكبر جل الله : ظهر الحق واستبان السبيل . فقال صديقي : وأي حق غير ماتقدم ؟ فقلت : هو سر الأسرار وعلم الأبرار . فقال : وماهو يرحمك الله ؟ فقلت : أي صديقي : اذا كانت هذه حال الأعضاء من الصداقة والمودة بحيث يرى كل عضو لوكان يعقل أنه يحب بقية الأعضاء ولايحسد واحدا منها ، لأن الجميع يدفع بعضه بعضا ، غاية الأمر أن الأعمال اختلفت كما أن عدد ١ و٢ و٣ الخ في الوفق المتقدم كل واحد منها في مربعه وهو مرتبط بجدوله وبالجداول الأخرى وبينهن مناسبات عجيبة ، بل لونطقن لقال كل واحد اني أحب بقي الأعداد لأن الوفق كله لايتم اذا نقص واحد منها أو زاد أو انتقل من محله كما ينقص الجسم بنقص عضو واحد وتتألم لفقده بقية الأعضاء ، والذي يخطر لي كثيرا أن هذه العقول الانسانية في الأرض سائرة إلى هذه الحال يوما ما . وهي قبل أن تصل إلى هذه الحال لاتزال في ذل وعذاب مهين كأهل أرصا اليوم ، فان كل أمة من شدة الجهالة العاشية في نوع الانسان تريد أن تستقل بالحياة ، وهي في ذلك تشبه بعضو في الجسم ، أو مربع في الوفق يريد الاستقلال بالحياة وحده ويذهب الباقي من الحياة . وهذا هو السبب في أن حقد والجسد وعصا بس من الكبائر ، لأن ذلك حجاب حجب هذه الشعوب عن الاتحاد الذي يجعل كل نفس تفرح بسعادة ، وهذه إلى الآن لم يكن له أثر في أرصا إلا قليلا ، وقد نجد بعض الحكومات يتعاون و بعض الشعوب وغيرهم ، ولكنه تعاون ظاهري ، وكل يقصد نفسه ، وغير لكل مرئ في الأرض أن يقصد لمجموع لا سبى كما

قدّمناه فى ﴿سورة الزمر﴾ منقولا عن الاستاذ [كانت] الألمانى فى رسالته عن التعلم ، فانه حض جميع أفراد الأمم على أن يكون المقصد الأسمى سعادة المجموع . هذا هو الحق الصراح ، فليجدّ المسلمون من الآن فى إسعاد جميع النوع الانسانى ، وهذا هو سبيل الله والجهاد فيه موصل للقاء الله عزوجل ، وكيف يلاقى الناس ربهم وهذه حال قلوبهم المملوءة جهالة بهذا الوجود وبهذه النفوس . وبهذا انتهى الكلام على الفصل الأوّل فى حدائق النفس وبساتينها .

الفصل الثانى فى حدائق العلوم التى تفيأ الناس ظلالها

وعاشوا فى أكنافها من علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات

لقد ذكرنا فى الفصل السابق الجذر والتربيع ، وأبنا أسرارا بديعة جميلة . وحكما بالغة ، وذلك فى المثلثات القائمات الزوايا ، وكيف كان عدد ١ و٢ و٣ الخ بواسطة الجذر والتربيع أمكن استخراج آلاف آلاف المثلثات القائمات الزوايا ذوات الأوتار والقواعد والارتفاعات اللاتى لهنّ من المناسبات والاتفاقات والعجائب مالا حصر له . هذا هو الذى رأيناه فى خفايا نفوسنا (كما قال تعالى : وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فهاهو ذا الذى فهمته نفوسنا واشتملت عليه سواء أكانت جاهلة به أم عالمته طهر فى نفس الطبيعة ، ألا تذكر بعض ماتقدّم من الجذر والتربيع فى هذا التفسير ؟ فقال نعم قد تقدّم فى مواضع كثيرة مثل ماجاء فى أوّل [آل عمران] ، ذلك ان سرعة الأجسام الساقطة الى بئر مثلا من فوق جبل ، أو ارتفاع ما ، أو من فوق الأرض نفسها تكون بحساب ١٦ قدما مضروبة فى ١ فى الثانية الأولى ، وفى ٣ للثانية الثانية ، وفى ٥ للثانية الثالثة ، وفى ٧ للثانية الرابعة ﴿وبعبارة أخرى﴾ ١٦ فى الأعداد الوترية ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالى ، واذا ضربنا عدد الثوانى مربعا فى ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذى سقطه الجسم ، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ فى ١٦ والثلاثة ٩ فى ١٦ والأربعة ١٦ فى ١٦ ﴿وبعبارة أخرى﴾ ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ اذا ضرب كل منها فى ١٦ كان الحاصل هو الذى سقطه الحجر فى تلك الثانية فقلت : أحسنت أيها الأخ متذكر تمام التذكر وهناك زيادة إيضاح ، ولكن الذى ذكرته أيها الأخ كاف فيما نحن بصدده ، ذلك أنا نريد فى هذا الفصل أن نبين أن المربعات (التى تقدّمت فى الفصل السابق وجذورها وهى فى نفوسنا ماهى إلا أعداد مجرّدة لها نظام عجيب من تربيع وجذر ولهما نتائج فى حساب المثلثات العقلية المطلقة المحيية) قد ظهرت آثارها فى الطبيعة حولنا مما يدل على أن نفوسنا بينها وبين العالم حولنا مناسبة وكلما ردنا دراسة ردنا علما بنفوسنا ، وكنا أقرب إلى ربنا ، وهل يكون قرب إلا بالعلم ؟ وهل العبادة إلا فتح باب للعلم ، وهل الصيام والحج والزكاة إلا مساعدات على خلوص النفس من أوحال هذه الدنيا فتلحق بالعالم المجرّد عن هذه المادّة فتقرب من ربها ، وهل ترى أعجب من أن التربيع والجذر الكامنين فى نفوسنا قد ظهرا فى الطبيعة التى صنعها الله عزّوجل بيده بحسابه المشكل لما فى نفوسنا « ولله المثل الأعلى » الذى يدرسه نزيد حبا له وعشقا وغراما

ثم قلت له : هذا هو الجذر والتربيع فى حركات الأحجار الساقطات ، فهل تذكر جذرا وتربيعا فى غير ذلك ؟ قال نعم قد تقدّم فى ﴿سورة الرعد﴾ عند قوله تعالى : « وكل شىء عنده بمقدار » فهناك الجذر والتربيع فى سرعة الضوء والصوت والحرارة والجاذبية ، ذلك أن شدة الصوت تقلّ بمقدار مايزيد مربع البعد عن الجسم الصائت كما إذا أتى بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد ٤٠ ذراعا ووضعنا جرسا آخر بحجمها على بعد ٢٠ ذراعا ، فإنا نحس بصوت الأربعة كصوت الواحد ، لأن بعدها كبعده مرّتين و٢ × ٢ = ٤ فيكون كل واحد من الأربعة صوته كصوت الجرس القريب . وقول مثل ذلك

فى الحرارة ، وفى النور ، وفى الجاذبية فهنّ سواء ، والتمثيل والايضاح تقدّماهناك ، فهل أعيده ؟ فقلت . كلا . لأنا هنا نريد التذكير بما مضى ومن أراد فليراجع مانقدّم . ثم قلت : هل تتذكر فيما مضى عجائب المتوالية العددية والهندسية المتقدّمة فى الفصل السابق حتى يكون التطبيق عليها مما سبق فى هذا التفسير ؟ فقال نعم أتذكر ماسرّ فى [سورة العنكبوت] عند آية : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » فان هناك جدول العناصر البسيطة التى كشفها العلماء ، وقد وضعت منظمة بحيث رأينا أن الايدروجين هو الوحدة التى يقاس عليها ، وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا ، وهكذا عناصر أخرى عدّوها مع ضم الايدروجين إليها ٨ وثامنها الاكسوجين وهو له عدد ١٦ فكان لكل واحد اثنان فى الجملة وان اختلف بعض أفرادها وتجد أن ذرّة الكبريت ٣٢ وكسر وهى تمام الثمانية الثانية ، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبى قد يختلف ، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التى يسمونها الطوائف فنجد أن الليثيوم فى الصف الرأسى ٦٫٩٤ والصوديوم تحته ٢٣ والفرق بينهما ١٦ ثم ان البوتاسيوم تحته ٣٩٫١ فالفرق بينهما ١٦ فهناك ثبت أن ترتيب زيادة العناصر ٢ ـ ٢ ـ ٢ عند وزنها بمعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد ٢ ـ ٢ ـ ٢ إلى آخرها ثم وجد تناسب بينها فى الخطوط الرأسية ، إذن هى تفاوتت ٢ ـ ٢ ـ ٢ أفقيا وتفاوتت رأسيا بمضاعف ٢ وهو ١٦ وهو العدد المسمى بروج الروج الذى هو عدد الشطرنج المعروف ، فلما أجاب بذلك قلت له : لقد كنت قوىّ الذاكرة ، فلنكتف بهذا حتى اذا أراد أحد الأذكياء توسعا فى ذلك ورجع إلى نفس الجدول هناك رأى تفصيله . ثم قلت : وهل تذكر أثرا لأمثال هذا النظام فى علم النبات ؟ فقال نعم قد تقدّم فى [سورة البقرة] عند آية الطير وابراهيم أن العناصر تدخل فى نظام النبات بحساب ، فاذا شئت بسطت القول فيه فهو هناك مفصل . فقلت . كلا . فمن أراده فليراجعه هناك وفى أىّ سورة أخرى غير البقرة . قال فى سور كثيرة ومنها سورة الحجر ، فان هناك بين الأوراق مناسبة عجيبة جدّا لأنا نجد شجرة التفاح المرسومة هناك أوراقها ذوات دوائر منظمة تامة النظام ، وكل دائرة تحوى دائرتين صغريين ، وتشتمل على خمس ورقات متكون هكذا ٢/٣ فالرقم الأعلى يشعر بالشكلين الحلزونيين ، والرقم الأسفل يشعر بعدد الأوراق ، وهناك نباتات أخرى فيها نسبة بين أوراقها وأشكالها الحلزونية ، وهناك نظمت هذه النسب وجعلت بهيئة جيلة ، ولم نظر فيه العلماء وجدوا بين هذه النسب بدائع حسابية جيلة ، فكما كانت العناصر بينها نسب هندسية وحسابية ، هكذا جميع أوراق الشجر فى مشارق الأرض ومغاربها بين بسط كل منها مع مقامه مناسبات لبسط باقى النبات ومقامه . فقلت : وهذا محل يحير هذا الانسان الجهول الذى لم يدرس نفسه حتى يعلم أن بين أفراده فى جميع أمم نسبا حسابية . وهذه النسب جعلت للانتفاع المزايا الانسانية المحكمة لا القضاء عليها ولا محاربتها (الشكل ٢٧ و٢٨) الآتيين فى الصفحة التالية .

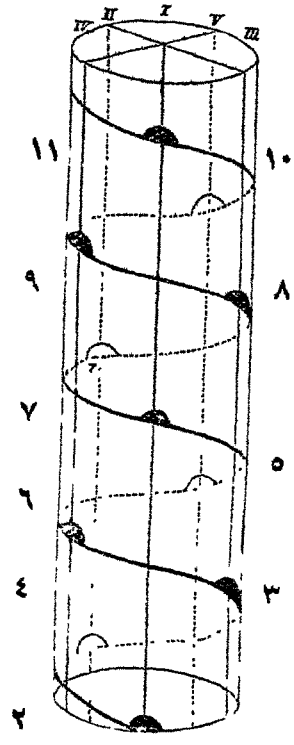

(شكل ٢٧)

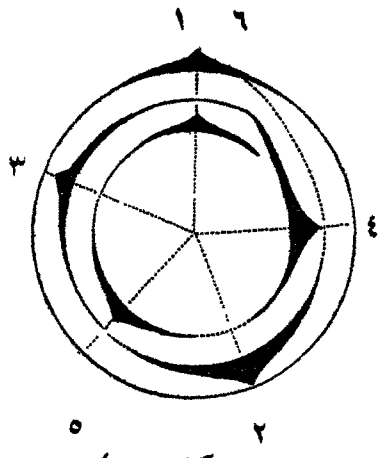

(شكل ٢٨)

قد جاء فى المجلد الثامن من هذا التفسير مانصه : « هاتان الصورتان المرسومتان أولاهما صورة الغصن التفاح أوالبلوط وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول الغصن ، فالورقة الأولى المعنون عنها بعدد واحد تتلوها خمس قد صنعت دورتين حلزونيتين كما قدمنا ، والخامسة منها التى هى السادسة فى العدد تراها أمامك فى الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهى تمام الدائرة الأولى وتليها الدائرة الثانية ، ونهايتها ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا ، هذا واضح فى الشكل الأوّل ، ولكن لما كان هذا لايظهر منه أن كل خمس ورقات دائرة تامّة وجب رسم الشكل الثانى الذى يمثل الدائرة التامّة من هذه الدوائر بورقاتها الخمس بوضعها الأفقى لتظهر للناس فيعلمون أن هذه الأوراق الموضوعة وضعا رأسيا هى دائرة تامّة منظمة مقسمة خمسة أقسام بخمس ورقات كل قسم منها ٧٢ درجة تقسيما عادلا » .

فانظر فى الشكل الثانى (شكل ٢٨) فانك تجد الورقات الخمس التى صنعت دورتين حلزونيتين قدظهرت واضحة جليـة ، فالورقة الأولى عدد ١ والثانية عدد ٢ والثالثة عدد ٣ وهكذا إلى السادسة التى جاءت فى مقابلة الأولى على خط مستقيم ، ومن أراد الزيادة فليقرأ هذا الموضوع هناك اه

موازنة حساب الأجرام السماوية بالكسر الدائر

ثم قلت : فهل تذكر مما تقدّم فى هذا التفسير نظيرا للكسر الدائر ؟ فقال نعم تقدّم فى بعض السور كثير منه ولكنى لا أتذكره . فقلت اننا كما نقول ان الكسر الاعتيادى $\frac{1}{7}$ اذا حوّلناه إلى كسر اعشارى يصير مركبا من ستة أعداد تتكرّر بلانهاية هكذا نقول فى حساب الكواكب بعد أن تعرف عدد أيام السيارات مثلا لطارد :

عدد الأيام		عدد الأيام	
عطارد	٨٨	المشترى	٤٣٣٣
الزهرا	٢٢٥	زحل	١٠٧٥٩
الأرض	٣٦٥	أورانوس	٣٠٦٨٧
المريخ	٦٨٧	نبتون	٦٠١٢٧

تذكرة

أعداد أيام السيارات التى حصل فيها جبر للكسر

لتسهيل الموازنة بين الكسر الاعشارى السابق و بين حساب الكواكب ، فاذا قلنا ان الكسر $\frac{1}{7}$ يساوى ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ر٠ وهكذا تكرّر هذه الأرقام الستة بلانهاية وهى ١-٤-٢-٩-٥-٧ هكذا نقول عطارد يدور إلى الأبد على مقتضى هذه الأعداد ٨٨ ٨٨ ٨٨ وهكذا إلى مالانهاية له ، ونقول : الأرض تسير على هذا النمط ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ الى مالانهاية له ، وأورانوس يدور على هذا الحساب وهو ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ :

اللهم انك أنت الحكيم الجليل العليم ، أنت أبدعت الجمال والحكمة ، وأريتنا الكسر الدائر ظاهرا نظيره فى سير الكواكب ، وفى تركيب كل مركب ، فهو فى الحركات وفى نظام العناصر ، فياليت شعرى هل كانت هذه الدورات الفلكية نتيجة تقسيم الواحد الصحيح إلى أجزائه ، أم ماذا كان ؟ وكيف كان الكسر $\frac{1}{7}$ تكررت فيه ٦ أرقام من الأعداد البسيطة ، وأورانوس تكرّر فيه ٤ منها ، ونبتون كذلك ، وهكذا المشترى وزحل وفى عطارد ٢ وفى الزهرة والمريخ والأرض ٣ ، فيظهر لى أن العوالم أجمعها كأنها وحدة ، وهذه الوحدة تتجزأ ، دائما وتتبع طريقا مرسوما لا تتحوّل عنه كما لم يتحوّل الكسر الدائر عن منهجه ، واذا كان الكسر المذكور لا تنتهى أدواره ، هكذا هذه الدرارى لا تنتهى أدوارها انتهاء معلوما لنا بل علم الانتهاء عند خالقها ومدبرها ، وبهذا تمّ الكلام على الفصل الثانى ، وهو تطبيق ماظهر فى العوالم من الحساب الموافق لما فى نفوسنا جذرا وتربيعا وكسرا دائرا ومتواليات هندسية وحسابية وغيرها .

الفصل الثالث

فى أن الأمم وان استظلت بظلال تلك العلوم فى حياتها لم تجن ثمراتها فى سياساتها ، ولم تتناول القطوف الدانية ، من العصون الوارفة ، فى تلك الأشجار الباسقة ، بل هم لا يزالون بنظام أنفسهم فوق الأرض جاهلين

ألم تر أيها الصديق أن هذا الانسان رأى الثعلب يصيد فقلده ، والعنكبوت شبكة للصيد فقلده ، ولبعض السمك منشارا وبلطة فقلده ، وللسرطان درعا فقلده ، وأخذ أحقاق النشوق عن [أم الخلول] ، وحرث الأرض عن الخنزير ، والتباعد عن الروائح الكريهة من الهرّة ، وتعاطى المسهلات عن الكلب . وتجنيد الجنود عن النمل ، والمشاورة عن المقنق ، والحذر عن الغراب ، واتخاذ الجساء عن القنافذ ، والخيلاء عن النمر ، والهندسة عن النحل ، وعمل الصقل عن الحلد [بفتح الحاء واللام] ، وأخذ الكهرباء عن السمك الرعاد ، والغناء عن الطيور ، وبناء الأقنية عن بعض الثيران ، والجراحة فى البنية والبجرة عن كلب الماء ، وصناعة الورق عن الزنابير ، والغزل عن دود القز ، والمسح عن دود الربيع ، وحياكة البديعة الدقيقة عن بعض الطيور ، وهكذا الخياطة والكسح ليلا وما إلى ذلك .

كل ذلك وأكثر منه تقدم فى [سورة طه] فكل مايصنعه الانسان اليوم لرقى حياته تعلمه من الحيوان ونعم مافعل ، ولكنه لايزال فى سياسته طفلا غرا جاهلا أبله ، ذلك أنه استعمل عقله فى درس هذا الوجود ، وابتدأ معارفه بالعلوم الرياضية ، والعلوم الرياضية هدته إلى استعمال العوالم التى حوله ، فهاهوذا الانسان شرقيه وغربيه أدرك الجذر والتربيع المشروح آنفا ورآهما طاهرين واضحين فى الطبيعة كما تقدم فى بعض الفصول السابقة ، وأن الضوء والجاذبية والكهرباء والصوت كلها انتشرت حولها بمقتضى هذين القانونين ، وهكذا رأى هذا الانسان أن ١ ٢ ٣ الخ بجذرها وتربيعها وأعمال حسابية أخرى نتجت منها مثلثات لاعدد لها ، منظمة الحساب ، قائمة الزوايا كما تقدم ، فاستعمل ذلك كله ، ورأى الكسر الدائر المشروح فيما تقدم فوجد له نظيرا فى المادة وهو أولا أنها لم تعرف لها نهاية فى جميع أقطارها علوا وسفلا ويمينا وشمالا ، ولافى زمانها أزلا وأبدا ، ولا فى عظمتها وبعدها المكانى ، ولافى أجزائها عند تحليلها ، فكل هذه لم يعرف لها الانسان نهاية كما لم يكن للكسر الدائر نهاية ، وقد تقدم هذا كله ، وأعداده هى المترتب عليه مايأتى ، وهوالمقصود من هذه المقالات كلها .

الانسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة

هذا الانسان درس ذلك كله مدفوعا بعامل الحاجة المقومة لهيكله ، الحافظة لحياته ، ولكنه إلى الآن لم يتفرغ لدراسة نظامه السياسى ، ذلك لأن النظام السياسى كمال ونظام الحياة مقدمة له ، والمقدمات عادة تصنع قبل النتائج .

اذا كان الانسان قدر على استكمال نظام حياته واستعان عليها بالرياضيات التى تعلقت بحجم العوالم المحيطة به من كل جانب فأحرى به الآن أن يستكمل السياسة بالعلوم الرياضية أيضا ، مثلا الجداول المقدمة المسماة بالأوفاق فانظر فيها أليس المربع الذى فيه عدد ١ والذى فيه عدد ٢ وهكذا إلى نهاية الجدول كل منها فى مرتبة لايسد بها غيره ، وله صلة بجميع الأعداد ، وفى الوسط هناك عدد هو أكبرها ، فتأمل هناك تجد نظاما حسابيا بديعا أشبه شىء بنظام الجسم الانسانى والحيوانى ، فكأن كل عدد فى الوفق لايغنى عنه سواه ويتوقف عليه جميع ماسواه : هكذا كل عضو فى الجسم لايغنى عنه سواه ويتوقف عليه ماسواه ، ولونطقت تلك الأعضاء أو تلك الأعداد لقالت إن المحبة بيننا تامة لشدة حاجة بعضنا إلى بعض ، واذا كانت العناصر المذكورة فى [سورة العنكبوت] المشار إليها آنفا بينها نسب هندسية وحسابية ، وهكذا أوراق النبات المرسومة المحسوبة فى [سورة الحجر] .

أقول : اذا كانت هذه كلها بينها نسب فليس من المعقول أن تكون عقول النوع الانسانى وحدها هى المجردة من الحساب ولنظام فكنت ثبوتا لاشك فيه أن بنى آدم يجهلون أنفسهم حقا ثقيلا ولابد من دراستها حتى يعرفوا استعداد كل أمة وكل قبيل وكل طائفة ، وتوضع كل أمة وكل فرد فى مرتبته التى فطر عليها ، وهذا آت لاشك فيه ، والسعيد لذلك قد شرحته فى كتابى [أين الانسان] وهذا يتضمن معنى الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها وهى : « وفى الأرض آيات للموقنين » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ١٢ مايو سنة ١٩٣٢ م

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

اعلم أيها الذكى أن هذه الآية الشريفة تتضمن لرجة فى العلم تستدعى ذكر كل ماشملته الرجة ، وليس لأحد علم بكل شىء فى هذا الكون حتى يحيط بها ، ولا يتقدر هذا العلم إلا

وبهجة لأذكياء المسلمين ، ولكن لابدّ من أن نذكر هنا [ثلاث شذرات جيلات] تبصرة وذكرى ورحمة للذاكرين ، وتلك الشذرات لاتختص بعلم تشريح البدن الذى هوالمهد لعلم النفس ، ولابعلم الطب الذى به اصلاح البدن ، ولابعلم النفس الذى هو المقصود بالذات ، بل يعمّ هذه الثلاثة .

الشذرة الأولى فى كريات الدم الحمراء

جاء فى جريدة الاهرام أوّل يناير سنة ١٩٣٢ م تحت هذا العنوان مانصه : « نشرت صحيفة ألمانية خلاصة إحصاء وضعه الاستاذ [كيزرلنغ] عن عدد الكريات الحمراء فى دم الانسان ، ففى الألتار الخمسة (وهى مقدار مافى جسم الانسان العادى من الدم) من الدم ٢٥ تريليون كرية حمراء ، واذا وضعت تلك الكريات الواحدة إلى جنب الأخرى ألفت خطا طوله ١٨٧٫٠٠٠ كيلومتر ، ويقتضى عدّها ثمانين ألف سنة بلا انقطاع اذا عدّت عشر كريات فى الثانية ، واذا [1] وضعت الكرية الواحدة فوق الأخرى بلغ ارتفاعها ٦٢ ألف متر : أى ما يبلغ مرّة ونصف من محيط الأرض ، وذلك يساوى مسافة يقطعها قطار الاكسبريس فى مائة يوم اذا كان يقطع سبعين كيلومترا فى الساعة ، واذا وضعت الكريات الحمراء بعضها إلى جنب بعض غطت سطحا تبلغ مساحته ١٤٠٠ متر مربع » انتهت الشذرة الأولى .

الشذرة الثانية

فى بعض المنافع الطبية التى تقدّم فى هذا الكتاب كثير منها تغنى أولى الألباب عن الطبيب غالبا كما جرّبته ولكن الذى ذكرته فى طب الأسنان كان يعوزه ماهو أكمل فيه لأنه تقدّم فى هذا التفسير أن الأسنان عليها مدار أكثر الصحة فى الحياة ، وقلنا هناك ان الأمة الألمانية وغيرها لاتدع مريضا إلا كتبت قبل الشروع فى مداواته عن صحة الأسنان ، حتى داوتها كان ذلك خطوة فى صحة المريض ، فهاك ماقاله الدكتور محمد على عثمان طبيب الأسنان المعروف بالقاهرة خريج كلية الطب الملكية المصرية ، وهذا نصه : ـ

وجوب المحافظة على الأسنان

الأسنان هى أجسام صلبة تشبه العظام ، موضوعة فى مدخل القناة الهضمية ، ومثبتة فى قطعتين من العظم يقال لهما الفكان ، وظيفتها قضم ومضغ الطعام وتهيئته حتى يسهل على المعدة هضمه ، فطبيعى أن نظافة الطعام المعدّ للهضم ، وخلوّه من الميكروبات تتوقف على نظافة الأسنان وخلوّها من المواد المتعفنة ، فاذا كانت الأسنان غير نظيفة فعند المضغ يختلط الطعام بما عليها من الأوساخ والمواد العفنة ، ويدخل المعدة فيسبب أمراض الامعاء وعسر الهضم ، وما إليها من أمراض القناة الهضمية ، وحرىّ بل ومحتم أن يمتص الدم جزءا من هذه المواد المعدية فيسبب كثيرا من الأمراض منها بل وأظهرها أمراض المفاصل وأمراض العين وغيرها ، فمن ذلك نرى أن العناية بنظافة الأسنان هى أساس الصحة .

تنظيف الأسنان

سواء أكانت بالسواك أو المرحون [الفرشة] فكلها تؤدّى الغرض اذا استعملت بالطريقة الصحيحة . الطريقة الشائعة فى استعمال السواك والمرحون هى تنظيف الأسنان بالادة استعمالا وحمل تحريك الادة فى اتجاه مضادّ للاتجاه الطولى للأسنان ، هذه الطريقة خطأ ، فبينما نستعمل هذه الطريقة نضف مطهر من الأسنان ، فهى فى الوقت نفسه تدفع الفضلات الطعام بين الأسنان فتتحمر وتكون مرة يتجمع

(١) فى هذا خطأ وصوابه ولكن نقله بالحرف الخ

حولها الأوساخ فتتكون المواد الجيرية على الأسنان وتظهر كأنها طبقة منها ، وهذه الطبقة الجيرية هى الأساس الأكبر فى كل أمراض اللثة وتسويس الأسنان ، واستعمال هذه الطريقة يسبب تآكل اللثة شيئا فشيئا حتى تتعرى الأسنان وتبتدئ تتخلخل .

الطريقة الصحيحة

هى بتحريك الأداة فى اتجاه واحد مواز للاتجاه الطولى للأسنان بمعنى أنه عند تنظيف أسنان الفك الأسفل توضع الاداة عند ابتداء اللثة وتحرك الأداة إلى أعلى ، ويكون التحريك دائما من أسفل إلى أعلى ، فبذلك تخرج كل الفضلات التى بين الأسنان ، أما فى أسنان الفك الأعلى فيكون التحريك من أعلى إلى أسفل ، ويجب عمل هذه العملية على كل الأسنان (انظر شكل ٢٩)

(شكل ٢٩ ـ صورة تبين طريقة تنظيف الأسنان السفلى . اتجاه الفرجون من أسفل إلى أعلى)

بعد الانتهاء من تنظيف الأسنان يجب تدليك اللثة بالأصبع حتى تصير اللثة ذات ملمس ناعم غير لزج فهذا التدليك يفيد :

أولا : فى أنه يزيل الطبقة الرفيعة من الطعام التى قد تكون على اللثة .

ثانيا : تجذب جزءا كبيرا من الدم الذى إلى هذه الجهة فتقويها .

[ملاحظة] يجب تدليك اللثة بعد كل أكل ، بل وكلما أمكن الانسان فى أى لحظة وقت غسيل الفم . أما عملية تنظيف الأسنان فيجب أن تكرر مرتين فى اليوم على الأقل [الأولى] قبل النوم مباشرة ، لأن الانسان عند ما ينام يكون فمه دائما مقفلا فلا يمر فيه إلا هواء الزفير المملوء بثانى اكسيد الكربون الذى يساعد على سرعة عملية التخمير مع بقايا الطعام ان كانت موجودة فى الفم [والثانية] عند القيام من النوم ، وذلك أن الانسان فى مدة النوم التى تتراوح بين ٦ — ٨ ساعات فيها لا يتجدد لعابه فيكون غير مستعد لأن يؤدى وظيفته على الوجه الأكمل كما ان طعم الفم عند الصباح لا يكون مقبولا .

عدد الأسنان عند الرجل والمرأة ٣٢ سنا ، منها ثمانية قواطع ، وأربعة أنياب ، وثمانية أضراس صغيرة ، واثنتا عشرة طواحن . وتتركب السن من تاج وهو الجزء الظاهر فى الفم ، وجذر وهو الجزء المثبت فى

الفك ومغطى باللثة ، و بين التاج والجذر طبقة يقال لها [عنق السن] ، وهى تكون الحدّ الفاصل بين الجذر والتاج ، وفى الحالة الطبيعية تكون [عنق السن] مغطاة باللثة . وتتكوّن الأسنان من : —

[ميناء] : وهى مادّة صلبة جدا ، بل أصلب مادّة فى جسم الانسان ، وهى تغطى التاج فقط .

[سيمنت] : وهى طبقة تشابه العظم العلوى من جسم الأسنان فى التركيب وتغطى الجذر .

[العظم] : وهى طبقة سميكة يتكوّن منها معظم جسم السن ، وتكون مغطاة بالميناء والسيمنت ، وتمتدّ من الداخل إلى اللب .

[اللب] وهو مركز الحياة فى السن ، وهو عبارة عن مجموعة شرايين وأوردة وعروق ، ومكانها فى تجويف داخل عظم السن ، ومحتويات اللب تتصل بالدائرة الدموية العامّة فى جسم الانسان ، ومن هذه المحتويات أيضا تتفرّع فروع دقيقة جدا تتخلل عظم السن والسيمنت ، وقد تمتدّ إلى جزء فى الميناء . ويتصل السن بعظم الفك بطبقة ليفية رفيعة تحيط جذور الأسنان ، ويمرّ فى هذه الطبقة بعض الشرايين والأوردة والعروق التى توصل الفروع المتفرّعة من اللب إلى الفروع الموجودة فى عظم الفك .

من ذلك ترى أن الأسنان عبارة عن أجسام حية ، لا كما يظنّ البعض أنها أجسام ميتة لاحياة فيها .

جذور الأسنان

كل القواطع والأنياب العليا والسفلى لها جذر واحد .

الأضراس الصغيرة كلها أيضا لها جذر واحد ماعدا الضرسين الصغيرين الأوّلين فى الفك الأعلى ، فقد يكون لهما جذران .

الأضراس العليا كلها لها ثلاثة جذور .

الأضراس السفلى كلها لها جذران فقط .

هذا التقسيم هو الشائع ، ولكن قد تشذ بعض الأسنان فتخالف المألوف .

تسويس الأسنان

يتكوّن تسويس الأسنان من : أن الانسان يترك بعض فضلات الطعام فى الفم فتتخمر وتفرز أحماضا تؤثر على مادّة الأسنان فتذيبها ، وبذلك تتكوّن فتحة فى الأسنان قابلة لأن تمتلئ ببقايا الطعام عند ما يكون التسويس واصلا للعظم فقط قد يشعر الانسان بآلام عند شرب الماء البارد ، أو الساخن ، أومع استعمال كثير من التوابل ، أوعند الأكل ، وقد لايشعر الانسان بآلام قط ، واذا ترك هذا التسويس بدون علاج يمتدّ إلى اللب فيسبب آلاما شديدة متقطعه غير محتملة ، وتزيد الآلام عند ماينام الانسان أفقيا وتكون حادّة جدا عند الأكل أو الشرب .

عند ما يكون التسويس فى الأسطح الجانبية للأسنان وهى الأسطح التى ليس عليها ضغط قد لايشعر الانسان بأىّ آلام ، وقد يصل التسويس إلى اللب بدون أن يدرك المريض ، ففى هذه الحالة قد يموت اللب ويبقى متعفنا يسبب خراجا .

أمراض الطبقة الليفية

قد تكون أمراضا حادّة ، وفى هذه الحالة يكون الألم مستمرّ دقة ، وتكون اللثة حول الأسنان محمرة ومتورّمة ، وتتألم لأىّ ضغط ، والأسنان أيضا تتألم عند الأكل ، أو مجرّد الضغط ، وتكون فى الغالب مخلخلة

وفى هذه الحالة يتكوّن فى الغالب خراجا حول السن المريض ، والأمراض المزمنة لهذه الطبقة تكون بتآكل اللثة مع هذه الطبقة ، وسببها يكون من ضغط المادّة الجيرية التى تتكوّن على الأسنان ، وقد تكون من أسباب أخرى كثيرة لايتسع المقام لذكرها .

أمراض اللثة

[التهاب فى اللثة] : وفى هذه الحالة تدمى اللثة من أقلّ لمس ، وسببها الأوساخ والموادّ الجيرية التى تتكوّن على الأسنان وعلاجها يكون بإزالة هذه الموادّ .

[تضخم اللثة] : قد تظهر اللثة متورّمة ، وتدمى لأقلّ لمس ، وسببها كالمرض السابق وغيرها من أمراض أخرى ، وأغلب أمراض اللثة تتقدم بدون أن يعيرها الانسان أدنى التفات فتسبب امتصاص العظم الذى حول الأسنان فتكوّن بذلك بين الأسنان وبين اللثة مسافة قابلة لتخزين فضلات الطعام فتتخمر فى هذه الجيوب ، فتجعل الفم ذا رائحة كريهة ، وعند ضغط اللثة تفرز صديدا ، وبعض من هذا الصديد يمتص فى الدم فيولد أمراضا كثيرة غير الأمراض التى تتولد من امتصاص هذا الصديد مع الطعام إلى المعدة والأمعاء .

من كل ماسبق نجد أن جميع الأمراض التى تتكوّن فى الفم نتيجتها وساخة الأسنان .

[ملاحظة] — إذا تكوّنت الموادّ الجيرية على الأسنان قد تترك سطحا خشنا ، فمن كثرة احتكاك اللسان بهذا السطح يتكوّن فيه قروح قد تسبب سرطانا . عند مايتقدم امتصاص العظم الذى حول الأسنان تجد الأسنان تتخلخل وتقع من زوال مايربطها بالفك . لايصح أن يعتبر كل تآكل فى العظم الذى حول الأسنان مرضا ، فان تقدّم السن يكون مصحوبا دائما بتآكل هذا العظم ، ففى حالة كبر السن لايصح أن يعتبر تعرية الأسنان مرضا إلا اذا كانت مصحوبة بعوارض أخرى .

تركيب الأسنان الصناعية

قد تسمم رأى معظم الناس بأن العلاج الوحيد للأسنان من أىّ مرض كان هو تغطيتها بغطاءات ذهبية .

ماعمل هذه الغطاءات الذهبية ؟

أولا : أنها تعزل السن المريض عن العوامل الخارجية فلايتأثر بالحرارة والبرودة وغيرهما .

ثانيا : فى الوقت نفسه يبقى المرض داخل الضرس فيخربه ، فبعد تركيب الغطاء الذهبى بمدّة وجيزة يبتدئ الضرس فى تسبب متاعب كثيرة ، وقد يكون علاجها شاقا جدّا على المريض والطبيب .

ثالثا : إن هذه الأغطية تثبت على الضرس بطبقة من الأسمنت ، وأن هذه الطبقة قابلة للذوبان فى اللعاب فتترك بذلك مسافة بين الضرس والغطاء يصعب تنظيفها فتتخمر فيها بقايا الطعام وتسبب بذلك أمراض اللثة ومايتتج عنها من الأمراض الوبيلة .

رابعا : قد يضغط الذهب على اللثة فيسبب للانسان اختلالا فى الأعصاب لايعرف لها سببا .

خامسا : إن صعوبة تنظيف الفضلات التى بين الذهب والسن يجعل رائحة الفم دائما كريهة .

من هذا ترى أضرار الغطاءات الذهبية المنتشرة فى كل أنحاء المعمورة ، والتى يجب أن نمتنع عنها بكل ما أوتينا من قوّة ، ولعلاج الأسنان يجب أن نبحث عن سبب المرض وتزيله ، فان كان الضرس به تسويس يجب أن نحشو الضرس حيدا بإزالة الأجزاء المريضة . وبعد ذلك نضع فى الضرس حشوا ليحل محل ماأزيل

من الضرس ، وبذلك تتفادى عن عمل الأغطية الذهبية . وان كان لايمكن إزالة المرض يجب خلع الضرس إصالة حتى لايسبب للانسان متاعب لاداعى لها .

كثير من الناس عند مايخلع له ضرس لايفكر مطلقا إلا فى تركيب بدله شيئا ثابتا ، أو بمعنى آخر تركيب [كبرى ذهبى] والكبرى هوعبارة عن غطاءين ذهبيين مثبتين على الضرسين اللذين حول الضرس المخلوع وبين هذين الغطاءين يوجد ضرس ذهبى ملحوم بهما ، وأظننا بحثنا سابقا أضرار الأغطية الذهبية ولاداعى لذكرها الآن ، إنما أحسن طريقة لوضع بدل الأضراس المخلوعة هو طريقة الأجهزة المتحركة التى يمكن اخراجها وتنظيفها كلما دعت الحالة فذلك يبقى الفم دائما حافظا لرونقه .

الأسنان اللبنية للأطفال

تبتدئ أسنان الأطفال فى الظهور من سن ٦ أشهر تقريبا . وتكمل فى سن ٣٠ شهرا وعددها ٢٠ وتقسيمها :

أربعة أسنان أمامية عليا ، ومثلها سفلى .

نابين أعلى ، ومثلهما اسفل .

أربعة أضراس عليا ومثلها سفلى .

أسنان الأطفال عرضة للأمراض بسرعة ، فتركيبها من مادة ليست من الصلابة الكافية بحيث تقاوم ماهى معرضة له من تخمر فضلات الطعام ، ومن الحلوى المغرمة بها الأطفال ، فعند مايشكو الطفل من أضراسه يجب عرضه على الطبيب مباشرة حتى يزيل سبب الألم ، و بعض الأضراس عند مايهمل علاجها تبقى فى الفك مدة زيادة عن المقررة لها ، فتسبب بذلك اعوجاج الأسنان الأخرى الثابتة التى ستحل محلها ، فيظهر لنا الشخص فى بعض الأحيان ذا بروز فى أسنانه الأمامية ، أوخلل فى ترتيب أضراسه . ويكون نتيجة ذلك سرعة تسرب مرض الأسنان .

واجب الأم نحو طفلها

يجب على الأم أن تمسح أسنان طفلها يوميا بقطعة مغموسة فى [البرتو الأبيض النقى] حتى تبقى أسنانه دائما نظيفة .

الاضطرابات التى تحدث للطفل فى وقت التسنين

عند التسنين تحدث جملة اضطرابات عند الطفل من الضغط الذى يحدث من السن على اللثة التى فوق منها :

(١) فقدان الشهوة عند الطفل فيرفض كل طعام يقدم له ، ولايقبل أن يرضع من ثدى أمه .

(٢) يحدث عند الطفل تشنجات وحركات عصبية .

(٣) ترتفع درجة حرارته وقد تصل إلى ١٠٤ فيشك أن عنده حمى .

(٤) لأرق المستمر .

(٥) يتقيأ كثيرا ، و يطرد البن الذى يعطى له .

(٦) يحصل عنده إسهال شديد .

(٧) بعض الأحيان لاستطيع الطفل أن يرى النور .

(٨) بعض الأحيان تحصل تشنجات عضلية وترتجع الرأس إلى الخلف ، ويشتكى الالتهاب السحائى [الحمى الشوكية] . فى الوقت نفسه يحدث التهاب عام فى لثة الطفل ، وفى بعض الأسنان

تحصل قروح صديدية فى فمه .

فى هذه الحالات يجب عرضه على الطبيب لعلاج مرض الطفل العام ، وفى الوقت نفسه يعرض أيضا على طبيب الأسنان ليعالج الالتهابات ، أو يفتح اللثة ، حتى يخف الاضطرابات عن الطفل .

هذا موضوع مقتضب عن حالة الأسنان وأمراضها يمكن به الانسان أن يعرف حالة أسنانه مؤقتا حتى يستشير أصحاب الرأى فى ذلك ، وماسق لايجب أن يتخذه الانسان قاعدة عامة تسن على كل حالة ، بل لكل حالة علاجها الخاص ، ولكن مماسبق يمكنه أن يكون رأيا مبدئيا عن أى حالة كانت ، وبذلك يستعد لأن يفهم مايقوله له الطبيب عند مايعرض عليه الحالة . والذى دعانى إلى كتابة تلك الكلمة الموجزة عن الاسنان وأمراضها أستاذنا الكبير فضيلة [الشيخ طنطاوى جوهرى] مؤلف هذا التفسير .

دكتور محمد على عثمان
جراح وحكيم أسنان
خريج كلية الطب الملكية المصرية

الشذرة الثالثة

مسامرة بينى وبين صديقى العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير

فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

وذلك فى يوم الجمعة ١٩ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٢ م بعد العصر

فى أمر النفس وعجائبها ، ومدار الحديث على ما يأتى :

(١) الحقول هى الكلية الأولى لعلم النفس وما حوله من العلوم .
(٢) الأزهر .
(٣) المدارس النظامية .
(٤) فلاسفة القدماء .
(٥) الفلاسفة المحدثون ونظم علم النفس عندهم مع العلوم الأخرى .
(٦) علم النفس فى اخوان الصفاء .
(٧) فى جمهورية أفلاطون من حيث قياس نظام النفس الواحدة على نظام الأمة .
(٨) فى علم التربية الحديث ، وأن علم النفس فيه أوسع نطاما بحيث يرجع إلى مبدأ الخليقة متبعا سلسلة الرقى الحيوانى والانسانى ، فكأن كل فرد فى حياته سلسلة منتظمة من العوالم كلها ، وهذا آخر ماوصل إليه العلم الآن ، وهذا بعض سر : وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون

قال محدثى : إنى اليوم أريد أن أحدثك فى هذه الآيات : « انهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

فهى ذه آيات انتظمت فيها أولا جوامع العبادات من صلاة واستغفار ، ثم تبعها العطف على الناس بالاحسان ، ثم الكلام على الآيات فى الأرض ، ثم النفس الانسانية ، ثم السماء ، ثم ختم هذا المبحث بهذا القسم ، ثم أقسم بنفس السموات والأرض الذى أحاطت بالنفس من كل جانب ، فقلت :

أيها الأخ الذكي : إن هذا النظام معلوم مما قررته فى مواضع كثيرة من هذا التفسير . فقال : ولكنى أريد قولا أوسع ، ودرسا أتم ، وايضاحا أوفى ، بحيث تسكن إليه نفس الحليم ، و يطمئن إليه قلب الحكيم . فقلت : أيها الأخ أحدثك عما زاولته فى ذلك مدة حياتى فى هذه الدنيا ، وذلك فى ثمانية فصول :

الفصل الأول علم النفس فى الحقول

رباه : أنت قد أشرق نورك ، وتجلى جمالك فى البر والبحر ، والعامر والقفر ، والجبل والسهل ، والنهر والحقل . ذلك أنى أيام الصبا وزمن الحيرة المطلقة لم يكن لى مدرسة إلا فى حقلنا الذى كنا نزاول الزراعة فيه (فى أرض الثمانية) بكفر عوض الله حجازى ، فسبحانك اللهم وسعدانك ، ماذا كانت دراستى ؟ دراستى فيها كانت راجعة إلى مافى الحقل من ذرة وقمح وقطن و برسيم ، وماحوله من ماء جار وطرق يطرقها المارون ثم مافوق الحقل من الهواء والسحاب والمطر ، والأضواء والنجوم ، والشمس والقمر ، والحر والبرد.

هذا هو الذى كنت أدرسه ، ولكننى كنت جاهلا جد جاهل ، أدرس ولاأدرى ماذا أدرس ، أنظر بعين حائرة ، وقلب خافق مضطرب ، ونفس وثابة إلى العلا ، فالنفس وامقة ، والشقة طويلة ، فأين المفر ؟ . هنالك حرت فى هذا الوجود الذى يرجع لثلاثة أمور : نفسى المضطربة ومافوقها وماتحتها ، فالوجود كله ثلاثة فى حقلنا .

هذه أيام حيرتى ، ولكنى كنت أستعين بالصبر والصلاة ، أصلى ليلا وأصوم نهارا ، وأضرع إلى صانع نفسى وأخاطبه وأنا أنظر إلى النجوم ليلا قائلا : يا ألله : قد ظهر لى أنك بر رحيم بهذه الطيور ، قد علمتها ووهبتها كل ماتحتاج إليه ، وأنا أريد المعرفة ولست أدرى من يعلمنى ، أفلاترى أيها الأخ أن ما اتفق لى فى ذلك يوافق أول هذه الآيات من حيث الاكباب على العبادة والالتجاء لصانع العالم ، وهذه مجرد مصادفة لأنى ماكنت أدرى من هذا شيئا . لأنى كنت أحفظ القرآن بلاعلم ولاعقل ولاهدى ولاكتاب منير .

ولكم كنت أسامر النجوم ليلا ، وأتفقد الشجر والزهر ، والثمر والحب ، وكل حشرة ودابة الخ فهذه كلها كنت أدرسها درسا غامضا ، أتلمس الحقيقة بين هذه المخلوقات . انتهى الفصل الأول .

فقال : قبل أن ننتقل للفصل الثانى أرجو أن تذكر لى قبل المباحث الأخرى لماذا ذكرت النفس بعد العبادات و بعد آيات الأرض ؟ فقلت : هذا الترتيب يظهر لك فى الفصول الآتية ، لأنك سترى أن الأمم قبلنا لم تجد لها مناصا من دراسة العوالم التى حولنا قبل دراسة أنفسنا ، لأن هذه العوالم مقدمات لخلق نفوسنا ، فدراستها يجب أن تكون مقدمة على دراسة النفس ، فهاهوذا أفلاطون فى الجمهورية يجعل النفس مقيسة على نظام الأمة ، وهاهم أولاء الفلاسفة المتقدمون وهومنهم يقولون : إن لها قوى ثلاثة سيأتى ايضاحها ، وهذه القوى نظامها كنظام النبات والحيوان وهى الشهوية والغضبية والعاقلة . فقال : قد اكتفيت بهذا الآن . فقلت :

الفصل الثانى : دراستى فى الجامع الأزهر

كنت أدرس فيه علوم اللسان من النحو والصرف وعلم الأحكام الفقهية ، و بعض المنطق والتوحيد ، وهوالذى حرك وجدانى للبحث ، لأن نظامه إذ ذاك لم يكن مثل نظامه اليوم ، فهواليوم أرقى مما كان عليه إذ ذاك ، وسيرداد إن شاء الله تعالى .

ولطالما كنت وأنا أحفظ فى [متن المنهج] وهوآخر كتاب لدراسة الفقه أنظر إلى السماء وأقول : يا ألله أنا أريد الحقائق ، وقد وضعت بيدك على ما فوق هذا ، وأراك أوصيت بحفظ هذا فى ثلاثة هذا التفسير فى كتبك

[التاج المرصع] الذى ترجم إلى القازانية ببلاد الروسيا ، والى الاوردية ببلاد الهند ، ونشر فى جميع بلاد الاسلام ، فليراجعه من أراد . انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث فى مدرسة دار العلوم

لما دخلت هذه المدرسة اعترانى الدهش مما رأيته فان العلوم الطبيعية من الضوء والحرارة والصوت ونحوها هى التى كنت أفكر فيها فى حقلنا وهكذا الحيوان والنبات ، ثم علم الفلك ، فكنت فى المدرسة مثلى فى الحقل أقرأ بشوق وتوق لتشبع النفس مما كانت تتوق إليه ، إذن الحقل كان لى مشوّقا ، أفلاترى أيها الأخ الذكىّ أنى على حقّ اذا قلت : إن أمم الاسلام يجب عليها أن لاتهمل أبناءها كما أهملت أنا فى الصغر وضاع زمان المراهقة فى حفظ القرآن بلاعقل ، وأن تبادر بتعليم الأطفال ما كنت أتعلمه وأنا فتى ، فليروهم جمال الأشجار والأزهار والأنهار والنجوم ، وليحببوهم فى ذلك ، فاذا انتظموا فى سلك الدراسة قالوا هذا الذى كنا ندرسه من قبل ، وهذه الطريقة هى المتبعة فى جميع بلاد الله شرقا وغربا الآن ، ولكن العلوم فى تلك المدرسة علوم جزئية فلابدّ من البحث فى :

الفصل الرابع فى الكلام على الفلاسفة القدماء

هنالك اشرأبت نفسى إلى أن أقف على آراء النوع الانسانى فى علم النفس وسوابقه ولواحقه بهيئة نظامية فان الحقل لاعلم فيه إلا المشوّقات ودراسة الدين بالطريقة القديمة دراسة جزئية ، و بعض الكتب والعلوم تريك النفوس ، ودراسة المدارس إيضاح لما أشكل علىّ فى الحقل

ولكى أريد أن أنظر النظام العام وآراء الأمم جميعا فيه حتى تطمئن نفسى وأقول انى لم أهملها فى التعليم فماذا وجدت ؟ وجدت أن محصل علوم الأمم القديمة فيما كنت أدرسه فى الحقل هكذا . نظروا فى مقادير المادّة من العدد والمقياس والحركات ، ومعنى هذا أنهم قبل أن يدرسوا نفوسهم اضطرّوا أن يدرسوا المادّة التى تتركب منها أجسامهم التى تسكنها نفوسهم ، ذلك لأن أجسامنا مركبات مما حولها فدراسة ماحول الأجسام الانسانية مقدّمة لدراستها ، ودراسة تلك الأجسام مقدّمات لدراسة النفوس ، ومنى درسنا نفوسنا انتقلنا إلى مايتج عنها من الاجتماع المدنى والمنزلى والتهذيب الخلقى ، فعندنا مادّة حولنا وأجسام لنا ونفوسنا ، ونتائج نفوسنا ، وقوّة قاهرة فوق الجميع ، ولكن هذه المادّة لاتصح دراستها إلا بمقدّمات وهى الأعراض القائمات بها ، وذلك مثل العدد والمقدار والحركات وهكذا فاذن ابتدءوا بعلم الرياضيات ثم الطبيعيات المختومة بعلم النفس ثم الالهيات ، وأحرزوا العلوم السياسية الثلاثة وهى : تهذيب النفس وتدبير المنزل وتدبير المدينة ، فأوّل العلوم عندهم علم الدولة [الارتماطيقى] تسعة أقسام مشروحة فى كتابنا [بهجة العلوم] فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية [تحت الطبع] . وثانيها الهندسة [الجومطريا] الذى يبحث عن النقطة والخط والسطح وهكذا ولها علوم تتفرّع عليها وصناعات تتبعها ، ولاجرم أنى فى الحقل كنت أفكر فى أعداد هذه الأشياء ، وفى الامتداد والطول والعرض وأشكال المخلوقات البديعة و بدائعها ، إذن هذان العلمان مبدؤهما كان فى الحقل من عدّ وامتداد . وثالثها علم الفلك [الاسطرونوميا] وفيه صعة البروج والمنازل رحساب الشمس والشهر وهكذا . ولاجرم أن هذا العلم هو الذى كنت أفكر فيه ليلا وأنا أنظر النجوم بلاعلم ولاهدى ، ويلحق بعلم الفلك علم الجغرافيا ، ورابع العلوم علم الموسيقى ، وعلم الموسيقى ليس شيئا سوى مقياس حركات الأصوات كما أن الزمن مقياس حركات الأفلاك ، فاسوا حركات الكواكب فقالوا علم الفلك . وقاسوا حركات الأصوات فقالوا علم الموسيقى ، وهذا العالم كله موسيقى ، وقد جعل الله لنا

دليلا على ذلك غناء الأطيار على الأشجار ، وحفيف الأوراق ، ونغمات الأشجار اذا هبت الأرواح وفاءت الأفياء . هذه هى الموسيقى التى وضعها الله وأنعم بها على العالمين ولكنّ أكثر الناس لجهلهم بها لا يطربون ، ويظنون أن الطبيعة لا طرب فيها لأنهم غافلون .

هذه هى العلوم الرياضية عند القدماء وهى ترجع إلى الأعداد والحركات والمقادير ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إن هذه لابدّ منها قبل دراسة المادّة المقدّمة على الجسم المقدّم على النفس المقصودة بالذات .

خامس العلوم علم المنطق الذى به ينتظم الفكر كما انتظم النطق بالنحو ، وبهذا انتهت العلوم الرياضية وما يقرب منها وهو المنطق .

سادس العلوم إلى ثالث عشرها هى العلوم الطبيعية ، وماهى العلوم الطبيعية ؟ هى التى كنت أجاهد وأنا فى الحقل لأعرف حقائق المادّة التى أزاول العمل فيها ، مثلا علم [سماع الكيان] وماهو سماع الكيان ؟ عبارة عن دراسة الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان ومايخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة ، وهو العلم السادس .

سابع العلوم « السماء والعالم » وهو عبارة عن شكل العالم العام ونظامه فى أفلاكه وكواكبه وطبقاته ولكن تكون الدراسة إجمالية . ولاجرم أنى فى الحقل كنت أبحث عن ذلك وهذه العوالم تحيط بى .

ثامن العلوم : يبحث فيه عن تكوّن المعدن والنبات والحيوان وماأشبه ذلك ، وهذه كلها كانت محل نظرى فى الحقل وفى دار العلوم ، وهذا يسمى [علم الكون والفساد] .

تاسع العلوم : هو الذى يبحث فيه عن حوادث الجوّ والبرد والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وقوس قزح والهالات ، ومنشأ السحب من البخار ، وغير ذلك من النور والظلمة ، وتصاريف الرياح ، والأنهار والبحار ، وما يكون من العيوم والضباب ، والطل والندى ، والشهب وذوات الأذناب ، وماشاكل ذلك ، وهذا العلم يسمى [الآثار العلوية] وهى التى كنت ألاحظها فى الحقل ولاأفهمها .

عاشر العلوم : وهو الذى يبحث فيه عما فى التراب والطين والأرض السبخة كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات ، أوفى قاع البحار كالدرّ والمرجان ، أوفى كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وهو [علم تكوين المعادن] .

حادى عشرها : [علم النبات] والبحث عن أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضارّه ، وماينبت منه على رؤوس الجبال ، وعلى شواطئ الأنهار ، وفى الآجام ، ومايغرس فى القرى والبساتين ، وما يكون منه تحت الماء ، وماينبت منه على وجه الماء ، ومايفسح على الشجر ، وعلى وجه الصخور وهكذا .

ثانى عشرها : علم الحيوان وعجائبه وطبائعه ، وأنه متصل بالنبات من أدناه ، مرتبط بالانسان من أعلاه .

ثالث عشرها : [علم الانسان] وفى هذا العلم يبحث عن أمرين : تركيب جسده وهو علم التشريح ، ومعرفة نفسه وما يلزمها وهى الحواس الخمس ومافيها من الحس المشترك ، والقوّة المخيلة والمفكرة والذاكرة وهكذا .

فترى من هذا أن علوم المادّة وأحوالها قد قدّمت على علم جسم الانسان ، لأنه لا يفهم إلا بعد فهمها ، وهذا هو السر فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فالقرآن قدّم الأرض ومباحثها وهى العلوم المتقدمة وهى اثنا عشر علما على علم النفس ، وهكذا الفلاسفة . فمن القرآن أشار بقوله : « وفى الأرض آيات للموقنين » إلى هذه العلوم الاثنى عشر ، وأتى بعدها بعلم النفس .

نرجع إذن إلى أقوال الفلاسفة القدماء ، فنقول : قد طعن فى كلام بعض من سبقنا ومن رشد على علم النفس فوجدنا أنهم يقولون بناء على ماوصل لهم من علم ليونان فى رأس ، وضع منها ماهو لفكر

فى وسطها ، ومنها ماهوللخيال فى مقدمها ، ومنها ماهوللتذكر فى مؤخرها ، وكانوا يقولون : انهم عرفوا ذلك بواسطة علماء الطب ، لأنهم لما رأوا أن مرضا يحلّ بجهة من هذه الجهات يختل ماهومنوط بذلك الجزء من الادراك كالتخيل والتفكر والتذكر .

قرأنا ذلك إجمالا غامضا وانتهى ذلك الدور ، ثم وجدناهم أيضا يقولون : إن للنفس قوّة شهوية وهى للنبات أقرب ، وقوّة غضبية وهى بالآساد والنمور من الحيوان أليق ، وقوّة عاقلة وهى إلى الملائكة أقرب ، فعليه نرى أن ماسنذكره فى علم التربية حديثا من جعلهم أن الطفل يمرّ على الأدوار السابقة للانسانية من مبدئها إلى آخر ما سيأتى إن هو إلا أشبه بتفصيل لما أجمله القدماء .

ثم إن القدماء يأتون بعد هذه العلوم بأبحاث عامّة ، وهذه الأبحاث العامّة يسمونها [العلم الإلهى] أو [الكلى] أو [العلم الأعلى] وذلك العلم الالهى أوالأعلى جعلوه أقساما :

(١) فمنها قسم سموه [الامور العامّة] مثل : ماهو الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والامكان والامتناع ونسب مابينها ومايخصها من حيث هى موجودات [مثال ذلك] أن يقولوا : إن الوحدة فى جسم الانسان ظاهرة ، فهو واحد من جهة لكنه كثير من جهات أخرى ، فله أعضاء وحواس وأجزاء لايعرف عددها ، وجواهر فردة الخ فههنا وحدة وههنا كثرة ، والعدد الذى لانهاية له واحد من جهة أنه عدد وكثير من جهة أفراده ، والعالم كله واحد كثير من جهات ، وهكذا من تلك المباحث .

(٢) ومنها قسم فى النظر فى مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدّماتها ، وهكذا المقولات العشرة المذكورة فى ثنايا هذا التفسير مشروحة كالكم والكيف الخ .

(٣) ومنها قسم للنظر فى إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفرّده بالربوبية واثبات صفاته ، وبيان أنها لاتوجب كثرة فى ذاته .

(٤) ومنها قسم للنظر فى إثبات الجواهر المجرّدة وهى العقول والنفوس والملائكة .

(٥) ومنها قسم للنظر فى أحوال النفس البشرية بعد الموت .

فهذه خمس علوم سموها [علم ما وراء الطبيعة] ولخصها ابن سينا فى كتاب الشفاء والاشارات ، فهذه بضمها إلى ماقبلها تبلغ العلوم ١٧ علما ١٣ فى الرياضيات والطبيعيات وخمسة فى الالهيات ، وهذه يسمونها العلوم العلمية ، وهى رياضية وطبيعية وعلوم كلية لاتختص بقسم من القسمين الأوّلين ، وهذه هى العلوم العلمية ويتبعها نتائجها ، وهى العلوم العملية ، وهى الخاصة بعمل الانسان وماقبلها كلها راجعة لعمل الله تعالى وهذه العلوم ثلاثة : علم الأخلاق الباحث عن القوى الدلاث المتقدّمة الشهوية والغضبية والعاقلة ، وعلم تدبير المنزل فى معرفة معاشرة الأهل والخدم الخ وسياسة المدينة ، وهوعلم السياسة المعروف ، وفى هذا العلم إجمال عام لسياسات الأمم .

فهذه عشرون علما ١٧ علمية وثلاثة عملية ، وهذه العلوم لها فروع كثيرة [مثال ذلك] علم الهندسة له فروع مثل علم المناظر ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم مراكز الأثقال ، وعلم المساحة ، وعلم انباط المياه ، وذلك لاحياء الأرضين ، وعلم جرّ الأثقال . وعلم الحكمت ، وهوعلم به يعرف إيجاد الآلات المقدّرة للزمن مثل هذه الساعات التى يحملها لدس اليوم ، ومثل الآلات الحربية .

فهذه فروع الهندسة ، وهذه صنعت صنعات تدرس فى مدارس خاصة . وترى أن علمى النبات والحيوان يتفرّع عليهما فروع كثيرة عن صناعتى الفلاحين والجزارين ترجعان إلى النبات والحيوان ، وعلى هذا فقس

فالعلوم المذكورة وفروعها عند القدماء بلغت نحو ٦٠ ولهذه الستين فروع بلغت مئات سجلها قدماؤنا فى كتبهم هذا ماوصل إليه علم القدماء ، ولكن نفسى التى تعلمت مبادئ هذه العلوم فى الحقل وخرجت منه فى شوق إلى العلم لاتقف عند كلام القدماء ، هنالك نظرت فى كلام المتأخرين فماذا رأيت ؟ رأيت مايأتى :

الفصل الخامس فى ذكر مارآه الأستاذ بيكون الانجليزى

انه قسم العلوم المذكورة إلى ثلاثة أقسام : [أوّلا] نظر إلى العلوم الاثنى عشر الأولى ومعها علم التشريح فقال هذه لا أسميها فلسفة ، وقال : كل علم منها له تاريخ فلنسمها هكذا : التاريخ الرياضى ، التاريخ الطبيعى كالحيوان والنبات الخ . ثم قال : فأما علم النفس ومعرفة نظام الطبيعة ومعرفة الله فهى التى أسميها فلسفة ، إذن الفلسفة الحديثة هكذا : تواريخ العلوم المتقدّمة على علم النفس ، ثم نظام الطبيعة ، ثم علم النفس .

إذن [بيكون الانجليزى] بهذا التقسيم الذى عليه مدار الدراسة فى كرتنا الأرضية الآن تقريبا هكذا العلوم التى كانت تسمى رياضية وطبيعية جعل مقدّمات للفلسفة ، وسميت بتواريخ لهذه العلوم وعليه الدراسة فى المدارس العامّة الآن ، والامور العامّة وهى العلوم الخمسة جعلها قسمين : قسم منها وهو الخاص بنظام الطبيعة سماه نظام الطبيعة ، والقسم المختص بالله فصله وحده وأخذ علم النفس أيضا فقال هكذا : [الله ، نظام الطبيعة ونفسى] وانما ذكر نظام الطبيعة لأن جزئياتها مشروحة قبل هذا العلم فى الذى سماه تواريخ العلوم .

فأما العلوم العملية الثلاثة فانه ضم إليها علم المنطق ، وقال : هكذا النفس تعقل المنطق ، إذن هذا العلم يتبع نفسى ، ثم إن نفسى تعرف الجمال ويعوزها التهذيب ونظام الأسرة ونظام المدينة فيقول : إن نفسى يتفرّع عليها علم الجمال بعد المنطق ، وعلم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم سياسة الأمة .

مبدأ التقسيم عند القدماء وعند المحدثين

نظر [بيكون] إلى تقسيم المتقدّمين فرأى أنهم يقولون هكذا : العلم الطبيعى يحتاج إلى المادّة فى ذهننا وفى الخارج ، والعلم الرياضى يحتاج إلى المادّة فى الخارج لافى أذهاننا لأننا نتصوّر العدد بدون التقيد بمادّة خاصة ، والعلم الالهى لايعوزه مادّة فى أذهاننا ولافى الخارج .

أقول : لما نظر هذا التقسيم . قال : ومالنا وللمادة فلنرجع التقسيم إلى نفوسنا ، إن نفوسنا فيها قوّة الخيال ، وقوّة الفكر ، وقوّة التذكر ، فهذه إليها ترجع جميع العلوم .

فأما القوّة المخيلة فاليها يرجع كل ما كان من قبيل الشعر والنقش والتصوير والموسيقى ، فهذه العلوم التى ترجع إلى التصوير والتخيل فانها ترجع إلى تلك القوّة .

وأما قوّة الذاكرة فلها جميع العلوم الرياضية والطبيعية ، وهى الثلاث عشرة المتقدّمة . وعلم التاريخ الأثرى والبشرى ، فهذه كلها تواريخ حفظت فى ذاكرة الانسان وعليه العمل اليوم كما تقدم ، فالتاريخ البشرى منه عام وخاص ، والتاريخ الأثرى هو ماجاء فى الكتب السماوية ، وهكذا التاريخ الطبيعى والرياضى الخ .

أما القوّة العاقلة فعلومها هى المختصة بالفلسفة : [الله ، ونظام الطبيعة ، ونفسى] ومن النفس تفرّع المنطق والجمال وما والاها كما شرحناه .

تبين من هذا أن النوع الانسانى اليوم رجع العلوم إلى النفس فن العلوم سرا ق وهى ١٣ علما . ومنها معرفة الله ونظام الطبيعة ، ومنها لواحق وهى علوم نظم الأمم [و بعبارة أخرى] ان نظم العلوم ودراسته مقدّم على علم النفس . ونظام الانسان مؤخر عن دراستها ، إذن دراسة مدارس الأمم الآن تجرى على نظام هذه الآيات ، فقوله : « وفى الأرض آيات للموقنين يدخل فيه علوم نظم الطبيعة ومعرفة الله ،

وقوله : « وفى أنفسكم » الخ إليه يرجع علم النفس ، تلك النفس التى جعلت مبدأ لتقسيم تلك العلوم سوابقها ولواحقها ، إذن آيتنا التى نحن بصددها الآن يجب على المسلمين أن يفكروا فيها ، إذن نحن نستحق أن نعنف على جهلنا فيقول الله لنا : « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » وهذا التعنيف يخجل نفوس الأذكياء منا معاشر المسلمين فلندرس .

فقال صاحبى العالم : إن هذا البيان لجميل جدّ جميل ، ولكنى أريد أن أسألك سؤالا يجول فى خواطر أكثر الناس : هل هذه الآية يترتب عليها هذا كله ؟ أى انك تقرأ علوم الأمم كلها عليها ، وهل أذكياء المسلمين مكلفون بذلك ؟ فقلت : لم لا وما المانع ؟ ألست أناشهيدا على الناس ؟ فقال أنت أنت . فقلت : وأنت أيضا ، ألم تسمع الله يقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » فكيف نشهد على الناس ونحن لا نعقل علومهم ! فليقم الخواص بدراسة علوم الأمم ، وأهمها علم نفوسنا . فقال : إن علماء الاسلام لم يقولوا ماتقوله أنت فى هذا المقام . فقلت : ولكن القرآن يقول . فقال القرآن ؟ فقلت نعم . فقال : ماذا يقول فى هذا ؟ قلت : انه لم يقتصر على قوله : « لتكونوا شهداء على الناس » بل أوضحها فى آية أخرى وهى : « وماشهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » فهل نشهد على الأمم إلا بعد العلم بما نشهد به . فقال حسن جدّا ، فأرجو ايضاح علم النفس الآن . فقلت : ذلك فى :

الفصل السادس

فيما قاله [اخوان الصفاء]

إن كتاب [اخوان الصفاء] جاءت فيه العلوم موجزة ولكنها أوضح مما فى الكتب التى قبلها ، وقد جعل أكثر العلوم المذكورة فى خمسين رسالة ، وأكثرها ثمين وأقلها غثّ ، وفيها آراء يجب تعديلها أومحوها فلنذكر مافيها من حيث علم النفس ، وهذا الموجز سأنقله بنصه وفصه من نفس الكتاب ، ومؤلفه هوالذى لخصه فى قوله ، وهاك نصه :

الرسالة العاشرة فى الحاس والمحسوس

والغرض منها هوالبيان عن كيفية ادراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوّة الحاسة واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التى منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة الراجعة إليه بنقطة واحدة وهوأوّل منازل الروحانية ، إذ القوّة الحاسة المؤدّية إليه جسمانى بوجه وروحانى بوجه ، والحاسة المشتركة أعنى الداخلة روحانية محضة لأن حكم الجزء منها حكم الجميع وان كانت التجزئة لاتقع عليه بالحقيقة ، لأن تصوّرها الشىء بادراكها واتصالها إلى القوّة المتخيلة التى مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوّة المفكرة التى مجراها وسط الدماغ لتميزها وتخلصها بجولانها فيها وتعرف حقائقها ثم توصلها إلى القوّة الحافظة الذاكرة التى مجراها مؤخر الدماغ لتمسكها وتحفظها معتقدة أوغير معتقدة إلى وقت التذكار ، ثم تؤدّيها إلى القوّة الناطقة العاقلة التى هى ذات الانسان المدبرة للكل الباقية بالذات تنتزع جميع المعانى والصور ، ثم تصوّر تلك المعانى والصور لمنتزعة من مصوّراتها المترسمة فيها ، وهى القوّة الناطقة أيضا بوساطة الأولى ، فتلك الصورة هى لها كالموضوع وكالهيولى ، والقوّة المعبرة أيضا للنطق الخارج هى القوّة الناطقة أيضا على وجه ثان بواسطة الألسن ، فاذا همت الأولى باظهار شئ إلى خارج وهوالنطق الإلهى على حقيقة من صورة النفس تصوّرت النفس الناطقة إذ ذاك صورة واحدة لتجرّدهما عن الموادّ وتعرّيهما عن هيولى الجسمية فتأدّت إلى القوّة المحركة التى مجراها على اللسان لتعبر عنها بالألفاظ الدالة للمخاطبين على

المعانى التى تخرج من النفس إلى القوّة الصانعة التى مجراها اليدان لتخط بالأقلام على أوجه الألواح وصفحات الدفاتر و بطون الطوامير تلك الألفاظ وهى النطق الخارج والكلام الظاهر لتبقى العلوم بصورها الذاتية أعنى معانيها محفوظة من الأوّلين إلى الآخرين ، وخطابا من الحاضرين للغائبين ، إلى يوم يبعثون . انتهى ماأردته من كتاب « اخوان الصفاء » وبهذا تمّ الكلام على الفصل السادس والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع

فيما جاء فى جمهورية أفلاطون

نظر أفلاطون فى علم نظام الأمم فقال : « لاسبيل إلى نظام الدولة إلا بأن يكون فيها فلاحون وعمال وصناع وتجار الخ وهؤلاء أشبه بالقوّة الشهوية فى الانسان ، و بأن يكون فيها جند مدرّبون بالكراع والسلاح ، وهذه هى القوّة الغضبية لحفظ الدولة فى الداخل والخارج ، ونظيرها فى الانسان قوّة غضبية بها يحافظ على شرفه وأدبه ، و بأن يكون فيها رجال عرفوا بسموّ النظر والعقل الراجح ، وهم رجال السياسة الذين يأمرون الجند ، وهؤلاء الساسة وجندهم لهم السلطان والاشراف على الزرّاع والصناع والتجار ، وهذه الطوائف الثلاث لابدّ من نظام واعتدال فيها وهذا هو العدل » .

ولقد شرحت هذا النظام فى مواضع كثيرة من هذا التفسير كالذى فى [سورة النحل] عند آية : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان و إيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فهكذا قوى الانسان الثلاثة اذا قويت القوّة العاقلة فحكمت على الغضبية وهى تشرف على القوّة الشهوية وتمّ النظام بين الثلاثة كان العدل ، فهذه أربعة أصول فى مقابلة الأربعة الأولى .

فلما سمع ذلك صاحبى قال حسن والله ، لقد اطلعنا على هيئة العلوم فى العالم ، ولكن لم تذكر لنا علماء الصين ، هل كان علمهم على هذا النمط ؟ فقلت : لقد تقدّم فى [سورة الحجرات] مايفيد أن أمم الصين قبل التاريخ كانت معارفها على هذا النمط ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان القرآن فى أكثر سوره يمثل لنا عقول الأمم وعلومها . فقال : هذان أمران فأرجو ايضاحهما . فقلت نعم : أما الأمر الأوّل فهو قول [كونفشيوس] فيلسوف الصين قبل الميلاد المذكور فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ فان أقواله هناك هكذا :

(١) إن قدماءهم نظموا الممالك .
(٢) بعد أن نظموا أسرهم .
(٣) وهذا بعد تهذيب أخلاقهم .
(٤) وهذا بعد تنقية نفوسهم .
(٥) وهذا بعد كونهم مخلصين صادقين فى تفكيرهم ، منزهين فى أغراضهم .
(٦) وهذا بعد توسيع معارفهم .
(٧) وتوسيع معارفهم كان عن طريق البحث والمشاهدة . انتهى — ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ هكذا :
(١ و٢) توسيع المعارف بالمشاهدة : أى مشاهدة الأشياء والأفعال .
(٣) ثم كمال المعارف .
(٤) ثم خلوص أفكارهم ونزاهة أغراضهم .
(٥) ثم تهذيب أخلاقهم وطهارة نفوسهم .
(٦) ثم انتظام أسرهم .

(٧) ثم انتظام دولهم . هذا هو الأمر الأوّل .

أما الأمر الثانى فهو هذه الآية : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . فقال : ولكن الآية قدّمت الأرض على السماء ، فلم يكن ترتيب العلوم الذى شرحناه مطابقا لها . فقلت : هو مطابق كل المطابقة ، انه قدّم الأرض و بعدها النفس ، ثم ذكر السماء والأرض معا مقدّما السماء ، وذلك معناه تقديم العلوم الرياضية ، لأن علم الفلك من نتائجها . فقال حسن ولكنى أريد أصرح من ذلك فى القرآن بحيث ينطبق على نظام علوم الأمم كلها المذكور هنا . فقلت : هناك سورة تفيد ذلك وهى : « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء ومابناها » . فهذه الخمس ترجع لعلم الفلك وهو من العلوم الرياضية ، بل هو أجلّ ثمراتها ، ثم هو من جهة أخرى علوم مشاهدة أشارلها [كونفشيوس] وقوله : « والأرض وماطحاها ، ونفس وماسوّاها » موافق لآيتنا هنا : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومعنى هذا أن العلوم الطبيعية المشروحة قريبا تكون قبل علم النفس فى نظام المدارس وفى القرآن ، والعجب العجيب من القرآن انه قدّم الأرض على النفس فى هذين الموضعين وفى غيرهما وألهم الأمم جميعها أن تفعل ذلك وقال [ليبكون] : يابيكون اجعل نظام الطبيعة قبل علم النفس كما قال لكونفشيوس بالصين ولإخوان الصفاء وللأمم كلها ، إن هذا القرآن مدهش ، إذن عندنا مزرعتان : مزرعة هى أرضنا ، ومزرعة هى نفوسنا ، ومزرعة نفوسنا هى المذكورة فى سورة الشمس إذ يقول الله بعد ذلك « فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

جلّ الله : أليس هذا بعينه هو الأخلاق والسياسة ونظام الدولة ، أليس الفجور والتقوى واضحين فى الأخلاق والأسرات والممالك ، أليس هذا بعينه هى السياسة العملية المتقدّمة عند فلاسفة اليونان والعرب وأوروبا والصين ، فهاهوذا بيكون يقول : نظام الطبيعة ثم النفس ثم الأخلاق وسياسة الناس ، وهاهم أولاء فلاسفة القرون الأولى يؤخرون الأخلاق وما عطف عليها عن العلوم ، وهاهوذا كونفشيوس يفعل ذلك ناقلا عن آبائه المتوغلين فى القدم ، وهم لايعرفون علوم اليونان ولاغيرهم .

أيها المسلمون : لاعطر بعد عروس ، ولامخبأ بعد بوس ، حمّ الأمر وأزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، لتقرءوا مزارع الله فى الآفاق ومزارعه فى النفوس ، إن القرآن لوح رسمت فيه صور علوم الأمم تذكرة لكم فهل أنتم مذكرون ! .

تباركت يا ألله : أريتنا علوم الأمم السابقة كلها فرأينا مدارها على علم نفوسنا ، فنفوسنا هى المصدر الأصلى ، فقد جعلوا علوم الرياضيات والطبيعيات مقدّمات لمعرفة النفس وعلوم السياسات والأخلاق والجمال نتائجها ، ومنهم من غير بعض النظام ، وذلك تبع اختلاف الأنظار وتباين الآراء ، والنتيجة من هذا كله فهم قولك فى قرآننا الكريم : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

هانحن أولاء نظرنا فى أنفسنا نظرا مستمدّا من آراء الأمم كلها لنشهد على علم ، ولكن لاتتمّ شهادتنا فى ذلك إلا بدراسة علم النفس والتربية الحديثة ، لأن العلوم المذكورة نقلها تلاميذ ابن رشد من يهود ومسلمين إلى أوروبا منذ نحو ٧ قرون فارتقت تلك العلوم ، واذا بقينا على ماقرأناه من كلام قدمائنا أصبحنا كأننا نعيش فى القرن الثالث عشر الميلادى . ولكن نحن فى القرن العشرين ، إذن فلنذكر :

الفصل الثامن فيما جاء فى علم النفس الحديث

أمامى الآن كتب [أصول علم النفس وأثره فى التربية والتعليم] تأليف الأستاذ [أمين مرسى قنديل] مدرس علم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا . ألمعه [؟] أحد شهادات عالية فى هذا العلم من جامعات

أوروبا

أوروبا ، فهو كتاب موثوق به يدرس بمصر الآن ، وهو علم لم يدرس من قبل فى بلادنا ، وموضوعات الكتاب هكذا مثلا : معنى العلم وأغراضه ، حقيقة علم النفس ، طرق البحث فى علم النفس ، فروع علم النفس ، التربية وعلم النفس ، العقل ، الشعور ، اللاشعور ، الاستهواء ، الجهاز العصبى ، ردّ الفعل ، الأفعال المنعكسة ، تربية الجهاز العصبى ، الغرائز والميول ، دراسة طائفة من الغرائز والميول الفطرية ، العادات ، التعلم ، التمرّن ، الشوق ، التشويق ، الشوق والتربية ، الانتباه ، عوائق الانتباه كالتعب ، الأعمال المدرسية ، وهكذا .

نظرة عامة فى علوم النفس عند القدماء والمحدثين

أيها الأخ الذكىّ هذه صفحة عامة من صفائح نفوسنا المشرقات ، تلك النفوس التى هى مزارع الله عزّ وجل فى أجسامنا ، وحقوله التى تولى هو غرسها بيديه وقال لنا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » بعد أن أرشدنا إلى أن ننظر دراسة مزارع أرضنا .

هاهوذا الآن أمامى كتاب [سلوك المالك ، فى تدبير الممالك] الذى ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع ، ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسى ، إن المؤلف فى هذا الكتاب قسم الفضائل والرذائل تقسيما عجيبا جدا ، وأوضح ذلك أيما إيضاح ، وعلم الملوك والسوقة والفضلاء وغير الفضلاء ، ولم يترك بابا إلا ولجه ، ولا فضيلة إلا فصلها ، ولا رذيلة إلا أوضحها ، بجداول جميلة وعبارات طريفة وبهجة وجمال ، ولا أقتصر على ماجاء فيه من جداول الأخلاق الناقصة ، ثم أتبعه بما جاء فى علم التربية الحديث المذكور ، أريد بذلك أن يرى المسلمون وأنت أيها الذكىّ أولهم آراء الأولين والآخرين فى أحوال نفوسنا ، وأنهم جميعا يسعون لغرض واحد متجهين لنتيجة واحدة ، ذلك أنهم جميعا يعاملون النفوس فى محو رذائلها معاملة الأجسام فى شفاء أمراضها بحيث أصبح تهذيب النفس مطابقا لشفاء الجسم من حيث سير العلاج الجسمى والروحى معا سيرا منظما ، فانظر كيف يقول صاحب كتاب [سلوك المالك ، فى تدبير الممالك] فى صفحة ٣٨ مانصه :

إن من شرّ رذائل القوّة الغضبية الغضب ، وهو أكبر الرذائل ، وله موادّ وأسباب :

الرذيلة	مداواتها
الزهو	باستعمال التواضع
العجب	بمعرفة عيوب النفس
الفخر	باليقين أنه من جنس عبده
المرح	بالتشاغل بما يجب من الحقائق
الهزل	بالجدّ فى طلب الفضائل
الهزؤ	بالتكريم عن أذى الناس
التعيير	بالقدرة على ترك الأقاويل القبيحة
الملاحاة	بصيانة النفس عن مرّ الجواب
المصادّة	بترك العناد
الغدر	باستعمال الوفاء

ثم أبان أن هذه كلها سببها الخوف : أى أنه يرهو لأنه يريد العلو ويخاف من عدم هذه الصفة وهكذا البواقى ، وذا استهزأ بغيره فمعناه أنه أعلى منه وهكذا . ثم أخذ يذم كل الكسل الذى هو جزع من أن يفعل فعلا ما كسل عنه فمعنى الخوف أيضا لأنه يخاف أن يفعل . ثم حقر الجبن ، فالجبن جزع من

أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله ، والثانى جزع من أن يعرف بشيء قبيح فعله ، وذكر (الفرق) بفتح الراء من فعل شيء عظيم يضعف عن احتماله (والحذر) وهوالجزع من شعور أمر مترقب واشتباهه ، ثم الذعر وهو الجزع من صورة ليست مألوفة الخ .

هـذه صفحة من علم الأخلاق فى كلام قـدمائنا فى العصور الأولى ، وعلم الأخلاق ربيب علم النفس ، فهاهم أولاء جعلوا لـكل منقصة دواء ، وماهو هذا الدواء ؟ هوأن يجعلوا الضد مزيلا لضده كما يفعل الأطباء بحيث يداوون الحارّ بتعاطى البارد والعكس بالعكس ، فلننظر إذن فى كلام علماء التربية فى عصرنا ، فهذا كتاب « أصول التربية » فقد جاء فيه فى صفحة ١٥٣ تحت عنوان « استعمال غريزة ضـد أخرى » ماملخصه : —

إن المربى يستعمل غريزة ضد أخرى ليخفف من شرّها ، فغريزة الخضوع تخفف شرّ غريزة السيطرة والظهور ، والخوف يردع به الطفل عن كثير من الشرور ، وهؤلاء يقولون : « إن الغرائز لاتجوز إزالتها بل يجب تهذيبها وتوجيهها إلى المثل الأعلى لاقتلها فان قتلها جناية » — [مثال ذلك] غريزة المقاتلة والافتناء يجب أن توجه إلى مغالبة الآلام والتغلب على العقبات التى تعترض المرء فى طريقه ، والى المنافسة فى عمل الخير ، والى الدفاع عن مبـدأ نبيل ، وضربوا لذلك مثـلا بأن الحـكومات تتخذ اللصوص القدماء وسائل لمساعدة رجال الشرطة فى ضبط السارقين والقاتلين ، فهذا معناه أن المربى ينقل الغريزة من حال ضارّه إلى حال نافعة ، فالغضب والمقاتلة عند المهذب يكونان معينين على كل فعل نبيل كالدفاع عن كل ضعيف .

هذه هى الصورة الواضحة فى التربية الحديثة ، وهى على منوال التربية القديمة ، فالعلم هوعينـه غاية الأمر أن الحديث قد أوضح إيضاحا أكمل ، وأبان وجوه الاصلاح أيما إبانة .

واذ فرغت من إيضاح الصور التهذيبية عنـد القدماء والمحدثين فلأشرع فى شرح المزارع التى تزرع فيها تلك التعاليم والحدائق العناء الاهية التى تنبت فيها تلك الأزهار والرياحين .

تبصرة وتذكرة لآياتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون »

فقال صاحبى : إن المسافة طويلة ، والشقة بعيدة بين مزارع الأرض ومزارع الدماغ ونبات الأخلاق فيه ، إن مزارع الحقول مشاهدة ، وهل شوهدت مزارع الغرائز فى حقول الدماغ ، غاية الأمر أنها عرفت بطريق الاستنتاج . فقلت : اعلم أيها الأخ الذكىّ انى كما كنت فى الحقل أيام الفتوّة أرى المزارع وهى كانت درسى نهارا ، والنجوم وهى كانت درسى ليلا ، هكذا اليوم أشهد فيما ستراه فى الدماغ مزارع الغرائز متجلية واضحة تزدهر فيها العرائز والأميال ، فكما كانت النجوم والحقول وماينهـما من نفوس الناس هى التى منها استمدّت جميع العلوم التى شرحناه هنا فى أمم كلها ، هكذا هذه الجمجمة الصغيرة التى ستراها الآن أصبحت مزرعة فيها جميع المزارع التى كنت أشاهدها ، والنجوم التى كنت أحظها ، والعلوم التى درستها ، والسياسات التى عرفتها .

تباركت يا ألله : جعلت الأرض مكان الانسان ، وجعلت أدمغتنا حدائق ، كل حديقة منها مختصرة من هذا العالم العظيم وعلومه المفصلات . حقّ الله ، جلّ الله . ومما أدهشنى فيما ستراه أيها الأخ النبيل أن ما كنت أعرفه فى كتب قديمة من أن المحبة فى مقدم الدماغ ، والمكرة فى وسطه ، والقوة الذاكرة فى مؤخره كما ذكرته سابقا ، وأن ذلك استنتجه الفلاسفة من تجارب الأطباء فى مرضاهم أصبح اليوم مشروحا على هذا

النمط بعينه ، فسترى أن هناك مناطق ثلاثة : أمامية ووسطى وخلفية ، جعلت للتفكير والتصوّر ، و باضطرابها لا يكون الانسان عاقلا ولكن علماء العصر الحاضر برعوا براعة أوسع من السابقين :

(١) أرونا أن فى المخ تلافيف وشقوقا تتضح فى العقول الكبيرة ، وتصغر ولا تتضح فى العقول الصغيرة وفى الحيوان .

(٢) أرونا أن للمخ نصفين كل نصف يقسم أربعة أقسام ، فهذه ثمانية أقسام ، وكل قسم يسمى باسم عظم القحف الذى يقرب منه ، وكل واحد من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام على حسب التلافيف التى فيه الخ

(٣) إن المخ محط جميع المواصلات فى الجسم .

وستشاهد أن فى هذا المخ مناطق معينة للحس وأخرى للحركة وأخرى لربط المعلومات ، فترى منطقة البصر عند الفص المؤخرى من الرأس ، وهناك منطقة إدراك المرئيات والقراءة ، و يلى تلك المنطقة من الداخل منطقة السمع ثم الذوق والشم ، وهاتان بالقرب من الفص الصدغى . وترى فى المنطقة الخلفية التى تقرب من الفص الجدارى مراكز ربط تلك المعلومات وترتيبها وتنظيمها ، وترى أيضا منطقة ربط أخرى أمامية .

أيها الأخ الذكىّ : انى الآن فى دراسة مخ الانسان لم أعد ما كنت أدرسه فى الحقول أيام الشباب ، كيف لا ، أليست هذه المزارع التى فى أدمغة الانسان بعد أن يدرسها المدرّسون و يعرفوها ، يحتالون فى تهذيبها وتوجيهها ، وفى انتزاع واهلاك ماضرّ منها ، و يوجهون الغرائز من الضار إلى النافع .

فياليت شعرى أىّ فرق بين تقطيع الحشائش فى الحقول و بين إزالة الكذب من أفواه الأطفال ، ثم أىّ فرق بين تهذيب القوّة الغضبية فى الطفل بأن نوجهها إلى اقتناء الفضائل ، والى الحماسة فى حماية الضعيف و بين تقليمنا الأشجار وتشذيبنا الأغصان لتعدل الأشجار عن إضاعة قواها فيما لا يفيد ، ولتتجه إما إلى ازدياد الخشب فى نحو الصنوبر ، واما إلى ازدياد الثمار فى الأشجار المثمرة ، إذن نظام العالم واحد « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وحقلنا كما كان مضرب مثل لعلوم الأمم هكذا هو مضرب مثل لعلوم النفس وتهذيب الأخلاق ونظام مناطق مخ الانسان .

فقال صديقى : الله أكبر ، الله أكبر ، حسن حسن ، يظهر لى أنك ذكرت هذه المقدمة لتكون نورا يأتنس به من يطلع على هذه المعانى فيما تريد أن تلقيه ، لأن هذا العلم صعب المنال ، بل اذا لم يفهم القارئ إلا ما ذكرته فحسبه ، والعقول الكبيرة ستفهم نفس الموضوع بتفاصيله وصوره الشمسية . فقلت : نطقت بالصدق ، فهاك الموضوع الذى اخترته من ذلك الكتاب بتمامه ، فقد جاء فيه فى صفحة ١٠٩ ومابعدها ما يأتى بالحرف الواحد :

المخ

« يملأ الجزء العلوى من القحف ممتدّا من الأمام إلى الخلف ، وحدّه الأسفل من الأمام مستوى الحاجبين ، ومن الجانبين حذاء الأذنين (انظر شكل ٣٠)

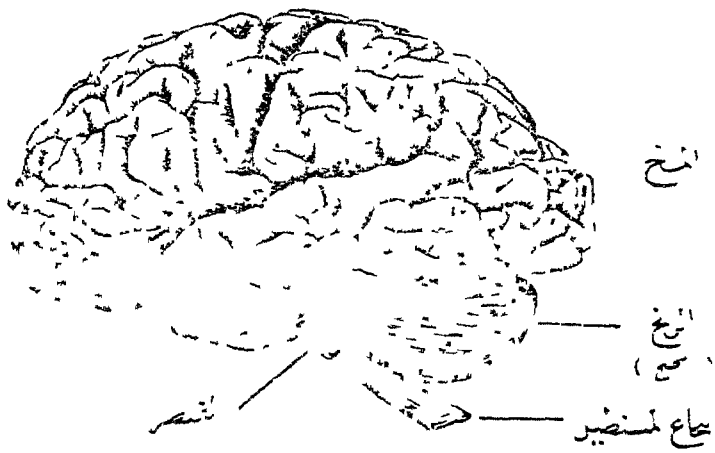

(شكل ٣٠)

ويبلغ متوسط وزنه ١٤٠٠ جرام [١] إذ هو يختلف عادة بين ١٣٠٠ و ١٨٠٠ جرام ، ويشبه فى الشكل قلب الجوزة ، فهو منقسم بشق مستطيل إلى نصفين متماثلين : النصف الأيمن ، والنصف الأيسر ، ويعرف كل منهما بنصف كرة ، والنصفان ليسا منفصلين بعضهما عن بعض تمام الانفصال بل متصلان من الأسفل بحزمة من الألياف العصبية تعرف بالجسم الصلب ، وبكل نصف منهما ثنايا كثيرة تعرف بالتلافيف بينها منخفضات ظاهرة تسمى شقوقا ، وهذه الثنايا تجعل سطح المخ فى مجموعه كبيرا جدا ، وبذلك تكون المادّة السمراء أواللحاء كبيرة أيضا ، لأنها تدخل فى الشقوق وتغطى التلافيف كلها ، وهذه التلافيف قليلة ليست ظاهرة فى الحيوانات ، ولكن كلما ارتقى الحيوان بدت الشقوق والتلافيف عميقة جليلة حتى انها لتكون واضحة كل الوضوح فى الانسان فكأن نموّها وعددها يسيران يدا بيد مع نشوء الحيوان وترقيه فى سلم النشوء والتطوّر . تتميز التلافيف بعضها عن بعض بالشقوق التى بينها ، وأهمّ هذه الشقوق اثنان : شقّ رولندو ، أوالشق الأوسط ، وشق سلفيوس ، أوالشق الجانبي ، والتلافيف تختلف اختلافا قليلا باختلاف الأفراد ، ولكنها فى جملتها ثابتة ، ولذلك وضع لكل منها اسم خاص كما وضع لكل شق اسم خاص به أيضا وتراها واضحة فى (شكل ٣٠) الذى تقدم قريبا .

ينقسم كل نصف من نصفى المخ إلى أربعة فصوص يسمى كل منها باسم عظم القحف القريب منه ، وهذه الفصوص هى : (١) الفص الجبهى (٢) والفص الجدارى (٣) والفص الصدغى (٤) والفص المؤخرى

وكل فص من هذه الأربعة ينقسم إلى أقسام أخرى حسب مافيه من التلافيف ، فالفص الأمامى مثلا ينقسم إلى أربعة تلافيف التلفيف : الأوسط الأمامى (الصاعد الامامى) والتلفيف الأعلى ، ثم الأوسط ، والأدنى .

مادة المخ البيضاء

تتكوّن هذه المادّة البيضاء من الألياف العصبية المغلفة بذلك الغلاف الأبيض العازل الذى يجعلها بيضاء اللون ، وأغلبها خارج من الخلايا المحركة التى فى المخ ، والبعض الآخر وارد إليه من الخلايا الحساسة التى فى المحيط ، فالألياف الصادرة تخرج من أجسام الخلايا المتعدّدة فى اللحاء ، ثم تجتمع هذه الألياف بعضها مع بعض وتكون حزمتين كبيرتين من المادّة البيضاء تتصلان بالقنطرة وبالنخاع المستطيل (انظر شكل ٣١) فى الصفحة التالية .

---

(١) لقد حاول كثيرون أن يجعلوا زيادة وزن المخ على هذا المتوسط دليلا على الذكاء ، فمخ الأبله والغبى يكون عادة أقلّ من المتوسط بكثير ، فى حين أن مخ العالم الطبيعى [كوفييه] كان يزن ١٨٦٠ جراما ، ومخ [اللورد بايرن] الشاعر الانجليزى ١٨٠٠ جرام ، ومخ [كرمول] ٢٢٠٠ جرام ، ومع ذلك فان هذه لاتتخذ قاعدة ثابتة ، فمخ [غمبتا] الخطيب الفرنسى يزن أقلّ من المتوسط ، ولكن يقال ان تلافيفه كانت أعمق من المعتاد ، والحقيقة أنه لا بدّ من أن نحسب لنوع المخ حسابا ، وأن لايقتصر على الثقل وحده .

على أنه قد حاول كذلك كثير من العلماء إيجاد نسبة بين ثقل المخ والجسم ، ليتبينوا من وراء ذلك مقدار الذكاء ، وغاية مايستطيع الجزم به هو أنه كلما كانت النسبة كبيرة كان الحيوان أذكى من غيره ، ومع ذلك فهذه الحقيقة ليست مطلقة ، فبعض الطيور كالعقعق نسبة ثقل مخها إلى جسمها الصغير أكبر من نسبة ثقل مخ الانسان إلى جسمه اهـ

شكل ٣١

(شكل ٣١ ــ مقطع جانبي للمخ يبين الألياف الرابطة متجهة بين كل تلفيف وآخر وبين الفصوص المختلفة وترى الجسم الصلب فى الوسط)

والألياف البيضاء التى تتكوّن منها مادّة المخ البيضاء أربعة أنواع :

(١) ألياف رابطة وترى متجهة بين التلافيف تربط خلاياها كل نصف كرة بعضها ببعض كما ترى فى شكل ٣١ وبذلك تتصل مراكز اللحاء كلها بعضها ببعض .

(٢) الألياف الضامّة : وهذه أيضا رابطة ، ولكنها تربط نصفى الكرة بعضها ببعض بواسطة الجسم الصلب وغيره ، بذلك تكون التلافيف التى فى كل نصف كرة مرتبطة بالتلافيف التى فى النصف الآخر .

(٣) الألياف المصدرة وهى محركة ، وقد تسمى الألياف النازلة .

(٤) الألياف الموردة وهى حساسة ، وقد تسمى بالألياف الصاعدة .

وكلا الألياف المصدرة والموردة هذه تربط اللحاء بالأجزاء السفلى من المخ وبالحبل الشوكى ، ويتصل بالدماغ مباشرة اثنا عشر عصبا تذهب إلى الرأس كلها تقريبا وتتفرّع فى أعضاء الحواس المختلفة (شكل ٣٢)

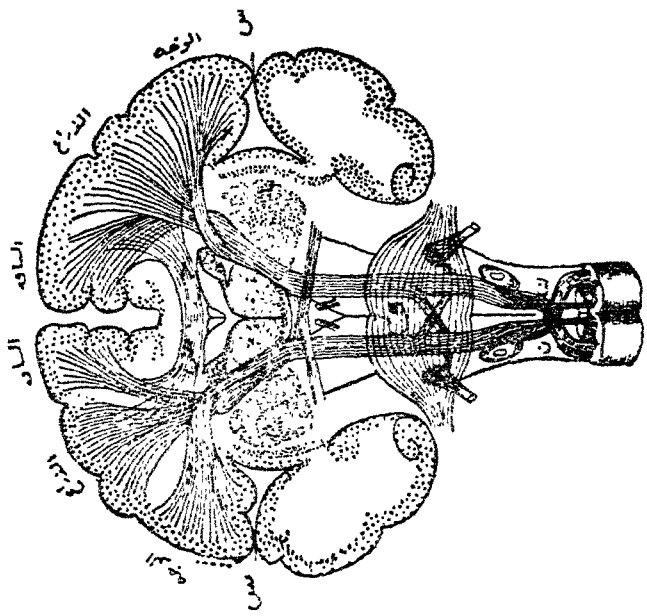

(شكل ٣٢)
مقطع مستعرض للمخ يوضح الألياف المصدرة وتقاطعها عند النخاع المستطيل (ق) قنطرة (حـ س) الجسم الصلب (س) شق سلفيوس

اللحاء

تغطى الدماغ كله طبقة رقيقة من المادّة السمراء وهذه تتكوّن كما تقدم من جسوم الخلايا العصبية وأوائل فروعها ، ويختلف سمكها القليل الذى لايزيد على ثلاثة ملليمترات باختلاف أجزاء المخ ، واللحاء على رقته يتكوّن من خمس طبقات من الخلايا بينها طبقات أخرى من الألياف العصبية ، وخلايا الطبقات تختلف شكلا ووظيفة .

(١) فلطبقة العليا ، أوالسطحية تتكوّن من خلايا قليلة العدد تمتد فروعها امتدادا أفقيا وأكثرها يتكوّن من فروع خلايا الطبقات التى تحتها ، ومن نهايات الأعصاب الموردة ، وهى كلها لاتزيد ½ ملليمتر ولاشك فى أن وظيفتها ربط الخلايا الحساسة (الموردة) بالخلايا المحركة (المصدرة) .

(٢) تلى هذه الطبقة طبقة أخرى بها خلايا كثيرة العدد ، مختلفة الحجم ، هرمية الشكل ، وظيفتها الربط أيضا ، وسمك هذه الطبقة يزداد برقىّ الحيوان فى مرتبة الشوء ، ثم طبقة :

(٣) ذات خلايا صغيرة نجمية الشكل محاورها قصيرة كثيرة التفرّع .

(٤) ويلى هذه طبقة رابعة فيها خلايا هرمية كبيرة الحجم طويلة المحاور : وأغلبها فى منطقة الحركة فى المخ .

(٥) وأخيرا توجد طبقة خامسة خلاياها متعدّدة الشكول ، مختلفة الحجوم .

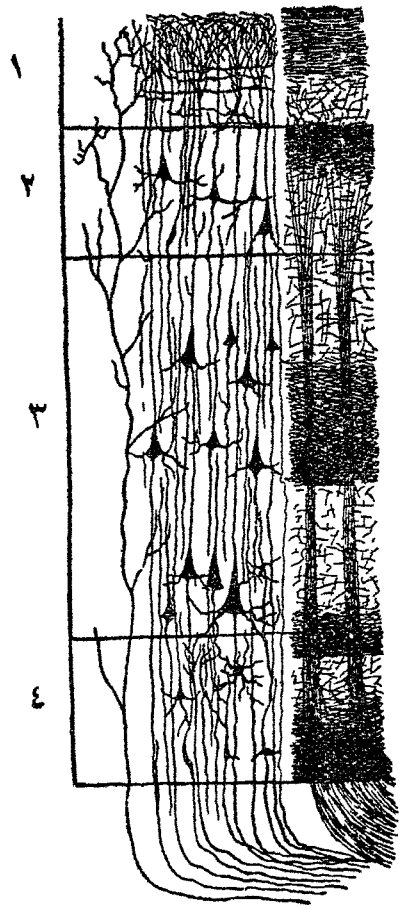

(شكل ٣٣)

مقطع فى اللحاء يبين طبقاته وأشكال خلاياه المختلفة . الجزء الأيمن من الشكل يوضح الألياف العصبية . والأيسر يوضح الخلايا . وهذان الشكلان يجب أن يتصورا معا بعضهما فوق بعض . وبذلك يتضح التعقيد الكبير فى تركيب اللحاء .

فخلايا اللحاء المخى كثيرة جدّا معقدة التركيب ومختلفة الشكل ، كل خلية ترسل فروعا كثيرة متشابكة تشابكا كبيرا بعضها مع بعض ومع غيرها من فروع الخلايا الأخرى ، وهذا التشابك الكثير مما يميز الانسان الراقى عن غيره من الحيوان . وفى الوقت نفسه إلى اللحاء نهايات محاور كثيرة أيضا من أجزاء شتى تتشابك أطرافها مع فروع الخلايا الأخرى ، واذا تذكرنا أن بالمخ مراكز تمثل جميع أعمال الجسم الكثيرة ووظائف أعضائه المختلفة اتضح لنا مقدار التعقيد الكبير فى تركيب المخ ، ولاسيما فى طبقته الرقيقة الخطيرة الشأن المعروفة بالمحه .

وظائف المخ

المخ أهم أجزاء الجهاز العصبى ، فهو الذى يشرف على سلوك الانسان ويدبره ويراقب كل حركة ارادية أوغير ارادية من السلوك ، ويوفق بين أعمال الأعضاء المختلفة ويربطها بعضها ببعض ، وهوموطن العمليات العقلية السامية ، ففيه مراكز الاحساس والادراك الحسى والذكر والتفكير وربط العمليات العقلية بعضها ببعض ، وهوموطن الشعور ، فكل تأثير يقع على أىّ جزء من أجزاء الجسم ، ولم يصل أثره إلى المخ فان المرء لايتفطن إليه ولايشعر به ، ولذلك فانه اذانزع مخ حيوان كالضفدعة أوالحمامة مثلا فانها تفقد كل حركاتها الارادية ، وتصبح كأنها آلة من الآلات لاتتحرك بارادتها وباختيارها ولاتحس بما يسلط عليها من المؤثرات فالمخ هومحط جميع خطوط المواصلات فى الجسم ، وهو مستوى جميع المراكز العليا .

مناطق اللحاء

لكل جزء من أجزاء اللحاء المختلفة علاقة بأجزاء معينة فى الجسم يشرف عليها ويديرها ، فالنصف الأيمن من المخ يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم وبالعكس (انظرشكل ٣٤) .

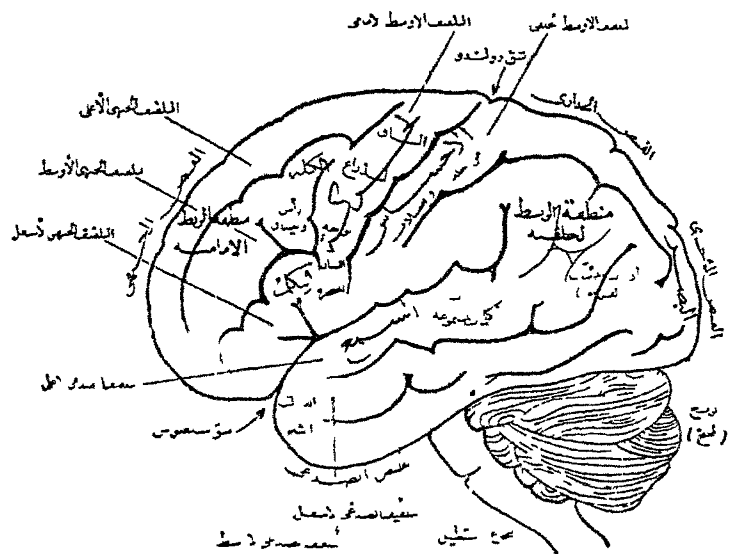

(شكل ٣٤)

ولقد تمكن الباحثون من علماء وظائف الأعضاء والتشريح من تعيين مواضع كثير من المراكز المختلفة فى اللحاء التى تقوم بوظائف خاصة ، وكثير من هذه المراكز ينحصر فى ثلاث مناطق : مناطق الحس ، ومناطق الحركة ، ومناطق الربط . فللحس مراكز : للبصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، وتحريك العضلات ، وللحركة مراكز كثيرة أيضا تمثل عمل الأعضاء المختلفة ، من ذلك مراكز لتحريك الرجل والساق واليد وغيرها كما سترى . وهذه المناطق توجد فى كل من نصفى المخ ، [illegible] صارت مراكز النصف الأيمن تشرف على النصف الأيسر من الجسم ، ومراكز النصف الأيسر من المخ تشرف على الجزء الأيمن من الجسم :

[منطقة الحركة] : [illegible]

مراكز لتحريك أعضاء الجسم المختلفة ، ففى الجزء الأعلى من هذه المنطقة مركز تحريك أصابع القدم تليه مراكز تحريك الركبة فالحرقفة فالأطراف العليا فالوجه وهكذا بترتيب تنازلى ، فكل حركة ارادية تنشأ من عمل مركز خاص فى هذه المنطقة ، إذا أصيب مركز منها بضرر أو مرض أعقبه شلل العضو المتعلق به فلا يمكن تحريكه بالارادة .

[منطقة الحس] : توجد موازية لمنطقة الحركة على الجانب المقابل لها من شق [رولندو] فى الفص الجدارى ، وفيها مراكز الاحساسات الآتية من الجلد وحركة الأعضاء المختلفة ، وترتيب مراكز الاحساس فى هذه المنطقة عين ترتيبها فى منطقة الحركة ، فمراكز الاحساسات الآتية من الساق مثلا توجد حذاء مراكز تحريكه وهكذا .

[منطقة البصر] : مراكز البصر توجد فى الفص المؤخرى من المخ ، فأى اصابة لها تحدث العمى مع أن العين نفسها قد تكون سليمة من كل شائبة ، وفى الفص المؤخرى هذا مراكز أخرى لادراك المرئيات ، فمها مايتعلق بادراك الكتابة ، ومنها مايتعلق بادراك الألوان أو الأشياء وهكذا .

[منطقة السمع] : تقع فى الجزء الخلفى من التلفيف الصدغى الأعلى ، وهو تلفيف يقع أسفل شق سلفيوس ، وهى متصلة مباشرة بالأذنين ، فأى أثر يلحق بمراكز الاحساس السمعى فيها يحدث الصمم ، وقرب هذه المنطقة كما فى منطقة البصر مراكز مختلفة لادراك الكلمات المسموعة ، أو لتمييز الأنغام المختلفة وهكذا .

مناطق الربط والاتصال

يختلف مخ الانسان عن مخ القردة العالية وغيرها من الحيوانات الأخرى بأن به مناطق (صامتة) أوسع رقعة مما لديها ، وليست هذه المناطق وظيفة الحس أو الحركة وانما ربط مراكز الحس بعضها ببعض ومراكز الحركة كذلك والتوفيق بين أعمالها الكثيرة المعقدة ، فاذا أصيبت هذه المراكز لايحدث للمرء ضرر مادى فى جسمه مثل شلل أو فقدان الحس ، وانما يفقد قدرته على التفكير أو المهارة المكسوبة فيختلط عقله ويلتاث أو يضطرب اضطرابا واضحا فى كل عمل من الأعمال التى كان يؤديها قبلا بمهارة وحذق ، وتوجد هذه المناطق فى ثلاثة مواضع :

(١) المنطقة الأمامية ، وتقع فى الفص الجبهى أمام شق [رولندو] وأمام منطقة الحركة .

(٢) المنطقة الخلفية ، وتقع فى الفص الجدارى بين منطقتى الاحساس والبصر .

(٣) المنطقة الوسطى ، وتقع فيما يعرف بجزيرة [رايل] .

فهذه المناطق الثلاث ملتقى الاحساسات المختلفة الآتية من الحواس ، وفيها تربط بعضها ببعض وتحبك بواسطة الألياف الرابطة ، فيحدث الادراك الحسى والتذكر والترابط وسائر العمليات العقلية السامية من التفكير والحكم والاستدلال . فهى مناطق التفكير بمعناه المعروف ، أو ان شئت فقل هى أعضاء التفكير ، ولقد دل التشريح وعلم الأمراض أن غاء الله وصعف العقول يكون أرق من المعتاد فى هذه المناطق فى حين أنه يكون سميكا نوعا ما ، وتكون التلافيف عميقة ومعقدة عند النابغين والمفكرين ذوى العقول الكبيرة ، ومن هذا يستنتج أن مقدرة الانسان العقلية تتوقف على عاملين :

(١) على التربية والتدريب .

(٢) وعلى صفات المخ الخلقية التى فطر عليها .

أو هما تحرز عن التربية وعن الوراثة ، فمن الناس من يولد ذا استعداد طبيعى للموسيقى مثلا ،

فهذا معناه أنه ولد و بعض أجزاء من مناطق الربط فى مخه منظمة تنظيما خاصا مخالفا لغيره يجعلها متهيئة لقبول مهارة خاصة والنبوغ فيها اذا وجدت الأحوال معينة لها ، كأن يوجد الشخص المجدود هذا فى بيئة موسيقية ، أو يجد من مدرسته تشجيعا وحثا على العناية بتغذية موهبته هذه ، فالمواهب السامية العاملة ليست ثمرة التدريب وحده ، بل ثمرة تدريب استعداد فطرى وتربيته ، والواقع أن التربية لاتستطيع أن تبنى إلا على أساس الفطر والغرائز والاستعدادات ، فهى لاتخلق ماليس موجودا ، ولكن تذكى الموجود منها وتنظمه وتوجهه إلى العمل فى متجهات خاصة بما تغذيه به من الخبرات ، و بما تدربه عليه من الأعمال وتوجده فيه من ميول .

مراكز اللغة فى اللحاء

فى لحاء المخ أربعة مراكز ذات شأن كبير فى التربية المدرسية لاتصالها باللغة ، وهذه هى مراكز [الكلام] و[الكتابة] و[ادراك الألفاظ المسموعة] و[الألفاظ المكتوبة] ، وكل مركز منها يقع قرب المركز العام المتعلق به ، فمركز الكلام يقع فى النصف الأيسر من المخ فى التلفيف الأدنى من الفص الأمامى أمام مركز تحريك اللسان ، وذلك عند من يكتب بيده اليمنى ، فالطفل يتعلم التعبير عن خواطره بألفاظ وعبارات خاصة يكتسبها بالمحاكاة والمرانة ، فتذكر التعبير بهذه الأصوات يتركز فى هذا المركز ، ومنه ينتقل الأثر إلى المنطقة المحركة المجاورة له فيتحرك اللسان و ينطق بالألفاظ ، فاذا أصيب مركز الكلام هذا بضرر ما فقد الانسان القدرة على التعبير بالألفاظ ، أوكان تعبيره على الأقل مضطربا لاتآلف فيه ولذا لايفهم مع أن لسانه يكون صحيحا غير مصاب بأى شلل ما ، فهو ليس بأبكم ولكنه مع ذلك يعجز عن التعبير عما فى نفسه بعبارات يدرك السامع مدلولها ومعناها ، و يقع [مركز الكتابة] فوق مركز الكلام أمام مركز حركة اليد وهو مرتبط بها كل الارتباط ومتوقف عليها ، واذا أصيب بضرر فقد المرء القدرة على الكتابة وما يماثلها من الأعمال التى تستلزم مهارة وتدريبا مكتسبا بطول الخبرة والمرانة . و يقع مركز [ادراك الألفاظ المسموعة] قرب منطقة السمع ، و يعرف بمركز فرنك ، واصابته تحدث مايعرف بالصمم اللفظى ، فالمصاب يسمع الألفاظ ولكن لايفهم معناها ، ويقع مركز [ادراك الكلمات المرئية] أو [مركز القراءة] فى الفص المؤخرى قرب مركز البصر ، ومرضه أواصابته تحدث العمى اللفظى ، فلايستطيع المصاب أن يدرك لما يرى من الكلمات المكتوبة معنى مّا ، مع أن نظره قد يكون سليما من كل شائبة مرض ، فوقفه يكون أشبه بمن يرى لغة غريبة عنه لم يتعلمها قط ، ولربما كان عجز بعض الأطفال عن التقدم فى القراءة راجعا إلى ضعف فى هذا المركز . وهذه المراكز فضلا عن كونها مراكز ارتباط فى نفسها متصلة بعضها ببعض ، ولاسيما مركز إدراك الألفاظ المسموعة والكلام ، والأول منهما يسبق الثانى فى ترقيه ، فالطفل يفهم كثيرا من الألفاظ والعبارات التى يسمعها من أهله و يدرك معناها قبل أن يستطيع التلفظ بها على الوجه الصحيح ، ولربما تظل هذه الحال كذلك فى الانسان طول حياته ، فتكون قدرته على الفهم أكبر من قدرته على التعبير عما يجول بنفسه ، ولهذا فان هذا المركز أهم المراكز الأولية كلها ، فعند القراءة الجهرية تتأثر العين بما ترى من الكلمات ، و يسير أثر الانفعال إلى مركز القراءة ثم يتجه إلى مركز إدراك الكلمات المسموعة بواسطة ألياف رابطة فيستثير ذكرى أصواتها . ثم تتصل هذه بألياف رابطة أخرى إلى مركز بروكا أو مركز الكلام ، فيلفظ المرء الأصوات التى ترمز إليها الكلمات التى يقرؤها ، وكذلك الحال عند ما يكتب الانسان ما يملى عليه ، فان الألفاظ المسموعة تتجه من الأذن إلى مركز إدراكها ، ثم تتصل بمركز الكلمات المرئية فتستثير ذكرى أشكال الحروف التى ترمز إليها ، ثم تتصل بمركز الكتابة ، وهذا كما عرفت متصل كل الاتصال باليد ، فتتحرك هذه عندئذ وتكتب الأشكال التى تدل على

ماسمع ، ومن هذا نعلم أن فى التدريس يجب استعمال أكثر من حاسة واحدة ، لأن ذلك يعين على سرعة الفهم وحسن تذكر مافهم لكثرة الارتباطات التى تتم بين المراكز المختلفة .

الرنح أو المخيخ

يوجد الرنح خلف المخ وهو أصغر منه حجما ، ويشبهه من حيث وجود المادّة السمراء على سطحه ، وبكثرة مافيه من التلافيف ، وهو منقسم إلى قسمين كبيرين بينهما قسم صغير يعرف بالدودة ، على أن تلافيف الرنح تختلف عن تلافيف المخ من حيث شكلها ، فكلها مستعرضة وضحلة بخلاف المخ .

واذا شقّ الرنح رؤى أن المادّتين السمراء والبيضاء تتدخلان فى بعضهما البعض تدخلا يجعلها تشبه تفرّع شجرة ، ولذا يطلق عليها شجرة الحياة ،

وظيفته

من الثابت أن وظيفة الرنح هى ضبط حركات الجسم المختلفة ، والاحتفاظ باتزان الجسم فى حالى الحركة والوقوف ، وهو يؤدى هذا العمل بنفسه عادة من غير تدخل المخ إلا فى أحوال استثنائية تقتضى تدخله عند ماتكون الحركات غير عادية كالسير على حبل ممدود مثلا ، أوفى حالة الترنح من السكر ، فالرنح ليس مركز حركات إرادية إنما هو مركز توفيق بين هذه الحركات ، فاذا قطع أوأصيب كانت حركات الحيوان مضطربة اضطرابا كبيرا لاتوافق بينها ولاتآلف فلايستطيع الوقوف أوالسير المنظم ، وقيام الرنح بعمله هذا لايصحبه شعور عادة ، ولذلك لايتنبه إليه المرء إلا فى الأحوال الاستثنائية . ولكى يستطيع الرنح أن يقوم بأداء وظيفته هذه لابدّ له من أن يكون على اتصال تامّ بالأجزاء المركزية الأخرى ، ولذا فهومتصل بالمخ والنخاع المستطيل والحبل الشوكى بواسطة ثلاث قوائم من الألياف العصبية . انتهى ما جاء فى كتاب [أصول علم النفس] والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام ، وعسى أن أوفق إلى أن أكتب فى سورة « والشمس وضحاها » عند آية : « ونفس وماسوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها » إذ أنقل ماجاء تحت عنوان [الشوق] من حيث أن كل عمل نعمله ونحن به مغرمون يجعلنا سعداء به فى الحياة الدنيا ، وكل عمل نحن نكرهه لايتمّ على أيدينا ، فهذه الحياة لاكمال فيها إلا بالغرام والشوق لما نعمل ، وهذا الشوق راجع الى القوى المركوزة فى نفوسنا بل المعلوم الذى ضعفت منطقته فى الدماغ لانعقله ولانفهمه ، فالتعليم مثيرلما كمن فينا ، ولكنه لايحدث فينا أمرا ليس فينا استعداد له .

نظرة عامة على هذه المشاهد فى علم النفس الحديث

وكيف كانت هذه المناظر مثيرة فى نفسى التعاون العام لنوع الانسان

وكيف كان ذلك كله كسطام الكلام عند نوع الانسان ، وكأن هذه العوالم كلمات

أيها الأخ الذكى : إن مطر الصور المتقدم قد أثار فى نفسى أمرين عجيبين أثار فيها التعاون العام فى نوع الانسان ، وأثار فيها ما كمن من أن هذه العوالم كلها أشبه بكلمات صادرات من رب العالمين .

انظر إلى الصورة التى فيها مقطع حبى المخ (شكل ٣١ المقدم) وفيه الألياف الرابطة قد خللت الفصوص المختلفة والألياف المختلفة . وماهى إلا أعصاب حساسة واردة من محيط الجسم موصلة لما يرد على الحواس الخارجية من المخ ، وأعصاب أخرى خارجات من مراكز الاحساس فى داخل المخ من الخلايا المتعددة فى الالحاء

فهذان النوعان اجتمعا وكوّنا حزمتين كبيرتين من المادّة البيضاء إلى آخر ما تقدّم ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان هذه الألياف هى التى يقال لها أعصاب الحس وأعصاب الحركة ، فالأولى واردة من الحواس فى ظاهر الجسد والثانية خارجات لتنفيذ ما نتج من آثار الأولى من الأعمال .

فهاأنا ذا حينما نظرت هذا الشكل البديع تذكرت التيارات البحرية الموسومة فى [سورة الشورى] فى ملحقات آية : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » فترى هناك فى (شكل ٧) أن التيار الذى يخرج من الخليج ، والتيار الذى يخرج من البرازيل فى المحيط الأطلسى ، وتيار كورسيوه ، وتيار شرقى استراليا فى المحيط الهادى ، وتيار موزنبيق فى شرقى أفريقيا فى المحيط الهندى ، هذه التيارات بعضها يتجه من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة لتلطف حرارة تلك التيارات برودة تلك الجهات ، فلكلّ من التيارات الباردة أو الحرارة أعمال حسنة ، فالبحار الشمالية مثلا ترسل تيارات الى الأقطار الاستوائية مثل تيار [لبرادو] ومثل تيار شمالى شرق اليابان ، فهذه تيارات باردة ملطفات لحرارة خط الاستواء .

أليس من العجب أيها الأخ الذكى أن أرى هذه التيارات العصبية من أعصاب الحس وأعصاب الحركات تتخلل نصفى الدماغ وتتصل ببعضها ويلطف بعضها بعضا فتتحد فى العمل .

الله أكبر : أيها المسلمون : أيتها الأمم التى فى الأرض ، أنتم نسيتم العلم ، نسيتم أنفسكم ونسيتم الدين ، التيارات البحرية متصلة متشابكة لاحداث السعادة لسكان الأرض ، وأدمغتكم جعل تركيبها على هيئة تضامن عامّ ووحدة منظمة تامة النظام ، وهكذا نظام كل خلية فى حيوان أو نبات أو شجر أو صوّان ، بل هكذا نظام مملكة النحل ومملكة النمل وممالك الأرضات (بفتحات) التى تقدّمت فى هذا الكتاب ، وهكذا مملكة المجموعة الشمسية فهى شمس حولها سيارات لها منجذبات انجذاب النحلات والنملات لملكاتها ، هكذا وحدة المخ الانسانى مسكن النفس .

أليس هذا النظام معناه أن نوع الانسان الآن لايزال فى المهد صبيا ، هذه دروس له معناها أن يكون الناس أمة واحدة كالبحار وتياراتها ، والشمس وسياراتها وتوابعها ، ومملكة النحل والنمل والأرضة وأعوانها منظمات تامات النظام .

ألم يصبح اليوم نوع الانسان متصلا متقاربا متواصلا ، يكلم الشرقىّ العربىّ والغربى الشرقى ، وينظر كلّ صورة أخيه .

يا سبحان الله : إن الأمم لاسعادة لها إلا بأن تكون على هيئة النظام الذرّى المتقدّم ذكره فى سورة العنكبوت بحيث أصبحت جميع العناصر بينها نسب هندسية وحسابية فى الجدول هناك وقرابة طبيعية وأخرى كيمائية ، وبأن تكون أشبه بأوراق الشجر المتقدم رسمها وشرحها فى [سورة الحجر] عند آية : « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » ، وبأن تكون كالبحار الملحة فيها تيارات تأتى من خط الاستواء إلى القطبين وبالعكس ليكون الاصلاح العام ، وبأن تكون أشبه بمملكة النحل والنمل والأرضة [بالفتح] ، وبأن تكون أشبه بنظام المخ من حيث توزيع أعصاب الحس وأعصاب الحركة فيه مع بهجة النظام ، هذه غاية حياة هذا الانسان على الأرض .

إن للانسان لمستقبلا سعيدا ، وحالا جديدة لم يحلم به الانسان ، وستعلم الأجيال المقبلة صحة ما رأيناه . وصدق ما فهمناه . وعلى أمة الاسلام أن تعلم علما ليس بالظن أنها خير أمة أخرجت للناس ، وأنها الآن تحللت جميع الأمم : فى الصين ، فى اليابان ، فى الهند ، فى افريقيا ، فى آسيا ، فى استراليا ، فى أوروبا .

أما من هذه الأمّة التي قال الله في نبيها صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقال أيضا : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأعمّ الرحمات انتظام الأمم كلها كأمة واحدة كمملكة النحل والنمل يقتسمون الاعمال ويوزعونها ، ويترك لكل امرئ حرّيته في دينه ، وأمرها هو الذي يقوم به الجماعات إن القرآن قد أصبحت العلوم اليوم والعلوم المستقبلة سرّه وحقيقته ، وأمة هذا شأنها تعلم الأمم كلها ، فكل دين غير الاسلام لا يهتمّ إلا بنظام الجماعات الانسانية ، فاما خلق العوالم ونظام الطبيعة ونحوها فهو غالبا بضرب الأمثال والحكايات المصطنعة ، الاسلام أخذ أعلى دور أيام العصور الأولى فنفع الانسانية ، ثم انحط أهله انحطاطا لا نظير له ، وها هم أولاء الآن يريدون أن يكونوا بين الأمم في عصرنا في أمر السلام العام كما كان شأنهم أيام عصر الصحابة والتابعين هم الذين يدعون إلى سلام الأمم انتهاجا منهج الآية : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ونحن أتباعه فعلينا أن نقوم بما أنزل الله من صفات الكمال .

أما الأمر الثاني فهو أن هذه الدنيا وما حوت إنما هي كلمات الله .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : كون الدنيا كلمات الله هذا أمر مجازي لا كته الألسن كثيرا فهو أشبه بالأمر بالمعروف ، وجاء على لسان الصوفية الذين يقولون : « إن خطاب الله يسمعه الانسان بجميع جسمه لا بحاسة سمعه فقط » وهذه أمور لا تقبل لنا بفهمها ، فاذا قلت لنا ان هذه الأجسام وهذه العوالم كلمات الله فلماذا لم نسمع — ان صحّ كلام الصوفية — إلا بآذاننا . ولماذا لم تسمع أبصارنا ولا جلودنا أو لحومنا وهكذا ، فانا أرى أن هذا المقام يصح اغفاله رفقا بالقارئين .

فقلت يا صاح حياك الله وبياك : أنا أكتب هذا اليوم الأحد ٢٢ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٢ م وأنت معي ولكن خطر لي خاطر قبيل صلاة الجمعة الماضية وأنا متأهب لصلاتها بمسجد الحبيبي في شارع السيدة زينب ، وهذا الخاطر عجيب ! فبعد أن صليت لم أرجع إلى المنزل بل جلست وحدي في الخلاء لأفهم ما ورد إلى خاطري من الآراء ، وذلك الخاطر ملخصه :

إن عوالم المادّة ترجع كلها (كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) إلى نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة ، وباختلاف عددها كثرة وقلة وتباينا أشكالها تظهر لعيوننا جبلا وجلا وشجرا وحجرا الخ فهناك خطر لي أنه من المسلم به الآن عند الأمم شرقا وغربا أن المادّة ما هي إلا حركات ، وهذه الحركات في الأثير ، والمحرّك لها هو الله عزّ وجل .

حدّثني أيها الذكيّ رعاك الله ما الصوت ؟ قال : هو حركات تنتقل في الهواء وفي الأثير من فم القائل إلى أذن السامع . فقلت له : وهذه الحركات ان كانت أقلّ من ٣٢ في الثانية الواحدة لم تسمعها الآذان ، وان كانت فوق ذلك سمعت ، وتزداد شدّة كلما ازدادت عددا حتى تصل إلى نحو ٣٢ ألفا في الثانية الواحدة ، فاذا زادت عن ٣٢ ألفا لا يسمعها الناس . قال نعم هكذا تقدّم في هذا التفسير . فقلت له : ما هي المادّة ؟ فقال : هي حركات في الأثير . فقلت : إذن الكلام حركات في الأثير ، والمادّة حركات في الأثير ، وقصاري الأمر وجماعه أن الحركات التي يحسّها الانسان في الأثير بأعضاء فمه المتصلات أصعب أثرا وأقلّ عددا من حركات الأثير التي صنعها الله لاحداث الأجسام والأصواء وجميع العالمين . فقال هذا حقّ لأن الضوء لا يصل لأبصارنا إلا اذا كانت حركاته قد وصلت إلى ٤٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيحس بلون الحمرة ، ولا يزال يزداد فتكون هناك ألوان أخرى حتى تصل عدد الحركات إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيكون اللون البنفسجي وما وراء ذلك غير معلوم .

فقلت له : إذن أيها الأخ جميع الحركات من ٣٢ ألفا إلى ٤٠٠ مليون مليون لم نعط لها حاسة حتى نعرفها ، ومافوق ٧٠٠ مليون مليون لانعرفه حتى نصل إلى نحوستة آلاف مليون مليون فهذا لانعرفه ، وتتجلى لنا تلك الحركات بصفة مذوقات ومشمومات وملموسات ناعمة وخشنة وهكذا ، فهنا أمران : حركات لانعلمها ، وحركات وصل لنا علمها ، والحركات التي وصل لنا علمها منها ماهو من فعلنا ، ومنها ماهو من فعل خالقنا ، فما كان من فعلنا فهوضعيف كحركات تسمى أصوات كالكلام وكالغناء ، وما كان من فعل خالقنا فهو قوي جدا ظهر بهيئة ضوء تارة ، وتارة بهيئة حديد ونحاس وأرض وسماء وهكذا ، ونسبة كلامنا إلى قوة كلام الله وهي هذه العوالم نسبة ضئيلة جدا ، ذلك أن ٣٢ ألفا بالنسبة إلى مليون واحد إنما هي نحو جزء من ٣٠ جزءا ، فكيف بها إذا نسبت إلى ألف مليون ، ثم إلى مليون مليون ، ثم إلى ستة آلاف مليون مليون ، أنها إذن تصبح كالعدم ، فهي كنسبة الانسان الضعيف الذي يشبه المعدوم إلى خالقه القادر العظيم ، أليس هذا معناه أن العوالم كلمات الله فعلا ، لأنها حركات كحركات كلامنا بحسب ما كشفه العلماء في عصرنا وهو يقرأ في مدارس الشرق والغرب . قال بلى . قلت : أفليست كلمات الله إذن هي هي أنفسها هذه المخلوقات وهو هو المتكلم بها ، ثم كلماته ان كانت أصواتا سمعتها آذاننا كأصوات الرياح ، أوكانت مذوقات أومشمومات أومبصرات أوحارة أوباردة أو بيضاء أوحمراء مثلا أدركتها حواسنا ، إذن الكشف الحديث أبان لنا معنى قوله تعالى : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » الآية « قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربي » ، « وكلمته ألقاها إلى مريم » وليس معنى هذا أن ذلك كلام الله القديم . كلا . وانما هو كضرب مثل له ، إن من هذا النوع الانساني من صفت أرواحهم فيرون أن هذا العالم خطاب من الله لهم وكأنهم في حضرته الآن ، هكذا يخطر لي أن في الأرض أناسا على هذا المنوال .

أقول : إن آية : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وان كان يراد بها ضرب المثل فان العلم أرانا أن الممثل له قريب المنال ، فهو وان لم يسم في العرف كلاما ولكنه يشبه الكلام لأنه حركات في الأثير ، وهذه الحركات قوية متينة وآثارها مدهشة بحيث تشعر بها جميع حواسنا على اختلاف طبقاتها وتعطينا جميع اللذات المحسوسات والمعقولات الآن في الدنيا ، فاذا متنا وانكشف الغطاء لنا ، وتجردت أرواحنا ذاقت من اللذات أضعاف أضعاف ماتذوق هنا وهي محجوبة في هذه الحياة ، إذن خطاب الله يصدر عنه المتكلم به ويظهر في الخارج عند النطق به (وهذا ليس هو الكلام القديم بل ضرب مثل له) ويبقى آمادا وتحس به جميع الحواس ، وكلام المخلوق لاقدرة له إلا على الوصول إلى الأسماع فحسب ، ولانتيجة له إلا مايفعله السامعون .

ولما عرفت ذلك وكنت إذ ذاك خارج القاهرة تبين لي أن هذه الأشجار والأحجار والأنهار والأزهار والماء والسماء كلها كلمات ، وهذه الكلمات مفرقت على حواس الانسان والله نفسه كأنه بها يخاطبنا ، فالعلوم المشروحة في هذا المقام جميعها شرح لبعض تلك الكلمات التي نعيش فيها . إذن العالم كله كلمات فعلا ، والكلمات مفروءات لأولي الألباب .

هذا ماخطر لي يوم الجمعة السابقة في التاريخ المذكور والحمد لله رب العالمين . فرغت من هذه المقالة صباح يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٣٥١ هجرية — ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٢ م بحي السيدة زينب بشارع زين العابدين .

حديث طريف

حضر صاحبي العالم بعد ذلك فى نفس اليوم وقال لى : لقد نسيت أن تذكر شيئا أشرت إليه فى علم التربية ألم تقل فيما تقدم أن الانسان فى أدوار حياته يضارع أطوار الخليقة ، ووعدت أن تشرح ذلك . فقلت حقا : « إن الله لايخلف الميعاد » إن العلماء فى عصرنا نظروا فى لعب الأطفال فرأوها أمرا عجبا مدهشا ، وهذا الأمر المدهش معناه قول الله تعالى : « وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » ونحن نسمى لعب الأطفال لعبا ولكن للأطفال غريزة ومشروعة والله هو الزارع ، فهل يخلق الله اللعب ؟ هذا لعب عندنا ، وجد عند الله والحكماء ، إن الحكيم ينظر إلى لعب الأطفال والصغار ويحدق بنظره إلى أسلاف الطفل وأسلاف الحيوان فيجد ذلك اللعب ماهو إلا مافطر عليه أجداده فى كرّهم وفرّهم ، وصيدهم وقنصهم ، سواء أكان انسانا أوحيوانا ، وهذا اللعب من جهة أخرى يدل على مستقبل الطفل ، فهو وارث لأعمال الآباء ، يجددها من جهة وهو من جهة أخرى يستعد لحياة جديدة يتمرّن عليها ، إذن اللعب أعطى صورتين : صورة للماضى ، وصورة للمستقبل كلاهما فى آن واحد ، فالفتاة تلعب بالعروس وتغنى لها ، والفتى يتقلد السيف والرمح ويركب العود كأنه فرس ، وهما يحكيان أفعال الآباء والأجداد ، ومن جهة أخرى هما يتأهبان للمستقبل القريب ، بل الأمر أعظم من ذلك .

إن الانسان يلخص فى الرحم جميع الأدوار التى مرّت فيها الخليقة كلها من خلية واحدة إلى الانسان ثم هو يلخص فى أدوار ترقيته من وقت ميلاده إلى نضوجه جميع الأدوار التى مرّ بها الجنس البشرى فى تقدمه من الوحشية إلى الحضارة . إن كل لعب من ألعاب الأطفال يدل على دور من أدوار الآباء فى أعمالهم العادية تقبله الطفل هنا بهيئة لعب ، ثم ان لكل امرئ مواهب خاصة تظهر ما استعدّ له ، فاذا راقبنا ذلك ووضعنا كل امرئ فيما خلق له فذلك هو اليوم الذى يسعد فيه الانسان ، وهذا القول ملخص آراء الاستاذ [ستانلى هول] والاستاذ [كارل جروس] أحد أساتذة [جامعة بال] فى سنة ١٨٩٦ م انتهى الحديث فى نفس التاريخ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولاقوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

تذكرة

سنذكر ان شاء الله تعالى فى سورة « والشمس وضحاها » فصولا من علم التربية جليلة نافعة اه

جوهرة فى قوله تعالى : ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففرّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين

خلقت اللهم من كل شىء زوجين ، ودعوتنا للتذكر ، وأمرتنا بالفرار إليك ، ونحن لا نتذكر إلا بالعلم لاسيما علم الحيوان الذى ظهر فيه الزوجان ظهورا تاما . وسمعناك تقول فى ﴿ سورة الجاثية ﴾ : « وفى خلقكم وما يبثّ من دابة » الخ وفى ﴿ سورة الزخرف ﴾ : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا إلى ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » وفى ﴿ سورة الغاشية ﴾ : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت » ثم تقول : « فذكر إنما أنت مذكر » نحن الآن نتذكر ونتفكر فوجدنا أن ذكر الابل فى الآية ، بقصد به الإضرب مثل ، لأن الابل مراكب الصحراء والعرب تعيرها يركبون ، وهى تحمل أثقالهم ، فذكر مايناسب عملهم ، ولو أن القرآن نزل على رجل هندى لعيّر أن ينظروا إلى الفيل كيف خلق ، أو على الذين يطعمون الحيات فى أواسط افريقيا لذكر الحيات ،

أوالذين يجلون القرود فى الهند أيضا لذكر القرود ، إذن الله بهذه الآية وأمثالها فتح لنا باب التذكرة والعلم فلنبحث إذن فى كل حيوان ، ولنقدم مقدمة فنقول :

إن الله عزّوجل أكثر فى القرآن من ذكر العقل فيقول : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ومن ذكر التدبر والتذكر ، وعوّل جدّ التعويل على العقول ، فلننظر بعقولنا فى هذه الفطرة الانسانية العامّة ، انا لما خلقنا فى هذه الأرض وجدنا لنا شهوة لطلب الغذاء ، ولطلب التناسل ، وغضبا لمدافعة الأعداء ، وقوّة أعلى منهما لمعرفة الحقائق كلها كالذى نحن فيه ، ووجدنا الديانات تطلب منا الاعتدال فى القوّتين الأوليين ، فنسمع الله يقول : « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا » ويقول : « ولاتقربوا الزنا » ويقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » إذن الديانات والوعظ والقضاء إنما جاءت لتلطيف هذه القوى فينا لاغير ، إن شهوة الغذاء ، وشهوة التناسل ، والقوّة الغضبية فينا كلها قوى شريفة رفيعة المنزلة أنزلها الله لحياتنا ، وانما المذموم الخروج بها عن مقاصدها ، والافنحن بغيرها لاحياة لنا ، فكل قانون ، وكل وعظ دينى أودنيوى وظيفتها أن تجعل هذه القوى معتدلة لاغير ، ولكن القوّة العليا وهى الفكرية المسيطرة على القوّتين السابقتين لها مطالب أيضا ومطالبها هوالعلم وغذاؤها صور المعلومات ، فكما كان لشهوة الغذاء أنواع الطعام ، ولشهوة الوقاع أنواع النساء ، وللقوّة الغضبية أنواع القتال ، هكذا للقوّة العاقلة أنواع الصور العلمية المكتسبة من الموادّ المحيطة بنا ، وهذه وظيفة تامّة قائمة بنفسها لا أنها مهذبة لحسب ، بل هى شهوة مقدّسة وهى الخاصة بالانسان ، فاذا غذاها صار انسانا تاما ، واذا تركها بقى حيوانا لأنه لم يرتق عن الحيوان فهو مثله فى الشهوتين السابقتين ، نعم اذا كان قد هذب الشهوتين السابقتين فقد تكمل فى العمل ، ولكن العلم هو الخاصية الانسانية ، الحيوان ليس فى حاجة إلى التهذيب أما الانسان فهو فى حاجة إليه ، وأذكر منظرا شاهدته قبل كتابة هذه الأسطر بساعات لأنى الساعة أكتب هذا قريبا من منتصف ليلة الجمعة ١٧ يناير سنة ١٩٣٠ م وفى عصر الخميس كنت أرتاض ماشيا عند مصر القديمة مارّا على [كوبرى الملك الصالح] فرأيت راعيا يسوق عنزات ذوات ضروع مملوءة لبنا ومعهنّ تيسهنّ فتأملت ذيولهنّ اذا هى مرفوعة دائما ، وقد عرى السيلان عما يغطيهما فترى الديل كأنه قوس رجع إلى الخلف فقلت فى نفسى : يقول الله تعالى : « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ولباس التقوى ذلك خير » فنحن أمرنا وامتنّ الله علينا باللباس الذى يوارى سوآتنا ، أما هذه الحيوانات فقد كشف سوآتها وعاشت بهذا والله لايخلق إلا الكمال ففكرت فيما خلق النفس من أمر هذه الحيوانات ، وأن ذكورها لاتقرب اناثها إلا وهى غير حاملة ، ومتى حملت لاتقربها ، وهذا عجيب ! إذن كشف العورة لايضرّها هى ، لأن هناك قانونا مسنونا ، وهو أن التيس لايقرب العنز إلا ورجهه حتى من الحنين . فسألت الرعى فقال نعم انها متى حملت لايقربها التيس ولوفى اليوم الثانى ، فأما الانسان فانه أعطيت له الحرّية فى كل شىء . فشهوة العداء لاحدّ لها وهكذا شهوة الوقاع . فهذه الحرّية وجب أن تقيد بالقيود الشرعية والعقلية لتحفظ حياته وكماله . وهذه الحرّية شرف له لأنه طلب منه الجهد بنفسه ، فهوهو المأمور بالمحافظة على قواه ، فاذا قدر على أنواع الطعام وفنون ألوانه ولم يحد نفسه عن تناول أنواع الشهوات فى وقوع . وهو كذلك أن يمنع نفسه كما منعت ذكور تلك الحيوانات بعض أنثاها فى بعض الأحوال . وهكذا نرى الحيوانات لاتشرب إذا عطشت بخلاف الانسان فانه يشرب الخمر متعمدا ويرتكبه . فهذه حرّية أعطيت له وقد علم أنه هو الذى يطلب هذه الحرّية ، أما الحيوانات التى فى البرية فهى مربوطة وسيقت إليها عن طريق الرأى والحكيم الذى سخرها وقهرها أعظم له فكأنه قيل له : أنت حرّ فى نفسك ، لأنك تريد أن تكون ملكا على عواصفك

لا أنك مقيد بقيود طبيعية تحجزك ، بل قيودك تكون من تلقاء نفسك ، وهذا شرف لك ، وخذلان لك ان قصرت ، والمقصود من هذا الجهاد أن تعتاد نفسك المران على العمل ، وترتقى إلى ماهو أعلى منه وهو تغذية القوة العاقلة بالصور الحكمية ، ولن تستقيم أيها الانسان حالك إلا بجدك واجتهادك .

إن هذه العنزات التى رأيتها اليوم قرأت فيها درسين : الدرس المتقدم وهو درس الشهوات وحفظها بالغريزة فى الحيوان ، واحتياج الانسان فى حفظها إلى العلم والدين ، ودرس الألوان ، فان العنزات رأيت منهن البيضاء والسوداء والحراء والصفراء والداكنة اللون ، ومنهن من كان جسمها مختلط البياض بالسواد ، أو بالحمرة ، أو بالصفرة ، أو بالجميع ، أو بالبعض ، وهن متصاحبات متاحبات ، فقلت فى نفسى هذا معنى قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » لأن الناس كما احتاجوا فى طعامهم وشرابهم ودفاعهم إلى وازع ليحفظوا قواهم هكذا فى السياسة العامة يحتاجون إلى وازع يرفع من شأنهم ، فهاهم أولاء أهل أمريكا يعادى البيض منهم السود لمجرد اللون ، وهكذا فى بلاد الانجليز فى هذه السنة لم يقبل أصحاب المطاعم والمجتمعات العامة رجلا أسود أمريكيا مع أنه مثر عظيم ، ذلك كله لمجرد اللون ، فهؤلاء لم يجدوا مايهذب هذه النفوس المحبوسة فى أمور تافهة كالألوان ، ولكن هذه العنزات متحابة معا وهن مختلفات الألوان لأنهن يرين أن النظر لهذه الفوارق اللونية أمر تافه ونظرة حمقاء وقلة عقل وقصر فى العلم ، ولكن ليس هذا عندهن علما وانما هو غريزة كغريزة امتناع الوقاع أثناء حمل الأنثى ، فههنا درسان درستهما اليوم على هذه العنزات درس أخلاق ودرس سياسة ، ولهذا قال الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وورد فى الحديث : « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى » وأمر بلالا أن يؤذن فى الكعبة يوم فتح مكة بمحضر من قريش ، كل ذلك تهذيب لهذه النفوس الانسانية فى الامور السياسية العامة ، والحيوان لم يحتج إلى هذا لأن غريزته تكفيه ، الحيوان ليس مستعدا لحور العلوم والمعارف ولذلك لم يكلف بالجهاد لحفظ شهواته ، بل كفته الغريزة كما قدمنا ، أما الانسان فجهاده فى مدافعة شهواته يكون مقدمة لجهاده فى اكمال نفسه بالعلم وادراك الحقائق التى لم يخلق إلا لادراكها ، إذن هذه الشهوات واطلاق الحرية للانسان فيها جعلت أشبه بامتحان له فان جد فى المحافظة على قواه الشهوية كان ذلك دليلا على أنه سيال العلوم العقلية ويكون رجلا كاملا ، وان بقى فى غمرات شهواته دل ذلك على أنه ليس أهلا لأن يستكمل نفسه بالعلم .

هذا ما أردت جعله مقدمة لما سأكتبه فى هذه الآية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » وما مثلها من قوله تعالى : « والذى خلق الأزواج كلها الخ » فلأشرع إذن فى دراسة هذه الأزواج الحيوانية وأقول :

لقد تقدم الكلام عليها مفرقة فى هذا التفسير ، فتراها فى سورة فاطر ، وفى سورة النحل ، وفى سورة الحج عند آيه : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولواجتمعوا له » وهكذا فى سور كثيرة ، ولكنى أريد هنا أن أذكر حادثة عجيبة : ذلك أنى قدمت فى سورة يونس أنى أرسلت خطابا الى الحكومة المصرية ، والى رجال البرلمان بين لهم فيه أن تعليم الشبان فى المدارس الثانوية ناقص إذ لا نبات ولاحيوان ولاتشريح ، ولاعلم طبقات الأرض ، ولاعلم الفلك تدرس فيها ، فالتلميذ يخرج وهوجاهل ماحوله ، فيجب أن تدرس هذه العلوم ، وأن يجعل التعليم الثانوى خمس سنين ، لأن هذه المواد قد حذفت من المدارس لما دخل الاحتلال البلاد فوجب رجوعها وأنتم لاتعلمون عندكم استقلال ، وبقية الخطاب عنده هناك مسطورا .

ولاتعجب منى أن هذا العمل قد عمل أكثره لأنى ولاتعجب أن ماكنت أقوله كثيرا فى هذا التفسير

أن بلاد الاسلام سترتقى قريبا قد أخذ يتحقق بعضه ، وهذه بلادى لما كتبت ذلك الخطاب منذ بضع سنين لم تكن هذه العلوم فيها ، فهاأنا ذا الآن أرى أمامى علم الحيوان وعلم النبات مشروحين فى كتبهم شرحا وافيا عجيبا ، وأنا لاأزال أزاول طبع التفسير ، أفليس هذا معناه أن مابشرت به المسلمين من أنهم سيرتقون سريعا قد ابتدأ تحقيقه وهذا من البشائر ، وهاهوذا أمامى كتاب فى علم الحيوان تأليف ثلاثة من علماء هذا الفن المصريين ، فلأبين طرفا من ذلك الكتاب ها بحيث يكون مفيدا فوائد أحسن مما سبق فى هذا الكتاب ، وأريد بذلك أن أبين لك طريقة دراسة هذا الفن فى بلادنا اليوم بعد أن حرمت تلك العلوم فى أيام الاحتلال ، فقد جاء فى الكتاب المذكور تحت العنوان التالى مانصه :

اقسام المملكة الحيوانية

تنقسم الحيوانات تبعا لتركيبها الخلوى إلى مملكتين وهما : —

(١) الحيوانات الوحيدة الخلية أو البروتوزوه ، وتسمى كذلك بالحيوانات الأولية ، وهى مايتركب جسمها من خلية واحدة .

(٢) الحيوانات العديدة الخلايا أو الميتاروه ، وهى مايتركب جسمها من خلايا عديدة تتكون عنها أنسجة مختلفة تقوم بالوظائف الحيوية للجسم . وتنقسم الحيوانات العديدة الخلايا الى قسمين كبيرين وهما :

[ا] الحيوانات اللافقرية هى ماليس لها سلسلة فقرية ، وتنقسم الى ثمان رتب كما هو مبين بالجدول الآتى

[ب] الحيوانات الفقرية هى ما لها سلسلة فقرية ، وتنقسم الى خمس رتب كما هو مبين بالجدول كذلك

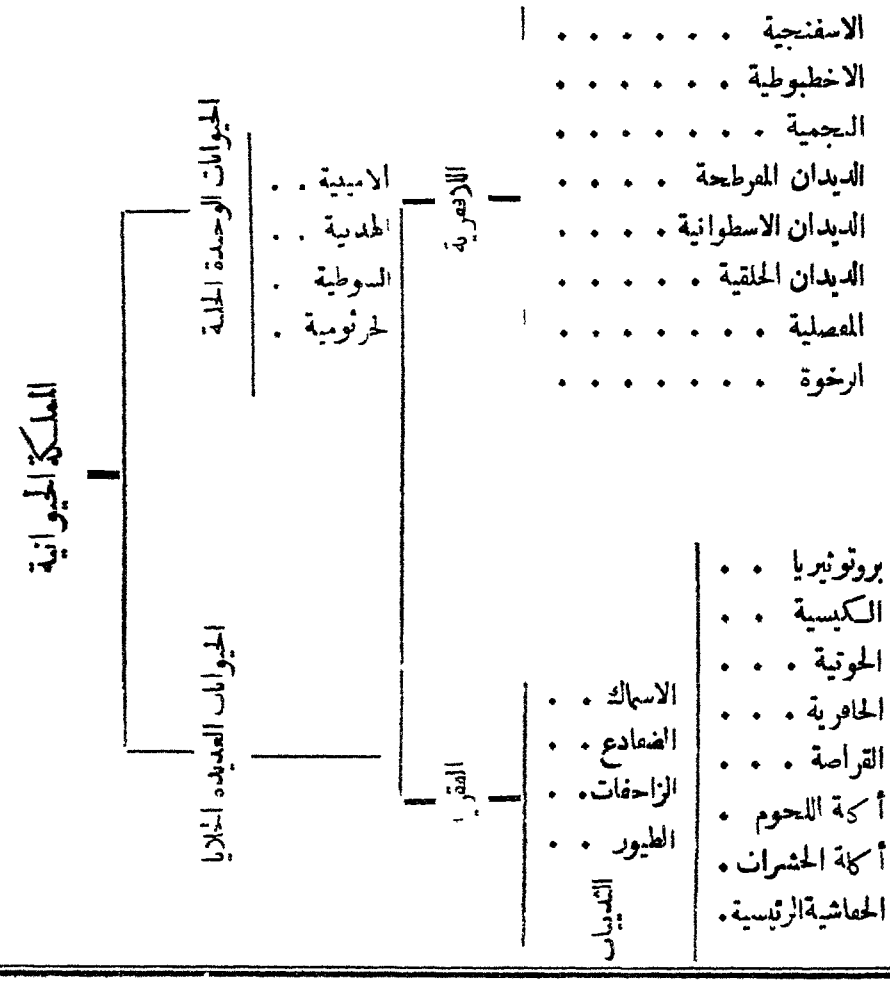

فالحيوانات الوحيدة الخلية هذه جعلت أربعة أقسام نراها فيما تقدم هنا ، ومن هذه الأربعة [الأميبا] (انظر شكل ٣٥) .

الأميبا

الأميبا كائن حيّ دقيق الحجم يعيش فى البرك والمستنقعات ، أوعلى سيقان النباتات المائية ، أوعلى الأحجار الراسية فى القاع ، ويرى أكبرها بصعوبة بالعين المجرّدة .

شكلها

عند ماتشاهد [الأميبا] بالمكرسكوب تكون عبارة عن كتلة بروتوبلازمية شفافة هلامية عارية أى لاجدارلها ، وليس لها شكل معين حيث تتشكل بأشكال مختلفة فى وقت قصيرتبعا لبروزأجزاء بروتوبلازمية من جسمها ، ، ويلاحظ كذلك أن البروتوبلازمية فى حركة مستمرّة . (انظر شكل ٣٥)

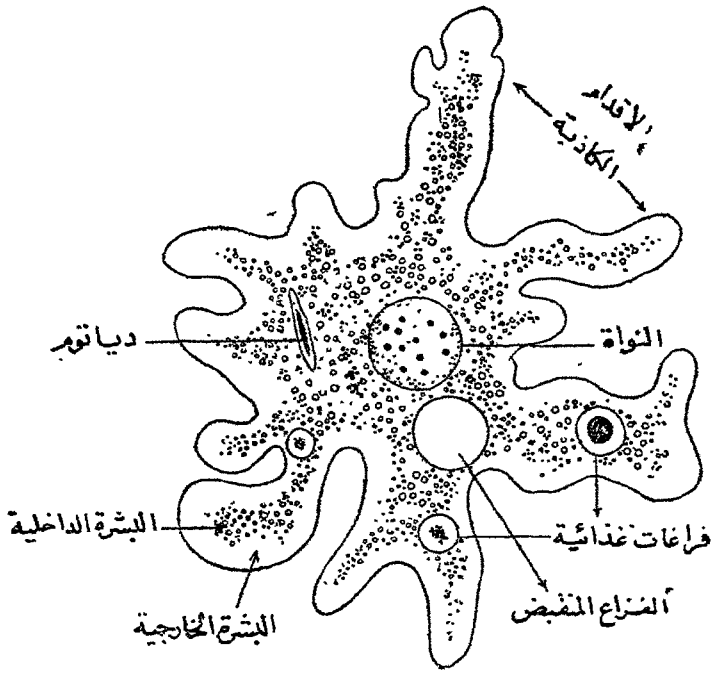

(شكل ٣٥ ـ الأميبا)

القسم الثانى من وحيد الخلية : الحيوانات الهدبية

والذى يهمنا منها أن نعرف أن الحيوانات الطفيلية التى تعيش فى الغشاء المخاطى للأمعاء الغليظة تسبب الاسهال المخاطى الدموى المسمى [الدسنتاريا] إنما هى من هذه الحيوانات الهدبية ، وهى من الوحيدة الخلية . انتهى الكلام على القسم الثانى .

القسم الثالث من وحيد الخلية

الحيوانات السوطية

والحيوانات السوطية هى حيوانات أوّلية ، يكون فى أحد طرفيها زائدة سوطية تشبه الذنب ، تساعدها على الحركة ، وقد يكون ببعض أنواعها سوطان ، والبعض الآخر لاسوط له ، تعيش هذه الحيوانات فى وسط سائل ، وتتحرّك فيه بواسطة حركة سوطها الكرباجية .

والذى يهمنا من هذا النوع [البوجلينا] وهى حيوانات مكروسكوبية تعيش على سطح المياه العذبة الراكدة فى البرك والمستنقعات ، وشكلها مغزلى ، وبأحد طرفى جسمها سوط طويل بجانبه فتحة الفم .

وتتغذى بالكائنات الدنيئة ، وبقايا الموادّ العضوية التى تجدها فى الماء ، وتتغذى [البوجلينا] بطريقة نباتية ، وهى أنها تستخلص الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الذائب فى الماء وتمثله فى جسمها ، ثم تمتص الآزوت وغيره من العناصر بشكل أملاح ذائبة فى الماء .

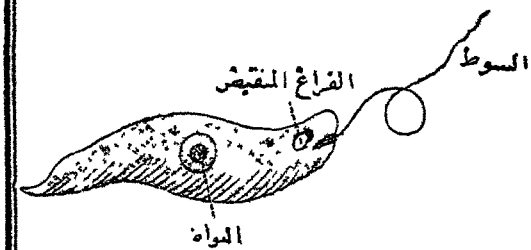

(شكل ٣٦ ــ البوجلينا)

وتتغذى كذلك بطريقة حيوانية ، وهى إدخال قطع الموادّ العضوية السالفة الذكر من فتحة فمها (انظر شكل ٣٦) وهو حيوان سوطى صغير يعيش معيشة طفيلية فى دم الانسان ، ويسبب له مرض النوم وهو مرض منتشر فى أواسط أفريقيا ، وتنقله إلى الانسان ذبابة خاصة تسمى [جلوسينا] ، يمضى فى جسمها حيوان مرض النوم جزءا من حياته ، وعند ماتمتص الذبابة الملوّثة دم الانسان تمرّ هذه الحيوانات فى لعابها إلى الجرح الذى تمتص منه ثم تدور مع الدم وتتكاثر فيه وتسبب الأعراض المرضية للمصاب .

القسم الرابع من الحيوانات الوحيدة الخلية

الحيوانات الجرثومية

الحيوانات الجرثومية هى حيوانات أوّلية ليس لها أعضاء خاصة للحركة ، وتعيش معيشة طفيلية فى الأنسجة المختلفة لأجسام الحيوانات التى تصيبها وتسبب لها أمراضا قتالة ، فمنها :

(١) [الكوكسيديا] : وهو حيوان دنىء يصيب حيوانات مختلفة ، ففى الأرانب يعيش فى أنسجة كبدها ويسبب لها مرض تعفن الكبد ، وفى الأغنام يعيش فى الغشاء المخاطى لأمعائها ، وينتشر بينها بسرعة ويعرف بوباء الكوكسيديا .

(٢) [حيوان الملاريا] : وهو يعيش فى دم الانسان ، ويسبب له حمى الملاريا .

ثم إن الناموس على قسمين : قسم ينقل هذه الملاريا ، وقسم لاينقلها ، والقسم الذى ينقلها حينما يتغذى بدم الانسان المصاب بالملاريا تتناسل تلك الحيوانات فى جوف الناموسة ، وهناك تكون معدية فتنقل ذلك النسل إلى جسم إنسان آخر فتحصل العدوى ، وهذه صورة معدة الناموسة المذكورة (انظر شكل ٣٧ فى الصفحة التالية) .

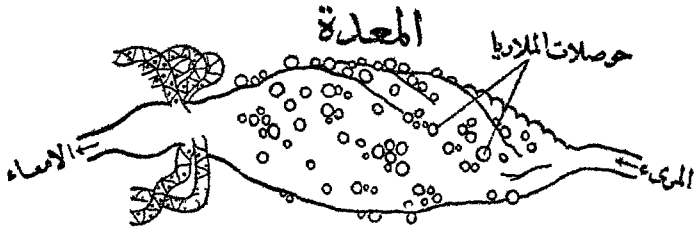

(شكل ٣٧ ـ معدة الناموس وعليها حوصلات الملاريا)

الكلام على الحيوانات العديدة الخلايا

فمنها الاسفنجية كما تقدم وهذه صورتها (انظر شكل ٣٨) وهاهوذا :

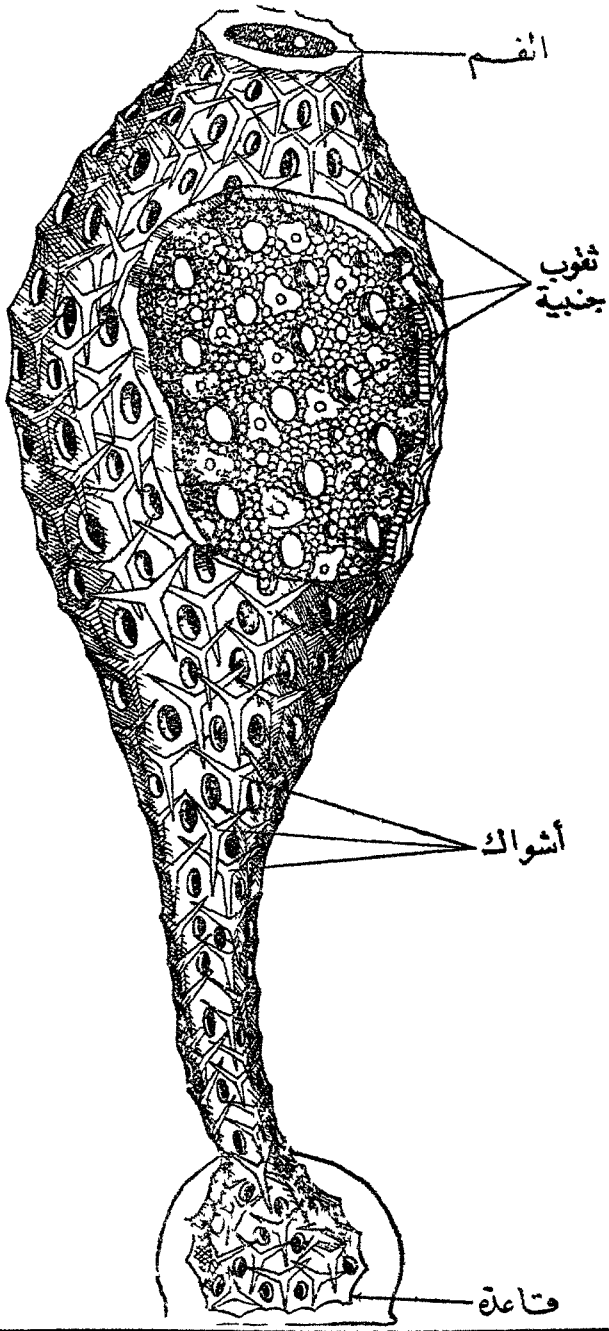

(شكل ٣٨ — نوع من الاسفنج الحجرى البسيط)

ومنها اسفنج الحمام ، وهذه صورته (انظر شكل ٣٩) :

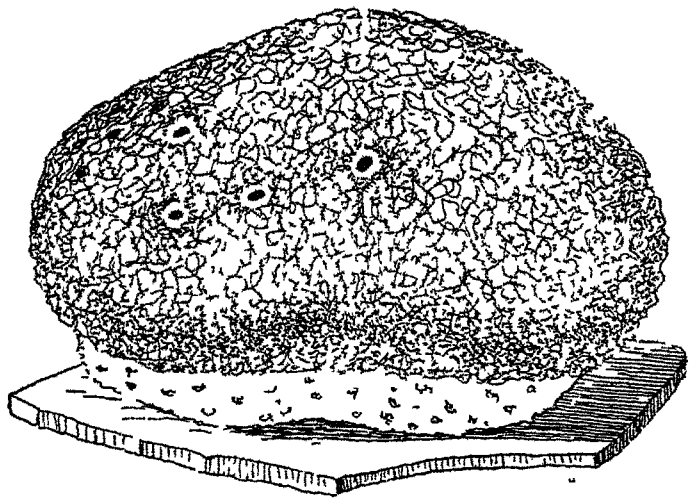

(شكل ٣٩ ـ اسفنج الحمام)

القسم الثاني من الحيوانات كثيرة الخلية

الحيوانات الاحطوطية

(انظر شكل ٤٠)

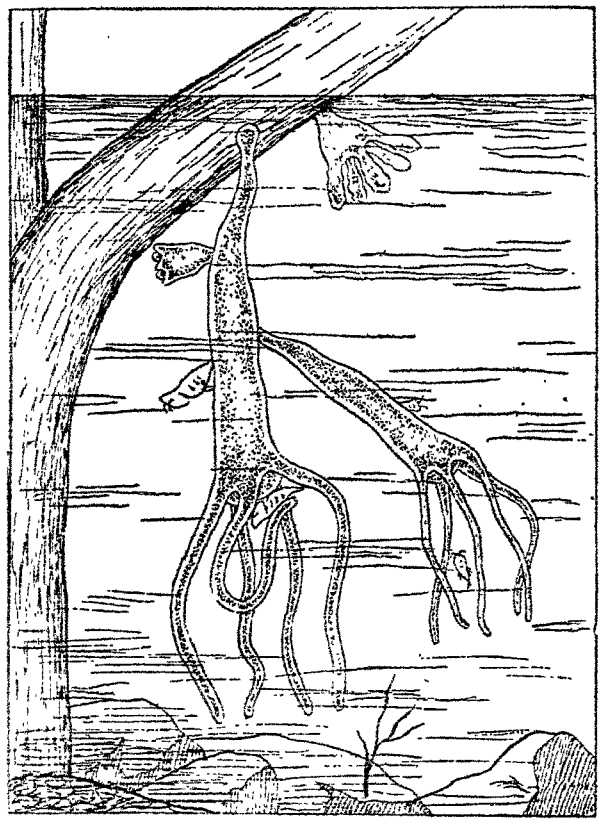

شكل ٤٠ ـــ أخطبوط فى حالته الطبيعية (× ٧)

ومن الحيوانات الاخطبوطية حيوان المرجان ، وقد تقدّم فى سورة الجاثية ، وفى سورة النحل .

القسم الثالث من الحيوانات العديدة الخلايا

الحيوانات النجمية ، وهى ذوات الجلد الشوكى

(انظر شكل ٤١)

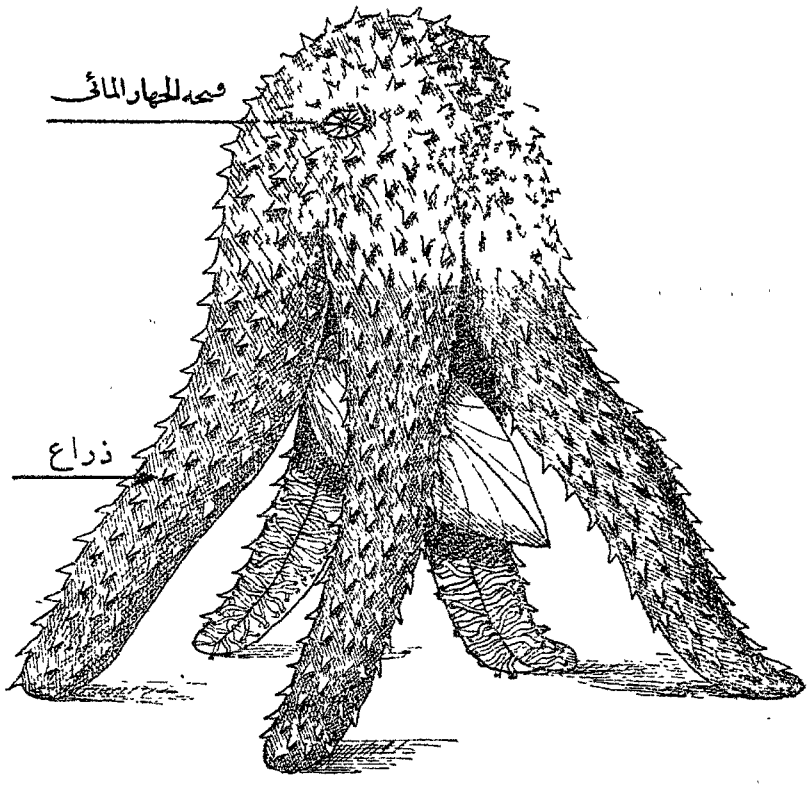

نجم بفترس محارا

(شكل ٤١)

حيوانات هذه الرتبة كلها بحرية ، يعيش بعضها على سواحل البحار كنجم البحر ، والبعض بالقرب من الشواطئ كقنفذ البحر ، والبعض الآخر فى وسط البحار كخيار البحر .

وكل هذه الحيوانات ذات شكل منتظم أعضاؤها متشععة كأنصاف أقطار الدائرة حول مركزها ، وأجسامها فى الغالب مغطاة بأشواك قد تكون طويلة كما فى قنفذ البحر ، أوقصيرة كما فى نجم البحر ، وقد لاتظهر أصلا وتعوّض بصفائح حجرية صغيرة موضوعة تحت الجلد كما فى خيار البحر ، وقد تكون هذه الصفائح كثيرة وتتصل بعضها ببعض فتكون شبه صندوق كما فى قنفذ البحر ، وقد توجد الصفائح والأشواك معا فى الحيوان الواحد . وتشاهد على أجسام هذه الحيوانات زوائد بيضاء اللون متحركة تمتد وتنكمش عند الارادة ، وتنتهى كل واحدة منها بقرص صغير مقعرقليلا ، وهذه الزوائد هى أعضاء الحركة والالتصاق ، والحركة فى هذه الحيوانات بطيئة جدا .

الذكور فى هذه الحيوانات منفصلة عن الاناث ، ومن الصعب جدا التفرقة بينهما من غير الاستعانة بالتشريح .

[نجم البحر] يشبه هذا الحيوان النجمة فى شكلها لهذا سمى نجم البحر ، ويتركب جسمه من قرص وسطى يتفرّع منه عدد من الأعضاء (خمسة فى الغالب) وكلها متشابهة شكلا وفى الغالب متساوية حجما ،

وتعرف هذه الأعضاء بالأذرع ، والحيوان سطحان : أحدهما علوى والآخر سفلى ، والسطح العلوى أقتم لونا من السفلى ، وبوسطه فتحة صغيرة جدا لاترى بسهولة تعرف بالأست .

ويوجد على حافة القرص من أعلى أيضا وبجوار نقطة اتصال ذراعين من أذرع الحيوان جزء قشرى مستدير به عدة ثقوب صغيرة يعرف بفتحة الجهاز المائى .

ويوجد عدد كبير من صفائح كلسية منتشرة تحت جلد الحيوان تبرزمنها أشواك كثيرة تظهرفوق سطح الجسم كما أنه تبرز من بعض هذه الصفائح أعضاء صغيرة كالأشواك شبيهة بالملقط ، وظيفتها التقاط الأشياء الصغيرة كالحشائش المائية ، وكذلك تنظيف جسم الحيوان مما قد يلتصق به من أوساخ (انظرشكل ٤٢)

وتظهر على جسم الحيوان فى المواضع الخالية من الصفائح الكلسية زوائد صغيرة شبيهة بالأصابع ذات جدر جلدية رقيقة للغاية يحصل الحيوان بواسطتها على مايحتاج إليه من الاكسوجين الذائب فى الماء المحيط به ، فهى إذن أعضاء للتنفس .

وتوجد فى وسط القرص من أسفل فتحة تعرف بالفم محوطة بأشواك كلسية .

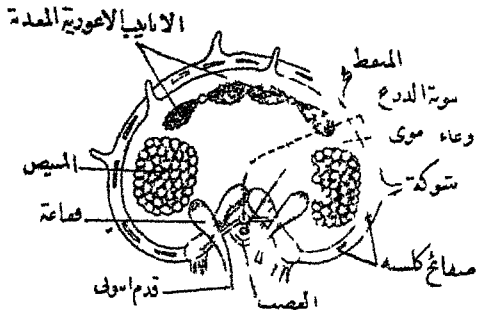

(شكل ٤٢ ــ قطاع عرضى فى الذراع)

القسم الرابع من الحيوانات العديدة الخلايا التى لافقرات لها كالتى قبلها

الديدان المفرطحة ومنها الدودة الكبدية

تعيش الدودة الكبدية وهى فى طورها الكامل فى القنوات المرارية الكبيرة فى كبد الأغنام والمواشى والجمال ، وأحيانا الانسان ، ويبلغ طولها ستيمترا أو أكثر ، وتسبب لهذه الحيوانات مرض تعفن الكبد أى تفتت الكبد ، لأن الكبد المصاب يصير خشن الملمس غير مرن ، وسهل التفتت . (انظر شكل ٤٣) .

ومنها دودة البلهارسيا (انظر شكل ٤٤ فى الصفحة التالية)

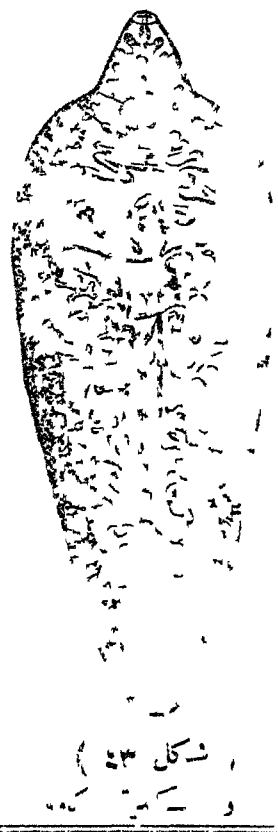
(شكل ٤٣)

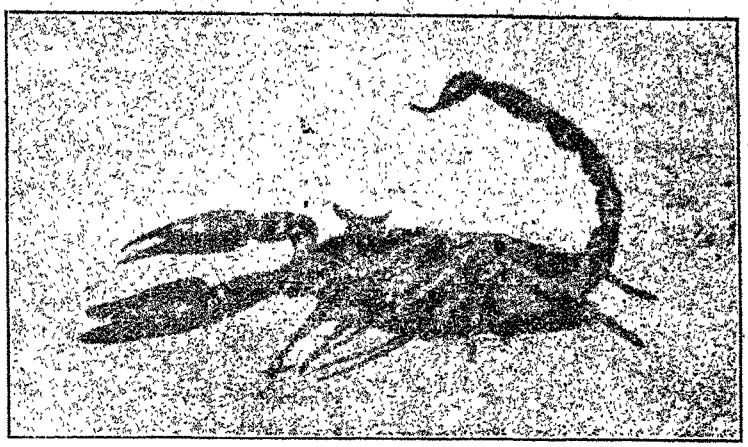

(شكل ٤٩ ــ عقربة تحمل صغارها على ظهرها)

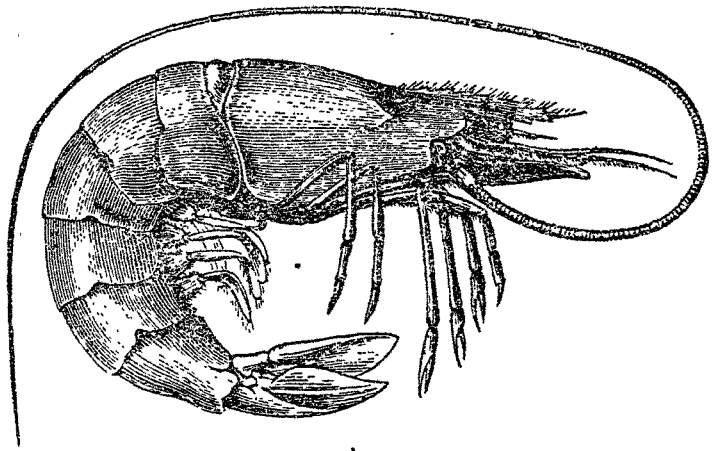

(شكل ٥٠ ــ الجبرى بالحجم الحقيقى)

القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهى ليست ذات فقرات

الحيوانات الرخوة ، ومنها القواقع ، وبلح البحر

(انظر شكل ٥١)

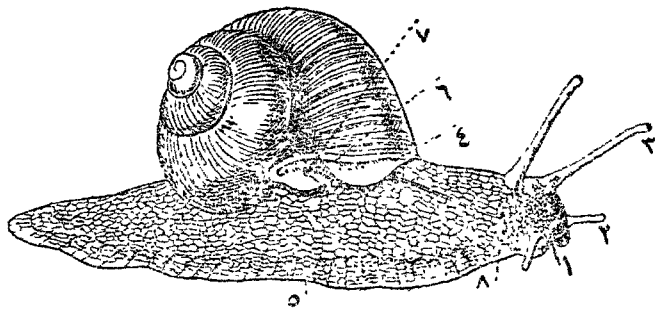

(شكل ٥١ ــ الوقع الرومانى)

(١) الفم (٢) الزوائد الأمامية (٣) الزوائد الخلفية الحاملة للعين (٤) حافة البرنس (٥) القدم (٦) الفتحة التنفسية (٧) الفتحة الشرجية (٨) الفتحة التناسلية

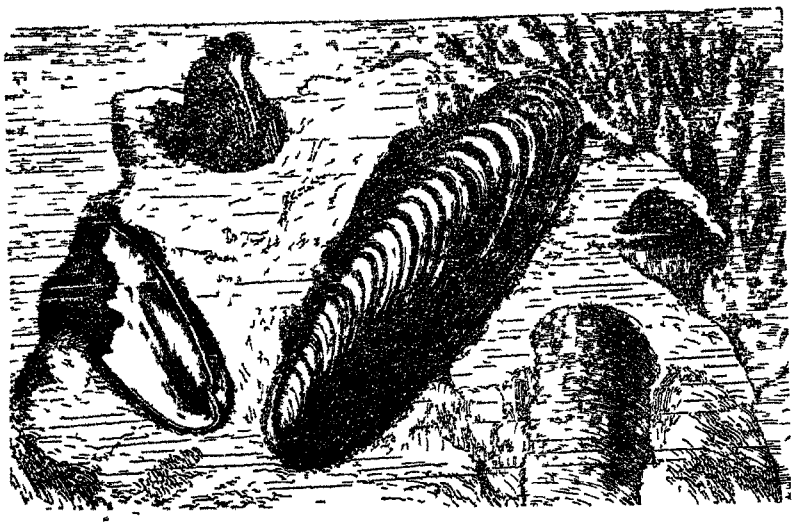

(شكل ٥٢ ـ ملح البحر مدعوكا فى الصحر بحالته الطبيعية)

هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » فى هذا المقام ، وبهذا تمّ الكلام على أقسام الحيوانات الثمانية الوحيدة الخلية والعديدة الخلية ، والحمد لله رب العالمين .

بهجة الحكمة فى هذه المناظر الحيوانية وعجائبها وبدائعها

أما يا ألله وجميع المعرمين بعجائبك وقرّاء هذا التفسير المطلعين على أكثره من أهل الفطنة موقنون إيقانا مبنيا على المباحث العقلية ، والمشاهدات الحسية ، والتجربات الحكمية ، انك رحيم رحمة لاحدّ لها ، بحيث أصبحت رحمة الأمهات والآباء بالنسبة لها قليلة الجدوى ، وبهذا فهمنا قولك : « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلاهو العزيز الحكيم » فأنت عززت فحكمت وأحكمت التدبير وأولو العلم هم الذين يشهدون بالحق ، والجهال مؤمنون لاعبر ، وفهمنا أيضا معنى قولك فى القرآن : « وهو أرحم الراحمين » فكل ما عنده رحمة ولكنها رحمة جزئية ، فأما رحمتك التى شهدناها فانها لاحدّ لها ، ومن آيات ذلك إحكامك الصنع فى أجسامنا ، ودقة صنع أعيننا ، وتلك الطبقات العجيبة المظلمة ، وكيف وضعت بهيئة بها تقبل ضوء الشمس ، وهذا الضوء يوصل الصور المرئية ، وهذه الصور تدخل فى تلك الطبقات وتخترق العدسة وتمرّ فى الشكية وراءها ، ثم تصل إلى أعصاب الاحساس البصرى وتتجه إلى القوّة الباصرة فى الدماغ وهناك يكون الاحساس ، وماهذه إلاوسائط ، وقد فعلت أمثال ذلك فى إحساسنا بالأصوات وفهم الكلمات والجمل ، وأبدعت وصوّرت وأحكمت ، وأودعت فى آذاننا قطعات تتلوها قطع تتحرّك حركات تنتقل من واحدة إلى الأخرى . وهكذا من العجائب التى لوكانت مملة لما دائما لاستغرقت قوانا وعقولنا الأوقات فى الاعجاب ثم الحب والهيام والغرام بصانعها الحكيم .

ومن أنعم النظر فى عجائب الأشجار والأزهار والأوراق والجذور وبدائع الحيوان يدهش من تلك الثروة الحكمية ، وأن نظرة واحدة لورقة واحدة (يكتفى فى معرفة بسرّ عبد آية : سبحان لدى خلق الأرواح كلها الخ) بل لخلية واحدة من خلايا الورقة المرسومة هناك يدهش كل لبيب ، ويعجب كيف خلقت الشمس وبيننا وبينها نحو ٣٥٠ سير قطار و١٢ سنة سرى قطار مع و٨ دقائق و١٨ ثانية سير النور ، خلقت هذه الشمس فى ذلك البعد العظيم عنا . ولو مرّ النور من الشمس لأحرقتنا لم نعش . فهذه الشمس ترسل

نورا لأعيننا به نرى الطرق ونقرأ الكتب ، وهـذا النور نفسه يدخل فى الخلية من الورقة المحتوية على آلاف من الخلايا بل عشرات آلاف الآلاف فى بعض الورق ، وهذه الخلية ذات حيطان شفافة مسقوفة بسقف من موادّ شفافة موضوعة وضع اللبنات فى أبنيتنا لبنة بجانب أخرى ، فهى إذن مقفلة ، وهذا الاقفال لايمنع دخول نورالشمس ، فماذا يفعل ذلك النور ، ياترى يقابل السائل الذى فى وسط تلك الحجرة ، فيجد فيـه مادّة خضراء وهو [كلوروفل] فباجتماع هذا الضوء المسافر من أقطارشاسعة مع هذه المادّة الخضراء تجتذب الورقة [المادّة الكربونية] من الهواء .

الله أكبر : إذن هذه الخلية أشبه بالرئة للحيوان والكربون أشبه بالاكسوجين للحيوان والاكسوجين الذى يخرج من الورقة قائم مقام المادّة الكربونية التى يخرجها الانسان والحيوان .

ههنا ههنا وصلنا إلى المقصود وهو أن خلية واحدة من خلايا الورقة اتحدت مع الشمس المرسلة ضوءها لحياة الشجرة ، ولاريب أن هـذه الرئة واحدة من آلاف آلاف آلاف آلاف آلاف الخلايا فى الشجرة ، والشجرة واحدة من آلاف آلاف النبات والشجر فى الأرض ، وكل هذه صنعت لأجل حياتنا نحن ، فههنا رحمة لاحدّ لها وحكمة واتقان لانهاية لهما ، والرحيم الحكيم محبوب على مقدار رحمتـه وحكمته ، ولعمرى ليس يحبّ الله أحـد من الناس حبا حقيقيا إلا من درسوا أمثال مانكتبه الآن ، فالرحمة والحكمة لاحدّ لهما ، واذا نظرنا نظرا أرقى وقلنا إن نفس هـذه المادّة وأوراقها وأشجارها وحيوانها كلها ليست موجودة بالفعل وماهى هذه إلاحركات انقلبت ضوءا ، وهذا الضوء كهر بائى متحرّك سالبه حول موجبه آلاف آلاف فى الثانية الواحدة : وباختلاف الحركات والأحوال اختلفت المظاهر كما هو رأى علماء عصرنا الحاضر .

أقول : اذا نظرنا هذه النظرة أدركنا معنى : « الله نورالسموات والأرض » وأدركنا « والله خلقكم وماتعملون » وأنه هوالمتجلى فى كل عمل دقّ أوجلّ « ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرّة فى الأرض ولافى السماء ولاأصغر من ذلك ولاأكبر إلا فى كتاب مبين » .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذا المقال جيل ، ولكنه ليس أمرا جديدا فى هذا التفسير ، فهوكله على هذا النمط ، ولكن هذا الاسلوب شيق يهيج القلوب ويحركها إلى المعالى ، وعندى سؤال : وهوأنك فى هذا المقال أبنت الرحمة العامّة ، وحلّ هـذا الموضوع يناسب ذكر الصور المتقدمة ، أنت ابتدأت الكلام بذكر ما شاهدته من الرجـل الذى يرعى الغنم ، وأنك استنتجت من منظرالغنم وألوانها أمرين : الأمر الأوّل علم الأخلاق ، الأمر الثانى علم السياسة ، وأن انكشاف عضو التناسـل فى أنثى المعز جاء لحكمة ، وهى أن الحيوان عنده غريزة تحفظه من التمادى فى شهوة الوقاع ، وأن الانسان حرّ يتصرّف كما يشاء ، فهو أبدا يعوزه المذكرات العقلية والدينية ومزعجات الأيام والليالى حتى يرجع من تلقاء نفسه بتلك المذكرات فيعرج بهذه القوّة التى اكتسبها من المران على حفظ شهوته إلى الحكمة والعلم اللذين خلق فى الأرض لهما ، ويظهر من كلامك أن أهـل الأرض جميعا لافائدة تامّة لهم إلا لطائفة خاصـة وهم الحكماء ، وبقية الناس همج الهمج فان هؤلاء الذين ظنوا الشهوات من المطعم والمشرب ، أوغلبة الأعداء هى المقصودة من الحياة — جاهلون أغبياء إلا من تاب وعرف وقرأ الحكمة .

فهذا هوالذى ذكرته أنت فى مقدمة هذا المقال ، ورسمت بعده صورالحيوانات ، وأبنت الحيوانات ذوات الخلية الواحدة الأربعة وهى : [الاميبه] و[هدبيه] و[سوطيه] و[جرثوميه] ثم الحيوانات ذوات الخلايا التى لافقرات لها مثل : [الاسفنجية] و [الاخطوطية] و[الجمية] إلى آخر الأقسام الثمانية المتقدمة

فهذا

فهذا هو الذى ذكرته أوّلا ، فهل الكلام على رحمة الله بعدها مناسب لها كل المناسبة ؟ هذا ما أريد سؤالك عنه ؟ فقلت حياك الله : إن الرحمة التى ذكرتها بعد انتهاء هذه الصور الحيوانية إنما نقلتها على سبيل التمثيل للرحمة بمثال سهل مقبول ، ورحمة الله تعالى لنا بذلك الحيوانات رحمة شريفة عالية ، إن الرحمة على قسمين : رحمة الأم ، ورحمة الأب ، أما رحمة الأم فانها يقلّ فيها التفطن والتفكر والتأديب ، أما رحمة الأب فهى الكاملة ، لأن الأب واسع النظر حكيم يريد للولد مستقبله ، أما الأم فهى تريد الأحوال الجزئية والمنافع السطحية .

فهذا المثل الذى ضربته هنا بخلية الورقة جاء فى الرحمة المشبهة رحمة الأم ، فأما هذه الحيوانات ومافيها من الأعضاء والمنافع فانها كرحمة الأب التى تشتمل على التأديب والزجر كما تشتمل على تغذية البدن بأنواع الغذاء . قال : فبين لى هذا المقام على شريطة أن تكون الأمثلة من نفس تلك الحيوانات المصوّرة فيما تقدّم . فقلت : اللهم اننا خلقنا فى هذه الأرض فرأينا أسلوبا واحدا متبعا فى حياتنا ، فكما أن الشهوات للغذاء وللتناسل حفظتها بالغرائز فى الحيوان وهذبتها فى الانسان (الذى أعطى الحرّية فى التصرّف) بالمنذرات والعبر والعلوم والمعارف ، وجعلت عقولنا هى المسيطرات على قوانا المخلوقة فينا . وغرائز الحيوان لا حاجة معها إلى عقل كبير ، ثم اننا نظرنا حولنا يا ربنا فرأينا أغذية تتعاطاها وفيها الضارّ والنافع ، فقامت عقولنا بما تعرفه من التجارب والعلم ، فاختارت منها ماينفعنا ونبذت مايضرّنا ، وهكذا رأينا ماء ينزل من السماء ويسيح على الأرض ، فألهمت عقولنا أن تحفر له الأنهار وتقيم له السدود لنحفظه فيسقى زرعنا كما أقامت هذه العقول موانع وحواجز حجزت شهواتنا عن التوغل والاسراف لحفظ حياتنا .

ثم إن هذه العقول أنفسها بها نظمنا دولنا ، فنحن فى هذا كله أرقى من الحيوان ، لأن الحيوان نظم دوله بغرائزه ، أما نحن فقد أحكمنا عقولنا فتصرّفت فى شهواتنا بخلاف التيس مع العنزات فى المشاهدة التى ذكرتها سابقا ، فالمانع له غريزته ، وتصرّفت أيضا فى نظام طعامنا وشرابنا ، وسقى زرعنا ، واقامة دولنا ، والغريزة عندنا لاحكم لها هنا وانما الحكم لعقولنا ، وبهذه العقول قويت ارادتنا ، وعملنا باختيارنا لا بغرائزنا . أما الحيوان فهو مسوق لاسائق ، ومقود لاقائد ، فاذا رأينا حيوان الملاريا يدخل الكرات الدموية الحمراء ويهلك مافيها ويميتها ، وبهذا العمل ترتفع درجة الحرارة فى فترات منتظمات كل يومين أو ثلاثة على حسب نوع الملاريا ، ثم تستمرّ هذه النوبات بضع أسابيع حتى يضعف المصاب بها (وهذا الحيوان دقيق الجسم جدا من الحيوانات الجرثومية ذوات الخلية الواحدة وهو يتكاثر ، ثم يساعده فى الانتقال إلى جسم انسان آخر ليجعل له مستعمرة هناك حشرة الناموس المعروفة لتمتصه الاناث منها وتذهب به إلى انسان آخر فتمتص دمه وتبقى بجسمه ذلك الحيوان الفتاك فيتكاثر فيه) .

أقول : اذا رأينا حيوان الملاريا هكذا فلم يخرج ذلك عن إعطائنا الحرّية والعلم وعن أنه مهماز يسوقنا إلى العمل ، ولولا ذلك لكان الكسل ولكان الموت .

الله أكبر : أىّ فارقة بين شهواتنا التى أطلقت لنا الحرّية فيها (بخلاف الحيوان ذى الغريزة) وبين خلق هذه الحيوانات لنا ، الحيوانات هى المساعدات لنا ، كما أن الشهوات لولاها لم نعش ، فمخلوقات الخارجية مساعدات لنا ، والقوى الباطنية فينا كشهوة الغذاء والوقع لاحياة لنا بدونها ولا بقاء ، وقد أطلقت لنا الحرّية فى شهواتنا وبالمحافظة عليها يتمّ لنا نظام الحياة ، وبعدم المحافظة عليها والاسراف يكون شقاء الحياة والنتيجة من ذلك تدريبنا على حكم أنفسنا وأن نتولى نحن بأنفسنا العمل لها بخلاف الحيوان ، فهل نحن اذا رأينا [حمى الملاريا] تقتل آلافا منا (كما أن حشرة النمل ودودة الحرير ونوع الجاموس وسنجاب والحيل جالبات الخير والسعادة لنا) قد خرجنا عن المثال السابق . كلا . فلولا أعطيا العسل والحرير والصوف واللحم

واللبن من الحيوان ، ثم لم يصاحب هذه النعم ضدها لكنا أغبياء كسالى ، بل كنا حيوانات أقلّ من الانسان لأننا قلنا فى مثال العنزات ان الفارق بيننا و بين الحيوان المحافظة بأنفسنا على قرانا وعلى نعمنا حتى نستأهل للارتقاء إلى عالم فوق هذا ، إذن الله عزّوجل يكلمنا دائما ليلا ونهارا بكلام بلا حرف ولاصوت ، يقول : ياعبادى اعقلوا عنى هذه قواكم فيها الخير وفيها الشرّ فاحترسوا ، وهذا الماء وهذا الهواء وهذا الحيوان فيها كلها الخير والشرّ فاحترسوا ، وعملى هذا بعلم أشبه لكم بعمل الأب لابنه منكم « ولله المثل الأعلى » فهو يأخذه فى دكانه ، أوفى حقله ، أوفى محل تجارته ، و يترك له الحرّية حتى يخطئ و يصلح خطأه بعقله و بنفسه ، ولكنه عادة فى بعض بلاد الشرق لايعلم ابنته هذا التعليم ، لأنها فى نظره غير أهل لتلك النعمة ، نعمة الرجال الذين يفكرون بأنفسهم لأنهم خلقوا للاستقلال ، ولوأنى لم أخلق من الحيوان إلا ما فعكم ، ولم أخلق لكم أنواع الملاريا التى تترى فى دمائكم ، ويحملها الناموس من واحد إلى آخر منكم لكنتم فى مرتبة صغيرة حيوانية جاهلة .

هذا تفهمون أيها الناس قولى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لاتكرمون اليتيم ولاتحاضون على طعام المسكين » .

أيها الناس : إن المدار على عملكم أنتم لاعلى العطايا والمواهب وحدها ، وأعظم عطائى ونعمى علمكم وعملكم ، لهذا خلقتم فى الدنيا ، وعلمكم وعملكم لايتمان إلا بالمتضادّين ، ولذلك قلت : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله » فهاأنا ذا هنا خلقت لكم الضارّ والنافع فى قواكم الشهوية والعضبية ، فالاعتدال نافع ، والاسراف ضارّ ، وخلقت الضارّ والنافع فى الهواء وفى الماء وفى الحيوان ، وتركت لكم الحرّية فلتختاروا ماتشاءون لأنكم إلىّ راجعون ، وهل يرجع إلىّ ويكون عندى فى مقعد صدق وأنا الملك المقتدر أحد إلا اذا تخلق بالصفات الشريفة من العلم والعمل ، وكل من ازداد علما وأحسن عملا فى صناعة أوأىّ عمل كان قريبا منى بقدر منفعته للناس واتقانه لصناعته .

ياعبادى : هاهودا عملى معكم ، خلقت فيكم حيوان الملاريا ، وماهو إلا كلمات يعقلها الموفقون ، وهذا القول مجسم بخلاف أقوالكم فهى أصوات والأصوات يفهمها العلماء والجهلاء ، والكلام المجسم لايعقله إلا الحكماء ، فهؤلاء هم الذين أفهمهم أنا كلماتى المجسمة فيفهمونها و يعلمونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهؤلاء الحكماء هم الذين يقولون لكم عنى و يبلغونكم أننى أنزلت هذه الحيوانات الخلوية الدقيقة ، وخلقت دودة [البلهارسيا] وقلت لها : أيتها الدودة عيشى فى أكباد بنى آدم ، وكلى واشربى من دمائهم ، واحدثى ضعفا فيهم ، ثم انزلى فى المجارى البولية فيكون النزيف الدموى ، أوانزلى فى المستقيم ، واحدثى نزيفا دمويا فى البراز ، فيكون هناك صعوبة وآلام فى أثناء قضاء الحاجة ، فاذا نزل بيضك بهذه الصفة ووقع فى نهر وفى أجعله يقف هناك وتخرج الذرّية على منالك فألهمها أن تعمد إلى القواقع التى خلقتها هناك فتدخل فيها بعد أن تثقبها وتعيش فيها ، ثم تخرج الذرّية فتعوم فى الماء ٤٨ ساعة ، فان لم تجد انسانا تعيش فى جسمه ماتت ، وان رأته فهنالك تكون سعادة ذرّيتك فتثقب جلده وتتجه إلى كبده كما اتجهت إلى كبد القوقعة أوّلا ، ودخولها جسم الانسان إما بالاستحمام أوالشرب أوالاغتسال بالماء الملوّث بها ، ذلك هو عمل دودة البلهارسيا ، ومثلها الدودة الشريطية التى تعيش فى بعض الحيوان ، وتصيب من لم يطبخه طبخا جيدا إن لم يكشف عليه كشفا صحيا الطبيب العام فى البلاد . وهكذا دودة الانكلستوما و بقية الحشرات الدقيقة كالقمل والعقارب وما أشبه ، فكل هذه أيها الناس كائنات المجسمة أنزلتها عليكم وقلت لها : لاتتجاوزى ترسما فى الحلق الأدى والمنكروه بالأمم فى الأرض و بالأفراد ، فان أجمو أمرهم بينهم على قتال الكنّ من الكنّ من الأرض ، واتتوا أنهم صاروا متعاملين جميعا فى الشرق والغرب فذلك هو الذى أريد سوقهم

إليه بهذه الرزايا والنوائب بحيث تنتقل العدوى من بلد إلى بلد ، ولافرق بين البلدان فى هذه الرزايا . فيا أيتها المخلوقات المؤذية لبنى آدم استمرى فى عملك ولاتفرقى بين أهل الديانات والممالك ، وافتكى بهم فتكا ذريعا حتى يعلموا أنهم خلقوا أمة واحدة تتعاون ، وهناك تكونين قد أديت مهمتك الشريفة فى هذه الأرض .

هذا ما يقوله الحكماء لأهل الأرض فى هذا الزمان ليدلوهم على المحبة والمودة ، وتعميم السلام العام ، والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة السبت ١٨ يناير سنة ١٩٣٠ م قبيل الفجر .

زيادة إيضاح قوله تعالى : ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

كتب ليلة الثلاثاء قبيل الفجر يوم ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ م

بعد أن كتبت ما تقدم ملخصا من ذلك الكتاب أخذت أطالع ماجاء فى أحوال الديدان الحلقية التى منها دودة الأرض التى تقدم رسمها ووصفها فى [سورة فصلت] وأنها تكون سببا فى خصب الأرض الخ ومنها العلق الطبى ، فماذا رأيت ؟ رأيت أن الأمم المستعمرة اذا منعت الناس عن العلم والحكمة ودراسة أمثال هذه العجائب فانها بهذا تفوز وتملك البلاد ، ولماذا تملكها ؟ تملكها لأن الناس بلاعلم بأمثال هذه العجائب يكونون أشبه بالبهائم فيسهل التسلط عليهم و إذلالهم وتسخيرهم كما تسخر الدواب .

ولما وصلت إلى هذا المقام . قال صاحبى بعد ماقرأ هذا : هاأنت ذا رجعت إلى الذم والتقريع فعلام هذا اللوم ؟ أعلى دودة فى الأرض منبوذة لاعلاقة لها بالدنيا ولابالدين ، فهل يكون المسلمون وقد جهلوا هذا الدود قد استعدوا لاذلال الأمم لهم ، إن هذا منك مبالغة ، ثم لماذا أعدت القول فى هذه الدودة وحدها ، وهل الجهل بها و بأمثالها هو الذى مكن الانجليز من بلادكم فيما مضى ؟ فقلت : اعلم ياصاح : إن الجاهل أعمى ، والأعمى يستحق قائدا يقوده ، لقد كنت فى حقل وأمامى ساقية قد دار فيها ثور ، وكان على عينه غطاء فانكشف الغطاء فوقف الثور ، فلما أن أعيد إليه الغطاء جرى كما كان ودارت الساقية ، وما أشبه الأمم الاسلامية وقد غطيت بصائرها عن نظر العجائب الكونية إلا بهذا الثور الذى كان أمامى لما غطيت عيناه ، وأنا لا أشبهها وقد أزيل هذا الغطاء عن بصائرها بالفهم والعلم إلا بنفس هذا النور اذا أزيل عن عينيه الغطاء فوقف عن السير .

فقال صاحبى : هذا لم يزد عن أنه من ضرب الأمثال . فقلت : ياصاح إن للقول بقية ، لقد أدهشنى وصف دودة الأرض المتقدمة فى [سورة فصلت] بل أذهل عقلى أى اذهال من فرط التعجب وزاد يقينى بأن هذه الدنيا جنة خلقنا فيها وحجبنا عن بساتينها وحدائقها وأزهارها وأثمارها ، نحن معذبون فى الدنيا لشدة جهالتنا فاذا علمنا فنحن من المقربين ، دود منبوذ فى الأرض يكون سببا لاسعادنا وامدادنا بالخير والفاكهة والتين والرمان والحب والعصف والريحان ، دود منبوذ يكون سببا لتغذية العلماء والحكماء والأنبياء ، دود منبوذ يقوم بحرث الأرض وتسميدها والناس لايعلمون ، دود منبوذ يفتت القطع الأرضية فيدخل الهواء فيها فيحسن الزرع فتكون سعادة الحياة ، يخجلنى والله أن نعيش فى الأرض ونحن غافلون .

أما أنا فانى أحمدك يارب على نعمة العلم ، وأنا أعلم أن من الناس من يقرءون مذكرته فيها ولايعجبون وأكبر علماء النبات والحيوان يعرفون أضعاف مافى هذا الكتاب وهم غافلون . فهم يرون الجمال وكأنه لاجمال ، ويرون الحسن ولاحسان وكأنه لاحسن ولااحسان . أكثرهم عمى وقد رأوا آيات الحسان ، صم وقد سمعوا أجل النغمات ، وليس هذا عجيبا فقد نرى الحسان ونسمع أبهج النغمات . وقد اعتراد فى

النفوس موانع وهموم ، فلانهتز طربا ولانهتاج شوقا وغراما ، هكذا أغلب نوع هذا الانسان ، انى لما قرأت ماستسمعه تذكرت أن هذه العوالم التى نعيش فيها إنما هى شموس فى مجرّات والمجرّات كثيرات ، ووراءها السدم ، ووراء السدم سدم وهكذا إلى مالانهاية له كما هومقرّر فى علوم الفلك اليوم ، وهذا هو الذى يغذى نفوسنا ، إن نفوسا تودّ أن تزيد علما ، ولوكان للعلم نهاية لكان ذلك عذابا لنفوسنا إذن العلم غذاؤها فان انتهى العلم نفد الغذاء .

قد كنا أيام الصبا وزمن المراهقة نحمل الشص [الصاره] لنصطاد السمك ، ونبحث فى الطين لنستخرج دود الأرض (قد تقدم رسمه والكلام عليه فى سورة فصلت فراجعه هناك إن شئت) لنضعه فيها فيأكله السمك فيعلق بالشص فنصطاده فنأكله ، فهذه علومنا ونحن صغار بالنسبة لهذه الدودة ، والفلاحون وجميع المسلمين غالبا لايزيدون علما بهذا عن الأطفال .

أقول : فهل كان يدور بخلدى وأنا مراهق ، أويدور بخلد أكثر عامّة المسلمين وعلمائهم أن الفدان الواحد فيه ٥٣ ألف دودة ، وكل هؤلاء إنما هم حراثون يحرثون الأرض ويقدّمون لها سمادا يعطى نصف سنتيمتر من سطح الأرض .

والحقّ أقول : إن الله لما خلق لنا الحيات والعقارب ، وأمثال هذا الدود جعلها فى المحسوسات أشبه بالحكايات الخيالية فى المسموعات ، نسمع حكايات [كليله ودمنه] وما شاكلها من حكايات [ألف ليله وليله] فنظن أنا بها عالمون ، ومتى عقلنا وعلمنا أدركنا أنها أعظم قدرا مما كنا نظنّ ، الجهال والأطفال يسمعون حكاية الحمامه المطوّقة ، وقد اجتمعت مع صواحبها فى ذلك الكتاب ، وقد أجمعن أمرهنّ وتخلصن من الشبكة بمساعدة حيوانات أخرى ، فيظنون أن هذه حقائق وأنهم بها عالمون ، ويقصونها على غيرهم وهم لايعقلون ولكن الحكماء والعلماء يستنتجون منها النتائج وهم يعتبرون ، هكذا العقارب لايعرف منها الناس إلا أنها مؤذية ، وقد علمت فيما تقدم فى غير هذا المكان أنها آكلات لحشرات ضارّات بأمتعتنا ، وهكذا الحيات لايعرف الناس إلا أنها سامّات ، ولكنهم فى الوقت نفسه يرون رجلا وهوالمشعوذ الذى يسمونه [الحاوى] تأنس منها كثيرا فلاتلدغه ، وهو قد جعل معه الحيات التى لاسمّ لها وهى تملأ الحافقين والناس لايعلمون ، وهكذا دودة الأرض التى كلامنا فيها يراها الناس مزدراة محقورة إذا هى عوّدهم وغوّثهم وحارثهم ومسمد أرضهم .

ياسبحان الله وياسعدائه ، يقول الله : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهارمعاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا » ، فهذا السراج الوهاج اذا أطبقه لنا كان المعاش ، واذا عيسه عنا كان المماس ، ولكن هذه الدودة التى نحن بصددها ، ومثلها النمور والاسود والفهود وجميع السباع كالذئاب قد عكس الأمر عليها ، فالليل معاشها والنهارلباسها فالسبع الشداد التى جعلت فيها سراجك الوهاج فأقمت به طائفة وأعمت أخرى اذا أضاء واذا أظلم ، فاذا أضاء أعمرت أنواع العصافير مثل أبى ذيل أبيض وأبى ذيل أحمر وأبى رقبة بيضاء . ومثل المعيى فى الصفصاف . ومثل المعيى الأصفر والمعيى الأحمر وأبى ذيل طويل وأبى قصاده وأبى رأس أحمر وآكل النمل والقمرة الافرنجية والوروار بأنواعه والهدهد والصعر وأبى قردان والكروان والزقزاق المطوّق . والزقزاق الشامى . والزقزاق الملدى مما شرحته هناك فى أوّل سورة يوسف ، فهؤلاء أمّة يأمنهم اذا طلعت شمسك أن يأكل لحشرات لآكلات زرعنا . ويحفظ بلادنا ، ويكنّ عوانا على حيوانات وحشرات كأن ميل بعض دود الأرض يطرف حقولنا ويلتقط الورق منها ويعيش فى هذا [illegible] طلع النهار [illegible] هؤلاء لاندرى أيهما نفعل وقد عرفنا

بهذا العلم أن المانوية كاذبون إذ يقولون باثنين : إله الخير ، وإله الشر ، وأن إله الشر هو الذى خلق الليل فهاهوذا الليل فيه يمتنع الدود النافع لمزارعنا المنمى لحاصلاتنا .

تباركت يا ألله وتعاليت ، وأريتنا رحمتك الواسعة ، وعرّفتنا أننا غافلون جاهلون ، ندرس القليل ، ونجهل الكثير ، وأصحت اليوم أقول : لو أنى درست بعد موتى جميع المجرّات وجميع السدم التى كشفت حديثا ، واطلعت على جميع سكانها ، وخبرت بواطن أحوالهم ، وأسرار حياتهم لقلت انى لا أزال كما أنا الآن أيضا أجهل الكثير كما جهل اليوم عموم المسلمين إلا القادرمنهم عجائب دودة الأرض التى ذكرناها ، ومنافع الطيور التى بيناها ، واحساسنا بالجهل يحثنا على العلم ، والعلم عداء أرواحنا ، فلسكن باحثين فى الدنيا ارقى الأمم ، وذلك يجعلنا من المجدّين فى العلم بعد الموت لتتعدى به أرواحنا ، وكلما ازددنا علما قربنا من ربنا ، وربنا هوالجميل الحكيم الذى منه يترل كل جمال وكل حكمة .

ألافليسمع المسلمون أنى أكتب هذا وأنا أحسّ بسعادة تفوق كل سعاده أرضية ، ولقد حرمت كما حرمت جميع الحيوانات والناس أنواع السعادات واللذات فوجدت اللذة العلمية طورا لاصلة بينه و بين تلك الأطوار ، إن ارتباط الشمس وصوئها ، ودود الأرض وحشراتها ، ومزارعها وطيورها ، وآكلها ومأكولها أشبه برواية تفوق كل الروايات ، إن الناس فى أحوالهم العادية يذهبون إلى محال الصور المتحركة ودور التمثيل التى تمثل فيها الروايات الغرامية و يفرحون بذلك العلم ويقرءون الروايات فى [ألف ليله وليله] وهم فرحون بتلك الصور الخيالية ، إن سعادة الناس بالعلم تابعة لمقداره ، فهى فى الخياليات خيالية ، وفى الحقائق حقيقية ، وهل يستوى الرجلان : رجل عرف هذه الحقائق فرأى تمثيلا حقيقيا ، وامتزجت فى نفسه مشرفات الكواكب ، ومسيرات الشموس مع الطيور والعلق والدود ، وانكشف لنفسه بدائع المناظر العجيبة ، يرى ستارا يترل فيكون الظلام ، فهناك تمثل الروايات الليلية التى أسماءها ، فاذا أشرقت الغزالة أسدلت الستار على مناظر الليل فغابت تلك المناظر الكوكبية فى دياجى الظلمات ، وهجعت الطيور الليلية والنوم فى أعشاشها ، والاسود فى آجامها ، ودود الأرض فى مطاها ، وأحدث الشمس تظهر الألوان ، والبحار والأشجار ، والمسالك والممالك .

وسيكون من قرّاء هذا السفير من تكون الأرض لهم حانات ونعيم وان شاركوا الناس فى أتراحهم وأفراحهم ، ولكنهم يرون فى نفوسهم مالايراه الأكثرون ، وهؤلاء اذا أحدوا يصلون وهم يسلمون على أنفسهم فى التشهد ، وعلى عباد الله الصالحين وعلى الأنبياء والمرسلين . إذ يقولون : السلام عليك أيها النبى الخ يفهمون معانى نفسه ما ذكرناه الآن ، إذ هم بعد أن درسوا الوجود على هذه الشريطة وأدركوا أنه عالم جميل وبديع ومتسق ، و بين أعلاه وأدناه نسب بديعة بحيث يرون الرباط محكما بين دودة الأرض وعلقها ، و بين الطيور والنبات والانسان والشمس . هكذا هم يرون المناسبة والرباط بين المصلى و بين عباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين . وأن هذا الوجود مبنى على هذا ، فالصلاة نوع من العلم والذكرة . فالمسلم يذكر نبيه صلى الله عليه وسلم وجميع الصالحين من الأمم القديمة والحديثة والآتية بعدنا ليعلم من الآن أن ربنا سيجمع جميع الصالحين على مقتضى درجاتهم بعد معارفة الأجسام أولا و بعد الحشر . فهو من الآن يعرّفهم بهم ، ومنهم الملائكة الذين يذكرون فى جميع الصلوات . فالصلاة تذكره حتى اذا فرق أجسامنا وهو لنا الأرواح من جميع الأمم ومن الملائكة لم نكن فى حال شديدة الغرابة عليه . والعلم الآن يساعدنا على الترقى هناك ، لان عالمنا الحسى قد ضرب مثلا للعالم الروحى ، فهنا ربط وثيق عجيب بين الحس والأشياء وتربيته . وهناك نفس هذا الربط بين الأحس والأرفع ، وترى أضعف المؤمنين يقول : الصلاة على النبى كما هى دودالأرض بين الطيران [illegible] كل نور . والورقة [illegible] الشمس التى سرق

عليه فامتص الكربون من الهواء ، ولولا ذلك الضوء مع [الكلوروفل] ملوّن الورق لم يكن ذلك الامتصاص فلم يكن نبات ، ولم تكن دودة تمثل فى دياجى الظلمات فى مسرح الوجود هذه الفصول التى شرحناها . فأعلى الأرواح له صلات بأدناها كما أن للشمس صلة بأدنى الحيوان وهو دود الأرض ، وهذا كله ظاهر فى التشهد فى صلاتنا الاسلامية .

ولاجرم أن هذه المعارف التى شرحت فى هذا المقام تجعل نفوسنا مشوقة إلى إسعاد جميع الناس ، لأننا اذا عرفنا أن للشمس صلة بالدودة أفلا يكون لنا صلة بنوع الانسان ، فياحسرة على الأمم الاسلامية الحالية ، اللهم انك أنت تعلم أن الجهل فرّقهم ، والبدع طمست على بصائر الكثيرين منهم ، ولكن آن أوان ارتقائهم واسعاد أنعم ، والله هوالولىّ الحميد ، والحمد لله رب العالمين . كتب فى ضحى يوم الثلاثاء ٢١ يناير سنة ١٩٣٠

مسامرة بينى وبين أحد العلماء الفضلاء

فى آيات : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، فوربّ السماء والأرض إنه لحق مثل ماأنكم تنطقون » مع آية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين »

حضر صاحبى العالم الذى اعتاد الحديث معى فى هذا التفسير يوم الاثنين صباحا ١٤ من شهر المحرّم الحرام سنة ١٣٥١ هـ — ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ م فأخذ يجاذبنى أطراف الحديث فى هذه الآيات ، ومما قاله لى :

لقد رأيتك فى آيات القرآن المتشابهة المعانى بحسب ظواهرها تذكر فى كل منها من المعانى ما ليس فى غيرها فيكون ذلك مسرّة وتذكرة للناس ، وعبرة للمعتبرين ، ونشاطا للقارئين ، فماذا تقول فى قوله تعالى هنا : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » وماهذا الفرار الى الله الذى ذكر عقبها ، وماهذا الانذار ؟ فقلت : لقد تقدم الكلام على الذكور والاناث من أنواع النبات فى سورة الأنعام ، وفى سورة طه ، وفى سورة [الشعراء] وغيرها . فقال : ولكنى فى سؤالى لك قد صرّحت بأنك دائما تنوّع الكلام فى الآيات المتشابهات ، نعم قد تقدم فى [سورة الأنعام] أن علماء النبات لم يجدوا طريقا لتقسيمه إلا بتشريح الزهر ، وتبيان دكرانه من اناثه ، ولكن المقام يعوزه إيضاح أتمّ . فقلت : لقد اطلعت على ماذكره [پول بيرت] العالم الطبيعى الفرنسى ، وهوأستاذ فى [السربون] ووزير المعارف العمومية فى كتابه المترجم إلى اللغة الانجليزية . قال فى صفحة ٩٨ ماترجمته :

« سأشرع فى الكلام الآن على تقسيم النبات إلى فصائله ، ولكن هذا ربما كان أشد تعقيدا وأكثر صعوبة من تقسيم الحيوان ، ألاترى رعاك الله أن فصائل الحيوان وأنواعه يمتاز بعضها عن بعض بسهولة ، ولاكذلك النبات ، فان أنواعه وفصائله متشابهة ، إن الناس يعرفون بكل سهولة الفرق بين الحشرات والطيور ، بل يعرفون أيضا الفرق بين الذباب وحشرة أبى دقيق اللذين هما من نوع الحشرات ، ولكنهم لاينسى لهم بسهوله أن يرسموا خطوطا فاصلة مابين فصائل المملكة النباتية وأنواعها ، إن ذلك على الناس عسير » .

ثم بدى أحد التلاميذ قائلا : [يابول] لوأنى كنت بأن تقسم النبات إلى فصائل فماذا أنت صانع ؟

(ح) كيف يصعب يسيدى هذا ؟ انه لأمر سهل . أنا أقسمه إلى ثلاثة انواع : شجرات ، وشجيرات ونجم : أى وهو ملاساق له : كالقمح ، والشعير ، والشعير .

(س) حسن . . . هذا الرأى يعلمه على كثير من المعلمين . ولكن انظر : هل تعرف كم من المعلمات

فى طريق تقسيمك هـذا ، وكم من المتشابهات فيه التى تورث العقول حيرة وارتباكا ، وتضيع الزمن على المفكرين ، فأرجو أن تبين لى الحدود الفاصلة بين هذه الأنواع الثلاثة ، فخبرنى إلى أىّ مدى تنتهى أصناف الشجيرات ؟ ومن أين تبتدئ الأشجار ؟ ومتى نطلق على النبات أنه شجيرة بدل أن نطلق عليه أنه نجم ، خبرنى يابنىّ : أنبات البندق من الشجرات أم من الشجيرات ؟ وهـل مايقال له (دفرز) باللغة الانجليزية (وهو نبات شوكى دائما أخضر وله زهر أصفر) أمن الشجيرات هو أم من الأنجم ؟ اللهم ان الفاصل بين هذه الأنواع والفصائل عسير غير يسير . ثم أشار إلى تلميذ آخر فقال :

(س) ما الذى تقوله ياجورج ؟

(ج) ياسيدى أنا أقسم النبات إلى نبات سنوى ، والى نبات ذى سنتين ، والى نبات ذى سنين كثيرة بسبب جذوره فقط ، والى نبات ذى سنين كثيرة حقيقية .

(س) هذه فكرة أجل وأتمّ ، ولكن يردعليها اعتراض ، فانظروا : أليست مظاهر المراعى تشابه مظاهر مزارع الحبوب ، ولكن الحب سنوى أما الحشائش فانها تعيش سنين فى الأرض ، إن الحشائش والحب إذن يدخلان تحت نوعين مختلفين من أنواع النبات ، فهما من جهة ذوات حب ، ومن جهة أخرى هذا سنوىّ وهذا ذوسنين كثيرة ، بل هناك ماهو فوق ذلك ، فهذا نبات [الشوفان] وقد تقدم الكلام عليه فى هذا التفسير ، فهذا اذا زرعناه صار سنويا ، ولكنه اذا نبت بنفسه بدون زرع كالذى ينبت فى جوانب الطرق فانه يعيش سنين كثيرة . وأيضا ههنا نوعان من نبات نرجته بالانجليزية [كأس الزبدة] .

هاأنا ذاوضعت مااختلف منه بعضه بجانب بعض ، فهاهوذا بعضه سنوىّ والآخر ذوسنين كثيرة ويعسر إزالته من الأرض واهلاكه ، إذن هذا غير موفى التقسيم حقه ، ولاقائم بما توخيناه .

أهمية الزهر في تحقيق تقسيم النبات

ههنا أخذ المؤلف يشرح هـذا التقسيم النباتى بواسطة درس الزهرة النباتية . جلّ الله . جلّ الله . ياعجبا ياربنا ! يعيش الناس فى الدنيا ويموتون وينظرون يارنا جمال زهرك ، ويشمون روائحه ، ويتهادونه ويفرحون ويمرحون ، وهم ساهون لاهون .

ياسبحان الله : فى الأرض أزهار ، وفى السماء شموس وأقمار ونجوم وسدم ومجرّات ، هناك المجموعة الشمسية ، فالشمس تحيط بها السيارات ، ولها أبعاد خاصة لولاها لاختلّ النظام وتقدم موضحا فى هذا التفسير

الله أكبر : منه الجمال وهو مفيضه على الأرض وعلى الناس ، العوالم التى نعيش فيها كتاب مفتوح لايقفل ، صفحة منه تظهرلنا نهارا ، وأخرى نظهر ليلا ، فصفحة النهار تظهر بواسطة ضوء الشمس ، وصفحة الليل تظهر بواسطة النجوم ، فهذه النجوم بينها و بين زهر السات مناسبة ، وأىّ مناسبة هذه ؟ انها لمشابهة قويمة ، ألم تر أن الزهرة الواحـدة فيها أوراق خضر يسمونها الكاس ، وفى داخلها أوراق ملوّنة يسمونها [تويج] وفى داخل هذه أعضاء الذكور التى فيها اللقح ، ووراء هذه أعضاء الاناث التى تتلقى هذا الطلع ، وينزل فيها إلى محل النمو مايشبه الحبين فى الحيوان فيكون الحب أو الثمر ، وفى داخل الثمر يكون النوى ، فهما مملكة ، ولكن الاحكام والابداع فيها يدهش العقول العظيمة كما يدهشها نظام المجرّات ونظام المجموعة الشمسية ، إذ يرى الانسان السيارات جاريات بنظام حول الشمس ، وهنّ يرسلن الأشعة لمنفعة أهل الأرض هكذا هذه الزهرة الصغيرة منظمة محكمة مبدعة ، وهذا الابداع كله لأجل حصول الثمرات النافعات للانسان والحيوان ، وأعظم مساعد على تغذية الناس ضوء الشمس الآتى الينا من بعد شاسع جدّا بلغ بسير قلة المدفع

١٢ سنة ، و بسير القطار السريع نحو ٣٥٠ سنة ، فضوء الشمس يهجم على الورقات من منافذها فيساعد على التغذية فيكون النموّ والثمرات والحبوب ، و ينتج من الزهرات وثمراتها منافع تناسبها كما ينتج من الشموس والكواكب منافع تناسبها ، وهناك ضوء وجمال ، وهنا بهجة وجمال ، فصحيفة الليل بهجة جميلة ، وصحيفة النهار بديعة بهية .

رباه : هذا كتابك الذى صنعته أنت ، وأريته لنا ، وقلت انظروا فنظرنا فأدهشنا صنعك . تقول لنا : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » تذكرنا فوجدنا أن علماء النبات حاروا فى تقسيم النبات أيقسم بأنه شجر وشجيرات وأنجم . وسترى صور هذه الزهرات الثلاث فى سورة النبأ إن شاء الله .

ولكن هذا التقسيم غير مجد ولا نافع ولا محدّد ، أم يقسمونه باعتبار أنه سنوىّ ، أوذوسنتين ، أوذوسنين كثيرة ، ولكن هذا التقسيم أيضا غير مجد ، لأننا نرى البرسيم فى بلادنا المصرية منه ماهو سنوى وهو البرسيم المعتاد ، ومنه مايبقى سنين كثيرة وهوالبرسيم الحجازى ، وهو الآن مزروع فى حقلنا جهة [المرج] فهذا أمثل به ليتضح لأهل الشرق الأدنى فوق أمثلة المؤلف ، فماذا يصنعون إذن ؟ رجعوا إلى الزهرة والثمرة والحبة ، فدراسة هذه هى التى بها قسم النبات إلى فصائل بحيث تجتمع كل طائفة منه تحت شكل من أشكال الزهرة ، ولاتختلف فيه إلا قليلا ، و بهذا انحلّ الاشكال عند أهل الأرض ، انحلّ الاشكال بفعل الله عزّوجل فى نظام الزهرة وهو نظام ثابت جميل .

ثبت نظام الكواكب والمجموعة الشمسية و بثباتها انحلّ اشكال ما على الأرض من سير السفن فى البحار ، لأنها لاتعتمد إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فثباتها فى السماء وحسن نظامها ، واتساقها فى مسيرها هوالذى على مقتضاه سارت السفن ، السفن فى بحر الظلمات ، وفى بحر الهند وجميع الاوقيانوسات ان لم تهدها النجوم و يلاحظها الربان ضلت سواء السبيل وهلكت ، لولا ثبات النجوم فى السماء لضاعت معالم فنّ المساحة فى الأرض ، فمساحة الأرض الواسعة ووضع حدودها يقتضى ملاحظة الكواكب ، وهذا لايعرفه إلا أكابر علماء المساحة .

لولا ثبات النظام السماوى ونجومه لم يثبت المكيال المصرى مثلا ولا الميزان ولا المقياس ، ألم تر إلى ماتقدم فى سورة يونس وأن العلم أثبت أن هناك ارتباطا بين مساحات الهرم بالجيزه و بين بعد الشمس ومدارسيرها وأن أبعاد الهرم أساس للأردب والكيلة الخ وللعدان والقيراط الخ وللذراع المعمارى والبلدى الخ وللقنطار والرطل والأوقية الخ . كل هذا موضح فى [سورة يونس] فارجع إليه أيها الذكىّ إن شئت . هذا فعل الله عزّوجل بالكواكب فى أرضنا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

الزهرات تنوب عن النجوم فى بعض آثارها

انظر إلى الزهرات فى النباتات ، إن كل زهرة أشبه بمجموعة شمسية ، لأن نظامها مترن كما تقدم قريبا . الله أكبر : كأس وتويج وأعضاء ذكور وأعضاء اناث وروائح ومادّة عسلية ونحلات وحشرات أخرى تعدو وتروح وهناك يكون الثمر وهنك تكون الحياة ، فالزهرات فى نظامها الدقيق البديع قائمات مقام المجموعات الشمسية بهجة سارّة للناظرين . و بهذا الثبات وهذا النظام قسم النبات إلى أنواع وفصائل فالتقسيم هنا تابع لثبات نظام الزهرات كما كانت المكاييل والموازين والمساحات وسير السفن فى البحر تابعات لثبات الكواكب ، وكما كانت الساعات والدقائق ، وحساب الناس فى المعاملات تابعات لسير الشمس الصادق المتقن . فعلى الاتقان وحسن النظام يكون ثبات الأعمال ، فههنا فى الزهرة ثبت نظام تقسيم النبات لحسن اتقانها بخلاف طواهر النبات من حيث انه شجرات أوشجيرات ، ومن حيث انه سنوىّ أوغيره .

جلت النجوم ، وجلت الزهرات ، والجمال أس السعادات ، فلنرجع إلى ماوراء النجوم ليلا ، والى ماوراء الزهرات نهارا ، ولننظر بعقولنا فنرى تلك العقول تلمح وراء هذا الجمال من هوأجل وهو الحكيم وهوالبديع وهنالك تطمئن وتحس بالسعادة فى الحياة ، ثم ترجع ثانيا هذه النفوس فتدرس أقسام هذه الزهرات فماذا ترى ؟ ترى أن من الزهر ما يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة كزهرة القطن ، ومنه ما يكون أحدهما فى زهرة والآخر فى زهرة أخرى فى نبات واحد كما يرى فى الذرة ، فالذكر أعلى ، والأنثى فى وسط العود ، ومن الزهرات ما يكون زهرة الذكر فى نبات وزهرة الأنثى فى نبات آخر كالنخل ، وهذا القسم ان تباعدت الديار بحيث صارت الذكور فى اقليم والاناث فى اقليم آخر فلا ثمر لهؤلاء ولا لهؤلاء ، وذلك كشجر الصفصاف فان الصفصاف الذى فى بلاد آسيا كله ذكور ، والصفصاف الذى فى أوروبا كله اناث ، فلا ثمر لهذا ولا لذاك ، فلواقترب هؤلاء من هؤلاء لكان للصفصاف ثمرات .

ومما يدهشنا أن نرى ذكور الصفصاف فى الشرق دلالة على أن الشرق هو الذى يجب أن يلقح الغرب لأن الغرب يأخذ بالظواهر ، والشرق يبحث عن البواطن ، ولذلك كانت الديانات من الشرق فاستعمرت الغرب ، إذن الشرق لا بد منه لاصلاح عقول الغرب ، وهذه الانسانية لن تستقيم مالم يظهر فى الشرق نابغون يصلحون الأمم ، ذلك مأخوذ من الاشارة التى فهمناها من نظام شجر الصفصاف ، فهو فى الشرق ذكر وفى الغرب أنثى ، وهما الآن عقيمان . الله أكبر : ان نظام الزهر كما قدمنا به كان تقسيم النبات :

الفصيلة الأولى من فصائل النبات

ومن أهم أقسام النبات الفصيلة الخضرية ، سميت بذلك لأن كثيرا من هذه الفصيلة يطبخ لأكله ، ومن هذه الفصيلة : الفول ، واللوبيا ، والبسله [الجلبان (١)] شجيرة شوكية ذات ورق دائم الخضرة وزهر أصفر ، والعدس ، وشجر السنط ، وشجرة تسمى المكنسة والبرسيم وغيرها ، فهذه النباتات كلها كأسها مكون من خمسة أوراق ، والتويج كذلك ، وفى داخلهما عشرة ذكور : واحد مرتفع إلى أعلى ، وتسعة متحدة عند القاعدة تكون أنبوبة واحدة ، ثم ينتج اللقاح فى آخر الأمر قرونا ، وهذه القرون فى داخلها حب ، وكل حبة فلقتان :

كل نبات إما مخرج ذا فلقة واحدة وإما مخرج ذا فلقتين

الله أكبر : إن جميع النبات لن يخرج عن إحدى حالين . إما أن ينتج ماهو ذوفلقة واحدة ، فما كان مخرجا ذا فلقتين فان ساقه تكون مخروطية ، وما كان مخرجا ذا فلقة واحدة فان ساقه تكون اسطوانية ، أليس هذا من العجب ! أليس من العجب أن نرى النخل اسطوانى الشكل بخلاف العدس والفول واللوبيا وكل ما كان ثمره ذا فلقتين ، فليس أعلى عود العدس واللوبيا كأسفله ، وهكذا الشوك والسنط والبرسيم ، فهذه كلها نرى أعلاها أدق من أسفلها ، أما النخل مثلا فأعلاه كأسفله ، لماذا ذلك ؟ لأن النواة فى التمرة غير منقسمة قسمين كما انقسمت حبة الفول وحبة اللوبيا وقرظ السنط .

أليس هذا أيها الذكى هو السر الذى قدمته من أن جمال الزهر والحب واللوى والفاكهة يشبه الثبات والجمال فى المجموعات الشمسية ، وأن النبات فى العالم العلوى ظهر أثره فى قطراتنا وساعاتنا المنظمات وسفننا كما ظهر أثر نبات الحب والفاكهة والزهرات الجميلات فى تنظيم فصائل النبات ، ومن أروعها وأبدعها نظام كل

(١) بضم الجيم وتشديد اللام وفتح الباء .

ساق لكل نبات لأن ذلك النظام يتبع الحبة ، فان كانت ذات فلقتين كان نظام ذلك الساق مخروطيا ، وان كانت ذات فلقة كان نظام ذلك الساق اسطوانيا ، نظام فى السماء أنتج ثباتا فى الأرض ، ونظام فى الأزهار وما والاها أثبت نظاما فى تركيب النبات .

تذكرة

إن ذكر الفلقة والفلقتين جاء هنا تبعا للكلام على الفصيلة الأولى الخضرية التى يطبخ بعض أفرادها ، فلنرجع الآن إلى فصائل النبات ولنذكر الفصيلة الثانية وهى الفصيلة الوردية ، ويدخل فيها الورد والكمثرى واللوز والكريز والعليق (والفريس) الذى يشبه ثمره ثمر التوت والتفاح والبرقوق وهكذا ، فهذه كلها متشابهات من حيث نظام زهرها ، فالكأس فى الورد البرى خمس والتويج خمس ، فأما أعضاء الذكور فهى كثيرة جدا ، وبقية المذكورات معه ونحوها مثله تماما ، فسميت كلها باسم الفصيلة الوردية ، وهناك فصائل أخرى كالفصيلة الزنبقية الخ .

فهذه الفصائل إنما رتبت ونظمت على مقتضى الأزهار والثمار والحبوب ، وكيف كان الزهر منظم الكأس والتويج وأعضاء التناسل ، وهذا النظام يكون متحدا فى كل فصيلة من فصائل النبات .

الله أكبر : ههنا ههنا ظهر سرّ قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . الله أكبر . الله أكبر بنظام الذكور والاناث فى الأزهار عرف الناس فصائل النبات ، وبنظام الذكور والاناث فى نوع الانسان ألفت أنا «طنطاوى جوهرى كتاب» [أين الانسان] لنظام هذه الأمم الأرضية على مقتضى نظام الله فى وضعه عواطف أصناف الناس واستعدادهم كما أنه وضع بنفسه نظام الذكور والاناث .

الله أكبر : إذن آية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » فيها ثبات نظام النبات ، وثبات نظام الانسان فى السياسة . أما النبات فقد انتظم وعرف ، وأما نظام الجمعية الانسانية ، فانه لايزال فى اختباط واختلاط حتى يظهر فى بلاد الشرق رجال يعلمون أوروبا المتخبطة الجشعة التى يعوزها عقول من الشرق تدبر أمرها فى السياسة كما دبرت أمر الدين ، والله هو الولىّ الحميد .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : حيا الله العلم ، وحيا الله الحكمة ، إن هذا لعجب ! وحكمة ونظام ، كيف تكون آية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » يعوزها نظام الأزهار ، وتقسيم فصائل النبات حتى تفهم ، ويعوزها نظام الأمم وعواطفها وقواها المختلفة ، وكيف جعلتنا هذه الآية على أن نسيح فى هذه العوالم فندرسها وكيف كانت هذه الأزهار التى تضمنتها الآية لها ارتباط بالكواكب العليا من حيث ان ضوء الشمس مساعد على نموّ أشجارها فتزهو هى وتثمر ، وكيف نرى الله فى نفس السورة : أى سورة الذاريات يقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ويقول : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » فهو نفسه كما ربط هذه الأزهار بالعوالم العلوية جعل الكلام على العلويات مرتبطا بالزوجين الذكر والأنثى ، جعل كلامه كفعله ، فقول الصانع راجع لفعله . ثم قال : وههنا قد عرضت لى تذكرتان :

التذكرة الأولى فى اتجاه العقول الاسلامية قديما

إنى ليدهشنى هذه المفارقة ، فبينما القرآن يوجه العقول إلى النظم الجليل البديع ، وهذا النظام لايعقل إلا بدرس الزهرات وأنواع النبات والجبال البديع فى السموات والأرض اذا بشعراء الاسلام لايتغنون إلا بما يثير الشهوات ، ويظن هؤلاء العاكفون الذين أخاهلون أنهم سيروّضون عقولهم لبلاغة القرآن فوا أسفاه على بلاغة قرآن وصناعى قرآن وابداع القرآن لايتم إلا بالتغنى بما يثير الشهوات .

أمم والله نائمة ، هام شيوخها وهام شبانها بما ينيم العقول ويضيع الوقت ، ويرجع بالانسان إلى الحال البهيمية ، فالقرآن فى ناحية والمسلمون فى ناحية .

لقد تقدم فى هذا التفسير عند آية : « والشعراء يتبعهم الغاوون » فى سورة الشعراء كيف حكم العلماء فى أوروبا بأن ضياع بلاد الأندلس إنما نشأ من اكباب العلماء على الشعر وترك العقول فارغة ، والأسبان فى نفس الوقت يفكرون فى تدمير المسلمين .

إن المسلمين فى المستقبل غير هؤلاء السابقين فى القرون المتأخرة ، هم سيكونون كالصدر الأول ويخرج جيل لا نظير له ، ويكونون تلاميذ الصحابة والتابعين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف .

فياليت شعرى : أهذا الذى نراه من الجمال الرائع والابداع فى نظام هذه العوالم الجميلة ، أم مايتغنى به أطفال الرجال ولا يتعدونه فى القرون المتأخرة الاسلامية ، فيقرءون وشحة الوزير أبى عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره إذ يقول :

جادك الغيث إذا الغيث هما ✲ يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما ✲ فى الكرى أوخلسة المختلس
إذ يقول الدهر أسباب المنى ✲ تنقل الخطو على ما ترسم
زمرا بين مرادى وثنى ✲ مثل مايدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ✲ فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ✲ كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما ✲ يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سرّ الهوى ✲ بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكاس فيها وهوى ✲ مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى ✲ أنه مرّ كلمح البصر
حين لد اليوم مما أوكما ✲ هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أوربما ✲ أثرت فينا عيون النرجس
أىّ شىء لامرىء قد خلصا ✲ فيكون الروض قد كان فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا ✲ أمنت من مكره ماتتقيه
فاذا الماء تناجى والحصى ✲ وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا بدما ✲ يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس لبيا فهما ✲ يسرق الدمع بأدنى فرس
يا أهيل الحى من وادى العضا ✲ وبقلبى مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا ✲ لا أبالى شرقه من عربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ✲ تفقدوا عائدكم من كربه
واتقوا الله واحيوا معرما ✲ يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما ✲ فترصون حراب الحبس
وبقلبى فيكمو مقتر ✲ بأحاديث المنى وهو بعيد
قرأ الطالع منه المغرب ✲ شقوة العمرى به وهو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب * فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى * جال فى النفس مجال النفس
سدد السهم رسمى ورمى * بفؤادى نهبه المفترس
ان يكن جار وخاب الأمل * وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أوّل * ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
* أمره معتمل ممتثل * فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما * لم يراقب فى ضعاف الأنفس
ينصف المظلوم ممن ظلما * ويجازى البرّ منها والمسى
مالقلبى كلما هبت صبا * عاده عيد من الشوق جديد
كأن فى اللوح له مكتبا * قوله إن عذابى لشديد
جلب الهمّ له والوصبا * فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما * فهى نار فى هشيم اليبس
لم تدع من مهجتى إلا الدما * كبقاء الصبح بعد الغلس
سلمى يانفس فى حكم القضا * واعمرى الوقت برجعى ومتاب
واتركى ذكرى زمان قد مضى * بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفى القول إلى المولى الرضى * ملهم التوفيق فى أمّ الكتاب
الكريم المنتهى والمنتمى * أسد السرح وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثل ما * ينزل الوحى بروح القدس

فاذا كان الوزير هذا ديدنه يضيع ذكاءه فى أمثال هذا النظم ، وليس لهذه النجوم ، ولا لهذه الأزهار فى نظره إلا أنها ضرب أمثال للحبيب وابتسامته ، وأمة هؤلاء حكامها لابدّ من أن يعتورها الانحلال .

فقلت : هذا حقّ أيها الحبيب ، إن نسبة هؤلاء الذين لايعرفون من الزهر والكواكب إلا ظواهرها ، وذكرى الحبيب بها إلى العارفين بمجائب الكواكب وبواطن الزهر كنسبة لون الكوكب والزهر ونحوها إلى حقائق العوالم السماوية ونظامها وتركيب لزهرات وابداعها . فالأوّل كطفل للمانى ، وهؤلاء الأطفال هم أكثر شعراء الاسلام الذين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالايفعلون » وترى المتعممين فى الديار العربية على هذا المنوال فى زماننا إلا قليلا منهم وهم العقلاء .

وهذا الكتاب الذى نقلنا عنه نظام الأزهار لم يؤلفه إلا وزير المعارف فى فرنسا ، فالوزير الفرنسى قلبه معلق بنظام النبات والنجوم وغيرها ، والوزير الأندلسى مثلا ليس له من العلم إلا الحظ الأدنى وهو تحويل العوالم الجميلة إلى مسألة التناسل التى تنقصى اذا حنّ الكبر واشتعل الرأس شيبا ، ثم ينظر الانسان فلايجد فى عقله متسعا للحكمة وهو حال من كل فضيلة وكمال .

فقال صاحبى : هذه هى التذكرة الأولى ، فما التذكرة الثانية فانى حينما سألتك فى أوّل الأمر عن أمر الأزهار ومامعها أجبتنى بجواب هو فى أسلوبه أشبه شىء بما جاء فيما تقدم فى الأجزاء السابقة فى [سورة الزمر] من حيث الكلام على انكسار الضوء فان الأسلوب هناك جبر كالأسلوب هنا ، والذى ذكرنى به الحبيب فى المدرسة الحديوية فى السنة الرابعة . فانه لما قرأ الكلام المحرر هناك اغرورقت عيناه بالدموع وقال

هذا الاسلوب أسهل وأجل مما نعطاه فى المدرسة ، لأنه بهيئة « سؤال وجواب » فلما سمعت الاسلوب هنا فى مسئلة الأزهار وجدتها تطابق ذلك الاسلوب . فقلت حياك الله إن المؤلف واحد .

فقال صاحبي : إذن أرجو أن تفصل الكلام على عالم السماء المذكور هنا فى هذه السورة بهذا الأسلوب كما فصلته على أزهار النبات فى آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » ؟ فقلت أيها الأخ الذكي : إن المقام هنا قد طال جدا فسأوضح الكلام بهذا الأسلوب فى [سورة الملك] على عالم السموات وعلى الأنوار ، وكيف نرى الضوء النازل من الشمس النافذ فى حجراتنا يصطحب معه بحرارة ثم تحكم عقولنا بأن ذلك النور يجرى على خط مستقيم ، وتحكم علومنا بأن سرعته فى الثانية تبلغ نحو ١٨٥ ألف ميل ، ثم نضع أيدينا على ذلك النور فنحكم بالحرارة المصطحبة معه ، فههنا حكمان : حكمنا باستقامة الخط بالبصر ، وبالحرارة باللمس ، ثم ننتقل من هذا إلى أن الصور الواصلة من الخارج إلى حجراتنا معكوسة مقلوبة لتقاطع الأشعة الداخلة فى حجراتنا وهكذا ندخل فى أودية من العلم فيها أزهار وأثمار وحدائق وجنات ، فنرى أن هذا الضوء اذا عارضناه بمراءاتنا فانها تعكسه على الحائط المقابل للضوء الداخل ، وتكون تلك الأنوار الساطعات على ذلك الحائط تابعة فى ثباتها وذبذبتها إلى المرآة التى فى أيدينا ، وتكون هناك زاوية للسقوط وأخرى للانعكاس بينهما ارتباط وثيق .

أليس هذا من أعجب العجب : إن ماتقدم يفسر وضع صورنا فى المرآة أمامنا ، فيميننا موضوع فى المرآة جهة اليسار والعكس بالعكس ، وهكذا نرى البعد الواقع بيننا وبين المرآة مماثلا للبعد الذى بين المرآة والصورة المصوّرة كما حصل لما عرّضنا المرآة للضوء وانعكس منها على الحائط المقابل ، وهكذا ننتقل من المرآة الزجاجية إلى الماء فنجده مرآة أيضا ، وهو يتقبل الصور المحيطة به كما يتقبلها الزجاج ، وهناك نرى أن النور متى دخل فى الماء حصل له مايسمى بانكسار الضوء الذى وضحناه فى [سورة الزمر] كما ذكرتنا به أيها الأخ الذكي الآن ، وهذا الانكسار نعمة عظيمة فى هذه العوالم ، ولولا انكسار الضوء ما كان صبح ولا مغرب ، وانكسار الضوء له حالان : فاما أن يسير الضوء من طبقة لطيفة إلى أخرى كثيفة ، فهناك ينكسر الضوء إلى ناحية خاصة واذا كان العكس فانه ينكسر إلى الجهة الأخرى .

العدسات والميكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر

وأضواء الشمس السبعة

هنالك هنالك يدخل العلماء فى باب واسع من العلم ، وههنا يكون الكلام على العدسات ، وهى إما محدبات ، واما مقعرات ، فالعدسات المحدبات زجاجات منتفخات من الجانبين ، فهذه تكبر الأحجام المنظورة من خلالها ، فاذا نحن وضعنا جملة من هذه الزجاجات متحدة بنظام خاص كان عندنا ماسميه ميكروسكوب (الآلة المعظمة) وهذه قد تكبر الشيء ألف مرة بل أكثر ، وقد توضع تلك العدسات بهيئة خاصة أخرى وهى تسمى (التلسكوب) الآلة المقرّبة ، فهى تكبر الأجسام البعيدة فترى قريبة لنا ، فهذا سميت مقرّبة . وهل أتاك نبأ العدسات المقعرات اللاتى تفعل عكس العدسات المحدبات ، ان هذه تصغر الأجسام كما كانت التى قبلها تكبرها ، وههنا يدخل الضوء فى علم الطب فتكون العدسة المصغرة لصاحب النظر القصير والمكبرة لصاحب النظر الطويل .

للعدسات المكبرات عمل آخر

وذلك أنها تستعمل لاحداث حرارة وضوء على ما وراءها من ورق مخصوص مثلا ، فههنا يدخل ضوء الشمس فى العدسة ، ويستمرّ جاريا إلى ما وراءها ، وهناك تكون بؤرة خاصة فى بعد مخصوص : أى ان الحرارة فى بعد مخصوص تجتمع فى نقطة خاصة ، وهذه الحرارة قد تتقد بها النار ، بل إن ربان السفينة لما عنده من العلم اذا كان فى الأقطار الشمالية التى ليس فيها إلا الثلج يقدّر بتلك العدسة المكبرة للضوء المحدبة الوجهين أن يستعملها فى إيقاد النار فى الصوفان مثلا ، وذلك بأن يستعمل عدسة من نفس الثلج ، وهذا الثلج يجمع ضوء الشمس الضعيف فى تلك الأقطار ، وفى البؤرة فى البعد المخصوص يضع ذلك الربان مايريد احراقه فيشتعل ، فيذهل من ذلك نوتية السفينة ، ويذهل سكان الأقطار الشمالية (وهم الاسكيمو) .

وههنا مباحث أخرى لامحل لتفصيلها الآن مثل أضواء الشمس السبعة وعجائبها ، ولعلنا نفصل الكلام على هذه العجائب فى [سورة الملك] ان شاء الله تعالى بشرح أطول وصور بديعة تشرح الموضوع كما تشرح الصدور . ولعلنا أيضا نفصل الكلام ان شاء الله تعالى فى [سورة النبأ] « عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم » على أنواع النبات المتقدّمة ، والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » كما نذكر بعض ماتقدم مجملا عند الكلام على قوله تعالى فى [سورة الحشر] : « هوالله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هوالله الذى لاإله إلا هوالملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمايشركون ، هوالله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » لنبين أن هذه العجائب لاتفسر أسماء الله حقّ تفسيرها إلا بها ، وأن من أراد أن يفقه معنى البارئ والمصوّر ونحوهما فليس له إلا طريق هذه العجائب .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : الحمد لله قد أثلجت صدرى بهذا البيان . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تمّ الكلام على [سورة الذاريات] . كتب فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ هجرية .

تفسير سورة الطور

هى مكية

آياتها ٤٩ — نزلت بعد السجدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ۞ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۞ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۞ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۞ وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ ۞ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۞ يَوْمَ
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۞ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۞ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۞ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞
أَفَسِحْرٌ هٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا
تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۞ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ مُتَّكِئِينَ
عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۞
وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۞
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۞ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا
مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۞ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا
مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ ۞ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ
لَا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۞ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتّٰى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذٰلِكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى ذكر العذاب والنعيم ، ووصف أهل الجنة وأهل النار ، مبتدئا ذلك كله بالقسم بما فى العلويات والسفليات من أوّل السورة إلى قوله : « انه هو البرّ الرحيم » .

القسم الثالث فى إلزام الكافرين بالحجة ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن فى صدق النبوّة ، واثبات الألوهية من قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

تنوّعت الرحمات فى هذه العوالم التى أبدعها الله عزّ وجل ، وهذا التنوّع يدعو الى استيقاظ الأرواح ، ونشاط النفوس التى خلقت فى هذه العوالم ، موت وحياة ، وذلّ وعزّ ، وجهل وعلم ، وشقاء وسعادة ، ثم نار وجنة ، وهذان هما المذكوران فى هذه السورة ، كل مخلوق فى هذه العوالم الأرضية يبدو فى أوّل أمره ناقصا ثم يأخذ فى الاستكمال شيئا فشيئا حتى يصل إلى درجة الكمال كالزروع والحيوان والانسان ، فالنقص قبل الكمال ، والنار قبل الجنة « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » .

الانسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا والعلم يبدو له قليلا قليلا ، وأكبر مدلة فى هذه الحياة للأفراد والأمم الجهل ، وأعظم سعادة بالعلم ، وأوّلهما مقدّم على ثانيهما ، وفى هذه السورة نرى آيات العذاب جاءت فى أوّل السورة ، وتلتها آيات النعيم والجنات كما يبدو العلم الجهل والسعادة الشقاء ، ومن أجل الرحمات وأبهج السعادات أن تصل النفوس إلى مستعاها بعد حرمانها ، والى سعادتها بعد شقاوتها ، وتتذكر ما كانت تعانيه وتوازنه بما نالته من الهناء والسعادة ، وتشير لذلك اقوال بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون و تتذكرون

أنهم كانوا يخافون العاقبة وسوء المنقلب ، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات ، متكئين على سرر مصفوفة وهم متزوجون بالحوروالعين .

ومن أبدع مايسرّ النفوس و يشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة ، كأن يقال : أهذا العالم خلق نفسه ؟ أم وجد بلاخالق ؟ وكلاهما باطل ، إذن له خالق وهوالله تعالى ، وهذا أيضا راجع للعلم بعد الجهل ، والعزّ بعد الذل ، فكأن الرحمة فى هذه السورة متجهة لنهج واحد معبد [بتشديد الباء] وذلك على سبيل النشوء والارتقاء ، فالانسان قبل تمام الحجة جاهل بالنتيجة والجهل عذاب ، ورسوخ العقيدة بتمام الحجة نعيم كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم ، ولقد جاء فى [اخوان الصفاء] أن شقاء الناس تابع لجهلهم . وقال قبل ذلك سقراط فانه أبان أن الانسان لايفعل المعصية إلالظنه أنها نافعة له من وجه ، ولوأيقن أنها ضارّة له لم يفعلها ، وأوضح ذلك الامام الغزالى رحمه الله تعالى فقال : لوأن طبيبا قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذى يملؤه وهو واثق طبعا بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه ، وفرّ منه فراره من الأسد ، فلوأن الناس أيقنوا بمضرّة الذنوب وثوقا حقيقيا لم يذنبوا ولكن العلم الناقص لايفيد ، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم ، والعلم التامّ باب من أبواب الجنة .

وليس ينال المرء كمالا فى هذه الحياة إلا بأمرين : الصبر عن الشهوات ، وعلى البلاء ، وفى الأعمال حتى تكمل ، ومن أجلّ الأعمال فى هذه الحياة الدنيا الوقوف على سرّ هذا النظام ، وسرّه أن كل شرّ فى هذا العالم لم يقصد به إلاأنه مقدمة لخير ، فالخير والشرّ يتجهان معا لنظام العالم نظاما تامّا يستوجب الحمد ، ولذلك ختم السورة بهذه الآيات : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبارالنجوم » .

فى أوّل السورة ذكر العذاب والنعيم ، وفى آخرها اطمئنان النفس بالصبر وبالعلم وهما المقصودان من هذه الحوادث الانسانية فى هذا الوجود ، التسبيح والتحميد معا سرّ هذه الحياة ، فالتسبيح كما شرحناه مرارا ملازم للتحميد ، إذ نرى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لتمتعنا بالنعمة الموجبة للحمد ، فتنزيه الله عن العبث وعن الظلم بطريق البحث العلمى ملازم لحصول الخيرات لنا ، ولذلك كان التسبيح والتحميد ملازمين لأهل الجنة ، فهم هم الذين أدركوا سرّ هذا الوجود واطمأنوا بنورعقولهم إلى أن كل شرّ لم يقصد به إلا الخير بل أيقنوا أنه لاخير بلاشرّ ، ولايمكن حصوله بدونه ، فالشرّ لابدّ منه لحصول الخير ، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الانسان فى الدنيا والآخرة ، فاذا لاحظ النجوم وسيرها وجمالها فرح بجمالها وجمال مبدعها ، وكان فى هذه الحياة الدنيا فى سعادة وحبور ، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤ م

القسم الثانى : فى ذكر العذاب والنعيم

ووصف أهل الجنة ووصف أهل النار

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والطور) طورسينين ، وهو جبل بمدين كلم الله موسى عليه السلام فيه . والطور بالسريانية الجبل

(وكتاب مسطور) مكتوب ، يقال سطره رتب حروفه المكتوبة ، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أو التوراة ، أو بقية الكتب السماوية ، وماسطر فى القلوب الانسانية من المعارف ، ومافى نفوس الملائكة من الحكمة ، ومافى اللوح المحفوظ ، بل كل مادلّ على حكمة يرمز له بالكتاب المسطور (فى رقّ منشور) الرق هوالصحيفة ، أوالجلد الذى يكتب فيه ، وأريد به هنامجازا ماهوأعمّ ، والمنشورالمفتوح لاختم عليه (والبيت المعمور) أى الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، وقلب المؤمن الممتلئ بالمعارف والحكمة والاخلاص ، وهكذا كل مكان فيه عبادة كالذى ورد فى الحديث الآتى ، وهو بيت فى السموات العلى قدّام العرش (والسقف المرفوع) أى السماء (والبحرالمسجور) أى الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور كما قاله ابن عباس ، وهذا البحر هوالذى كشف فى العصر الحاضر على سبيل الظن ، وقد أشارت له الأحاديث ، ولكن الأمم قديما لم تعرفه ، فعن عبد الله بن عمر : لايركبنّ رجل البحر إلا غازيا أومعتمرا أوحاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا ، ولاجرم أن هذا البحرهو باطن الأرض الذى اتضح اليوم ، وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة : أى ان نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها ، فنحن الآن نسكن فوق نارعظيمة : أى فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر محطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سدا عليه ، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى البراكين أو بالزلازل كالزلزلة اليابانية التى حدثت فى سنة ١٩٢٥ وكبركان ايزدن بايطاليا ، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن ، فانه لم يعلم به أحد من الأمم الاسلامية ، ولاغير الاسلامية بعد السوّة ، ومن عجب أن يذكر فى الحديث أن تحت البحر نارا ، وهذا عجيب ! وأما كون النار تحتها ماء فمعناه أن البحر فوق الأرض والنار فى باطنها ، وفى الجهة المقابلة يكون البحر ، فالبحر فى الجهتين المتقابلتين والنار محصورة بينهما . أقسم الله بهذه كلها وجواب القسم (إن عذاب ربك لواقع) لنازل (ماله من دافع) يدفعه (يوم تمورالسماء مورا) تضطرب ، والمور تردّد فى المجىء والذهاب (وتسيرالجبال سيرا) أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباء (فويل يومئذ للمكذبين) يقول : اذا وقع ذلك فويل لهم (الذين هم فى خوض يلعبون) أى يندفعون فى الباطل والكذب كما قال تعالى أيضا فى سورة أخرى : « وكنا نخوض مع الخائضين » (يوم يدعون إلى نارجهنم دعا) يدفعون إليها عنف بحيث تعلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويقال لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) ولقد كنتم تنسبون لمحمد أنه يسحر العقول ويغطى على الأبصار ، فهل هذا الذى هومصداقه سحرأيضا ، وهذا قوله (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) هذا أيضا كما كنتم لاتبصرون فى الدنيا مايدل عليه ، وهذا تقريع وتهكم (اصلوها فاصبروا أولاتصبروا) أى ادخلوها على أىّ وجه شئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) الأمران الصبر وعدمه ، ثم علل الاستواء المذكور بأن الجزاء لابدّ منه فلا يتوقف على الصبر فقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

ولما فرغ من ذكر أهل النار شرع فى الكلام على أهل الجنة فقال (إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين) معجبين بذلك ناعمين (بما آتاهم ربهم) من الحبور والكرامة (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئا) مأمون العاقبة من التخمة والسقم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من ايمان وطاعة (متكئين على سرر مصفوفة) موضوعة بعضها إلى بعض مصطفة (وزوّجناهم بحور عين والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم بايمان) هذا مبتدأ خبره (ألحقنا بهم) أى نلحق بهم (ذرّيتهم) فى ايمانهم ولوكان أولئك الأبناء مقلدين لآبائهم ، فالآباء إيمانهم نظرىّ والأبناء إيمانهم تقليدىّ لاتباعهم لآبائهم ، فنحن نلحق الأبناء بالآباء فى الايمان ، ونجعل غير الناظرين كالناظرين لفضلهم ، ويزيد من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم (وماألتناهم) ومانقصناهم (من عملهم من

شيء) بهذا الالحاق (كل امرئ بما كسب رهين) بعمله مرهون عند الله تعالى ، والعمل الصالح يفكه والا هلك (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم وقتا بعد وقت مايشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية (يتنازعون فيها كأسا) يتعاطون فى الجنة هم وجلساؤهم ويتجاذبون خمرا فى كأس (لالغو فيها ولاتأثيم) لايتكلمون بلعو الحديث فى أثناء شربها ، ولايفعلون مايؤثم به فاعله ، بخلاف خمر الدنيا ، فالشارب لها كثير اللعو فعال للآثام (ويطوف عليهم) بالكأس (غلمان لهم) مماليك مخصوصون بهم (كأنهم) فى الحسن والبياض والصفاء (لؤلؤ مكنون) مخزون مصون لم تمسسه الأيدى ، وقد سئل ﷺ فقيل له هذا الخادم فكيف المخدوم ؟ قال فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا فى الجنة أى يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب فى الدنيا (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا) فى الدنيا (مشفقين) خائفين من العذاب (فمن الله علينا) بالمغفرة (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم (إنا كنا من قبل ندعوه) أى كنا من قبل ذلك فى الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووقاية العذاب فنقول « وقنا عذاب النار » ثم ان فى تجاذب الكأس بينهم واقبالهم بعضهم على بعض ، وعدم اللعو فى مجالسهم اشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن العارض :

صفاء ولاماء ولطف ولاهوا ✲ ونور ولانار وسكر ولاخمر

وقوله (إنه هو البر) أى المحسن (الرحيم) انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث فى الزام الكافرين بالحجة

ومجادلتهم بالتى هي أحسن فى صدق النبوة واثبات الألوهية

قال تعالى (فذكر) فعظ يامحمد بالقرآن كفار قريش ومن معهم (فما أنت بنعمة ربك) برحمته وعصمته وانعامه عليك بالنبوة ، أو بحمده وانعامه (بكاهن ولامجنون) الكاهن من يوهم الناس أنه يعلم الغيب ويخبر به (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى بل أيقولون هو شاعر ، وريب المنون مايقلق النفوس من حوادث الدهر ، أو نفس الموت ، يقال منه اذا قطعه (قل تربصوا فانى معكم من المتربصين) أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أتأمرهم عقولهم بهذا التناقض فى القول ، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون ، وفرق عظيم بين مجنون العقل ومن يزن الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحد فى العناد (أم يقولون تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لايؤمنون) فيرمونه بهذه المطاعن كفرا وعنادا ، وفى قوله « بل » ردّ لما زعموا أى ليس الأمر كما زعموا (فليأتوا بحديث مثله) أى بحديث مختلق مثل القرآن (ان كانوا صادقين) فى زعمهم ، وفيهم الفصحاء ، ثم شرع يبين فساد نظر باتهم فى الالهيات بعد النبوات فقال (أم خلقوا من غير شيء) أى بل أخلقوا من غير خالق ، ومعلوم أن الحادث لابد له من محدث . أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشيء مقدم على نفسه وهو مستحيل ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم فى الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا هو قوله (أم هم الخالقون) أى بل أهم (أم خلقوا السموات والأرض) أى واد فرض أنهم خلقوا أنفسهم فهل هم خلقوا السموات والأرض المتين عليهما تتوقف حياتهم ؟ فمن يخلق شيئا يخلق أسبابه ، واذن لابد أن يخلقوا السموات والأرض ، وهذا معلوم كذبه ضرورة (بل لايوقنون) اذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا الله ، ولو أنهم أيقنوا بذلك ما أعرضوا عن العبادة (أم عندهم خزائن ربك) خزائن

رزقه حتى يعطوا النبوّة لمن يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون (أم هم المصيطرون) الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاءون (أم لهم سلم) مرتقى إلى السماء (يستمعون فيه) كلام الملائكة ومايوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن من تقدّم هلاكه على هلاكهم وظفرهم فى العاقبة دونه (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدّق استماع مستمعهم (أم له البنات ولكم البنون) سفه سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات ولهم البنين ومن كان هذا رأيهم لايعتدّ بهم (أم تسألهم أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم من مغرم) من التزام الغرم (مثقلون) محملون الثقل فلذلك زهدوا فى اتباعك (أم عندهم الغيب) اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات (فهم يكتبون) ما فيه حتى يقولون لانبعث ، واذا بعثنا لم نعذب (أم يريدون كيدا) وهوكيدهم فى دارالندوة برسول الله ﷺ (فالذين كفروا) أظهر فى موضع الاضمار لتسجيل الكفر عليهم (هم المكيدون) هم الذين يحيق بهم الكيد ويعود عليهم وبال كيدهم وقد تمّ يوم بدر (أم لهم إله غير الله) يعينهم ويحرسهم فيكفرون بالله ويلتجئون إلى ذلك الإله (سبحان الله عما يشركون) عن اشراكهم (وان يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم هذا (سحاب مركوم) تراكم بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » . يقول الله : لوعذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أوّل ظهورها ليس بعذاب مكابرة كما هى عادتهم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) عند النفخة الأولى (يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا) أى شيئا من الاغناء فى ردّ العذاب (ولاهم ينصرون) يمنعون من عذاب الله (وان للذين ظلموا) من كل أمة وجيل (عذابا دون ذلك) أى دون عذاب الآخرة فى الحياة الدنيا كقحط قريش وقتلهم يوم بدر ، وهكذا المصائب التى تحيط بالمسلمين اليوم بإغارات الفرنجة عليهم وغير ذلك ، وكعذاب القبر (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) ذلك (واصبر لحكم ربك) إذ أمهلهم وأوقعك فى نصب معهم فذلك لأجل معلوم (فانك بأعيننا) فى حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكلؤك ، وجمع العين للمبالغة فى الحفظ (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من أىّ مكان قمت ، ومن منامك ، والى الصلاة (ومن الليل فسبحه) فان العبادة فيه أشقّ على النفس وأبعد من الرياء (وادبار النجوم) واذا أدبرت النجوم من آخر الليل : أى فى أعقابها اذا غربت أوخفيت ، والمرادأن يقول « سبحان الله وبحمده » فى هذه الأوقات ، وقيل التسبيح الصلاة اذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشاءين ، وادبار النجوم صلاة الفجر . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة

***

ويمنى للانسان أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك اذا قام من المجلس ، وزاد الترمذى : أشهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فنها تكفر ماينهما . وغيره يقول : ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة . وقالت عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم اذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشرا والتسبيح عشرا والتهليل عشرا والاستغفار عشرا ويقول اللهم اغفرلى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى ، وكان يتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة ، وأيضا كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، وجلّ ثناؤك ، ولا إله غيرك .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « والطور » الخ .

٢١ وفى قوله : « والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والطور

أقسم الله فى هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رحمة وهو السماء ، و بأدنى مكان قد ملئ جحيما وعذابا وهو البحر المسجور فى باطن الأرض ، و بما بين ذلك من الكتب المسطورة ، والعلوم المنشورة ، والحكم المشورة ، والآراء المبثوثة ، المقروءة فى كتب الديانات ، و بدائع الآيات ، وحكم السموات ، ومعارف النفوس واشراق القلوب ، و بأماكن العبادات من البيت الحرام ، وغيره من أماكن فى عوالم لا يعلمها أحد إلا الله .

أقسم الله بالسموات العلى ، و بما تحت الثرى ، و بيوت العبادات فى الأرض والسموات ، و بالعلوم المعقولات فى الأرض وفى السماء .

أقسم الله بذلك كما أقسم بالذاريات ذروا ، هناك أقسم الله بالرياح وتصريفها ، و بالسماء وحسنها وجمالها وهنا أوسع القسم ايساعا لم يذر عالما سماويا ولا أرضيا ، ولا موضع عبادة ، ولا مكان علم إلا أدخله فى القسم أو أشار إليه . انتهت اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : والبيت المعمور الخ

وأعجب ما أقسم به البحر المسجور الذى فى باطن الأرض على ما يظن الناس ، والبيت المعمور ، والرق المنشور ، وقد روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها فى نار جهنم ، فاذا أضفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو أن تحت البحر نارا يكون البحر الذى هو باطن الأرض مصبا إليه لبحر الملح فيتسع نطاق النار ، فاذن باطن الأرض نار الآن ، والبحار يوم القيامة تصير نارا ، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذى هو عبارة عن باطن الأرض اذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر فى باطن الأرض لم تكن البحار التى على وجه الأرض شيئا مذكورا بالنسبة للنار فتتحول نارا فى لمح البصر ، فانا نشاهد أننا اذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلا تحول الماء الى نار ، وزاد فى اشتعالها ، لأن الاكسوجين الذى فى الماء نار فينقلب الماء إليها ، وهذا من أعجب العلم والمعجزات فى القرآن .

وأما البيت المعمور الذى يقال له [الضراح] فيقال ان حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض . وقد جاء فى حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى البيت المعمور فى السماء السابعة قال فاذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . وفى رواية أخرى : فانتهيت إلى بناء فقلت لملك ماهذا ؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقدسونه ، ولعل ذلك البيت فى عوالم مما لا يخطر بالبال ذكرها غايت عما لنعدها ، ومن تأمل علم الفلك أيقن بما تقدم لاسيما ماروته روح الفيلسوف غاليلى لما أحضرت وطلب منها التكلم على العالم ذكرت أن هناك كواكب شمسا بالنسبة لها كعبة بالنسبة لحمل ، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم ، بل لا يخطر بالبال السعادة هناك والهناء والعظمة وأنواع المعيشة ، وهناك الشموس التوائم جمع توأم فان نظام أهلها لا يخطر بالبال ، ولم تسمعه أذن ، ولم تره عين . بل هو فوق متناول الخواطر من البهجة والجمال ، ويقول : ان تلك العوالم كلها مسكونة وهى تعد بمئات الملايين ، فجاء فى هذا الحديث وهذه الآية أصح مما يقرأ فى العلم الفلكى والعلم الروحى بأوروبا

وأما الرق المنشور الذى ذكر بعد الطور المتقول كتاب التوراة وكل كتاب سماوى وحكمى الخ فانه قد ظهر أتم ظهور فى هذا الزمان ، إذ لم يكن النوع الانسانى ليعرف رد منشور كما نعرف نحن الآن . فقد أظهر الله فى سائر الأرض الحرائد والمجلات منشورة يقرأ منها جملة فى الصحف والشوارع ، وقد نشروها

فى أيديهم وقرأها الناس فى كل مكان ، ولم يكن ذلك معروفا قبل هذا العصر عصر الورق ، والقرآن يسميه الرق المنشور .

فانظر كيف أقسم الله بالبحر ، وبالبيت المعمور ، وبالرق المنشور ، ولم يظهر بحر النار ، ولا أن هناك عوالم فى الكواكب لاتتناهى ، ولاأن هنا فى الأرض جرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة ، ولا أن هناك تعليما عاما يشترك فيه الخاصة والعامة من كل الأمم إلا فى هذا الزمان .

نشر الصحف على قسمين : أحدهما انتشار التعليم والتربية وهو التعليم العام الذى أخذ ينتشر انتشارا سريعا فى الوقت الحاضر . وثانيهما ظهور الجرائد والمجلات منشورة فى كل مكان ، ومن هذا الباب عموم التلفون والتلغراف (البرق) الذى له سلك والذى لاسلك له ، وهكذا المسرّه (التلفون) . كل هذه فى معنى الرق المنشور ، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن .

لم يكن فى الأرض أمة قط تعلم تعليما عاما أيام النبوّة ، لم يكن فى دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف ، وهكذا دولة الفرس الذين يجعلون التعليم لطبقة معلومة ، جاء القرآن وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق » .

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات : فمنهم من هم كالرأس وهم رجال الدين ، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش ، ومنهم من هم كالبطن ، ومنهم من هم كالرجلين ، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشورا عاما بل كان خاصا ، جاء الاسلام وعمم العلم وقال : « فى رقّ منشور » ولا نشر على الوجه الأكمل إلا فى هذا الزمان ، فهو يرمى لعرضين : الأوّل تعميم التعليم ، والثانى الاخبار عما حصل فى هذا الزمان من قولهم : [انتشار التعليم] وقولهم [تعميم التعليم] وقولهم [نشر الصحف] وقولهم [نشر المدنية والحضارة] وقولهم [نشر الكتب] وما أشبه ذلك .

نتائج هذه المعجزة القرآنية فى النفوس

إن نتائج هذا المقال فى العقول قسمان : القسم الأوّل ما يحصل فى عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون الله أكبر : إن ديننا حقّ والاسلام حقّ ويفرحون ، وهؤلاء هم الكسالى العاطلون الذين يقتصرون على الايمان وهم مأجورون [القسم الثانى] هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيقرءون هذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور البصيرة مستقبل الاسلام فيقولون : لم يذكر الله ذلك ليريد مجرّد الايمان كلا . وانما يريد أن يحثنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة ، وأن نأخذ حظنا فى الأمم ومركزنا فى الحياة ، وهذا الفريق يقول : ان هذه الآيات حجة علينا ، فاذا كان الله نشر العلم فى العالم الانسانى ، وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المسجور والبيت المعمور ، واذا كان جلّ جلاله يقسم بما هو فوق السموات العلى ، وبما هو تحت الأرض السفلى ، وبما بينهما من العلم المنشور ، وقد أقسم قبل ذلك بعجائب الرياح والسحاب والمطر التى بها كان نظام حياتنا ، وذلك بعد أن لفت عقولنا للسماء والأرض فى [سوره ق] . اذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسلمين اذا قصروا فى معرفة علوم العالم العلوى والسفلى لاسيما بعد ظهور الصحف المنشورة فى عصر العلم والعرفان فهم لايستحقون الوجود ، وأن هذا الدين ينقل منهم إلى قوم آخرين ويسكن الله أرضهم قوما غيرا منهم لأنهم لا يصلحون للحياة ، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب الفكر يحدّون فى ارتقاء أمتهم حائفين من ربهم اذا قصروا فى العناية بما أقسم به .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولوالدىّ وللمسلمين والمسلمات . وأسأل الله أن يفتح بهذا الكتاب بابا يلجه المسلمون للعلوم والعرفان . وأن يكثر فى هذه الأمة من رجال العلم العاملين ، والى هنا تمّ الكلام على سورة ضرر ، ولله رب العالمين . كتب فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤٥ هجرية .

تفسير سورة النجم

هى مكية

إلا آية : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى : فمدنية

آياتها ٦٢ — نزلت بعد الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى * أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا

اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى * أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، وفى قربه من ربه ، من أوّل السورة إلى قوله : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم عالية ، وفى صفات لله علية .

القسم الأول فى تفسير البسملة

إيضاح الرحمة فى البسملة فى [سورة الرحمن] وبيان أن الرحمة قد اكتنفت البسملة ، فان فى آخر السورة قبلها رحمة كصلاة الليل ، وفى أوّل السورة بعدها إفاضة علمهم على الناس آخر سورة الطور وأوّل سورة النجم

خواطرى فى صلاة الصبح يوم الخميس ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١

كتب هذا فى يوم الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ م

كنت أقرأ فى الركعة الثانية من صلاة الصبح أوّل سورة النجم ، فخطر لى فى الصلاة و بعدها مايأتى :

إن سورة الطور مختومة بقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » إن آخر سورة الطور متصل بأول سورة النجم كأن الله يقول : أيها الناس قوموا الليل إلا قليلا ، تهجدوا فى آخر الليل ، وسبحوا واحمدوا ، ثم أخذ يقسم بالنجم مذكرا المصلى بالنجوم التى تقارن صلاته آخر الليل ، أقسم بالنجم ليذكر المصلى والمسبح والنجوم فى ادبارها آخر الليل ان الصلاة والتسبيح العاريتين عن الفكر ضعيفتا الأثر ، قليلتا الحظى ، لاهما فى العير ولا فى النفير ، وهل يقسم الله إلا بما هو جليل وعظيم ! والجليل والعظيم والآيات الكبرى هى التى إليها تتجه الأنظار وبها تطمئن القلوب :

(١) أقسم الله بالنجم وقال فيه : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لماذا هذا ؟ لأنه يعلم قبل أن ينزل القرآن لأهل الأرض أن أمما وأمما ستظهر بعد نزول القرآن ، وتدرس النجم ، وتفتح لها أبواب السماء والأرض ، وذلك بعلم النجوم ، ذلك العلم الذى به أمكن الناس السير فى المحيط الهادى والهندى والصينى والأطلسى والبحر الأبيض المتوسط وغيرها . ياسبحان الله : كيف يعرف الربان مكانه فى وسط البحار اللجية إلا بواسطة الآلة الفلكية التى لا اعتماد لها إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فاذا غفل ثانية طاح وضاع فى وسط اللجج ولات حين مناص .

(٢) أقسم الله بالنجم اذا هوى ، لأن النجم فى وسط السماء فى خط نصف النهار ، لا يعرف اتجاهه ، لكنه اذا هوى ومال إلى الغروب عرف اتجاهه فهدى السارين فى الصحراء ، أقسم بهذا النجم الموصوف بهذه الصفة أن محمدا ماضل وماغوى ، وكما أن النجم اذا هوى لا يصحبه فى هذه الحال ضلال ، هكذا محمد ﷺ لا يصحبه ضلال ، بل هاد للناس كما يهدى ذلك النجم الربان .

(٣) أقسم الله بالنجم لأنه يعلم أن أمما وأمما تبحث فى مقادير الكواكب وأعدادها ، وهذا من آيات الله العظيمة ليرشد المسلمين إلى تلك الآيات ، ان سير نور الكوكب ١٨٦ ألف ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وهكذا الأمواج التى لاسلك لها وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله نحو مائة مليون سنة ، إذن نسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ماعرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة ، وأيضا ان الأرض اذا صغرت فصارت مقدار حجم الجوهر الفرد بلغ حجم الكون الذى عرفه الناس بأقوى التلسكوبات على هذه النسبة حجم الأرض مرة واحدة ، و بلغ حجم الكون كله على ماهو ممثل فى مذهب المسبية ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء ، النظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر ، ويقول الاستاذ [شابلى] أحد أساتذة علماء الفلك فى [هارفرد] انها مائة ألف مليون نجم ، وقطر المجرة الأطول ٢٢٠٫٠٠٠ سنة ضوئية أعنى أن الضوء الذى يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل يقطع المجرة فى مائتى وعشرين ألف سنة بهذه السرعة ، وفى خارج هذه المجرة سدم لولبية أقربها إلينا يبعد عنا ٨٥٠٫٠٠٠ سنة نورية ، والسديم الواحد فيه مادة تكفى لتكوين ألفى مليون نجم ، ويقول الدكتور [هيل] ان تلسكوب مرصد جبل ولسن الذى قطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة يستطيع الوصول إلى مليونين من هذه العوالم الجزرية يبعد أحدها عن الآخر نحو مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، والمنتظر أنه متى تم بناء التلسكوب الحديد الذى سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة تمكن الراصدون من الوصول إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين ، ويقدرون

عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة ، وعمر الحياة عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الانسان عليها بنحو ٣٠٠ ألف سنة ، إن شمسنا التي تزيد عن أرضنا ألف ألف مرّة وثلثمائة ألف مرة كوكب له توابع وسيارات ونيازك وذوات أذناب لاحدّ لها ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكون مجرّتنا ، وهذه المجرّة لها نظائر ، وهذه النظائر هي السدم اللولبية ، وكل سديم منها فيه شموس في دور التكوّن ، أو هو مادّة سيأتي عليها ذلك الدور الذي فيه تحوّل إلى شموس ، وقد وجدوا أن كل سديم فيه مادّة تكفي لتكوين ألف مليون شمس ، وفوق ذلك أن تلك المادّة لطيفة جدا ، إذ يبلغ حجم كل جزء من مليون جزء من الأوقية منها حجم جبل مثل جبل [الماترهورن] وعلوّه نحو ١٥ ألف قدم ، فنسبة كل من هذه السدم الى جبل [الماترهورن] كنسبة ألف مليون شمس كشمسنا إلى جزء من مليون جزء من الأوقية . هذه صورة سعة الكون وشموسه (ولقد أوردنا كلاما يقرب من هذا في سور كثيرة منها آخر سورة الكهف) . وقد قدّر الاستاذ [هبل] أن هذه السدم التي وصفناها تبلغ نحو مليوني سديم كلها منتشرة في الفضاء الذي يمكننا رؤيته بتلسكوب مرصد جبل ولسن ، وأن في الكون فضاء يفوق الفضاء الذي يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، فعدد السدم في الفضاء كله يبلغ نحو ألفي مليون مليون سديم ، فاذا كان في كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم التي في الفضاء المنظور وغير المنظور نحو (٢) على يمينها (٢٤) صفرا أي : ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ — هذه هي الآراء التي وصل لها عقل الانسان الآن ، وأن النجوم التي أعظم أمرها الله هذا عددها وهذه مقاديرها ، وبهذا نفهم لماذا يقول : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » إذن الله ما أقسم بالنجوم إلا لعظم قدرها والله يقول اننا لا نعلم قدرها إلا اذا علمنا ، فهذا هو العلم ، هذا هو العلم الذي به نعرف قيمة النجم ، فاذا لم يتعلم المسلمون هذه العلوم فانهم لا يعرفون قيمة القسم بالنجم في أوّل هذه السورة ، وهذه من عجائب القرآن التي خبأها الله فيه لتبرز لأبناء المسلمين الذين يقرءون هذا التفسير في حياتنا وفيما بعدها ، ومن عجب أن آية : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » جاءت في سورة متأخرة عن سورة النجم وهي سورة الواقعة مشعرة بعظم هذا القسم ، ولله الحمد وله الشكر على العلم والفهم .

(٤) أقسم الله بالنجم على شرف الهداية المحمدية ليفتح لنا باب العرفان ، ولما فتح لي في الصلاة ذلك الباب ولجت منه ، فدخلت في دائرة المعارف ، فألفيت فيها تلاميذ مبتدئين ، وآخرين قد أتموا الدروس منتهين ، وفيها أساتذة معلمون مهذبون ، ولقد هالني الأمر إذ وجدت في هذه الدائرة كل ما جادت به الأمم المتحضرة في دوائر تعليمها ،

محاورة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد مجالستي في هذا التفسير

فلما اطلع على ذلك صاحبي سكت واجما وقال نعم أحسنت في ذكر النجوم وعددها ومقاديرها العظيمة وأحسنت أيضا في ذكر القسم والابداع فيه ، وأن المسلم لن يعرف معنى هذا القسم ولا عظمته إلا بدراسة هذه العلوم حتى يعرف عظمة مبدع هذا الوجود ، هذا قول لا مرية فيه وقد جمع الحسن كله ، فأما قولك انك وأنت في الصلاة قد دخلت في دائرة العرفان ، وأن تلك الدائرة حوت كل نظام علمي في الأمم المتحضرة ، فهذا من الأقوال التي اعتاد الناس أن يرسلوها سبهللا ، ولعمر الله ما هذه بعادتك ، إن من نعم الله على أمتنا الاسلامية أن الكتاب (بالتشديد) اليوم فيها يكتمون وأكثرهم يبرهن على ما يكتب وأنت منهم ، فكان الأجدر أن

تترك هذه الجملة الأخيرة وتحذفها من نظام هذا المقام . فقلت حياك الله أيها الأخ : لقد وقفت من الجملة على المبتدأ ولم تنتظر الخبر ، أوعلى الجملة ولم تصبر حتى ترى تفسيرها .

أيها الأخ : أنا جعلت الدين فى دائرة العرفان ثلاثة أقسام : قسم منهم مبتدئ ، وقسم منهم قد انتهى فى التحصيل ، وقسم بعد اتمام التحصيل يعلم غيره . قال نعم . فقلت : ان المبتدئ فى التعلم الآن فى بلاد الاسلام يجب على القائمين بتعليمه أن يقرنوا العلم بالتطبيق سواء أكان ذلك فى العلوم الرياضية أم الطبيعية أم الخلقية والأدبية ، أم فى العبادة ، وأىّ أمة علمت تلاميذها الأخلاق بلا ممارستها ، أوالحساب بلاتطبيق ، أوالنحو ومامعه من علوم اللسان ، أوالدين بلاعمل ، فان هذا التعليم لافائدة منه .

فعلى المسلمين فى الأزهر ، وفى المعاهد الدينية ، وجميع مدارس الاسلام فى الشرق والغرب أن يمرّنوا التلاميذ من أوّل درس فى كل علم ، وذلك التمرين يختلف باختلاف العلوم ، وفى الدين يكون بالعبادة كالصلاة وكالتهجد ليلا ، وكالصدقات ، وكالصيام الخ .

فلما سمع صاحبى ذلك ظهرت عليه هيئة الانفعال والغضب ، وقال : ماهذا الذى تقوله ؟ أين هذه الأقسام الثلاثة ؟ أنت انما وصفت قسما واحدا وهم التلاميذ ، ولكنك لم تسمعنى من الآية شيئا ، فأما هذه الآراء فانك تعرفها من المدارس ومن الكتب ، فأما الآية فما الذى فيها من هذا ؟ فقلت : إن الأقسام الثلاثة فى هذه الآيات فان فى آخر سورة الطور التسبيح والتحميد ، وبعبارة أخرى قيام الليل ، وهذا من أعظم العبادات والعبادة تمرين على الايمان ، لأن الاستاذ يقول للتلميذ « الله خالق كل شىء » فاذا لم يكرّر التلميذ هذه المعانى فى الصلوات وغيرها حرم التمرين ، ومن حرم التمرين على النظريات عاش جاهلا ، فمن نشر التعليم الدينى ولم يمرّن المؤمنين على تلك النظريات بالأعمال الصالحة فدينه ناقص لاثمرة فيه والتمرين فى كل شىء بحسبه ، فأما فى معرفة الله فبالعبادات كالصلوات ، وأما فى الأخلاق فبالتعوّد عليها كالتعوّد على الصدق وعلى عدم اخلاف الوعد وعلى الاحسان ، ويبتدى ذلك من أوّل الدراسة من أوّل سنى التمييز ، إذن آخر سورة الطور يشير إلى التمرين على المعارف الاسلامية ، وذلك التمرين ضرب له مثلا بالتسبيح والتحميد فى كل وقت وفى آخر الليل هذا هو القسم الأوّل وهو القسم الابتدائى ، فاذا أخذ التلميذ فى الترقى شيئا فشيئا فى المعارف وقد أتقن الدور الأوّل بالتمرّن على الطاعات فهو لاحرم يوما ما واصل إلى النهاية المشار إليها بقوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى » وأخذ يصف تلك السدرة بأنها غشيها ماغشيها ، فهل كان يغشاها فراش من ذهب ، أو يغشاها ملائكة كأنها الطيور ؟ أوغشيها نور الله ؟ ونقها كتلال هجر ، وأوراقها كآذان الفيلة ، أوهى تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان ، والورقة منها لو وضعت فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض وهى شجرة طوبى .

نحن لسنا فى مقام أن الأحاديث حسنة أوصحيحة أوضعيفة ، نحن فى مقام عام ، ان هذه الأوصاف كلها اعراب عن العجائب الإلهية ، فلتكن أنوارا ، وليكن فراش من ذهب ، أولتكن حلى وحلل ، كل هذا عند حكماء الاسلام جمال الله وجلاله ، ولم يذكر فى الأحاديث من جماله وجلاله إلا ماتحتمله عقولنا ، فهذه المناظر غايه ماتسمح به مخيلاتنا الضعيفة فيخرج من هذا المقام نعمة عظيمة ، وحكمة قويمة ، وآيا مبينة ، ونعمة حديثه قديمة ، وهى أن المقام جمال وجلال وحكمة وبهاء ، وهذا كله ليس يدركه إلا الذين كان مدوّهم العبادة كالمذكور فى آخر الطور ونهايتهم العلم بجمال الله وكماله ، وهوالمشار إليه بقوله تعالى : « وقل رب زدنى علما » فالنبى ﷺ فى كل وقت يريد علما ، فلتكن سدرة المنتهى عظيمة جدا يسير الراكب فى ظلها أوفى ظل فرع منها مائة عام أوأكثر ، ولتكن لأنوار محيطة بها ، وليكن الفراش من لذهب حولها

وليكن الجمال كل الجمال فيها ، فالمنتهون فى العلم لن يقفوا فى معارفهم عند حدّ ، لأن الوقوف عن الرقىّ عذاب للواقفين .

إن نهاية كل امرئ أن يزداد علما فى كل ساعة من الزمان كما ورد عن سيدنا علىّ كرّم الله وجهه : « اذا طلعت شمس يوم ولم أزدد فيه علما فلابورك لى فى ذلك اليوم » وهذا هوالحقّ الصراح ، إذن هنا مرتبتان : مرتبة المبتدئين ، وهى أن يتمرّنوا على الايمان والاسلام بالعبادات ، ومرتبة المنتهين فى العلم ، وهم الذين درسوا هذا الوجود وأدركوا حقائقه بقدر طاقتهم .

وأما الدرجة الثالثة فهم أولئك المنتهون فى العلم إذ أخذوا يفيضون على تلاميذهم وعلى الأمة مما امتلأت به صدورهم ، فهؤلاء يفيضون على الناس من العلم الذى أحرزوه بالجدّ ، وثبتوه بالطاعة ، فصارت العلوم عندهم ملكات أشبه بالعواطف فيلقونها على الناس بعد إلقاء الأنبياء العلم للناس بالوحى ، وللاشارة إلى هذه الدرجة جاء انه ماضلّ وماغوى ، وانه ماينطق عن الهوى

ومن عجب أن وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم بأنه يوحى إليه وأنه ما ينطق عن الهوى إنما ذكر بعد القيام بالليل مباشرة فى السورة قبلها للاشارة إلى أن التمرين بالعبادة على قواعد الايمان هو الأسّ الذى يبنى عليه نهاية العلم أوّلا وافاضته على الناس ثانيا ، ولاجرم أن النبوّة كانت على هذا المهيع ، فانه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فى غارحراء ، ثم أفيضت عليه العلوم بالوحى وأفاضها على الناس ، فهاتان المرتبتان مؤخرتان عن العبادات ، وهى التمرين العملى على القواعد الدينية .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : هذه الآراء جيلة وهى من جهة أخرى غريبة ، فاذا أفضت فيها بشرح يكمل تبيانها بضرب أمثال تكون المثالة قد أثمرت وآتت أكلها باذن ربها . فقلت اسمع ياصاح زادك الله هدى وآتاك تقواك : ماذا يفعل الناس فى تعليم النحو ؟ قال : يبتدئون بمعرفة الاسم والفعل والحرف ، ويركبون الجمل ، ويأتون بأقسام الأسماء والأفعال والحروف وماتفرّع منها ، ويبينون النصب والرفع والجرّ وهكذا . فقلت : والصرف ؟ فقال : يأتون بالمصادر ويشتقون منها الأفعال وأسماء الفاعلين والمفعولين وهكذا . فقلت : وعلم المعانى ؟ فقال : يأتون بالخبر والانشاء والمسند ، والمسند إليه ، وحذفهما وذكرهما وتوابعهما وقصرهما والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب ، والمساواة ، وهكذا . فقلت : والبيان ؟ فقال يأتون بالتشبيه والمجاز والكناية وما أشبهها ، ويفصلون الكلام تفصيلا . فقلت : والبديع ؟ قال يأتون بالمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس وأنواعه والطباق والاستخدام وهكذا . فقلت : والحساب ؟ فقال : يجمعون ويطرحون ويقسمون ويضربون ، ويأتون بأبواب كثيرة مبنية على ذلك مثل الخطيطة الداخلية والخارجية ، وحساب الكسور ، وحساب اللوغارتم ، والقاعدة الثلاثية البسيطة والمركبة وهكذا . فقلت : والهندسة ؟ فقال يأتون فيها بالنقطة والخط المستقيم والمنحنى والسطوح والأجسام التعليمية والمربعات والمخمسات وهكذا ، والدوائر والكرات ، وسطوح الكرات ، والاسطوانة والمكعبات وهكذا ، والمخروط ومأشبه ذلك ، ويبنون بعض هذه على بعض فالخطوط تكون منها الزوايا ، ومن الزوايا الثلاث تكون المثلثات ، ومن المثلثات يكون من كل اثنين منها مربع ، وباردياد مثلث آخر يكون المخمس . وهكذا يقال فى مساحة محيط الدائرة ومساحة نفس الدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة (انظر هذا المقام موضحا إيضاحا تاما فى سورة الروم عند قوله تعالى : « فطرت الله التى فطر الناس عليها » الخ) . فقلت : والطبيعة ؟ فقال : يأتون بأقسام الجسم من حيث انه صلب أوسائل أوغاز ويأخذون فى تقسيم هذه الأجسام كلها ، ويبحثون فى خواصها ، وهى قسمان : خواص عامّة لجميع الأجسام ، وخواص يختص بها أنواع من الأجسام ، فالمسم عامّة فى الأجسام ، وكذا عدم التداخل ، ومثل السرعة فى

الضوء ، وسرعة الصوت وهكذا ، و يبحثون فى الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وهكذا ، فأما الكيمياء فانهم يبحثون فيها عن اتحاد الأجسام بحيث تصبح بعد تركيبها فاقدة خواصها الأصلية كما فى تركيب الماء من الاكسوجين والادروجين فان خواص الماء وكذا خواص الحيوان والانسان والنبات غير خواص العناصر التى تركبت منها . فقلت : بناء عليه يكون علم الطبيعة أقرب الى علم المعانى ، ألا ترى رعاك الله أن الماء اذا صار ثلجا أو صار بخارا فانه يكون أشبه بالمعنى الواحد يذكر بطرق مختلفة مرة بالايجاز ، والمساواة أخرى والاطناب آونة فالمساواة كحال الثلج ، لأنه يكون أكبر من حجم الماء ، والماء كالايجاز ، والغاز كالاطناب ، وهكذا نرى علم البيان يقرب من الكيمياء فله بها نوع من الشبه بسيط لأنا نخرج عن اللفظ الحقيقى ونتجوّز له بلفظ فهو أشبه بانقلاب العناصر إلى مركبات بخواص جديدة .

فقال صاحبى حسن ماتقول . فقلت : كيف أجبتى حين سألتك عن هذه العلوم ؟ فقال : تلك الاجابة حضرت عندى لأنى مرنت على هذه العلوم . فقلت حسن جدّا ، وهناك علم آخر يعوزه التمرين مثل هذه العلوم ، فاذا كان النحوى وعالم الحساب والهندسة لايحسن أحدهم إقامة هذه العلوم على الناس إلا اذا ثبتت تلك العلوم فى نفسه بسبب التمرين وقتا بعد وقت فيركب جملا معربة أو مبنية و يصرف المشتقات و يأتى بعمليات الحساب و يحلها و يحل مسائل الهندسة والطبيعة ، و يدخل المعمل بالمدرسة لأجلها ولأجل الكيمياء ، هكذا هناك علم آخر له تلاميذ يتعلمون و يصيرون أساتذة ، ولن يفيضوا العلم على الناس إلا بعد أن ينبتوا قواعد ذلك العلم بالتمرين ، ومن هم هؤلاء الناس ؟ هم هداة النفوس ، فأما العلماء المتقدمون فانما يعلمون أمورا أقرب إلى الأجسام الحسية ، أما هداة النفوس فعلومهم وتمارينهم كلها نفسيه ، وهؤلاء لن تعيش أمة فى الأرض إلا بأن يكون هؤلاء مبثين بين أفرادها ، وعلم هؤلاء معرفة الله وتوحيده ، وتمارينهم هى الصلوات ، فاذا قرأ الناس دينا ولم يمرّنوا نفوسهم على صلواته فان هذا الدين لايرفع هذه الأمة كما لايرفع علم الحساب ولاعلم النحو صاحبيهما إلا اذا كانا قد تمرّنا على هذين العلمين ، فاذا سمعنا الله يقول فى آخر سورة الطور : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » قلنا هذا هو تمرين هذه الطبقة على قواعد علمهم كما يتمرّن النحوى على المرفوع والمنصوب ، فالنحوى يحفظ لسانه بذلك التمرين ، وهذا العالم النفسى الدينى يرفع نفسه بالصلاة وتصبح نفسه ذات صلة بخالقه لكثرة التكرار فى الصلوات كما يتكرّر الحل لمسائل الحساب فذاك يحلّ مشاكل الحساب بسهولة وهذا تتوارد المعانى على قلبه بسبب تكرار الصلوات والعبادات ، وهذا هو السرّ فى ذكر الوحى بعد قيام الليل .

اسمعى يا أمة الاسلام : يجب تغيير المناهج الحالية ، أطهروا عواطف الاسلام ، لاتتدئوا بعلم الفقه كرة واحدة بحذافيره ، بل يجب الابتداء بما يرقق القلوب و يصفيها ، فتذكرون صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته وأخلاق أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وليحذف من التعاليم كل خلاف شجر بين الصحابة ، ثم لتسمعوهم جمال الطبيعة المسمى بعلم الأشياء مقرونا بالآيات القرآنية ، وأنتم فى ذلك تصلون معهم صلاة حاضرة فيها قلوبهم ، بل مروهم أن يقوموا بالليل كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم فهذا التمرين لابد منه حتى يثبت حب الله فى قلبه و يمتزج بدمه ، ثم بعد ذلك ادرسوا علوم الفقه والاصول والعلوم الأخرى كما تشاءون .

لماذا وجب المران فى كل شىء

قد ظهر أن المادّة ليست شيئا مذكورا ، المهم إلا أنها أوار متحركة اجتمعت وقد اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها (انظره فى سورة النور عند آيه : الله نور السموات والأرض) .

ياعجبا : إذن أجسامنا نور متكاثف ولكنه متحرّك حركات سريعة جدّا تبلغ نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية ، ثم ان هذه الأجسام لاتظهر ثمراتها إلا بالحركات كأن تلك الأجسام بهيئة خاصة فتكون الكهرباء كأنها لما كانت دائمة التحرّك أبت أن يستخرج مافيها من الأسرار إلا بحركات جديدة غير حركاتها الطبيعية ، العالم حركات منظمات لاغير فى شىء سموه الأثير ، ولن تستخرج كنوز المادّة إلا بالحركة أيضا ، ولو أمكن استخراج مافى الجوهر الفرد بأى عمل كان وخرج منه ما كان كامنا فيه لأخرج حرارة وضوءا بهما تصبح الأرض مشتعلة جميعها . هذا كلام علماء زماننا .

الله أكبر : إذن نحن الآن فى وسط عجائب وغرائب ، إذن جسمى أنا فيه من الكنوز مالاحصر له ، وذلك فى ذرّاته هو المادّية ، واذا كان جسمى على هذا النمط فكيف بأرواحنا ! تلك الأرواح التى لها صلة مّا بصانع العالم ، وهو على طريق المجاز نور وشعاع من ابداعه فلها قرب ما ، ولكن لن يستخرج ما كمن فيها إلا بالعبادات لأنها تكرار وتمرين على القواعد الكلية للدين ، فبها يذكر اسم الله ، وتذكر نعمه ، ويتوجه العبد إليه ،

فاذا كان الجوهر الفرد باستخراج ما كمن فيه إن أمكن يقلب الأرض كلها ، فرجل واحد اذا استخرجت قواه بالصلوات والعبادات ، وكان ذا قلب سليم محبّ للعلم مخلص فهذا يقلب نوع الانسان كله أو بعضه ، وهؤلاء هم الأنبياء ويتبعهم المخلصون المحققون من أممهم .

وملخص هذا المقام أن العلوم لايتمّ الانتفاع بها إلا بالتمرين ، وأجلّ العلوم معرفة الله ، وهذه لاتتمّ إلا بالعبادات ، وهذه العبادات مثبتات لتلك المعرفة ، معينات على تلقى ذلك العلم إلى النهاية فيصل لربه ويصير مرشدا للأمم ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى بالليل ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، وأوحى إليه ، فهدى الناس ، وهكذا تابعوه المخلصون من هذه الأمة لكنهم لايوحى إليهم بل يهتدون بهديه ويصلون ، وخواصهم يقومون الليل كما كان يقوم ، ويتعلمون ويفتح عليهم ، ويقرءون علوم الأمم حتى اذا ماسمعوا أن شجرة المتهى يسير الراكب فى ظل كل فنن من أفنانها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فانه يقول إن العلوم اليوم قرّبت هذه المسائل لأننا اذا رأينا فى السدم المتقدم ذكرها وهى ألفا مليون مليون سديم ، وكل سديم منها فيه ألف مليون شمس على الأقلّ ، والضوء يجرى فى مجرّتنا وحدها مئات الألوف من السنين فهذا معناه أن عالم المادّة مدهش وعجيب فكيف بعالم الغيب الذى لايعرفه إلا الأنبياء ، فأصبحت العلوم اليوم مفهمات ومقرّبات لمسائل الدين .

فلما سمع ذلك صاحبى قال الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات ، والى هنا تمّ الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . انتهى ليلة السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١ م

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد ختمت السورة المتقدمة بعبادات تقرّب العبد من الله ، وأخلاق شريفة : كالصبر على مايصيب الانسان ، وأن يقول المرء عند القيام من الليل ، وعند القيام إلى الصلاة . وعند القيام من أى مجلس كان : « سبحانك اللهم وبحمدك » ونحوها ، وبالعبادة ليلا كصلاة المغرب والعشاء ، وكصلاة ركعتين بعد الفجر اذا أدبرت النجوم ، وهما ركعتا الفجر قبل الفرض كما أن ادبار السجود الركعتان بعد المغرب ، فهذه العبادات مذكرات بالله ، مقرّبات العبد من ربه ، لأن كثرة الذكر تؤثر فى النفس ، تستحضر المذكور استحضارا تقرّبه النفس على طول الزمان ، وذلك هو الذى يهيئ النفس الانسانية للالهام فى عامة الناس وللوحى فى الأنبياء .

ولقد

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتعبد فى غار حراء فأوحى إليه ، فههنا ذكرت العبادة فى آخر [سورة الطور] واتبعت بالوحى فى [سورة النجم] تعليما للأمة أن من أكثر من ذكر الله عند قيامه من النوم ، ومن مجلسه ، وللصلاة ، وصلى المغرب والعشاء بحضور قلب ، وفى بعض الليل ، وركعتى الفجر ، فانه أقرب إلى الالهام من غيره .

وينبغى لمن يتصدّى لارشاد الأمة أن يكون هذا خلقه ، فان لم يفعل ذلك كانت آثاره ضائعة فى الأمة لأن النفوس التى لاتشرق بذكر الله لاتؤثر فى الأمة ، وكأنّ الذاكر باقتراب قلبه من المذكور يتجلى عليه فيفيض العلم على قلبه فتحس النفوس بذلك الفيض فتقبله ، وفى ذكر إدبار النجوم وتعقيبه بالنجم اذا هوى مناسبة لطيفة ، وكأنه يقول : أيها الناس : انه ﷺ يقوم الليل ويصلى المغرب والعشاء ، ويذكر الله عند قيامه من النوم ، وعند قيامه للصلاة ، ويصلى ركعتى الفجر ، فهوفى عبادة إلى مطلع الفجر اذا أدبرت النجوم فاستحق بذلك أن أفيض عليه العلم والوحى ، وذلك فى :

القسم الثاني فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه . وفى قربه من ربه

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنجم اذا هوى) أى أقسم بجنس النجوم اذا غربت أوطلعت ، يقال هوى كهويا [بالفتح] اذا سقط وغرب ، وهويا [بالضم] اذا علا وصعد ، أوبالنجم من نجوم القرآن اذا نزل ، فالنجم السماوى عند شروقه وعند غروبه يشعر النفوس بجمال الابداع وحكمة الخالق وهكذا نجم القرآن وقد نزل القرآن فى عشرين سنة ، أقسم الله بذلك وجواب القسم قوله (ماضلّ صاحبكم) ماعدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم (وماغوى) وما اعتقد باطلا ، والخطاب لقريش (وماينطق عن الهوى) أى باهوى : أى لايتكلم بالباطل ، وذلك ردّ لقولهم : ان محمدا يقول القرآن من تلقاء نفسه (إن هو إلا وحى يوحى) أى ما القرآن إلا وحى يوحيه الله إليه (علمه شديد القوى) ملك شديد قواه وهوجبريل ، ويقال انه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، هذا هو الذى يقوله علماء التفسير رحمهم الله ، وقد جاء فى علم الأرواح الحديث أن للأرواح من القوى مايعجز البشر ، وكلما ارتقت الروح كانت أعلم وأقدر على الأفعال العظيمة ، ولقد مرّ عليك فى هذا التفسير فى [سورة البقرة] مارفعه خمسة عشر ألف نفس إلى مجلس الأعيان فى الولايات المتحدة وقولهم : انا رأينا أنوارا وسمعنا أصواتا وشهدنا زلزلة وأمورا عظاما ، فهانحن أولاء جئنا إلى مجلسكم الموقر لنستجلى حقيقة الأمر فى ذلك ، وهذا عند استحضار الأرواح الى آخر ماهناك وقد ذكرته هناك بلفظه فارجع إليه ، واذا كان هذا فى الأرواح التى فارقت أرضنا فمابالك بالأرواح العلوية كجبريل ، فانظر للعلم الحديث كيف أظهر ما كان العقل لايصدّقه وانما يؤمن الناس به إيمانا ، فالملائكة أفوياء الأجسام فى عقولهم حصافة رأى وتدبير وحكمة ، وهذا هوقوله (ذومرّة) ولعلك تذكر مامرّ فى هذا التفسير نقلا عن علماء الطبيعة فى أوروبا لاسيما [أوليفرلودج] وقوله : « انى أصبحت موقنا أننا نحيط بما عالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا وهم يساعدوننا ويحافظون علينا ويقول هذا وقفت عليه بطريق علمى يريد تحضير الأرواح ، ثم قال : فاذن ما قاله القديسون من أنهم رأوا الملائكة ؛ أوأنهم رأوا الله ، كل ذلك حقّ لامرية فيه ، وهذا من عجائب القرآن ، إن سمعياته أصبحت اليوم تذاع بين الناس بصفة علوم

روحية وكشف حديث ، وذلك هوقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فقوله «فى الآفاق» راجع لما كشف حديثا كالبحر المسجور المتقدّم ، وقوله « وفى أنفسهم » كقوله « شديد القوى ذومرّة » فان القوّة الجسمية والعقلية للعالم الروحى قد ظهرت بطريق علم الأرواح ، وهذا يستحيل أن يعرفه الناس إلا بالاستحضار أوالتنويم المغناطيسى ، وكلاهما لن يكون إلا بالأنفس البشرية ، فان التنويم المغناطيسى معناه انخلاع النفس عن البدن انخلاعا جزئيا أوكليا وهى به مربوطة وهناك تتصل بالعوالم الروحية ، فاذن معرفة العالم الروحى لم تتم إلا بواسطة أنفسنا ، ولعلك تذكر مامرّ فى [سورة البقرة] من تنويم المريض حتى اطلع على مرضه وعلى دوائه ، وبين أوقات المرض المقبلة بالدقة ، وبين الأدوية اللازمة ، وهذا كان أمام أكابر الأطباء بفرنسا كماشرحته هناك ، وتمّ كل هذا بعد الامتحان الدقيق والحرص الشديد والانتباه التامّ ، فهذه النفوس الانسانية المتعلقة بأجسامنا هذا شأنها ، ومن شأنها أن تنطلق وتكلم الأرواح الأخرى كما عرفت ، فهذا هوالمقصود من إراءتنا آيات الله فى الأنفس والآفاق ، ولقد تجلى لك فى هذا التفسير أكثر ماتجلى فى الآفاق من عجائب الطبيعة ، وماتجلى للأنفس من عالم الأرواح والملائكة ، وسترى بعدذلك مايظهر من العجائب ، فعلى المسلمين أن يفكروا فيها ، وأن يعلموها ، وقوله (فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أوأدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى استقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها حين أحبّ رسول الله ﷺ أن يراه فى صورته الحقيقية ، فظهر له فى الأفق الأعلى : وهو أفق الشمس ، فملأ الأفق ، ثم أخذ جبريل يدنو من رسول الله ﷺ ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول بقرب النبىّ ﷺ حتى كان منه مقدار قوسين ، والعرب تقدّر بالقوس وبالرمح وبالسوط وبالذراع والباع : أى فكان مقدار مسافة قربه مثل قدرقوسين أوأقرب على تقديركم ، وعلى مقدار فهمكم ، إذ تقولون قدر رمحين أوأقل ، وليس بعدالتدلى والقرب إلاالوحى ، فأوحى جبريل إلى عبدالله محمد صلى الله عليه وسلم ماأوحى ، عبر بذلك تفخيما للموحى به ، مثل انه أوحى إليه « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلاتقهر ، وأما السائل فلاتنهر ، وأما بنعمة ربك فحدّث » وهذا من عظائم الأمور ، ولاجرم أن ظهور الأرواح فى صور مرئية أصبح الآن معروفا ، وقد قصّ علماء الأرواح عجائب ، إذ تظهر الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم ، وذلك فى حال التنويم المغناطيسى ، وتحضر الفواكه ، وقد تمّ ذلك فى جهات كثيرة من الأرض والمسلمون لايعلمون ، وقد ذكرت كثيرا من هذا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، ظهر ذلك على يد الأمم الأوروبية من أرواح ليست فى شرف جبريل ، ولاهى مستنزلة على أنبياء ، بل على أناس امتازت قواهم بأنها مستعدّة للتنويم المغناطيسى وان لم تكن قدسية كأرواح الأنبياء ، فاذا صحّ هذا بالنسبة لآحاد الناس اليوم فليكن للأنبياء من باب أولى بطريق يناسب مقامهم ، إذ لاتتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلى والمتجلى عليه ، وههنا ظهر جبريل لنبينا ﷺ وتبدّت صورته له صلى الله عليه وسلم وهذا راجع لقوله : « شديد القوى » لأن ظهوره فى صورة مرئية راجع لقوّته وشدتها ، وقوله : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » راجع لقوّته العلمية : أى قوله « ذومرّة » فهوعلى سبيل اللف والنشر المرتب ، ولما كان الانسان كثيرا مايظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ماظهر له ، بل قال علماء الأرواح انهم لما خاطبوا الأرواح قالوا لهم : انكم كثيرا مايظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس ، فالناس فى أكثر أحوالهم يكذبون مايقع لهم من غرائب الأرواح مع أن فيهم من هم أقرب استعدادا لتجليها ، فلما كانت هذه عادة الناس أعقبه الله بما يفيد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه ان هذا خداع الحواس ولاأنه وهم فقال (ما كذب الفؤاد مارأى) أى ماقال فؤاده لمارآه لم أعرفك كما يحصل

لبعض العامّة بعض التجليات الجزئية فيظنونها وهما لأنهم ليسوا مؤيدين من الله (أفتمارونه على ما يرى) أفتجادلونه على ما رآه بعينه تلك الليلة ، بل صدّقه وحققه (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى) أى ولقد رآه مرة أخرى كما رآه هذه المرّة فكان ظاهرا له بهيئته ، فكان قاب قوسين أوأدنى ، فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فما حصل فى الأولى حصل فى الأخرى ، ولم يكن ذلك فى الأرض ، بل كان عند شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ، وهى فى منتهى الجنة أى آخرها ولم يجاوزها أحد فى الرقىّ من الخلائق وعلم الملائكة ينتهى إليها ، وماوراءها غيب لايعلمه إلا الله ، وأرواح الشهداء أيضا تنتهى إليها ، أوهى منتهى مايعرج من الأرض فيقبض منها ، واليها ينتهى مايهبط من فوقها فيقبض منها . وفى الحديث ان نبقها كقلال هجر ، و إن أوراقها كآذان الفيلة ، وقد غشيها من نور الله ماغشيها فتغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، ومن وصفها ان الراكب يسير فى ظلّ الفنن منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب ، ووصفها مقاتل أنها شجرة تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان ولوأن ورقة وضعت منها فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض ، وهى شجرة طوبى التى ذكرها الله فى [سورة الرعد] ولقد فهمت من هذا الملخص قوله تعالى (عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى) أى رآه إذ يغشى السدرة مايغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الأنوار والاشراق والبهجة والحسن والنضارة ، ومن الملائكة ، ومن فراش الذهب ، من كل ماورد فى الحديث (مازاغ البصر) أى بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ماعدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، ومامال يمينا ولا شمالا (وماطغى) وما جاوز ما أمر برؤيته (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج ، ومنها نور رب العزة الذى غشى السدرة فلم يزغ بصره ، بل ثبت فى ذلك المقام الذى تزلّ فيه الأقدام حافظا قواه ، والآيات الكبرى منها ماذكر ومنها مالم يذكر ، ومنها أنه رأى رفرفا أخضر سدّ أفق السماء ، وانه رأى جبريل له ستمائة جناح .

ثم كأن الله يقول : هذا وصف ما رآه ، فماذا رأيتم أنتم أيها المشركون ؟ فهل ترون فى اللات والعزى ومناة من العجائب مارأى محمد ؟ وكيف تحصرون نفوسكم فى العالم المادّى وأصنامه وتقطعون على أنفسكم طريق الوصول والارتقاء ، إن النفس لاترقى إلا بما استعدّت له ، فاذا وقفت نفوسكم عند هذه المادّة وأصنامها لم يكن لها عروج إلى السماء :

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام

ونسبتهم البنات الى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم علمية ، وفى صفات لله علية

قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) هذه الثلاثة أصنام كانت لهم ، فاللات كان رجلا يلتّ السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، ثم صنعوا له صورة تعبد ، والعزى شجرة بغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها ، فجعل يضربها بالفأس ويقول :

ياعزّ كفرانك لاسبحانك ✲ إنى رأيت الله قد أهانك

ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، أولثقيف ، وكانت دماء النسائك تمى عندها أى تراق ، وقوله الأخرى صفة ذم : أى المتأخرة الوضيعة المقدار كما فى قوله تعالى : « وقالت أخراهم لأولاهم » أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم ، ولفظ الأخرى متعارف بين أبناء العرب المصريين بهذا المعنى فيقولون هو الآخر وهى الأخرى بمعنى الضعة ، وتأخر القدر والشرف .

ولما قرعهم على تنزل عقولهم لعبادة الأصنام، وتماديها فى الجهالة، وسقوط المنزلة عن المقام الأرفع عند سدرة المنتهى أخذ يذكر جهالات أخرى من جهالاتهم فقال (ألكم الذكر وله الأنثى) كانوا يزعمون أن هذه الأصنام هياكل للملائكة، أومواطن لجنيات تسكنها، والملائكة والجنيات بنات الله، أفرأيتم هذه الأصنام الثلاثة [ألكم الذكر وله الأنثى] تقريعا لهم وتوبيخا، إذ يجعلون هذه الهياكل لبنات الله من ملائكة أوجنّ، وهم يأنفون من البنات، ويصطفون الذكور. فكأن الله قد منحهم ماحرّمه على نفسه، فقوله «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى» مفعوله الثانى «ألكم الذكر وله الأنثى» كقوله «أفرأيتم ماتمنون أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» (تلك إذن قسمة ضيزى) جائرة حيث جعلتم له ماتستنكفون منه وهى فعلى كفضلى من الضيز وهو الجور لكن كسرت فاؤه لتسلم الياء (إن هى إلا أسماء) أى ان الأصنام من حيث الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها وتقولون انها آلهة وليس فيها شىء من معنى الألوهية (سميتموها) أى سميتم بها (أنتم وآباؤكم) بهواكم (ما أنزل الله بها من سلطان) برهان (ان يتبعون إلا الظن) إلا توهم أن ماهم عليه حقّ تقليدا وتوهما باطلا (وماتهوى الأنفس) وماتشتهيه أنفسهم (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) الرسول أوالكتاب (أم للانسان مايتمنى) بل ألللانسان مايتمناه: أى ليس له كل ما يتمناه، إذن ليس لهم مطمع فى شفاعة الآلهة المخترعة وليس لهم أن يطمعوا حيث يقولون: «ولئن رجعت إلى ربى ان لى عنده للحسنى» ويقولون «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وما أشبه ذلك، ومثل هذا أمانى الانسان فى نفسه أوأمته، فالله هوالمدبر، وعلى الانسان العمل والجد (فلله الآخرة والأولى) يعطى منهما مايشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شىء منهما (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا) أى وكثير من الملائكة لاتغنى شفاعتهم شيئا ولاتنفع، فاذن أمر الشفاعة ضيق فان الملائكة مع قربهم من ربهم وكثرتهم لوشفعوا بأجمعهم لأحد لم تعن شفاعتهم قط ولم تنفع إلا اذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له، واذا كان هذا أمر الملائكة الذين هم عالم روحى أقرب إلى الرب من الأصنام وعباد الأصنام، فكيف يكون الأمر إذن فى أصنام أرضية ميتة لاروح لها فى غاية البعد عن ذلك المقام الأقدس، وبهذا فهمت قوله تعالى (إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة) أى كل واحد منهم (تسمية الأنثى) بأن سموه بنتا (ومالهم به من علم) أى ومالهم بما يقولون من علم (ان يتبعون إلا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئا) فان الحق الذى هوحقيقة الشىء وماهوعليه إنما يعرف بالايقان لا بالظن والتوهم (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) فأعرض عمن رأيته معرضا عن ذكر الله وهوالقرآن (ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك) أى اختيارهم الدنيا والرضا بها (مبلغهم من العلم) منتهى علمهم (إن ربك هوأعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) يقول انه يعلم من استعدّ للهداية ومن ليس أهلا، فلاتتعب نفسك فى دعوتهم إنما عليك البلاغ (ولله مافى السموات ومافى الأرض) خلقا وملكا وعبيدا يهدى من يشاء ويضلّ من يشاء (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) أى بعقاب عملهم (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى بالمثوبة بالحسنى وهى الجنة على مقتضى النظام الذى وضعه بحيث يسير كل فى الطريق الذى قدّره له الله على مقتضى الاستعداد. ثم وصف المحسنين فقال (الذين يجتنبون كبائر الاثم) أى الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب (والفواحش) جمع فاحشة، وهى ماعظم قبحه من الأفعال والأقوال (إلا اللمم) إلاماقلّ وصغر من الذنوب أومقاربة المعصية من غير مواقعة، فهذا معفور من مجتنبى الكبائر، والاستثناء منقطع (إن ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، وله أن يغفر مايشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها، وانما ذكرها هنا لئلا ييأس صاحب الكبيرة

من رحمة الله ، والكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار ، أوغضب ، أولعنة ، أوعذاب ، أوحدّ فى الدنيا ، أوأقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أوندم ، أوترتب عليه مفاسد كبيرة ، ولوكان فى نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك انسانا ليقتله ظالم ، أودلّ العدوّ على عورات البلاد ، فقد فعل كل منهما أمرا عظيما فيكون أكل مال اليتيم بالنسبة لهذين قليلا جدا مع أنه من الكبائر ، ولوكذب على انسان كذبا يعلم أنه يقتل بسببه فهذا من الكبائر أيضا ، فأما اذا كذب عليه وترتب على الكذب أخذ تفاحة منه فليس من الكبائر . يقول الله انه واسع المغفرة (هوأعلم بكم) أعلم بأحوالكم منكم (إذأنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب وحين صوركم فى الأرحام (فلاتزكوا أنفسكم) تنسبوها الى زكاء العمل ، وتثنوا عليها بزيادة الخير والطاعات ، أو بالطهارة من المعاصى ، فدعوا الثناء عليها واهضموها ، إن الله علم الزكى منكم ، والتقى أوّلا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وسبب ذلك أن ناسا كانوا يعملون أعمالا حسنة و يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا ، وكان ذلك على سبيل الاعجاب والرياء ، وليس على سبيل الاعتراف بالنعمة فانه جائز ، والمسرّة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر مالم تصبح كالحجاب على النفس فتمنع مايرد عليها من الواردات كما تقدم منقولا عن الامام الغزالى فى [سورة آل عمران] وهذه الآية كآية : « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم » فهناك يقول : كل شىء فى كتاب فما جاءكم من نعمة أوفاتكم منها فينبغى أن لايؤثر فيكم فرحا ولاترحا لأنا نحن كتبناه فى كتابنا ، فهكذا هنا يقول : لاينبغى تزكية النفس لأن ماعملناه مقدّر . وملخص الآيتين أن الكامل لايفرح بنعمة ، ولايحزن بنقمة ، ولايفتخر بفضل ، لأنه لاعمل له ولا تقدير والعمل لله وحده ، وهذه مرتبة شريفة متى وصلها الانسان كان سعيدا ، وهذه هى التى نقولها فى صلواتنا فى الرفع والاعتدال : « أهل الثناء والمجد أحقّ ماقال العبد ، وكلنا لك عبد ، لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاراذّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » فهذا الدعاء يقصد منه الاستكمال بهذه المنقبة الشريفة ، وقوله (هوأعلم بمن اتقى) أى يعلم التقىّ وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم (أفرأيت الذى تولى) أعرض عن الايمان (وأعطى قليلا وأكدى) قطع عطيته وأمسك ، وأصل ذلك أن الحافر تلقاه كدية أى صخرة عظيمة فيمسك عن الحفر (أعنده علم الغيب فهو يرى) أن الكفر والبخل من الأعمال النافعة عند الله (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى) أى بل ألم يخبر بما فى صحف موسى وهو التوراة (وابراهيم) أى وصحف ابراهيم (الذى وفى) أى وفى وأتمّ فما أمره الله بشىء إلاوفى به ولم يسأل مخلوقا ، فلما قذف فى النار قال له جبريل : ماحاجتك ؟ فقال أما إليك فلا ، وأيضا صبر على نار النمروذ وذبح ولده ، وقد كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فان وافقه أكرمه والانوى الصوم . ثم ذكر الله مافى صحفهما وهو مايأتى :

(١) أن لايؤاخذ الانسان بذنب غيره .
(٢) ولايثاب إلا على عمله .
(٣) وأن عمله سوف يرى يوم القيامة فى ميزانه .
(٤) وانه يجازى عليه الجزاء الأوفر .
(٥) وأن انتهاء الخلائق ورجوعهم إنما هو إلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم .
(٦) وأن الله خالق الضحك والبكاء والفرح والحزن .
(٧) والموت والحياة .

(٨) وأنه خلق الذكر والأنثى من نطفة اذا تصب فى الرحم .

(٩) وهوالذى أعطى الغنى ، وأفاد القنية وهى أصول الأموال ومايدخرونه بعد الكفاية .

(١٠) وأنه هورب الشعرى ، وهوكوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحرّ وكانت خزاعة تعبدها فقال الله كلا انه هورب ها ، وأوّل من سنّ لهم ذلك أبوكبشة من أشرافهم عبدها . وقال : لأن النجوم تقطع السماء عرضا ، والشعرى تقطعها طولا ، فهى مخالفة لها فعبدها ، وخزاعة تبعه ، وتسمى الشعرى أيضا [كلب الجبار] والشعرى اثنتان : يمانية وشامية ، والمجرّة بينهما ، واحداهما تسمى العبور ، والأخرى تسمى الغميصاء وهى أخفى من العبور ، والمراد هنا العبور .

(١١) وأنه أهلك عادا الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

(١٢) وثمود فما أبقى الفريقين .

(١٣) وقوم نوح من قبل عاد وثمود ، وقد كانوا أظلم وأطغى من الفريقين ، فلقد كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك .

(١٤) والمؤتفكة : وهى القرى التى ائتفكت بأهلها : أى انقلبت ، وهى قرى قوم لوط ، أهواها الله وأسقطها ، فهو بعد أن رفعها قلبها (فغشاها ماغشى) فيه تهويل عظيم .

هذه أربع عشرة مسألة مذكورة فى صحف موسى وابراهيم وانما جىء بها لأن الذى تولى وأعطى قليلا وأمسك عطاءه غافل عن علم الله وعن العلم الذى أنزل على أنبيائه ، ومن هذا العلم هذه المسائل ، ومنها أنه لاينفعه إلا ماعمل من صالح كالعطاء فلماذا يمسكه . والعطاء بدون ايمان لاينفع فكيف يعرض عن الأصل وهوالايمان وعن الفرع وهوالعطاء ، وأكثر المفسرين رحمهم الله أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يتبع رسول الله ﷺ فعيره بعض المشركين وقال تركت دين الأشياخ وضلالتهم فقال أخشى عذاب الله ، فضمن بعضهم أن يتحمل عنه العذاب ان أعطاه بعض ماله ، فارتد وأعطى بعض المشروط منهم بخل بالباقى ، فهذا يذكره الله بأنه لم يطلع على علم الله حتى يعرف حقائق الأشياء وأن فعله المذكور ليس مرضيا عند الله ، وانه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد فكيف ظنّ أن ذلك الرجل يتحمل عنه ذنبه يوم القيامة والآية عامة لاتختص بهذا السبب ولا بغيره كما رأيت .

ولما عدّد الله تلك المسائل وفيها عبر وحكم ، ومتى اعتبر بها الانسان صارت نعمة قال تعالى (فبأىّ آلاء ربك تمارى) أى فبأىّ نعم ربك أيها المخاطب تتشكك أبما أولاك من النعم أم بما كفاك من النقم ؟ وكلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته فبأيها تتشكك مع أنها واضحة (هذا) أى محمد (نذير) منذر (من النذر الأولى) من المنذرين الأوّلين ، أوالأولى على معنى الجماعة ، أوالقرآن نذير من جنس الانذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم (أزفت الآزفة) قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله تعالى « اقتربت الساعة » (ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس كاشفة أى مظهرة ومبينة متى تقوم إلا الله ، أوالكاشفة بمعنى الكشف كالعافية أى لا يكشف عنها ولا يظهرها إلا الله ، وهما يؤلان لمعنى واحد ، أو يقال ليس لها نفس قادرة على كشفها اذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها لأنه لابدّ ماض فى جزاء كل بما يستحقه كما يقتضيه نظامه فى السموات والأرض ، فالمعنيان الأوّلان بمعنى بيانها ، والمعنى الأخير بمعنى كشف غمها اذا وقعت . ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث) القرآن (تعجبون) انكارا (وتضحكون) استهزاء (ولا تبكون) تحزنا على مافرطتم (وأنتم سامدون) لاهون أومستكبرون يقال سمد البعير اذا رفع رأسه فى مسيره ، أومغنون من السمود وهوالغناء لتشاغلوا الناس عن استماعه (فاسجدوا لله واعبدوا) أى واعبدوه دون الآلهة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى» .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والنجم اذا هوى

لقد علمت مناسبة أوّل هذه السورة لما قبلها ، وأدركت السرّ فى ذلك ، وأزيدك الآن وضوحا فأقول : لقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » والتسبيح بالحمد إما سبحان الله وبحمده ، واما الصلاة ، ولاجرم أن التسبيح هو التنزيه ، والحمد هو الذكر بالجميل على الجميل الاختيارى : أى أن يشكر الانسان النعمة ، ليس المقصود مجرّد الألفاظ ، إنما يراد بالألفاظ وتكرارها إيقاظ القلوب إلى نعم علام الغيوب ﴿ و بعبارة أصرح ﴾ أن يتغلغل الانسان فى معرفة النعم أى أن يدرس هذا النظام الذى نعيش فيه ، فالعامة يكتفون بالتسبيح والتحميد اللفظيين المعينين على نور القلب واستعداده للفيض ، وحكماء الأمّة الاسلامية يسبحون ويحمدون ويكبرون لفظا ، ثم يتغلغلون فى الفكر والحكمة والعلم ، ويوقنون بأن الذكر بالقلب واللسان لهما أثر فى المعارف والعلوم ، وعلى ذلك يجدّون فى الحكمة ، ولعلك تقول : أين هذا فى هذه الآيات ؟ أقول لك : انظر إلى سورة ق والى سورة الذاريات والى سورة الطور ، ففى [ق] قرع الكفار ووبخهم على أنهم لم ينظروا مافى السموات وما فى الأرض ، وفى الذاريات والطور جعل الرياح والسحاب والمطر مقسما بها تعظيما لشأن العلم بها ودراستها ، وفى الطور أقسم بالعرش والفرش و بمعرفتهما ومعرفة مابينهما ، ولما ختم السورة أمر بالتسبيح والحمد ، والحمد يرجع إلى النعم ، والنعم إن لم تعرف فلا حمد عليها ، فأصبح أمر الحمد هو نفس أمر العلم ، والعلم بكل مخلوق فى الأرض وفى السماء بقدر الطاقة البشرية ، ومافى الأرض والسماء مذكور أوّل السورة وما قبلها ، وابتدأ سورة النجم بأن أقسم به لفتا لنظر العبد إلى النجوم فى اقبالها وادبارها ، واصباحها وامسائها ، حتى لايعيش الانسان فى دار وهو يجهل مايحيط به فيها ، وفى ذكر النجم تذكرة باشراق النجوم و باشراق النفوس بالعلم و بالعبادة و باشراق القرآن ، و باشراق الشرائع المنزلة ، و باشراق نور النبوّة ، وأن صاحبها ﷺ دنا من ربه فتدلى إلى آخره أودنا الله منه ، أودنا هو من جبريل ، هذه معان ثلاث رآها علماء آخرون جاءت فى التفسير ذكرتها لتطلع عليها حتى تقف على ماذكره العلماء ، ولا تضيع وقتك فى اقتفاء آثار الأقوال ، وانما يهمنا الحكمة والعلم فنقول :

لما رأى صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى كان هذا نوعا من العلم ، لأن كل ما رآه الانسان ببصره أو بعقله فهو علم ، وهذا العلم يستوجب الحمد المذكور فى آخر السورة السابقة . يقول الله : « فسبح بحمد ربك حين تقوم » وهنا يقول : انى أطلعتك على عجائب ملكى ، وعلى شجرة عظيمة ، وعلى فراش من ذهب الخ وهذا العلم هو الموجب للحمد ، فكأنه فى السور السابقة شوّق النفوس للمعارف ، ذلك لأنه أقسم بالمخلوقات فى السورتين السابقتين ، وهذا تشويق للعلم بها ، وذكر فى سورة الطور البيت المعمور ، وهو فى السماء ففتح بهذا بابا للنفس ، وهنا يقول : انظر إلى عجائب خلقى ، ومتى اطلعت عرفت ، ومتى عرفت النعمة حمدت الله عليها ، فالحمد اللسانى قليل الجدوى .

يقول الله : ان محمدا ماضلّ وماغوى ، ثم قال انه اطلع على عالمنا وعجائبنا ، فأين يكون حمده المصحوب

بالتسبيح فى آخر السورة السابقة حمدا مصحوبا بعلم ، فلا حمد إلا على نعمة ، ولا بدّ أن تكون معلومة للحامد وهاهوذا قد اطلع على عجائبنا وحكمنا فى خلقنا .

ثمرة هذا المقام فى أمم الاسلام

مامن امرئ إلا وأحسّ فى نفسه بقول خفىّ تحدّثه به نفسه فتقول فى وقت مّا ماهذا الكوكب ؟ ماهذا النبات ؟ ما هذا الشجر ؟ ما هذا الحجر ؟ ماهذا المطر ، ومن أين جاء البحر ؟ وماهذه الشمس ؟ وماهذا النور ؟ وما أشبه ذلك ، ويودّ لو يقف على حقائقها ، ففى هذه السورة ابتدأ بذكر النجم تشويقا لدراسته ، وجاء فيها اطلاع النبى صلى الله عليه وسلم على عجائب هذه الدنيا وغرائبها ، فلئن كان هذا للأنبياء من غير تعليم فليكن لنا بطريق التعليم : وليس عظمة الثروة عند الأغنياء إلا مسوّقة لمن دونهم أن يكونوا على شاكلتهم ، فمن جلت صورته طبعا ، ومن ورث الملك عن أبيه ، ومن هو حادّ الذكاء من الناس قد كانوا قليلين فى الناس ، وليس معنى هذا أن الناس لايتولون الأحكام مالم يكونوا ملوكا ، ولايدرسون مالم تكن أذهانهم خارقة للعادة ، ولا يتجملون مالم يكونوا آية فى الجمال . كلا . فالأدنى يقلد الأعلى ، فاذا رأينا فى أنفسنا شوقا إلى الاطلاع إلى العالم فلنجدّ فى العلم حتى نعرف مانطيقه ، واذا أطلع الله نبيه على آياته الكبرى وجعلها له نعمة فلندرس نحن بعض آياته المشاهدة فى الطبيعة والفلك ، واذا وجدنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور ، وأن هناك ملائكة يدخلون وهم كثير والعدد الخ فلندرس العلوم الفلكية ولنقرأ ماعرفه الناس فان هناك عوالم عظيمة وكواكب تصغر شمسنا دونها ، واذا رأينا أن سدرة المنتهى قد انتهت إليها علوم الخلائق فلايعرفون ما وراءه فلنعلم أن ذلك يفتح لنا باب العلم فلندرس مافى طاقتنا دراسته حتى تقف عقول الناس ، إن الناس الى الآن يريدون علما فى معرفة الكواكب والأفلاك والطبيعة ولم يقف الناس وهم يزيدون كل يوم كشفا وعلما فلندرس علومهم لأنها فى حيز الامكان ﴿و بعبارة أخرى﴾ لم تصل العلوم إلى سدرة المنتهى فلو أنها وصلت إليها لوقفت العقول وأعلن العلماء أن العلم لايزيد ، ولكن العلم يزيد ، ولايجوز للمسلمين أن يقولوا : ان العلم قاصر على الفرنجة ، فهاهوذا نبينا ﷺ يقول : إن للخلائق حدّا فى العلم ، وليس معنى هذا أن يكون العلم خاصا بغير المسلمين فان قدوتنا ﷺ هو الذى اطلع على آيات ربه الكبرى بلا تعليم ، فلنطلع نحن على آيات ربنا بالتعليم لأننا من الخلائق ، ولا يصح أن نستثنى أنفسنا لأننا بهذا نكون قد جهلنا ديننا ولم نقتد بنبينا الذى أمره الله أن يقول « رب زدنى علما » فليس يصح لنا ألا نقول ذلك

يفتح لنا صلى الله عليه وسلم باب العلم و يقول انه رأى سدرة المنتهى ، وأن هناك علوما ومعارف ، و يقول ان ماوراء سدرة المنتهى ممنوع عن الخلائق ، وكل هذا يؤخذ من « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » فالتسبيح تنزيه الله ، والتحميد معرفة حقّ النعمة ، والتكبير الاعتراف بأنه أكبر مما نعلم ، فاذا كان التسبيح والتكبير والتحميد وراء الصلوات فهو مذكرنا بذلك ، مذكرنا بأن نصفو نفوسنا أخلاقا وآدابا ، ونتفرّغ للعلم ، فتنزيه الله عن المادّة ولواحقها يفسح لنا باب التفرّغ للعلم وترك المألوفات ، والتبرّى من العادات ، لأن العلم لايدخل إلا قلوبا لها حظ من التهذيب والتأديب ، وهذا نوع من التنزيه عن المادة والعلم للنفوس المهذبة أقرب وهو المتسرله بالجد ، والعلم أمده طويل ولاحدّ له ، فليجدّ الانسان فيه ليقرب من خالقه ، وعلى مقدار علمه يكون قربه ، فما قرب ﷺ إلا قربا علميا ونحوه ، لاقرب الذات بل قرب المعنى ، ثم نعلم فوق ذلك أن الله أكبر من كل ماعرفناه ومايعرفه الخلق من ملائكة وجنّ وانس ، فالتسبيح والتحميد والتكبير فى الاسلام فواتح لرقىّ المسلمين كما تراه فى هذا المقام ، فلم يقصد ذكر اللسان وحلو الحسان ، ولو قصد ذلك مادكرت

سورة النجم بعد الطور التى ختمت بالتسبيح والتحميد ، بل جىء فى سورة النجم التى فى أولها المعارف والعلوم وأنه رأى من آيات ربه الكبرى ، فليقرأ المسلمون علوم العوالم المحيطة بنا ، فليقرءوا تلك الكواكب البعيدة المدهشة التى يصل ضوءها فى مئات السنين ، بل فى ألوف السنين ، بل فى ملايين السنين ، واذن تكون شمسنا قريبة جدا ، بل تكون المسافة بيننا و بينها بالنسبة لغيرها أشبه بطول رمح صغير بالنسبة لمحيط الأرض عشرمرات ، ويكون ضوءها وقدرها بالنسبة لغيرها ضعيفين جدا وقليلين ، فراجع ما تقدم فى [سورة آل عمران] تجد مانقلته هناك من أبعاد الكواكب عن أرضنا وفى سورغيرها كالأنعام وهكذا تقدم فى هذا التفسير ماذكرته روح غاليلى من العوالم البديعة ، والخلائق العجيبة ، التى تعيش عيشا لايحلم به أهل الأرض والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : « وأنه هوأضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هوأغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ماغشى ، فبأى آلاء ربك تمارى»

قال صاحبي الذى اعتاد مسامرتى فى هذا التفسير : الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة ، وانتهت الآية ان هذه آلاء الله ، الآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا فى هذا التفسير وكثرت الاجابة عليه ولكن النفس لاتزال تطالب بالمزيد ، فحدثنى أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا فى أفعاله ، الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، واذا قتل أحدنا انسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا انسانا عمدا نعذب فى جهنم يوم القيامة ، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل . واذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف فى الأرض ؟ هذه المعانى تتردّد فى نفسى صباحا ومساء ، وكل ما جاء فى هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فانما هى أجوبة جزئية ، والجزئيات لاتغنى عن الكليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد اجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها فى هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول فى آية : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول فى آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فنحن الآن فى مقام السير فى طريق أولى العلم الذين يشهدون بصائرهم أن صانع العالم قائم فى عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونحن فى الأرض كيف كان الله قائما بالقسط فى تدبير الخلق ، وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الاهلاك والابكاء والتدمير وابدة الأمم وادلالها و بين اسمه [الودود] . ألم يقل الله [وهوالغفور الودود ذوالعرش المجيد ، فعال لما يريد] ولاجرم أن الودود يفعل مايريد ، ولكن هل يلقى ودّه إليهم ، ويكون فعله محبوبا لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهواهلاك المدن ، وازالة الدول ، وابكاء العيون أيكون ذلك ودّا ، وأيصاجاء فى القرآن آيات فى سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلا ماضيا وفعلا مضارعا وأمرا ، فهومصدر فى سور كثيرة مثل : « سبحان الذى

أسرى بعبده ليلا» . « وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفى هذه السورة ، وفى آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وسيأتى فى [سورة الحديد] : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الاحياء والاماتة هناك كما ذكرها هنا ، وفى آخر [سورة الحشر] : « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وفى آخر [سورة المجادلة] : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » إن رضا العبد عن ربه وتنزيهه وحبه وودّه يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الالهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والودّ والرضا الخ فأرجو الاجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرّة أخرى . فقلت : سأسامرك ان شاء الله فى أوّل [سورة الحديد] فى هذه المعانى وهنالك تتجلى المعانى التى تريدها وان كان أكثر ماسألقيه عليك هناك قد مضى كثير منه متفرّقا فيما مضى من التفسير . وسأشرح :

(١) النظام التكوينى .

(٢) والنظام التشريعى وأنهما متفقان .

(٣) وأبين درجات التربية الست :

(٤) تربية الأمّ لولدها .

(٥) وتربية الأب له .

(٦) وتربية المعلم .

(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع مايتبع ذلك من نظام الجندية .

(٨) التربية الالهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .

(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها مايضرّه وهو يبكى لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التى بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربى .

(١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، واما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وايضاح ذلك وتفصيله من كلام [كونفوشيوس] فيلسوف الصين الذى توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .

(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه ولكنه قذف لنا كرات جميلة لاحصر لعددها ، وهى الشموس والكواكب ، وهو يقرّبها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمل والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين ، وصنع للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لدهمت عقولهم ، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شهبا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ماسأذكره هناك ان شاء الله مع شذرات فى الآيات التى ذكرتها أيها الأخ الذكىّ . فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وانى لفى غاية الشوق إلى ماوصفت . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى »

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمة مذكورة فى البسملة فى أوّل هذه السورة وهى منبثة فى أجزائها كما هى منبثة فى أجزاء العالم الذى نعيش فيه الذى هو محل دراستنا كما أنه مناط حياتنا .

اللهم انك أنت الحكيم العليم الملهم الهادى ، نحمدك اللهم على الهداية ، وعلى الحكمة ، وعلى النور والعرفان ، العرفان الذى ابتهجت به يوم الأحد الماضى فى تفسير هذه الآيات ، وذلك بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ م فى شهر شوّال سنة ١٣٥٠ هـ

خرجت من القاهرة مع أهل بيتى لمشاهدة حقلنا الذى اعتدت فى هذا التفسير أن أكتب خواطرى فيه تلك الخواطر التى ترد فى المزارع والحقول ، وقد امتزج المعقول فيها والمنقول ، نور والله على نور ، نور الوجود على نور الكتاب المبين ، نور الحكمة العلمية يزدان بكتابنا المقدّس ، كتابنا الذى جاء به الوحى تفسره المناظر الطبيعية ، وتشرح تفسيره المباهج الحقلية ، ركبنا القطار من القاهرة ، آذن القطار بالمسير إذ ارتفع صفيره ، وازداد شهيقه وزفيره ، وأخذ يطوى الأرض طيا من محطة الليمون عند القاهرة ميمما محطة المرج وهى التى منها نتوجه إلى حقلنا ، هنالك أخذ الفكر يجول فى عالمنا الذى خلقنا فيه ، وخيل لى أن روحا علويا بجانبى قد تمثل لى بشرا سويا ، وقد أخذ يخاطبنى ، وما أجمل الخطاب ، وما ألذ حديثه المستطاب . إذ أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، هنالك نسيت القطار ومن فيه ، وخرجت من ضيق الأرض إلى فسيح السموات ، وغبت عن عالم الحس ، وارتقيت إلى عالم الروح والعقل ، وسموت إلى فسيح السموات تذكيرا وتفكيرا .

هنالك قال لى الروح : انظر إلى عجائب الشمس ، انظر إليها كيف ترسل ذرّات النور متتاليات متتابعات فى الجوّ ، وانظر كيف تسافر تلك الذرّات فى فسيح الجوّ جاريات منها إلى الأرض ، ما أسرع جريها ، انها تجرى حثيثا من حين خروجها إلى أن تصل إلى أرضكم هذه فى ٨ دقائق و١٨ ثانية ، تجرى وتلحقها أخرى بتقدير محكم ونظام عجيب ، وهذه الذرّات الضوئية المشاهدة يحسبها الناس غير موزونة وهى موزونة (لقد تقدم فى هذا التفسير أن علماء عصرنا قد وجدوا للضوء وزنا ، وأن الشمس تخرج فى الثانية الواحدة منه ما يقدّر بمئات الملايين من القناطير المقنطرة ، كل هذا واضح فيما تقدّم بأجلى بيان ، ذلك لأن النور عبارة عن حركات ، والحركات طبعا لها ميل واتجاه ، وهذا الاتجاه له ثقل وان كان ذلك لا يكاد يشعر به أحد ، ولكن اجتماع الكثير الذى لا حصر له يوجب ثقلا عظيما كما قدّمناه) . ثم قال : وهذا الضوء الذى هذه صفته يجرى فى جوّ أثقل منه مما لا حدّ له (أقول : انظر ما تقدم فى أوّل سورة الصافات ، فقد أثبت العلماء فى عصرنا أن هذا الجوّ الفسيح بقطع النظر عن الهواء الذى هو فيه مملوء بما يسمونه [الأثير] والأثير عالم لا نحسّ به ، وقد قلنا انه أشبه بخيالنا نحن ، فكما أن خيالنا لا وزن له وهو موجود هكذا هذا الأثير يظن الانسان أنه لا وزن له بل لا وجود ، ولكن العلماء أثبتوا وجوده ووزنه ، ولكنه وزن مدهش إذ قالوا انه لو قدّر وكان مادّة محسوسة لكان أثقل من الحديد بمئات المرّات ، وهذا المقام محقق هناك بقدر الامكان فارجع إليه ، ويقرب من ذلك أن الشمس والكواكب والأرض كلها متجاذبات ، والحبال التى تتجاذب بها وتمسك بها هذه الأجرام الكبيرة ، هو هذا الاثير فلنفرضه حبالا ، وهذه الحبال المعنوية بها تجذب الشمس الأرض والسيارات ، وتجذب الأرض القمر [و بعبارة أخرى] اننا نعيش فى جوّ مشبع بالجذب ، فهذا الجذب

قوّة ، وهذه القوّة لوجسمت لكانت أثقل من الحديد والرصاص والأحجار بآلاف المرّات ، وهذا الذى قلته الآن يسهل عليك أيها الأخ فهم مقال الروح لى ، ويزداد به فهم ما ذكره العلماء ونقلته فى أوّل [سورة الصافات] وذكرت هذا الايضاح هناك) .

ثم قال الروح بعد ذلك : انظر الطيور ، انظر الحشرات ، انظر الأشجار ، انظر هذا كله . قلت ثم ماذا ؟ قال : قد فهمت منظر الشمس ، وفهمت اخراجها لأنوارها ، وانها جاريات فى عالم قوىّ متين ، وهذا العالم القوىّ المتين هو الأثير ، ذلك الأثير القوىّ المتين الذى به عرفتم قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » فكل كوكب يحيط به أثير ، والعيون تنظر الجوّ إلى أمد محدود ، وهنالك ترى قبة منظورة واضحة لايشك من رآها أنها سماء تظله كما لايشك الرجال والنساء فى سقوف بيوتهم أنها تظلهم ، وهذه السماء المنظورة عبارة عن أجزاء من الهواء منبثة فى أجزاء الأثير ، والأثير هو الأصل ، والأثير قوىّ متين قوّة لاحدّ لها ، وهذا قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » فالشدّة الآن واضحة أشدّ وضوح فى زماننا ، وقوله بعدها : « وجعلنا سراجا وهاجا » بيان للضوء الجارى من الشمس فى ذلك الجوّ الشديد القوىّ المتين ، وهذا الجوّ القوىّ المتين هو العمد الذى لم تروه فى آية : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » فهذا الأثير عمد غير مرئية ، وهذه العمد قوية متينة ، وكيف لاتكون قوية متينة ، وقد رفع فوقها سماء شديدة [وبنينا فوقكم سبعا شدادا] .

ثم قال : اذا عرفت هذا فأنت الآن وجميع بنى آدم وكل حيوان ونبات تعيشون فى وسط واحد يغمركم جوّ الأثير ، ذلك العالم الخفىّ القوىّ المتين ، النور يشرق عليكم جميعا ، إذن هذا العالم جسم واحد ، وهذا الجسم يشرق عليه نوران : نور حسى ، ونور معنوى ، فالنور الحسى قد شرحناه ، والنور المعنوى هو الذى سنشرحه الآن ، فهذه الطيور لها غرائز وأنواع من الادراك وهكذا الانسان ، بل النبات له نوع احساس ، وما ذلك كله إلا أنوار معنوية ، واذا كان للنور منبع وهو الشمس ، وقد سطع على كل برّ وبحر ، وعامر وقفر ، ونبات وحيوان وانسان ، فهكذا ذلك النور المعنوى المنبعث من عوالم أرقى من الشمس ، عوالم هى شموس العقول والادراك ، عوالم أنتجت بقدرة الله وعلمه ، هذه الشموس هى أولى باسم الوجود ، هى أولى باسم النور ، هى أعمدة لهذه العصافير الطائرات ، المغرّدات المربيات لذرّيتها ، هى المعطيات لهذه الحشرات ادراكها وعلمها .

أيها الجوهرى : ألاخبرنى رعاك الله ؟ ألم تقرأ ماجاء فى كشفكم الحديث فى أرضكم أن هناك فى المزارع التى تراها مادّة تسمى [الفيتامين] وهى مادّة الحياة ، والفيتامين المذكور يقوى فى الفواكه والخضر ، ويقلّ فى غيرها ، ويشتدّ ظهوره فى البرتقال وما قاربه ، ويقلّ فى نحو الارز الذى فصل من قشره ، كما جرّبوا ذلك مع الفيران فى ألمانيا ، إذ رأوا ما أكلت الارز منها وهى فى الظلمة قد مرضت وهلكت ، وما أكلت البرتقال منها قويت وسمنت ، فعلموا أن البرتقال أخذ من مادّة الحياة المنبثة فى ضوء الشمس المنبعث منها عليه أكثر مما أخذ الارز ، لأن القشر الذى كان عليه هو الذى تلقى ضوء الشمس ، فلما فصل منه أصبح هو قليل القوّة والمتانة ، وأصبح آكله المقتصر عليه أضعف من آكل البرتقال ونحو البرتقال .

ثم قال : إذن هنا ضوء للشمس فيه قوّة الحياة ، وهذه القوّة منبعها الشمس ، وهذه القوّة تكثر وتقلّ بحسب القابليات ، فعلى مقدار القابليات تكون العطايا .

الله أكبر . جلّ الله : أليست هذه الحيوانات من حشرات وطيور ودابة وانسان قوابل لنور الفكر والعالم العلوى الملكى أشبه بشموس تنبعث منها الأنوار الفكرية . وهذه الأنوار الفكرية تكون فى الانسان

أكثر من الحيوان ، وتختلف الأنوار الفكرية باختلاف القوابل الحيوانية ، إذن الأنوار الفكرية لاتزال تنبعث من عوالم نورية تسمى بلسان الشرائع ملائكة ، وبلسان الحكمة عقولا ونفوسا ، اختلفت الأسماء ولكن المسمى أصبح معلوما لكم بطريق القياس ، لأننا نكلمكم على قدر عقولكم أيها الناس ، فهناك عوالم روحية نورية عقلية نسبتها إلى عقولكم وعقول حشراتكم ودوابكم كنسبة أجرام هذه الشموس والكواكب إلى أحجام أجسامكم ، واذا كان للنور المحسوس أجرام عظيمة هى منابعه ، هكذا للنور المعقول منابع هى أصوله ، إذن المحسوسات جعلت أمثلة للمعقولات ، وهل أدار الله الشمس حول أرضكم وأجراها جريا متتابعا بحساب إلا لتدرسوها ، ومن أجل دراستها أن تتفكروا وتقولوا هاهى ذه أنواع المآكل اختلفت قوّة الحياة فيها قدرا ومنفعة ، حتى ان قشور الفاكهة والحبوب قد كنت فيها قوّة الحياة المستمدّة من ضوء الشمس أكثر مما كمن فيما وراء تلك القشور من لب الثمار ولب الحبوب البعيدة عن ضوء الشمس ، فآكل تلك القشور ينال من قوّة الحياة أكثر مما ينال آكل ماتحت تلك القشور .

ثم تقولون : واذا كان ذلك كذلك فى عالم الحس فليكن هذا عالم الروح ، وأن النفوس لاتأخذ من العوالم الروحية إلا على مقدار ما استعدّت له ، فاذا رأينا انسانا وحشرات وطيورا ودوابّ ، فهذه لم تختلف فى ادراكها إلا باختلاف قابليتها لمايرد عليها من العوالم الروحية التى تحيط بالشموس و بالثوابت وبالسيارات ، واذا كان المسلمون اليوم فى أنحاء الأرض أقلّ علما من غيرهم فى الأمم فما ذلك إلا لأنهم قد أصبحوا أشبه بما تحت قشور الحبوب والثمار والفواكه ، لأن الخرافات قد أحاطت بعقولهم ، وأضلهم بعض شيوخهم ، فمنعوهم العلم ، ومنحوهم مواعيد عرقوبية ، وأفهموهم أن حظوظ الحياة وحظوظ الممات ليس مدارها على العمل ، واتكلوا على المغفرة المجانية ، ونسى كثير منهم أنفسهم وغرائزهم وعقولهم ، فلم يصل لهم من تلك العقول العالية إلا قليل كما لم يصل لما تحت قشور الحبوب إلا قليل ، فقلت مادّة الحياة فى الدقيق الناعم فى نحو الهبر وكثرت فى النخالة وفيما يسمى (بالسنّ) وهوالذى يتركه الناس فلا يأكلونه ، وقد يطعمونه البهائم جهلا منهم ، وهوالذى فيه قوّة الحياة والمنعة .

إن نورالفكر منتشر انتشارضوء الشمس ، نور مشرق على جميع هذه الكرة الأرضية كما يشرق نور الشمس وجميع كواكب السماء ، لامكان فى الأرض ، ولافى الجوّ إلا وهو مشبع بأنوار لاحصر لها ، أنتم يابنى آدم لاتكادون تفهمون من الأنوار العلوية فى أرضكم إلا نور الشمس والقمر ، مع أنكم فى الحقيقة تشرق عليكم أنوار كثيرة جدّا لاحصر لها ، فكل كوكب كشف أولم يكشف يسطع نوره الآن على الأرض وتصل منه آثار إلى أجسامكم كما تصل آثار من الشمس والقمر ، وتلك الآثار لها عمل فيها . إذن هنا أنوار كثيرة لاحصر لها تسطع على أجسامكم ، وأنتم لاترونها ، واذا كان ذلك محققا فعلا فى نور محسوس فان الأنوار العقلية المشرقة العلوية الروحية تحيط بكم ولاحصر لها من مشرقات عليا وهى عوالم الملائكة ونفوسكم تتقبل منها كما تتقبل أجسامكم أنوار الشموس والكواكب والأقمار .

فلتتعرّصوا لملك الأنوار الروحية أيها المسلمون وان كانت خافية فمطيرها فى الخفاء أضواء الكواكب البعيدة مع أنها محققة ، ولن يتمّ ذلكم لكم إلا بنبذ الخرافات ودرس نفس هذا الوجود ونفس القرآن وليس يعنى والله ماقرتم فى كتب أسلافكم الذين درسوا مايناسب زمانهم ولم يتوسعوا فى العوالم العلوية والسماوية توسع أهل زمانكم وان كانوا لم يقصروا فى ذلك ولمحوا تلميحا إلى ماظهر فى هذا الزمن ، إذن ههنا أمران انسان لاثالث لهما : نور محسوس ، ونور معقول ، والمعقول أصل المحسوس ، هذا جسمك بجوهرى تشرق عليه الشمس و يشرق عليه نورالفكر ، يشاركك فى ذلك كل انسان وحيوان ، بل النبات له حظ من الادراك ،

وهذه العوالم كلها فى المجموعة الشمسية ، والمجرّة العامّة والمجرّات كلها جسم واحد متجاذب فلافضاء إذن ، وهذا الجسم المتجاذب له قوى متعدّدة مختلفة ، خلقه الله وبثّ فيه أنوار الكواكب وأنوار العقول العالية ، فهو الخالق لتلك العقول العالية ولتلك الشموس الكبيرة ، ولاتعجب أن تكون أنت الساعة لك اتصال بعوالم علوية مشرقة وأخرى تزجى الفكر ، وأنت وكل حيوان ونبات تستمدّون من النورين وتسعدون بالاشراقين . الله عزّ وجل لاترونه لأنكم الآن فى حال التربية ، وهذه العوالم هى الغطاء ، فالعوالم الحسية غطاء حسىّ ، والعوالم الروحية غطاء روحىّ ، هما غطاءان لوكشفا لرأيتم الله ، ولكنهما لن يكشفا رحمة بكم واحساناولطفا ، لوأن الله كشف هذه الحجب ورفع الغطاء عن أعينكم الباطنية لهلكتم ولذبتم ، ولكنه لرحمته العظيمة خلق لكم شموسا ظاهرة وشموسا أجل منها باطنة ، وهى العوالم الروحية وقال لهما تعاونا فى تربية كل انسان وكل حيوان فتعاونت أضواء الشموس مع أضواء العقول على تربية العالمين .

حيرتي وفراقى لتلك الروح الجميلة

والكلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية فى الرئة وفى الغذاء وفى المخ

هنالك وصل القطار الى محطة المرج ، ومدّة جريه نصف ساعة من الزمان ، فأفقت من غشيتى ، ورجعت إلى حسى ، وغاب عنى حالا ذلك الروح الذى تمثل لى بشرا سويا ، فساورتنى حيرة ، واعترانى همّ ، ذلك أن ما تخيلته وأنا فى القطار له قيمة علمية ، ولكن المقصود من تفسير الآية لم أصل إليه بعد ، لأنى أريد أن أفهم لماذا يذكر الله تعالى « النشأة الأخرى » بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى ؟ وما المناسبة بين الذكر والأنثى وبين النشأة الأخرى ؟ ثم لماذا نسمع الله يقول فى [سورة الأنعام] « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ولاجرم أن جمعنا يوم القيامة يكون بالنشأة الأخرى ، فهل كون الانسان ذكرا وأنثى هو الرحمة التى جعلها الله مقدمة لتلك النشأة ؟ أم ماذا يكون ؟ فاذا رأينا الرحمة جعلت فى مقابلة ذكر الزوجين وجعل ما بعد كل منهما هو النشأة الأخرى ، فاذن علينا أن نفهم هل فى الذكورة والأنوثة مبادئ للنشأة الأخرى ، هذا هو الذى حارفيه فكرى ، هنالك نزلت من القطار ، ولكنى لم أمش فى طريقى من المرج إلى مزرعتنا كما جرت عادتى لأننى اعتدت كما ذكرت فى هذا التفسير مرارا أنى أنزل من القطار وأمشى نحو ساعة حتى أصل الى الأرض وهكذا فى الرجوع طلبا لرياضة البدن ، وفرحا بنعمة العلم ، واستنشاقا للهواء النقىّ ، فانه اذا كانت أجسامنا لابدّ لها من غذاء وأهمه الفيتامين أى مادّة الحياة الكامنة فى الخضر والفاكهة والحبوب ولاسيما فى قشورها ، واذا كانت عقولنا لابدّ لها من أنوار فكرية تصل لها اذا خلت من الشواغل الحسية والمعنوية ، وهذه الأنوار الفكرية يحصل عليها كل حيوان بحسب استعداده ، وكل انسان بحسب قابليته ، هكذا الرئة لابدّ لها من هواء يدخل بالشهيق ويخرج بالزفير ، وقد ظهر اليوم أن الانسان اذا استنشق بالشهيق مقدارا كبيرا وهو فى الخلاء وعند شواطئ البحار ، وأخذ إدراك يدخل النفس بلطف ويحبسه قليلا ثم يخرجه بالتدريج بلطف يدخله فى نحو ٦ ثوان أو ٧ مثلا ويبقيه فى مدة كذلك ثم يخرجه فى نحو هذه المدة بالتدريج ، ثم يبقيه خارجا كذلك . يفعل ذلك آنا فآنا حتى بتعوّده ، ثم يزيد فى الزمن على مقدار الطاقة ادخالا واخراجا ، وحبسا للنفس داخلا وحبسا له خارجا ، فأنا هكذا كنت أفعل أثناء المشى كل مرة وأنا مع ذلك أدرس هذه الطبيعة الجميلة البهجة ذات الجمال .

أقول : فى هذا اليوم لم أمش بل ركبت مع عائلتى سيارة وسرنا إلى أن وصلنا الأرض (مزرعتنا) عند كفر الباشا من أرض بركة الحج .

منظر الأرض وتفسير الآيات فى مزارع الحقول

أخذنا نجوس خلال الأرض ، وجلنا فيها جولات ، وجلسنا هناك إلى قرب صلاة العصر ، فكان منظر الحقل جيلا أىّ جمال ، حقل أمامه الجبل شرقا ووراءه المزارع الخضرة والنخيل وأنواع الحبوب والحشائش المختلفات غربا ، وقد هبت النسمات فتذكرت الأثر الوارد : « اذا هبت الأرواح ، وفاءت الأفياء ، فاذكروا الله فانها ساعة الأوّابين » .

مناظر الأشجار المحيطة بالحقل فيها النخيل الكثير ، وهناك الاثل : أى العبل والطيور مغرّدات والحشرات مغنيات ، وأنواع الشعير والقمح والبرسيم والفول وهى متمايلات طربا وبهجة ، تهتزّ اهتزاز الوطين ، وتمشى مشية العروس بهجة للناظرين : والريح تعبث بالسنابل وتلعب بجريد النخل وأغصان الأشجار تقلبها ذات اليمين وذات الشمال .

ولهذه الأنواع أصوات موسيقية ، ورنات غنائية ، وهى موسيق حقيقية لاخيالية [ولكنّ أكثر الناس لايعلمون] . وللحشائش من النغمات ماليس للأشجار والنخيل والأعناب ، العوالم كلها فى طرب وبهجة وحبور ، ولكن هذا الانسان هو الذى حيل بينه وبين ذلك الطرب والحبور للجهل الفاشى فى نوع الانسان . هذه هى الخواطر التى خطرت لى أثناء جولانى فى وسط الحقول .

حضور الروح الخيالى فى الحقل معى وتفسيره لآية : وأن عليه النشأة الأخرى

وبينما أنا غارق فى هذه الأفكار فى الحقل إذ حضر الخيال الروحى الذى كان معى فى القطار . فقال : ان ماذكرناه معك فى القطار يجعل العقل الانسانى كأنه ناظر إلى ربه ، إن الأمر أصبح واضحا ، انسان عاقل تحيط به أنوار ، ويداخله فكر ، هو فى أنوار عقلية وأنوار حسية ، هى مرسلات له من الله ولكنه لايزال فى حال البرية ، وهو وان حجب بذلك عن أن يرى الله فانه اذا صفت بصيرته يرى أنه هو جزء من هذه العوالم التى أرسلها له الله ، وهذه العوالم جميلة جمالا حسيا وجمالا معنويا ، ألاترى إلى جمال الحقول واختلاف الصور والنغمات ، ألاترى الى جمال العقول واختلاف إدراك العصفور والزنبور والنحلة وادراك الانسان ، تلك مناظر ذات جمال وبهاء وسناء ، فلئن اختلف شجر النخل وشجر العنب والرمان وأنواع الفول والقمح والشعير من حيث أشكالها ، ومن حيث نغمات الهواء المتحللة أوراقها وأغصانها فلتختلفنّ آراء الانسان والحيوان من حشرات ودواب وطيور ، اختلفت الأحجام والأصوات والادراكات ولكن الأخيرة هى الباقية أما الأصوات وأما الأجرام فهنّ كلهنّ ذاهبات وعالم الفكر هو الذى إليه تشدّ الرحال ، وبه يسعد الرجال .

وبينما أنا كذلك إذ لاحت منى التفاتة إلى نخلتين فى الحقل إحداهما ذكر والأخرى أنثى ، فأردت أن أقتلع [الكفرّى] (١) أى وعاء الطلع من النخلة ، فنعتنى السلاء التى يحملها قحف الجريد المحيط بذلك الطلع ، هنالك تذكرت مامرّ فى هذا التفسير من أن تلك الشوكات الطالعات بجانب أوراق شجر السمط لم تخلق إلا للمحافظة على تلك الورقات لضعفهنّ ضعفا كثيرا ، فهذه الشوكات تساعدها حتى تتحمل العواصف وتقلب الهواء فى الأجواء والأوقات المختلفات ، ولذلك نرى ورق السمط مع صعفه يعيش جنبا جنب مع خوص النخل القوىّ المتين ، وخوص النخل لايعوزه مايقويه ، أما ورق السمط فهو ضعيف ، أما هنا فى النخلة فان هذا الشوك المنتظم على جانبى القحف لم يجعل إلا للمحافظة على الطلع فى ذكر النخل ، وعلى حلق التمر

(١) بضم الكاف والفاء وتشديد الراء .

وتربيته فى أثناء ، إذن هـذا الشوك اعترضنى حتى لا أمدّ يدى فأتناول الكفرى من هذه النخلة التى أنتجته لأنى أستعمله فيما لم يخلق له ، خلق هذا الطلع ليلقح ثمر النخلة قريبة أو بعيدة ، وفى حقلنا نخلة تقرب منه لذلك جعل الله هذه السلاء (جمع سلاءة) لتمنع الأيدى العابثة فلا تمتدّ إليها ، هذا الخاطر ورد إلىّ أثناء هذه المحاولة فجاء غلام صغير فى الحقل ، وقال : إن هذا يشوّكك فابتعد عنه وأنا أنتزعه لك ، فتقدّم لينزع [الكفرّى] فلم يقدر وقال : انى ان انتزعته انكسر ، ونحن نريد أن نعطيه لك سالما ، فبقول هذا العلام تمّ الدرس الذى كنت أفكر فيه ، فجاء رجل من نفس الحقل ، وقال : لا يمكن قطعه إلا بسكين حادّة ، فقلت فى نفسى الآن حصحص الحق ، أعنى أن هـذا الطلع لا يأخـذه إلا من له به عناية ، ولا عناية إلا بمنفعة ، والمنفعة هنا الالقاح ، والالقاح كثيرا ما يكون بيد الانسان ، فيأخذ الطلع من الذكور الى الاناث ، وهذه العناية النافعة يتخذ الانسان لها عدّة ، وهى آلة حديدية حادّة ، بها يقطع ذلك المطلوب .

هنالك قلت لا يتسع الوقت للبقاء وأشكرك ، وأما الساعة أريد الرجوع إلى المنزل بالقاهرة ، هنالك خاطبنى الروح قائلا : أنسيت الدرس الذى كنا ندرسه فى القطار ، ان له لصلة بهذا الموضوع الذى هو التفسير لهذه الآيات . فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال : ان النخلات الذكور والاناث متصلات بنور الشمس الذى شرحناه قريبا ، فههنا شمس وههنا نخل ، ولولا النظام الدقيق فى حساب الشمس ما أثمر النخل ، هذا أوان فصل الربيع قد بقيت له أيام قليلة ، ولاجرم أن الشمس فى هذا الفصل تأخذ فى الاقتراب من بلادكم ، وبها تزدهر الأشجار والزروع ، وتكون الثمرات ، وتزاوج الحيوان ، وظهور الأنوار ، والجمال والحسن ، والعشق والغرام وههنا ذكر ، وههنا أنثى ، وههنا سلاء شائكة حارسات لهؤلاء الذكور وهؤلاء الاناث ، الشمس بقربها أرسلت نورا . وذلك النور له آثار بفعل الله فى نماء النبات قربا و بعدا ، وفى انتاجه أنواع الثمرات ، وهذه الشمس لولا حسابها الدقيق لم يكن شجر ولا ثمر ، لأن النماء لابدّ أن يكون بنظام ، وهذا النظام لابدّ أن يسبقه نظام فى حساب سير الشمس ، ولولم تكن الشمس جارية بحساب لم ترَ عينك اليوم هـذا الطلع فى النخلة الصغيرة التى أمامك الآن ، ولو أن الشمس قربت و بعدت بغير نظام لم يكن شىء من هذا ، بل لم تكن أنت موجودا فى هذه الأرض ، و يقال لك : يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ، فترجعون إلى عالم الأموات إذن بين هـذا الطلع و بين نفس الشمس و بين حساب سيرها مناسبة تامّة ، واذا صحّ ذلك بالنسبة لنور الشمس فليصح نظيره فى مسألة ظهور السلاء على قحوف الجريد : جمع قحف كحمل ، فهل هذه السلاء بارزات بهذه الدقة ولهذه العناية والمنفعة والمحافظة على تلك الثمرات وطلعها من تلقاء نفسها ؟ فاذا كان بروز الثمرات من تلقاء نفسها ولم يكن بأسباب الضوء الجارى من الشمس بنظام وحساب فليكن هكذا بروز السلاء الشائكة على قحوف الجريد بغير علة ، بل نظام بلا منظم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، إن الثمر فى طواهر حاله تابع لمؤثر ظاهرى ، وهو وصوء الشمس قربا و بعدا بحساب ، ولكن صوء الشمس لا يعقل ولا يفهم أن هذا الطلع الضعيف يعوزه سلاء تحافظ عليه فتمنعى أنا من أخذ الطلع ، إذن هناك تلك الأرواح اللاتى ضربت لها الشموس مثلا فى الوجود ، وهنّ مرسلات أنوارا حكمية على كل بقعة ، فان كانت فى الانسان فهى عقل ، أو فى الحيوان فهى المسميات غرائز ، وان كانت فى النخلة ، أو فى أجسام الانسان والحيوان كان ذلك تنظيما واحكاما بحيث يعطى كل ذى حقّ حقه .

فهذه السلاء أيها الجوهرى التى أمامك نظمت بنور حكمى استمدّ من أرواح عالية كما استمدّت هـذه النخلة أنوارا من الشمس قربا و بعدا ، وكما كان الحساب فى سير الشمس ظاهر الأثر فى ظهور الطلع فى إبانه هكذا كان لحساب تلك الأرواح بمالية ظاهر الأثر فى إبداع تلك الشركات المحتملات بثمر هذه النخلات .

أيها الجوهرى : هذه الحكمة التى وضحت الآن تفسر هذه الآية تفسيرا جيلا لم يسبق له فى كتب المسلمين نظير .

انظر أيها الجوهرى : انظر ، انظر فى جسمك ، ألست الآن فى آخر العقد السابع من حياتك ، انظر ألست ترى الرأس مشتعلة بالمشيب ، ألست ترى هذا الجسم قد أدبر شبابه وأقبل هرمه ؟ قلت بلى . قال : ماذا يقول هذا الجسم بلسان حاله ؟ السلاء فى النخلة هاأنادا أسمعتك قولها ، فهاك أسمعك أقوال جسمك الذى أدبر شبابه وقوته ، وأقبلت أيام هرمه وضعفه . يقول جسمك اليوم وجسم كل انسى على شاكلتك : أنا لباس روحك ، تلك الروح التى تحيط بها أنوار حسية وأنوار عقلية ، تشرق عليها من عوالم الجمال والكمال ، كنت فتى وشابا وكهلا ، كل ذلك لتنمو روحك فى هذه الحياة وتجرّب هذه الدنيا وتدرسها ، ولكن هذه الحال مقدّمات ، والمقدّمات لها نتائج ، فاذا أنا ضعفت اليوم فهذا الضعف مقدّمة للزوال ، ومتى زلت عنك كشفت روحك هذا الوجود . فقلت للروح الذى تخيلته : أنا إلى الآن لم أفهم المراد ، ولم أعرف سرّ الآية ؟ فأقول أنا أوضح ذلك :

ايضاح تفسير الآية بمسألة الذكور والاناث

هنالك أخذ الروح يسألنى : هل ترى أن الذكورة والانوثة واستقلالهما ضرورىّ فى الحيوان والنبات ؟ قلت لا . قال ولم ؟ قلت : لأن من النبات مايتوالد بغير ذكر كما نرى من الأغصان التى نأخذها من شجرات ونزرعها فتكون شجرات كأمهاتها ، وذلك كثير فى الأشجار وهكذا :

[المحار] : من أنواع الحيوان ، ان المحارة الواحدة تلد الالوف بهيئة بيض ، وهذا البيض يبقى فيها أمدا حتى يفقس ومتى فقس عاش حولها فى البحار ، وتربى وهو صغير بهيئة الذرّ كأنه مادّة تلوّن الماء (هذا المقام واضح فى سورة مريم فاقرأه هناك) فهذه المحارة فيها الذكورة والانوثة معا ، فلاعشق ولاغرام ولاهجر ولافراق . بل هناك ولادة بغير هذه التكاليف كلها ، فلاطلاق ولاخلع ولانفقة ولاعدّة ولا أحكام شرعية ، ولاحقوق لزوجة ، ولاحقوق لرجل ، بل كل هذا استغنى عنه المحار ، إذن هذا كله لاضرورة له فى خلق الحيوان . فقال : إذن ما الحكمة فى هذه التكاليف والغرام والهيام ، والوصل والفراق ؟ فقلت : أنا لاأعلمها . فقال : أنا بذلك عليم . اعلم أن كل ماهو حولكم ومايحيط بكم دورس لكم ، ولاجرم أن مافى نفوسكم أقرب إليكم مما حولكم ، ومع كونه أقرب إليكم مما حولكم ترونه أبعد عنكم ، فانكم لاتفقهون نفوسكم إلا بعد دراسة ماحولكم لتشابه العالمين ، درسنا معك السلاء والطلع ، وعرفنا أن هناك أسبابا ونتائج هكذا الأسباب هنا لها نتائج ، وذلك أن العشق والغرام والجمال والحسن ، كل ذلك جعل مقدّمات لما بعده من حصول الزوجة أوّلا والولد ثانيا ، فهناك جمال يتبعه شوق له فزواج ووصال ، وهناك قد تحصل نتيجتان : أولاهما هناء الحياة بقدر الامكان بين الزوجين ، ثانيتهما انتاج الذرّية ، إذن جمال أجسامكم فى حال الشباب له نتيجتان : احداهما قاصرة على الزوجين وهى هناء الحياة ، وثانيتهما متعدية وهى انتاج الذرّية الباقية بعد موت الأبوان ، إذن انفصال الذكر عن الأنثى فى الانسان الذى بهما الكلام فيه ، وحصول الهجر والوصل ، والأحوال المختلفة ، والمسرّات والأحزان ، كل ذلك مقدّمات لنتائج والنتائج هى تعاون الزوجين فى أمور الحياة وانتاج الذرّية الباقية بعد الممات ؟ اذا صحّ ذلك فى ذكورة الانسان وأنوثته فانما ذلك جعل مقدّمة لما نحن فيه الآن .

النفوس الانسانية فى شوقها للعلوم أشبه بالشبان فى شوقهم إلى الشابات

إن هذه الأجسام الحاملة لأجسامكم اليوم تقوم بأود الروح وتحملها وتحفظها الى يوم الموت وهى فى أيام الشباب غارقة فى مهمات الحياة ، ولكنها اذا أقبلت أيام المشيب تفتح لبعض العقول أبواب الفكر والبحث ، وتشتاق شوقا على مقدار همتها إلى الاطلاع على هذه العوالم ، وكلما ارتقت فى العلم ازدادت ولوعا ، ولاتزال فى ازدياد حتى تعانى مايعانيه الشبان من الهجر والفراق ، وخير أيام الفكر أيام كبرالسن ، فتذكرت ماقاله الدكتور [شاهين باشا] رئيس الأطباء فى مصر اليوم فى خطبة خطبها فى العام السابق (سنة ١٩٣١ م) إذ قال : « إن الدم يتحوّل إلى المخ فى زمن الشيخوخة ، فلينتهز تلك الفرصة الشيوخ ، وليفكروا فى تلك السن » . أقول : ولكن ليس معنى هذا أن كل الشيوخ يقدرون على ذلك ، فان كثيرا من الشيوخ ضعفت قواهم العقلية فى زمن الشباب بالانهماك فى اللذات ، فجاءوا الى زمن الشيخوخة وهم مقلون فلايفكرون ، بل يرجعون كالأطفال .

ثم قال الروح : إن هذه العوالم المحيطة بكم غذاء لأرواحكم ، وكما أن من يجلس ليلا وهوفارغ من الهمّ يحسّ بسعادة فى منظر النجوم وجمالها هكذا أرواحكم المحبوسة الآن اذا خلت من هذه الأجسام ورجعت الى عوالم الأرواح تحسّ بسعادة لاحدّ لها ، وليس المثل كالممثل له بل هوبجرّد تنظير والا فأرواحكم تصبح اذا فارقت الجسد وعندها استعداد لعالم الجمال سعيدة سعادة مطلقة مغمورة بالجمال ، إذن انقسام الناس إلى ذكور واناث فيكون شوق وتوق وهجر ووصال ، كل ذلك مهدلما هوأعلى ، فأنتم فى أيام حياتكم تتساقون إلى المعرفة والعلم ، والمعرفة والعلم فى الحقيقة غذاء لأرواحكم ! تلك الأرواح المستعدّة للبقاء ، وهى تتغذى بتلك المعارف التى هى زادها وتفيد الأرواح التى هى أقلّ منها هناك علما ومعرفة ، فاذن هناك فوائدقاصرة على الروح ، وفوائد متعدية ، فهى بالعلوم تستلذ وتتغذى ، وهى بها تفيد غيرها علما ومعرفة كما يفعل ذلك الزوجان ، فهما بعد الشوق بداعى الجمال والهجر يتصلان فيكون هناك سعادة زوجية بينهما ، وذرية هما يسعدان بتربيتها ، وهكذا تسعد الأرواح بعد الموت بالاطلاع على هذه العوالم الجميلة فتتغذى بها كما تتغذى الأجسام اليوم بالحبوب والثمار وتفيد أرواحا صغيرة فوائد تكون سعادة لها أيضا كما سعدت بتربية الذرّية وأحست بلذة فى هذه الحياة ، إذن ظهر السرّ لك الآن أيها الجوهرى ، وبان لك واتضح أن الجمال والعشق التابع له ، والهجر والفراق وما ماثله ، كل ذلك مقدّمات لماهوأهمّ وهوأن المحارة التى لم يتميز فيها الذكر من الأنثى ليست أهلا للمعارف التى ستنالها أرواحكم بعدالموت ، فلم تعذب فى الحياة الدنيا بالهجر والخلع والطلاق والفراق ، بل جئت وولدت بلا كلفة من هذا النوع لأنه تعذيب لانتيجة له ، أما التعذيب فى الانسانية فان له ثمرة ، لأنه يعلم النفس ماهوالجمال ، وماهوالحب ، وماهى السعادة مع الاخوان ، وماهى السعادة فى منح العبرهبات وعطايا كالذرّية . حتى اذا ارتقت النفس واشتاقت للعلوم والمعارف وأغرمت بها ، هنالك تبحث وتجدّ ، وكلما كبرت وعرفت الحقائق اشتاقت حنت وأنت وبكت واشتكت ، حتى اذا فارقت هذا البدن المانع لها من عالمها حصل لها الهناء والفوز بحصول المطلوب والعزّ المرغوب ، فتصبح مغمورة فى جوّ من الجمال والحكمة والنور لايدركها أحد فى هذه الحياة ، وهنالك يفهم المسلمون لماذا يقول الله فى القرآن : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا » وذلك لأن الله لابدّ أن يكون حاضرا بعلمه وقدرته والشمس تقرب وتبعد وتشرق وتأفل بدليل أن بعدهاأورث البرد فى دياركم ، وقربها أورث بروزطلع النخل فى حقلكم

ولكن الله ليس كذلك ، ألا ترى أن السلاء الطالعة فى قحف الجريد المذكور آنفا ، وها هوذا أمامك معتنى به ليلا ونهارا ، فان نموّ كل نام لا يقف ليلا ولا نهارا ، أى ان النموّ مستمرّ واحكامه وتدبيره وتقديره مستمرّ ليلا ونهارا ، وهذا من عالم روحى « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » فعوالم الأرواح لا تنام كما ينام الانسان ولا تغيب كما تغيب الشمس ، وعالم الأرواح أقرب إلى الحضرة العلية من عالم الحس فلذلك اعتنت بهذه السلاء فى ظهور الشمس وفى أفولها ، إذن عالم الأرواح أقرب إلى ربه (المنزّه عن كل مخلوق ، المتعالى عن كل محبوب) من عالم الأجسام ، وكل محسوس فلقربه منه وكثرة استمداده منه دام اقباله ولم يغب كما تغيب الشمس ، ولو غابت تلك القوى الحافظة للعالم لحظة لهلك كله ، ولتصدّعت هذه السلاء طبعا ، فاذا كانت القوى الروحية المحيطة بكم مشرقة لا تغيب فكيف بالله عزّ وجل ! فهو إذن أكثر منها ظهورا بما لا حدّ له ، فاذا ارتقت نفوسكم فانها يوما ما ستعرف ربها ، وهذا سرّ الحديث الوارد فى انكم سترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب ، وفى رواية أخرى : جاء ذكر القمر على حسب اختلاف مراتب الناس من علماء بهذه العجائب ، ومن عباد محجوبة أفكارهم فلا يدركون من كمال الله إلا قليلا كما يدرك الناس من أنوار الشمس على ما انعكس منها على القمر ثم أشرق على الأرض .

هذا هو السرّ أيها الجوهرى فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » فى الذكورة والانوثة تمهيد للشوق والغرام والعشق الخاصلات لكثير من الشبان والشيوخ فى هذه الدنيا ، وهى نفوس مصطفاة لا يخلو منها زمان ولا مكان ، يعيشون فى أرضكم وفيهم هذا الشوق ، واذا ماتوا تنعموا بنعيم العالم الروحى ، بل كثيرا ما يحسون فى هذه الحياة كأنهم غرقوا فى بحر لجىّ من جمال الأرواح ، وكأن ربهم يخاطبهم ، وكأنهم يرونه وان كانوا لا يرونه فعلا لضعف مراتبهم وللحوائل الكثيرة ، وهذه النفوس هى المنعشات للأمم جيلا جيلا وآنا فآنا ، وهذه النفوس تقول فى هذه الحياة : لو كشف عنى الغطاء ما ازددت يقينا . فالنشأة الأخرى التى مقدّمتها الموت لها مقدمة وهو عشق العلوم ، وعشق العلوم له مقدمة وهى بهجة المناظر ومحاسنها التى تعرم بها بعض النفوس .

فاذا كانت آية الأنعام جاء فيها أن الرحمة أعقبها أن الله يجمعنا ليوم القيامة ، ففى [سورة النجم] كانت الرحمة المودعة فى انقسام الناس إلى ذكور واناث متبوعة بالنشأة الأخرى ، لأن الذكورة والانوثة مرّنت النفوس على الغرام فالوصال إلى آخر ما تقدم ، فهكذا هنا غرام وحب ثم هجر و بعد ، ثم خلوص النفس بالموت فتصل إلى السعادة الأبدية . هذا هو السرّ الذى يمكن أن ألقيه إليك الآن لتنشره فى نوع الانسان ، وكم فى القرآن من أسرار : « وفوق كل ذى علم عليم » .

كل ذلك وأنا واقف أمام شجرة النخل اذا قائل يقول لى : لقد أزف الوقت لأن موعد صاحب السيارة أن يوافينا الساعة الرابعة ، ولم يبق إلا دقائق ، فاستعددت للرجوع ، وأخذت أهلى ووصلنا إلى المكان الذى أمكن السيارة أن تقف فيه ، فتأخر ذلك السائق مدة ، وكنا لم نعطه أجرا حتى يكون ذلك حاملا له على الرجوع إلينا ، ثم حضر ، وما وصل إلينا حتى قال : أنا أعلم أنى قد أخطأت ، ولكن لتكن المعفرة . فقلت لا بأس ، ثم ركبنا السيارة ورجعنا إلى محطة المرج ، وسار بنا القطار إلى محطة القاهرة ثم المنزل ، وذلك يوم الأحد ١٥ مارس سنة ١٩٣٢ م والى هنا تمّ الكلام على [سورة النجم] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة القمر

هى مكية

إلا ثلاث آيات وهى : أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر : فدنية

آياتها ٥٥ — نزلت بعد الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ

أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ * أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثانى : تذكير بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك من أول السورة إلى قوله « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

القسم الثالث : توبيخ قريش ، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية ، وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا ، من قوله تعالى : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » الى آخر السورة

القسم الأول فى تفسير البسملة

يجب الانسان من أمر آى القرآن ، وكيف كانت الرحمة المجسمة فى الشمس والقمر والنجوم قد ذكرت فى القرآن بهيئة لم يعهدها العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يذكر الله الشمس فيقول : [والشمس وضحاها] ويذكر النجم فيقول : [والنجم اذا هوى] ويذكر القمر فيقول عطفا على [والشمس وضحاها ، والقمر

اذا تلاها] رحمة عامة ظاهرة واضحة مجسمة ، لذلك يكرّر الرحمة فى أوّل كل سورة ليلفت نظرنا إلى رحمات مجسمة وغير مجسمة ، ومن غير المجسمة ماجاء فى هذه السورة من العبر والحكم والمواعظ والآيات البينات . سبحانك اللهم وبحمدك جعلت الرحمة تحيط بنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا .

الله أكبر . الله أكبر : رباه : ظهرت أنوارك ولكنها غشت على عقولنا لأنها أنوار لاحدّ لها ولانهاية ، شمس وقمر ونجوم وجمال وبهاء وعجائب تتلوها عجائب ، ولكن لما كانت العقول خامدة ، والنفوس جامدة ، منحها نعما على قدر طاقتها ، وهى عبر التاريخ وبدائع السير ونظام الأمم ، فأخذ يحدّثنا بتاريخ من قبلنا ، فذكر تلك الأمم البائدة التى قرعت أسماع العرب من قوم نوح وعاد وقوم لوط وآل فرعون أخذ يحدثهم بما يعرفون وليس مما ينفعهم أو يؤثر فيهم أن يذكر لهم أمم الصين ، أوأهل استراليا ، أو أهل أوروبا ، فهؤلاء لاعلم لهم بتلك الأمم فلم يكن هناك بدّ من تذكيرهم بما يأتون ، واعلامهم بما يفعلون .

فسبحانك اللهم جعلت السابقين عبرة اللاحقين ، والأوّلين نبراس الآخرين ، إن ذكر هذه الأمم فتح لباب علم التاريخ ، يرشد الله المسلمين إلى الاعتبار بتاريخ كل أمة من الأمم السابقة واللاحقة شرقا وغربا ، فليس ذكر قوم نوح وعاد وثمود بقيد فى علم التاريخ كما لم يكن ذكر الإبل وخلقتها والسماء ورفعتها والجبال ونصبها ، والأرض ونظامها مقيدا لأمم الاسلام بهذه المخلوقات ، بل ان هذه أمثلة ونماذج لعلم التاريخ والاتعاظ والاتناس بحوادثه المختلفة ليعتبر الخلف بالسلف ، ويقتدى الآخرون بالأوّلين ، واللاحقون بالسابقين ، ومتى درسوا هذه الدنيا عرفوا أنها منتظمة ، وأن كل شىء موزون بميزان لابخس فيه ، وعلى ذلك النظام ستهزم الجموع الكافرة كما انهزم من قبلهم أمام جيوش الأنبياء السابقين « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

ونتيجة ذلك النظام كله أن يقرب الناس من ربهم متى عرفوا أن عمله متقن وأدركته عقولهم ، وذلك القرب بالعلم والمكانه لاقرب بالمكان ، والنهاية أن يكون الانسان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهذه نهاية السعادات فى الحياة الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فان الناس جميعا فى حيرة مغمورون إلا طائفة واحدة وهى التى أدركت هذا النظام وأعجبت به ، ولن يكون فى حضرة الملك القدوس إلا هذه الطائفة ، أما بقية الناس فانهم إما فى جنة ولايرون الله إلا على مقدار ماعرفوا ، واما فى نار وهم عنه محجوبون ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسمله . كتب طهر يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٢ م — ١٥ ربيع الثانى ١٣٥١ هـ

القسم الثاني : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقتربت الساعة وانشقّ القمر) أى سينشق يوم القيامة ، أوأنه قد انشقّ كما روى عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرّتين : أخرجه البخارى ومسلم [وكيفية ذلك] أنه انشقّ فلقتين : فلقة فوق الجبل ، وفلقة دونه ، ومعنى هذا أنه يقول سبحانه : قربت القيامة ، وهاهوذا القمر انشقّ من الآن كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء البشير بقدومه ، فان انشقاق القمر دلالة على ماسيؤول إليه حال العوالم العلوية والسفلية فان مسّها الانحلال والموار . يقول الله : انظروا أيها الناس ، انكم تطوون الكواكب والشمس والقمر لايعتريها البلى . إن القمر يقبل الفناء ، والدليل على ذلك انشقاقه

الذى استبان لكم ليدلكم على أنه سيبيد من الوجود كما تبيد أرضكم ، والممكنات بأسرها تقبل الفناء .

يقول المؤلف : ومن عجب أن علماء الهيئة فى العلم الحديث لم يذكروا أن شيئا اشتق من الأرض إلا القمر ، ويقولون انه أثناء دورانها قديما انحل عنها ودار حولها ، وهذا أيضا نوع من الانشقاق ، ولكنه انشق من غيره ، وانشقاق القمر من الأرض دليل على أن الأرض تبدل غير الأرض والسموات ، فاذن يكون انشقاق القمر فى القرآن من المعجزات العلمية لامن حيث أن قريشا رأوه منشقا وجبل حراء بين فلقتيه على رواية ابن مسعود فحسب ، بل ان هذا الذى حصل زمن النبوة تذكرة باشتقاقه من الأرض وانفصاله عنها ، فكما انشق القمر نصفين هكذا كان هو مع الأرض سابقا وانشقت الأرض فانفصل عنها القمر ، ومعنى هذا تجزؤ المادة وفناؤها وذهابها وتبدلها ، هذا ماتشير له الآية والا فلماذا خص القمر بالانشقاق ؟ ولماذا لم يختر الله له الشمس أوكوكبا من الكواكب دلك لهذه النكتة وهو أن القمر هو محل البحث الحديث ، وأن له انشقاقا عن غيره ، فانشقاقه شقين على الجبل ودونه يسير إلى ما كان له قبل ذلك من اشتقاقه من الأرض ، ويكون ذلك من دواعى العلم والكشف والبحث ، فانظر كيف جاء فى هذه السور : البحر المسجور تحت الأرض ، والقمر المشق من الأرض ، والرق المنشور اشارة لعصر الورق وعصر المدنية والعلم ، والبيت المعمور اشارة إلى العوالم التى كشف الناس بعضها ، كل ذلك تذكرة للمسلمين النائمين الآن ، المستيقظين فى مستقبل الزمان ، فهذه كلها محرضات على العلم مشوقات له ، وسيقوم بهذه العلوم أبناء أمة الاسلام فى مستقبل الزمان ، انشقاق القمر فتح لباب العلم والبحث فى أصل الأرض وأصل القمر ، وكل ذلك واجب على أمة الاسلام (وان يروا آية يعرضوا) عن تأملها (ويقولوا سحر مستمر) مطرد ، وذلك أنهم رأوا آيات متتابعات فلم يعيروها التفاتا (وكذبوا) النبى ﷺ (واتبعوا أهواءهم) وهو مازين لهم الشيطان من رد الحق الظاهر (وكل أمر مستقر) كل شىء ينتهى إلى غاية تناسبه فأمركم ينتهى إلى غاية من الخذلان والعذاب فى الآخرة ، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ينتهى إلى نصر فى الدنيا وحسنة فى الآخرة ، وكل حركات الأفلاك ، ونظام العمران ، وأعمال الأمم ، ونظام الانسان والحيوان والنبات . كل ذلك داخل فى هذه القاعدة . فلكل من هذه غاية ينتهى إليها . وهذه من جوامع الكلم وعجائب الحكم ، فقضية النبى ﷺ وقصية المشركين داخلتان فى هذه القاعدة العامة ولذلك أعقبها بقوله (ولقد جاءهم من الأنباء) أى جاءهم فى القرآن من أنباء القرون الخالية وأنباء يوم القيامة (مافيه مزدجر) ازدجار من تعذيب العاصين يوم الدين وهلاك دولهم فى الدنيا ، وأبدل من [ما] قوله (حكمة بالغة) غايتها لاخلل فيها ، والملخص أن كل أمر ينتهى إلى غاية ، ومن تلك الامور المنتهية إلى غاياتها مايتلى فى كتاب الله من العذاب الذى يزجر من يعتبر ، ومن الحكمة المنتهية إلى غايتها مصداقا لما ذكر من أن كل شىء ينتهى إلى غاية تناسبه ، ومع ذلك لم يتعظوا وهو قوله (فما تغن النذر) أى فأى شىء تغنى النذر ، جمع نذير بمعنى المنذر ، اذا علمت أن الانذار لا يفيدهم (فتول عنهم) واذكر (يوم يدع الداع) أسقطت الياء اكتفاء بالكسرة والدعاء هنا بمعنى الامر كقوله تعالى « كن فيكون » أو الداعى اسرافيل (إلى شىء نكر) فظيع تنكره النفوس لأنها لاعهد لها بمثله ، وهو أهوال يوم القيامة (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث) أى يخرجون من قبورهم ذليلا أبصارهم من الهول ، خاشعا حال من الواو ، وتقول خاشعا أبصارهم كما تقول يخشع أبصارهم ، وقرئ خاشعة أبصارهم ، وأما قراءة خشعا أبصارهم فهى على لغة أكلونى البراغيث كأنك قلت : يخشعن أبصارهم ، وقوله (كأنهم جراد منتشر) فى كثرتهم وتموجهم وانتشارهم فى الأمكنة (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادى أعناقهم إليه مقبلين (يقول الكافرون هذا يوم عسر) صعب (كذبت قبلهم قوم نوح) قوم نوح (فكذبوا عبدنا) نوح عليه السلام ،

وهذا تفصيل بعد اجمال (وقالوا مجنون) أى هو مجنون (وازدجر) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى (فدعا ربه أنى) بأنى (مغلوب) غلبنى قومى (فانتصر) فانتقم لى منهم ، وذلك بعد أن يئس منهم (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصبّ ، وهذه الجملة مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدّة انصبابها (وفجرنا الأرض عيونا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ، وفى هيئة الاعراب عند النحاة يقال أصلها فجرنا عيون الأرض فعدل عنها إلى مافيه المبالغة (فالتقى الماء) ماء السماء وماء الأرض وقرئ الماءان (على أمر قد قدر) على أمر قد قدّره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان (وحملناه على ذات ألواح ودسر) هذا من فصيح الكلام و بديعه إذ جعلت الصفة القائمة مقام الموصوف نائبة عنه فأدّت مؤداه ، وذكر الصفة التى على هذا المنوال أبلغ من ذكر الموصوف ، فقولك قميصى مسرودة من حديد أبلغ من قولك قميصى درع ، فهكذا هنا ذات ألواح ودسر [جمع دسار ، وهو المسمار من الدسر وهو الدفع لأنه يدفع منفذه] أبلغ من سفينة ، وقوله (تجرى بأعيننا) أى تجرى حال كونها محفوظة بنا ، لأنها اذا كانت بمرآنا فهى فى حفظنا ، وانما فعلنا ذلك (جزاء لمن كان كفر) وهو نوح ، لأن النبىّ نعمة من الله ورحمة ، فاذن نوح نعمة مكفورة (ولقد تركناها) أى السفينة ، أوالفعلة أى جعلناها (آية) يعتبر بها إذ شاع خبرها واشتهر أمرها (فهل من مدّكر) معتبر (فكيف كان عذابى ونذر) جمع نذير وهو الانذار : أى فانظر يامحمد كيف كان عذابى ، وكيف كان حال انذارى لهؤلاء الذين أنذرهم نوح ؟ ألم يتمّ نصرى لنوح الذى أنذرهم وهلاكى لهم لكفرهم ، وذلك من الحكمة السابقة « وكل أمر مستقرّ » فهكذا ستكون الأمم وأحوالها ، وهكذا عواقب أمورها (ولقد يسرنا القرآن) سهلناه (للذكر) أى ليتذكر و يعتبر به (فهل من مدّكر) أى متعظ بمواعظه (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) وانذارى لهم بالعذاب قبل نزوله ، ألم يتمّ ، ألم يكن مهولا ؟ وكأنه يقال ماهذا العذاب فقال (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة أوشديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستمرّ) أى استمرّ شؤمه فاستمرّ عليهم حتى أهلكهم (تنزع الناس) تقلعهم من أماكنهم حال كونهم (كأنهم أعجاز) أصول (نخل منقعر) منقلع من مغارسه ساقط على الأرض ، وانما شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رءوسهم وطرحت أجسادهم ، والنخل اسم جنس جمعى يذكر و يؤنث ، فلذلك جاء فى القرآن : « أعجاز نخل خاوية » وجاء هنا « أعجاز نخل منقعر » ونظير ماهنا « إليه يصعد الكلم الطيب » (فكيف كان عذابى ونذر) كرّره للتهويل ، ولأن لهم عذابين : أحدهما فى الدنيا ، والثانى فى الآخرة ، وجاء فى قصتهم « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى » (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ، كذبت ثمود بالنذر) بالانذارات والمواعظ التى جاء بها صالح (فقالوا أبشرا منا) من جنسنا أومن جلتنا (واحدا) منفردا (نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر) الضلال الخطأ والسعر الجنون ، ومنه ناقة مسعورة وهذه الكلمة مستعملة اليوم عند العامّة فى أمتنا المصرية بهذا المعنى (ءألقى الذكر عليه من بيننا) وكيف يكون كذلك وفينا من هو أحقّ منه به (بل هو كذاب أشر) حمله البطر على الترفع علينا بادّعائه الوحى فقال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام (سيعلمون غدا) عند نزول العذاب بهم فى الدنيا و يوم القيامة (من الكذاب الأشر) الذى حمله أشره على الاستكبار عن الحقّ وطلب الباطل أصالح أم من كذبه ؟ (إنا مرسلوا الناقة) مخرجوها و باعثوها (فتنة لهم) امتحانا لهم لأنا نمتحن بالنعم و بالنقم (فارتقبهم) فانتظرهم وانظر مادا يصنعون أيشكرون أم يكفرون (واصطبر) على أذاهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم بينهم ، وفيه تعليب العقلاء على غيرهم فللناقة يوم ولهم يوم (كل شرب محتضر) أى محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، يحضر القوم الشرب يوما وتحضر الناقة يوما كما فى آية أخرى « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم »

ثم سئموا النعمة (فنادوا صاحبهم) قدار بن سالف أحيمر ثمود (فتعاطى) فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له (فعقر) الناقة ، أوفتعاطى السيف الخ (فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم) فى اليوم الرابع من عقرها (صيحة واحدة) صاح بهم جبريل (فكانوا كهشيم المحتظر) أى كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم ، والمعنى أنهم صاروا كيابس الشجر اذا بلى وتحطم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ، كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا) أى الحصباء وهى الحجارة دون الكف ، وقد يراد بالحاصب الرامى : أى أرسلنا عليهم عذابا يحصبهم أى يرميهم بالحصباء (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى فى سحر ، وهو آخر الليل (نعمة من عندنا) أى انعاما منا (كذلك نجزى من شكر) نعمتنا بالايمان والطاعة (ولقد أنذرهم) لوط (بطشتنا) أخذتنا بالعذاب (فتماروا بالنذر) فشكوا بالانذارات ولم يصدّقوا (ولقد راودوه عن ضيفه) أى طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه لما يقبح فعله (فطمسنا أعينهم) فمسحناها وسوّيناها كسائر الوجه ، وذلك لما دخلوا داره عنوة ، أوطمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا ؟ قال تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) أى ما أنذركم به لوط من العذاب (ولقد صبحهم بكرة) أى جاءهم وقت الصبح (عذاب مستقرّ) أى دائم : أى استقرّ فيهم حتى أفضى بهم إلى الهلاك (فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر) تكرار هذه وتكرار أمثالها فى القرآن كما فى [سورة الرحمن] الآتية للايقاظ والتنبيه وهذا كثير فى كلام العرب كقوله :

قرّبا مربط النعامة منى ✻ لقحت حرب وائل عن حيالى
قرّبا مربط النعامة منى ✻ شاب رأسى وأنكرتنى عيالى

وهى طويلة على هذا النسق ، وهذا التكرار يكون فى الأمر العظيم كما هنا ، فقوله ، « ويل يومئذ للمكذبين » ، وقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » عند القوم فى الأوّل ، والنعم فى الثانى من هذا القبيل وذلك لتكون العبرة حاضرة عند السامع مصوّرة فى الأذهان ، وكذلك تكون صور النعم غير منسية . ثم قال تعالى (ولقد جاء آل فرعون النذر) وفرعون أيضا من باب أولى (كذبوا بآياتنا كلها) وهى الآيات التسع (فأخذناهم أخذ عزيز) لايغلب ولايغالب (مقتدر) لايعجزه شىء . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث : توبيخ قريش وقياس حالهم على حال الأمم الماضية وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا

قال تعالى (أكفاركم) يامعشر العرب (خير من أولئكم) أى أقوى وأشدّ من الذين أحلت بهم نقمتى مثل قوم نوح ومن بعدهم (أم لكم براءة) من العذاب (فى الزبر) أى فى الكتب أنه لن يصيبكم ما أصابهم (أم يقولون) أى كفار مكة (نحن جميع) جماعة أمرنا مجتمع (منتصر) ممتنع لانرام ولانضام ، أنذر الله الأمم السالفة وعمّ ما أنذر به هكذا هنا يقول سبحانه (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أى الادبار فكل واحد يولى دبره ، وهذا من دلائل النبوّة فانهم هزموا يوم بدر وما بعده ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم فى مكة جيش بل كان أتباعه مشرّدين فى الآفاق ومعذب بعضهم . قال عمر رضى الله تعالى عنه : لما نزلت لم أعلم ماهى ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع

ويقول « سيهزم الجمع » فعلمته . أقول : وليس ذلك قاصرا على يوم بدر بل استمرّ انهزامهم (بل الساعة موعدهم) موعد عذابهم الأصلى ، وعذاب الدنيا كالمقدّمة لعذاب الآخرة (والساعة أدهى) أشدّ وأعظم داهية من الأسر والقتل يوم بدر ومابعده ، والداهية أمر فظيع لايهتدى لدوائه (وأمرّ) مذاقا من عذاب الدنيا (إن المجرمين فى ضلال) عن الحق فى الدنيا (وسعر) ونيران فى الآخرة (يوم يسحبون فى النار) يجرّون فيها (على وجوههم) ويقال لهم (ذوقوا مسّ سقر) أى ذوقوا حرّ النار وألمها ، فان مسها سبب للتألم ، وسقر علم على جهنم ، تقول سقرته النار وصقرته اذا لوحته (إنا كل شىء خلقناه بقدر) أى مقدّرا مرتبا على مقتضى الحكمة ، وهذا يقرب من قوله فيما تقدم : « وكل أمر مستقرّ » وأتبع تلك الحكمة بقصص الأمم وختمها بانذار أهل مكة ، ولما أتمّ ذلك ذكر النتيجة . فقال : ان كل شىء مرتب على مقتضى الحكمة ، فالأوّل كأنه قضية يراد الاستدلال عليها ، ولما ذكر قصصهم وانذار مشركى مكة ذكر الحكمة اشارة لسطوع البرهان وظهور النتيجة ، وهذا كقوله تعالى : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فالعوالم متشابهة ، وأحوال الأمم متشابهة ، فالمصلحون كلهم نافذة منصورون ، والمفسدون مقهورون معذبون ، ثم أعقبه بأن هذا يسير عليه فقال (وما أمرنا إلا واحدة) فعلة واحدة ، وهو الايجاد بلامعالجة ومعاناة ، أو إلا كلمة واحدة (كلمح بالبصر) فى اليسر والسرعة ، ومنه أمر الساعة فهو كلمح البصر ، واذا ثبت لديكم أن كل أمر مستقرّ ، وأن كل شىء خلقناه بقدر ونظام وحكمة بما قصصناه عليكم من أمر الأمم فكيف تغفلون ولاتتعظون بعد ثبوت هذه الحكمة ؟ وهذا قوله (ولقد أهلكنا أشياعكم) أشباهكم فى الكفر كما قصصناه (فهل من مدّكر) متعظ (وكل شىء فعلوه فى الزبر) مكتوب فى كتب الحفظة (وكل صغير وكبير) من الأعمال (مستطر) مسطور فى اللوح (إن المتقين فى جنات ونهر) كسبب أى أنهار ، وانما وحده لموافقة رءوس الآى ، وهى أنهار الجنة المتقدّمة فى [سورة القتال] وقرئ بجنب جمع نهر (فى مقعد صدق) فى مكان مرضىّ ، أوفى مجلس حقّ لالغو فيه ولاتأثيم ولا كذب لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو فى مقعد صدق (عند مليك مقتدر) مقرّبين عند من تعالى أمره فى الملك والاقتدار ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهؤلاء هم الذين يحظون بالقرب من ربهم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك على مامننتنا من العلم ، وحببتنا من التيسير ، وأفضت من الخير علينا وعلى المسلمين فى سائر الأقطار فى هذا الزمان الذى به أشرق نور الاسلام واردهر ، وظهر نوره وانتشر ، وأشرقت أرض الاسلام بنور ربها ، وأطهرت أسرارا من الفرقان وعلوما من العرفان لأمة الاسلام تناسب حالها ، وتمثلها من وهدتها ، وتوقظها من غفلتها ، وترفعها من كبوتها ، وتطلقها من عقالها ، وتهديها إلى سواء الصراط .

أقصّ اليوم السبت ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣١ م قصص ما كان بيني و بين صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير ، إذ حضر الليلة وأفاض عليّ من الأسئلة ، وكانت فوق طاقتي من المباحث ، ولكني والحمد لله استعنت به سبحانه وأجبته بقدر طاقتي « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وسيظهر في الأمم الاسلامية بعدنا أناس لهم قدم صدق وخبرة وحكمة في كل زمان بحسبه ، فالله لا يظهر الحكم والعلوم إلا مناسبة لزمان ظهورها .

قال صديقي العالم : إني قرأت اليوم [سورة القمر] فوجدت الله تعالى يقول في سفينة نوح : « ولقد تركناها آية فهل من مدّكر » . ويقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » وهكذا يقول في آخر قصة فرعون وعاد ، وفي قصة ثمود ، وفي قصة قوم لوط ، ثم أعاد آية : « فهل من مدّكر » عند قوله « ولقد أهلكنا أشياعكم » كرر التذكر وطلبه سبع مرات بهيئة الاستفهام المقصود به الأمر ، وهذا أبلغ في طلبه ، والقرآن جاء لهدينا نحن ، واذا نحن أمرنا أن نفكر في سفينة نوح وأن الله تركها لنا آية ، وفي هلاك من كذبوا من أمته ، وفي قوم فرعون وهلاكهم ، وقوم عاد وثمود ولوط وجميع الأمم التي كذبت ، وهذه كلها غائبة عنا وتذكيرنا بها نافع ، أفليس هذا يكون داعيا حثيثا بالأولى أن نفكر فيما هو محيط بنا .

الله أكبر : ان هذه السورة فتحت لنا من العلم أبوابا ، فتحت لنا أبواب العلم على مصراعيها ، جلّ الله جلّ الله ، إن كل ما فيها تاريخ قديم ، والتاريخ القديم اتبعه مابعده وامتدّ الأمر إلى زماننا هذا ، إن الله عزّ وجل هو الذي أمرنا بالاعتبار بتاريخ الفراعنة وهلاكهم بعد قوم نوح وهلاكهم ﴿ و بعبارة أصرح وأبين ﴾ ان المسلمين في زماننا يجب عليهم أن يعتبروا بقدماء المصريين ويدرسوا تاريخهم ، وتاريخهم تقدم منه شيء في هذا التفسير ليكون أنسا لقرّائه ، وفيه عجائب دول المصريين القدماء من حيث تطوّر أحوالهم من الأحسن إلى الحسن إلى الردىء ، وقد كانت كبوتهم وزوال ملكهم تابعين لانحرافهم وسوء سلوكهم ، وهذا تقدّم في سور كثيرة ومنها سورة غافر عند آية مؤمن آل فرعون ، وهكذا بلاد حضرموت التي تقدم وصفها في سورة الأحقاف ، وكيف كان بها قوم عاد ، وأن آثارهم باقية ، وهناك قبر هود عليه السلام ، والمسلمون جميعا مقصرون لأنهم لم يرسلوا من يفك تلك الرموز التي في ذلك القبر كما أخبرني بذلك من شاهدوه هناك ، وكذلك قبر صالح عليه السلام في تلك البلاد ، فهذه الأمم التي بقيت آثارها يجب استقصاؤها بالدرس لمعرفة علومها والانتفاع بها ، وكيف تدهورت واضمحلت حتى نجتنب نحن ماوقعت فيه تلك الأمم بالتفصيل ، أما الاجمال فلا خير فيه ، فالاذكار المذكور في الآية يستحيل أن ننال إلا بالتفصيل ، أما الاجمال فهو مقفل الأبواب معطل الحكمة ، والتفصيل هو الخير وهو العلم والحكمة .

هذه الآراء أذكرها الآن لأني فهمتها من سابق هذا التفسير ، فان مامضى من التفسير يجعلني أفهم هذه الآية على هذا الوجه ، وأقول : ان أمم الاسلام المستقبلة ستكون فيها جماعات مختلفات موزعات على العلوم لكل طائفة منها جماعة تدرسها ، هذا هو الذي سيكون ، وانما قلت انه سيكون لأن ذلك تكرّر مرارا في هذا التفسير والمسلمون يقرءونه ، فهم لا جرم سيقومون بهذا الأمر وهو توزيع العلوم على جماعات مستعدات للدرس الخاص ، فأنا من هذه الوجهة مطمئن على تلك الأمم الاسلامية المستقبلة ، إنما الذي أريد أن أسأل فيه اليوم [أمران : الأمر الأوّل] ما أشاهده في مصر من أن المسلمين قد جعلوا قراءة القرآن ذات هيئة خاصة في ولائمهم وأعراسهم وختان أبنائهم ، وكذلك اذا استهلت أطفالهم بالولادة ، أو مات أحياؤهم ، فاني أراهم قد جعلوا أناسا اختصوا بالقراءة في هذه الأحوال بأجر معين ، فالولادة والموت ووليمة العرس والختان وغيرها كل هذه يقرأ القرآن فيها أناس مختصون ، فالقراءة حرفتهم والناس يسمعونها لا سيما اذا كانت تلك

بصوت حسن ، فهل هذا من الذكر المذكور فى الآيات ؟ هذا هو الأمر الأوّل . أما الأمر الثانى فهو ما نسمعه عن الصوفية أو نقرؤه فى كتبهم من ذكر آيات أشبه برموز لبعض المعانى الدقيقة ، فهذا أيضا من الذكر المذكور فى الآية إذ يقول : « فهل من مدّكر » وكيف يكون ذلك الذكر ؟ واذا كنا مأمورين أن نذكر آل فرعون وعاد وثمود وغيرهم من الأمم البائدة أفلا نتذكر ونتدبر أمر هؤلاء الأولياء الذين هم أقرب إلينا وكتبهم بين أيدينا ومن هم أحياء الآن وهكذا قراءة القرآن المتقدّمة فى الأمر الأوّل فيجب علينا أن نتذكر ونتدبر فى أمر هذه كل بحسب حالها فما كان منها ضارّا اجتنبناه ، وما كان منها نافعا قبلناه ، ومما قرأته من كلام هؤلاء الصالحين ماجاء فى كتاب [درر العواص ، على فتاوى سيدى الخوّاص] تأليف الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، فهذا الكتاب وغيره يقرؤه المسلمون ويجدون آيات لامناسبة بينها و بين المعانى التى سيقت الآية لأجلها ، فهل هذا ادّكار أم هو أمر لايليق بكتاب الله ؟ فههنا يجب تمحيص الحقيقة لأن هذا الزمان زمان مدأ ظهور الحقائق ، ومن ذلك ما يقوله الصالحون ، ومنه ماهو مشاهد فى عمل العامّة فى الأمر الأوّل ، والذى نشاهده فى مصر من قراءة القرآن بحسب درسه ، والذى نسمعه عن الأولياء يجب تمحيصه بقدر الامكان ، ولقد جاء فى كتاب [درر العواص] ماخواه :

(١) أوّلا : ان الشيخ الشعرانى سأل الشيخ الخوّاص الذى كان رجلا أميا لايقرأ ولا يكتب عن الخواطر القبيحة هل تقع للخواص كما تقع للعوام ؟ فقال له . كلا . إن الخواص لا يشاركون العامة فى خواطرهم التى تطرقهم ، ووصف أكمل الخواص بأنه له الصيب الأتمّ من مقام العبودية لأنه منزه من أن ينحصر فى وصف دون آخر من حال أومقام ، قال تعالى : [يا أهل يثرب لامقام لكم] . هذا كلام الخوّاص للشيخ الشعرانى ، ثم استمرّ صاحبى فى حديثه قائلا : أين الآية وأين الكلام فى وصف العارف ؟ هل معنى الآية ينطبق على ذلك ؟ والآية فى واد ووصف العارف فى واد آخر هل هكذا يكون التذكر ؟ وهل هذا تيسير القرآن للذكر ؟ وهل يكون ذكر القرآن بأمور هو براء منها ؟ فأين الثريا وأين الثرى ؟ مدينة يثرب معروفة ، والآية سيقت لأحوال العارف ، والقصة فى غزوة الأحزاب ، وفى سورة الأحزاب ، كل هذه أمور متناقضات لابدّ من تمحيصها حتى نفهم هذه السورة وكيف يقول الله : [ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر] . أهكذا يكون تذكر الخواص من أمّتنا ! .

(٢) يقول الشعرانى : سألته رضى الله عنه عن قوله صلى الله عليه وسلم : [الجنة تشتاق إلى أربع : علىّ ، وعمار ، وسلمان ، و بلال] ماحكمة تخصيص هذه الأربعة ؟ فأفاده الخوّاص بأن العلوّ والعمارة والسلامة من الآفات والبلاء ، وهى برد القلب من خطور زوال ذلك النعيم ، هذه المعانى الأربعة هى أركان نعيم الجنة ، وانهم لايتمّ نعيمهم إلا بها ، وهؤلاء الأربعة هم الموكلون بالأنهار الأربعة التى هى مظاهر العلوم والأعمال المكسوبة والموهوبة .

(٣) ثم قال : ويوضح ذلك [وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون] فأين علىّ وعمار وسلمان و بلال .

(٤) وأين أنهار الجنة والعلوم والمعارف والأعمال المكسوبة والموهوبة ؟ وأين هؤلاء أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وآية : [وان الدار الآخرة لهى الحيوان] أمور متساعدة قرنت معا .

(٥) وسأله عن حقيقة الشجرة التى أكل منها آدم عليه السلام فقال هى الأفعال المقابلة لما عليه الأنبياء وكمل ورثتهم من كمال الأفعال والأخلاق ، والسرّ فى ذلك اظهار منة الله على العبد ، وحلمه عليه

لاغير ، والكل منه واليه ، لكن لايخفى تفاوت الناس فى الذنوب ، فربما كان ماتقرّب به عبد يتوب منه عبد آخر ، فأين الشجرة التى فى الجنة ؟ وأين أفعالنا نحن المعايرة لأخلاق الأنبياء ؟ وكيف يجعل الأكل من الشجرة نفس ذنوبنا نحن وأعمالنا ؟ هذا أمر غيرمايقول القرآن ، فهل هذا ذكر ؟ وهل هذا ينطبق عليه قوله تعالى : « فهل من مدّكر » فأين الادّكار هنا ؟ .

(٦) وسأله الشعرانى : أيصغى لمدح من يمدحه ؟ فأجاب بقوله : لاتركن قط إلى من يمدحك فان النفس تألف ذلك وأنت لاتشعر ، وكل شىء ألفته نفسك تخلعت به عن اللحوق والتخلق بآداب العبودية التى من شأنها فقرك دائما وغنى ربك دائما ، إذ لا كمال يدّعيه الانسان إلا وهو فى الحقيقة لله وهو فى ذلك منازع لأوصاف الربوبية من حيث لايشعر ، فحاله كحال فرعون والنمروذ وسواه ، حيث ادّعيا ماليس لهما من صفات ربهما ، وكان ذلك سببا لهلاكهما ، وقد وقع التوبيخ الإلهى لمن يدّعى ماليس له بقوله تعالى : « وماخلقت الجنّ والانس إلا ليعبدون » . وقال : « يامعشر الجنّ والانس ان استطعتم أن تنفدوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » كل ذلك جاء اعلاما للعبد أن ينتبهوا لأنفسهم ويعترفوا بالعجز والذل والمسكنة ، وأن لايتعدّوا صفات العبودية التى خلقوا لها ، والله أعلم اهـ — ثم قال صاحبى : فأين آية يأمرنا الله فيها بالعبادة وترك مدح المادحين ؟ أفليس هذا اتساع فى معنى الآية غير مألوف .

(٧) ثم قال : وقد سألته بلسان الافتقار عن الأحدية السارية فى الوجود ، ولشدة ظهورها مع صفائها (ظهور الأحدية وصفاؤها قد ظهر بعض سرّها فى سابق هذا التفسير) فأجاب بقوله : [ألهاكم] ثم سكت وقال [كم] ثم [التكاثر] ففهمت ، فأين آية [ألهاكم التكاثر] ومعنى سرّ الأحدية التى ظهرت فى كل مخلوق ، ولكن غفل عنها أكثر الناس مع أن الآية واردة فى التكاثر فى الأموال والأولاد ، ووحدة الله السارية فى الوجود المشرقة للخواص أمر آخر غير الوارد فى الآية .

(٨) ثم سأله عن سبب تنوّع طرق الأولياء وكثرتها مع ان المطلوب عند الجميع واحد لاتصح فيه القسمة ولايقبلها . فقال : إنما تعددت الطرق لتعدّد القوابل والاستعدادات لأنه لايدرك الانسان بصفة واحدة أبدا ، ومحال أن يوجد الحقّ عند واحد ويكون مفقودا عند آخر كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : « كل يوم هو فى شأن » واليوم هوالزمن الفرد الذى لايدرك ، وكذلك أشار إليه قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » فان الرحمة غير الذات والعلم صفتها ، فآية : « كل يوم هو فى شأن » واضحة فى نظام هذه العوالم ، أما تنوّع المعارف على حسب الاستعداد فذلك مسلك آخر .

(٩) ثم سأله عن خشوع الذاكرين الذى يذهب حالا بعد تمام الذكر ، لمادا يذهب سريعا ؟ فأجابه بجواب واسع أدخل فيه مسألة كرامات الأولياء ، وأن كثيرا منهم تميل نفوسهم إلى الكرامات ليرتفعوا على أقرانهم حسهم ، وهذا من حب النفس ، والحق لايدرك لحظة النفس وتكثرها وتلصصها على مراتب الأولياء وانما يدرك تعالى به فصلا . ومنه : « هواجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » . فسأله ما ملة أبينا ابراهيم ؟ قال التسليم والاعتراض لله رب العالمين ثم قال له : ان ستر حالك عنك الآن خير لك ، لأن من أعطى شيئا من محبوبات النفوس فى هذه الدار نقص رأس ماله وخرج من الدنيا بخسارة ، اللهم إلا أن يعطيه الحق ابتداء من غير ميل للنفس ، فذلك محمول عن صاحبه ، إلى أن قال : وياك أن تميل إلى شىء تألفه النفس فان السم

معه ، ولايعين السم إلا النفس ، وانظر إلى قوله تعالى : « ولاتقربا هذه الشجرة » مع علم آدم عليه السلام بها حال تعليمه الأسماء ، فلما أراد نفوذ قضائه وقدره ألف بينه و بين من كان سببا لأكله من الشجرة وليست إلا حوّاء الخ .

قال صاحبي لى : فأين ميل النفس إلى الكرامات ؟ وأكل آدم من الشجرة ، وأين آية « هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج » الخ من مسألة ميل النفس إلى الكرامات وظهورها للناس ، هذا ما أردت سؤالك عنه اليوم فأرجوالاجابة ؟ فقلت غدا ان شاء الله عسى الله أن يأتى بالفتح من عنده وهو الفتاح العليم .

***

حضر صاحبي فى الغد وأخذ يطالبنى بالاجابة على ماسبق فى المجلس السابق فقلت له : إن سؤالك أمس يرجع لأمرين : الأوّل قراءة القرآن المعروفة اليوم بين المسلمين فى الطرقات وفى المنازل والمقابر وفى الختان والولادة والموت وما أشبه ذلك ، وجوابه أن أقول :

أيها الأخ الذكىّ : لقد كنت أيام الشباب أقف وأنا مدرّس بمدرسة الجيزة الأميرية على شاطئ ترعة هناك وسط المزارع الجميلة ، وأفكر فى أمر الديانات واختلافها وكثرتها ، ثم فى أمر الفرق الاسلامية وتشعبها وأقول : كيف يكون من الديانات مايحصر الفكر ويضرّ العقل ، ومنها مايسرع برقىّ الأمم ، ومن الديانات ماهوأرفعها وأصلحها ولكن أهله جاهلون فيرجعونه لطريقتهم ، ويجعلونه على حسب مألوفهم ، فما كدت أتمّ ذلك حتى رأيت الجواب فى الحقول ، وكأن الزرع والسجر تخاطبنى قائلات : اننا نحن ثلاثة فرق : فرقة للغذاء وفرقة للدواء وفرقة للهلاك ، فأكثرنا غذاء ، وأندرنا للهلاك بالموادّ السمية ، والقليل للدواء . القمح للغذاء الخروع للدواء ، الموادّ السمية للهلاك ، ولكل منا مزية خاصة لفائدة شريفة ، وحذف أحدنا من الوجود نقص فى الطبيعة وخلل فى النظام .

ثم انظر إلى هذه البرك والمستنقعات : ألست ترى فيها حشرات وهوامّ وحشائش قذرة فى مائها الراكد ومع ذلك تكون هذه الحشائش مأوى لتلك الحشرات وتلك البرك ومافيها زينة لتلك الحشرات ومرتع وغذاء ومتاع إلى حين ، إن البرك ماؤهاضارّ ولكن أصله من ماء النيل السعيد المبارك ، فما مثل الديانات إلا كمثل السباتات اختلافا ، فلكل أمة عقائد ألفتها وان كانت باطلة ، ونحل ورثتها وان كانت عاطلة ، وملل اعتنقتها وان كانت منحرفة ، وهذه العقائد كلما كثرت فيها مناهج الأخلاق كانت أقرب إلى اصلاح تلك الأمم ، وكلما كثرت الخرافات والضلالات والتواكل كانت أقرب إلى الاهلاك والتدمير ، فالأولى أشبه بالقمح ، والثانية أشبه بالسم فى السبات ، ولهذه نتائج فى النظام العام العقلى كالنتائج المرتبة على النظام السباتى ، والنظامان متناسبان المادّى والعقلى .

وأقول الآن : مامثل قراءة القرآن فى الطرقات وعلى المقابر وفى حال الختان والولادة والموت وولائم العرس إلا كمثل تلك المستنقعات والبرك التى انقطع السيل عنها وتكاثرت فيها أنواع الميكروبات والحشائش والمياه القذرة وصارت تنفع لأدنى الحشرات واطعام الميكروبات ، واذا أكلت منها الدواب استصرّت بالأكل منها وأهلكت بعضها ، فهذه فيها منافع للحشرات ولبعض الحيوانات وللانسان فانه يصطاد منها السمك ويقتات به . ولكن سوائمه قد تعرض للخطر بالأكل من تلك الحشائش ، حتى ان الفلاحين فى بلادنا المصرية يقولون [فلان جاموسته معشوشة] يريدون بذلك انهم يجدون بعد ذبحها فى بعض أحشائها أنواعا من الدود والحيوانات الرخوة . كانت تهلك جثمانها فى حال حياتها ، فهؤلاء الفلاحون اذا طلوا عاكفين على ماهم عليه والذى ألفوه فانهم يأخذون فى الانقراض والذل والخضوع ، ولكنهم اذا أصلحوا ترعهم وقناطرهم ،

وسارعوا

وسارعوا إلى ادخال ماء النيل فى مزارعهم فان الوباء يخف ، والضرر يزول ، وتصلح أرضهم للزرع ، وعقولهم إلى العلم ، ونسلهم إلى الكمال ، هكذا هذه العادات الموروثة عند بعض أمم الاسلام كأمتنا المصرية فانها اتبعت دين الاسلام الذى نزل فى جزيرة العرب ، وجعله أجدادنا ، وعملوا بقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ورفع دولهم أيام الصحابة والتابعين ، ولما زال ملك الأمويين وحل محلهم العباسيون ، وجعل القرآن أمم غير عربية كالفرس والترك ، وذل الناس وخضعوا للترهات ، وتقلص ظل الدين ، وأصبح رسوما مرسومة ، وأقوالا محفوظة ، وطرائق مخصوصة ، ونزع لبها ، وحفظ قشرها ، هنالك أخذ الناس يقلدون الآباء وهم يجهلون علومهم ، ويحفظون القرآن بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فقال صاحبي : إذن أنت تقول ان قراءة القرآن على هذه الشرائط وفى تلك الأحوال المعتادة فى أمثال بلادنا المصرية غير مجردة ؟ قلت : انى قد أوضحت بضرب المثل ، وأقول أيضا : إن قراءة القرآن على هذا النمط لها نفع ما ، فان الأموات اذا أحسوا بأن الأحياء يذكرونهم حصلت لهم مسرة بذلك ، واذا قرئ القرآن لأجلهم زادت مسراتهم ، هذا حسن ولكن يظهر لى أن هذه الأمة نسيت أصل دينها ، دينها إنما نزل لتذكر الأحياء وتعليمهم ، وترقيهم واصلاح شئونهم لا إلى الأموات ، وغاية الأمر أنهم لما ماتت نفوس الأحياء حولوا القرآن وقراءته للاموات ، فقد فعلوا فى أنفسهم ماحكاه لى أحد نظار المكاتب المصرية قبل الاستقلال الداخلى لبلادنا المصرية فى أيامنا هذه ، إذ دخل مفتش انجليزى المدرسة الأولية ، وأخذ يسأل هل عمل ناظر المدرسة بتعليماته ؟ وماهى تعليماته ، انهم فى ألعابهم يمثلون الميت محمولا على النعش وهم يضحكون ويفعلون قدام نعشه ووراءه مثل مايفعله الفقهاء من الترتيل والأقوال المعلومة تدريبا لهم على الاستخذاء والاستجداء والذل والمهانة ، واتباع الجنازات ، وتعليما لهم أن يكون مايحفظونه من القرآن وسيلة لجلب الرزق من هذه الناحية إحياء للذل والجهل واماتة للنخوة والعلم ، فهذا تدريب لهم فى حال الصغر منه يضحكون لينشطوا فى دروسهم ، حتى اذا كبروا لم يعوزهم كبير عناء فى الاستباق الى اتباع النعش ، وتحصيل أجور المشى فى تشييع الأموات إلى قبورها ، ومقاضاة الأحياء فى أجورها ، وهذا قصد جميع المستعمرين ، والمستعمرون على قسمين قسم هذا شأنه وهو ظاهر فيما تقدم ، وقسم آخر استعماره خفى ، وهو استعمار الجهل الذى حاق بالأمم الاسلامية دهورا ، وأناخ بها قرونا ، فأذل الأبناء وأضر البلاد ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وهذه الطوائف بقيت فى مصر مثلا جعلها الله لنا تذكرة كما جعل اللغة الهيروغليفية عند الأقباط بمصر فى أديرتهم ومحال عبادتهم ، يقرءونها تعبدا لأجل دينهم ، وهم منهمكون فيها حتى اذا جاء [شامليون] العالم الفرنسى وحل هذه اللغة وألغازها ، وأعانه على ذلك هؤلاء العباد (بتشديد الباء) فنشروها فى العالم كله ، وانتفعت نفس مصر بهذا العمل ، هكذا هذه العادات الموروثة وقراءة القرآن على هذا النمط انما أبقاها الله إلى أيامنا هذه لنفعل مافعلته بلادنا المصرية إذ ردمت المستنقعات ، وروت البلاد بماء النيل ، وحولت تلك البرك إما إلى مزارع نضرة يسقيها ماء السيل ، واما إلى بيوت وحدائق وجنات وأعناب وفواكه ، فسيحول المسلمون بعدنا تلك المقارئ وعاداتها إلى أن يقيموا فى تلك الأوقات وعاظا فصحاء ، مدربين على إلقاء المواعظ الحسنة ، فيقفون وسط الجوع فى ولائم أفراحهم ، وحتان أطفالهم ، وأيام الولادة والوفاة ، ويلقون لهم المواعظ مستشهدين بالقرآن الذى ألفوا سماعه فذلك خير وأبقى ، وذلك كما حول أهل بلادنا البرك إلى مزارع وحول شامبليون الفرنسى اللغة الهيروغليفية المحنوطة فى هياكل العباد إلى لغة تحل بها الرموز وتظهر بها الكنوز العلمية ، والأسرار الحكمية ، المودعة فى النواويس المخموة فى المقابر والمرامى والاهرامات . وفى صناديق الأموات وعلى حيطانها ، والله خير حافظ وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : الله أكبر ، إني رأيت اليهود والنصارى يفعلون ذلك في محافلهم ومجتمعاتهم ، فيقوم خطيب واعظ يذكرهم بما في التوراة والانجيل . فقلت : إن هذه أمم قد ترقت في العلم قبلنا في هذه الأيام ففعلوا ذلك بعقولهم ، وقد كانوا في غفلة مثلنا ولذلك ارتقوا عنا وان كان دينهم منسوخا ، ونحن بعون الله سنرتقي سريعا ، ويكون ارتقاؤنا أسرع من ارتقائهم ، لأن ديننا أرفع الأديان ، وهو الناسخ لها إلى آخر الزمان « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فقال صاحبي : إن هذا المقام جميل وبديع ، وهذا التشبيه الذي بنيت عليه الجواب بديع قد أظهر الموضوع وجلاه فأصبح واضح المحيا جميل المظهر بديع المخبر ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة ، إنه هو السميع المجيب وأرجو الشروع في الاجابة على الأمر الثاني وهي الحكم الملقاة على ألسنة الصالحين والأولياء . فقلت : قد تقدم الكلام على ذلك في هذا التفسير في [سورة يونس] عند آية : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الخ فارجع إليه هناك إن شئت .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر

القضاء والقدر [1]

لهج الناس في كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ويقولون ان الله يقول : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » واذا كان كذلك فلم العذاب ولم العقاب والعتاب ؟ ثم انه رحمن رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين ؟ وأين السعادة للمظلومين ؟ وان هم في عذاب الجحيم ؟ .

هذه حال الانسان على أي ملة كان ، وأي دين في مشارق الأرض ومغاربها ، حيرة لاحد لمداها ، وأسئلة لا جواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكونون في نوع الانسان أشبه بالعين ، هذه صورة مطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ، فهاك أيها الذكي فاستمع ما ألقيه الساعة إليك بقلب صاف ونفس واعية وتدبر فانه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة في القلب شفاء ، وكن من المستبصرين .

لأضرب لك أولا مثلا رجل مهندس عبقري في الهندسة ، عزم على أن يبني بيتا ، وهو بأنواع البيوت عليم ، فمكر في صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها في نفسه واصطفاها لمسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناه وشيده على أحسن منوال وأجمل مثال ، وفي البيت فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي منثورة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان تقر به عيون الناظرين ، ويسر بمرآه جمهور الزائرين ، ودخل البيت رائرون منهم العميان ومنهم المبصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا في البيت كما يشاءون ، ويمروا على فرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون ، فانطلق أحد العميان في المنزل ، فاصطدم في أرض الحجرات بالأرائك ، فخر على الأرض كالصريع ، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات فأدمت أنفه ، وما كاد يمسحه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله في المرحاض فتعثر تعثرا كثيرا وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف جاء طي فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن الاتقان ، ففرح أشد الفرح

(١) هذا المقال نشر في [مجلة العرفة] فتلم المؤلف .

وقال هذا هو النظام ، وهذه هي الرحمة والاحسان . هذا أيها الذكيّ هو المثل الذي ضربته لبيان هذا المقام . إن [علم المهندس] بنظام البيوت واصطفاءه منها واحدا هو أجلها ضرب مثل للقضاء ، فالقضاء راجع لما ثبت في العلم القديم للمكوّنات ، وابراز البيت على ماقدّره المهندس في نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ماسبق به العلم القديم .

[العميان] ضرب مثل لجميع الجهلاء على أيّ دين كانوا ، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعليما ناقصا في مدارس الشرق والغرب أجمعين [والمبصرون] ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم ، وزكت نفوسهم ، واشتدّ شوقهم للعلم والبحث فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لا يعرفون ، فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات ، وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ، ويكلمونهم بما يعقلون ، وسعدوا سعادة لاحدّ لمداها وكانوا من الفائزين ، وهؤلاء يقال لهم : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فاذا سمعوهم يتحدّثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء : ليس لامرئ أن يقصر في عمله محتجا بالقضاء ، فتلك حجة الكسالى الغافلين ، فاذا ما أتمه على حقيقته واجتاحته الجوائح فهنالك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين ، إن هذه المسألة ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوّة : « وقال الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » فردّ الله عليهم مهدّدا بالوعيد فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظنّ وان أنتم إلا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين »

ونقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى ، هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون في القضاء والقدر وهم جاهلون ، إن الأمم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استعدّت للفناء وباءت بالوبال ، ونسيت عقولها ، وعدّتها حملا ثقيلا عليها ، لأنهم على الشهوات عاكفون ، وفي لجمرة الجهالة ساهون ، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ؟ وأنى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال في الفتيات والفتيان ؟ إن المسلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها لحريّ به أن يبوء بالخسران ، فهذه الطائفة في الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة ببلادنا المصرية ، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم ، فهم في ذلك مغرورون .

إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدّقون ، وحكماء محققون ، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون فالفريقان الأوّلان مطمئنون ، والفريق الثالث جعلت حيرته مهمازا يسوقه إلى البحث ، فاذا قصر فهو في ضلال مبين ، وكيف يخوض في القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ، وأن في كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات ، ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكية ، وهي لاتزيد في سمكها على سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسي واضحة ، وبهذه الملايين يكون الاحساس والنظر . بعد كتابة ماتقدّم في هذا المقال وجه إليّ أحد الأصدقاء اعتراضا جاء فيه مايأتي :

إن هناك فرقا بين المثل والممثل له فان المهندس ربّ البيت ليس مسئولا عن العمى فليس من حق الأعمى الذي حصل له الألم بتسج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ؟ لأن المهندس لاسلطان له على عين الأعمى ولكن الممثل له غير ذلك ، فان الذي أصبح متشككا متحيرا هو نفسه من صنع الله ، واذن فالاشكال باق ، والمسئلة على حالها ، والمثال لايجدينا نفعا ، فأمّن الحاضرون على كلامه . فقلت : لا اشكال

لا اشكال ، فقال الحاضرون : أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك أسرتان : أسرة كبرى وهى نوع الانسان ، وأسرة صغرى وهى المعروفة ، ألستم ترون فى الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هوالذى يديره ، وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه فى الغالب ، وأن أطفاله لايفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟ قالوا نعم . قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللا وظلما ؟ قالوا . كلا . بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة . فقلت : إن العامة فى العالم الانسانى بمثل لهم بالخدم ، لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا ، وأما رب البيت فهوضرب مثل لصانع العالم ، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا فى نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الانسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم وهؤلاء هم المتعلمون تعلما ناقصا ، فهؤلاء اذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ليصيروا حكماء فاذا كسلوا وناموا كما هى الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فانهم لاجرم يحيون حياة كلها اضطراب ، ويرجعون القهقرى ، وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة ، وهذا هوالسرّ فى تأخر بعض أمم الشرق التى كثر العلم فيها ولكن لا استقلال لها لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمى غير مكين ، فهل وجود أطفال الأمم خلل فى النظام ؟ قالوا . كلا . لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا . قلت : إذن العميان فى مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالا أوما لا عدل وحكمة وكمال ، فقالوا نعم ، فقلت الحمد لله إذعرفتم الحقيقة . انتهى

هذا ما كتبته فى [مجلة المعرفة] تفسيرا لقوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وان أردت أيها الذكىّ الزيادة فاقرأ ما كتبته فى [سورة الفرقان] عند آية : « وخلق كل شيء فقدّره تقديرا » والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر

يقول تعالى خلقنا كل شيء مقدّرا مرتبا منظما على مقتضى الحكمة ، وقد كان مكتوبا قبل ذلك فى اللوح المحفوظ معلوما عندنا ، فمتى أردنا أمرا ممّا من أمورنا التى قرّرناها فى علمنا ، وقدّرناها فى لوحنا المحفوظ فاننا نفعله فعلة واحدة ، ونوجده بلامعالجة ولامعاناة ، فقدرنا سابق ، وقضاؤنا لاحق ، ولاقضاء إلا وهومرتب على القدر السابق ، وقولنا [كن] هو القضاء . واعلم أن فى أمم الاسلام السابقة قوما يقال لهم القدرية ، وهؤلاء يقولون : « إن الله لايعلم الأشياء قبل وقوعها ، وكل ما فى الوجود مستأنف لم يعلمه الله فيما مضى ، ولكنه يعلمها بعد وقوعها لاغير » فهم سموا قدرية لانكارهم القدر ، وقد قال أصحاب المقالات من المتكلمين : إن هذه الفئة قد انقرضت ، ثم قالت طائفة بعدهم : الخير من الله والشرّ من غير الله ، وهؤلاء كالمجوس الذين ينسبون الخير إلى [يزدان] والشرّ إلى [اهرمن] والخير يرجع إلى النور . والشرّ إلى الظلمة .

جمال هذا المقال

اعلم أن الله عزّوجل عم قسم خلقنا أنا لايتسنى لنا الوقوف على حقيقة التكوين ولا بدائع القدرة ، فجعل نحن اشبه بمن مضروب لذلك ، ألاترى رعاك الله أن هنا [ثلاث مراتب : المرتبة الأولى] العالم كله [المرتبة الثانية] الانسان الواحد [المرتبة الثالثة] القوى الذهنية فى الانسان .

هذه هى المراتب الثلاث فى الوجود ، فالمرتبة الأولى والمرتبة الثانية من فعل الله عزّوجل ، أما المرتبة الثالثة فهى من فعله بواسطة أنفسنا .

جلّ الله ، الله أكبر : المرتبة الأولى العالم كله من العرش إلى الفرش هيكل واحد ، وهذا الهيكل نشاهد فيه أجسامنا وصورا شتى لاقبل لنا بحصرها ، وهذه الكواكب التى لايحصرها العدّ ، والمجرّات والسدم التى أصبحت تعدّ بالملايين ، وكل مجرّة وكل سديم يحوى من الشموس ومماهو فى حكم الشموس مايعدّ بالملايين ، وتلك الشموس إما كشمسنا أوأكبر منها أوأصغر ، وكل هذه نشاهد لها حركات منتظمات ، وهكذا كل ما على أرضنا ، ومافى جوّنا ، ومافى بحارنا من المخلوقات كلهنّ ذوات أفعال منتظمات مقدّرات منظمات باعتبار خلقها ، ولاجرم أن هذه الأفعال والصفات والأصباغ إنما كانت بفعل عقل وحكمة فلنسمّ ذلك عقلا عاما ، وهذا العقل العام لايمكن انكاره ، لأنا نشاهد آثاره المنظمة وأفعاله الجليلة .

أما المرتبة الثانية فهى الأجسام الحيوانية والنباتية ، وأخص ذلك كله جسم الانسان ، فله أفعال إرادية وله جسم كما أن العالم كله جسم وروح .

أما المرتبة الثالثة وهى قوانا العقلية التى تحت تصرّفنا نحن فانها تصوّر لنا ماشاهدناه أوعلمناه .

ياعجبا ياربا وألف عجب ! لاتكاد نفسى تتوجه للمجرّات ، ولا للشموس ، ولا لحبيب ، ولا لعدوّ حتى يحضر فيها كلمح البصر ، فلندرس هذه القوى التى فينا فانها كافية لنا فى فهم لغز الوجود ، وأنا أحسّ بصور لاعدد لها ، صور تضارع صور هذا العالم المشاهد ، فأرى الشمس فى مخيلتى مثل مارأتها عينى ، وهكذا الأرض والسماء ، ومتى تصوّرت صورة حسنة أوقبيحة أومؤذية أونافعة ظهرت فى نفسى آثارها ، وقد أتصوّر انسانا يؤذينى فأشعر فى الحال بغم وتجديد عداوة وحقد وضغن ، وقد يتصوّر المرء صورة ذات جمال فتهيج شهوته ، إذن الصور الخيالية الحادثة فى أذهاننا تبعث تارة على الشهوة وتارة على الغضب ، وهذان عالمان لامنبع لهما إلا خيالنا ، وهناك عوالم أخرى فى الذهن ، ولكنى من جهة أخرى أحسّ فى نفسى بعالم آخر أرقى من هذه العوالم ينهى النفس ويقول لها : اطردى صور الأعداء ، واطردى صور الشهوات ، ويتحكم فى هذه الصور ويقرب ويبعد .

إن فى الذهن لصورا كثيرة من فريق الغضب والشهوة والجمال والشجاعة وأضدادها ، وهذه الصور خاضعة لتأثير مؤثر نسميه القوّة المفكرة أوالعقل وهكذا ، إذن هنا أمران : أمر هو كالصورة الجسمية ، وأمر هو كالروح ، فالذى هو كالصورة هى الخيالات ، والأمر الذى هو كالروح هو الفكر . ثم انظر فترى هذه القوى الذهنية لها السلطان المطلق على الحواس ، ومن الحواس البصر ، والبصر يرى الصور على الشبكية فالشبكية هى التى تقيد الصورة وتوصلها إلى القوّة الباصرة فى الدماغ فيراها الانسان ، وما الذى رآه ؟ هو لم يرَ إلا صورة مرسومة دلت على صورة فى الخارج ، فالمرئىّ حاصل داخل العين ، وهذه الصورة أقرب إلى الروحانية ، وهى دالة على الصورة الجسمية الخارجية : أى ان مافى النفس مطابق لمافى الخارج ، إذن المعلوم ماملكته النفس فيها ومافى الخارج مطابق له ، إذن البصر فى لمحة يرى صورة أقرب إلى الروحية دلت على مايطابقها ، وهى الصورة الخارجية فى لحظة صغيرة من الزمان ، فلننظر فى سير هذه الصورة فنراها أصبحت فى المخيلة ، وصارت إحدى الصور التى وصفناها بأنها صورة مؤذية أوسارّة أوشهوية أوعصبية ، ولكنها بعد أن كانت أشبه بالروح وهى فى العين أصبحت الآن فى الخيال كالجسم ، وأصبحت القوّة المفكرة كالروح . وهذا الجسم وهذه الروح اخترعتهما أرواحنا بعناية ربها ، اخترعتهما من العدم ، ليس عند روحى مادّة لتصوير صورها ، ولا مادّة ألطف لتصوير أفكارها ، هكذا فعل الله فى عالمه الكبير ، ولايعزب عن ذهنك

ماقررناه غير مرة وبيناه فى [سورة النور] أن هذا العالم لامادة فيه . كلا . إنما العالم حركات فى أمر يشبه خيالا سميناه الأثير ، وماهو الأثير ؟ هوخيال الكون ، خيال الفضاء ، وهذا الخيال قوى متين أمتن من المادة ، والحركات فيه تحدث نقطا كهربائية ، والنقط الكهربائية باختلافها كما وكيفا تتكاثف بنسب مختلفة لاحصر لها فتظهر لحواسنا على هذه الصور المشاهدة ، والا فالحقيقة أن هذه العوالم ماهى إلا نور مضغوط مكبوس تبدى لعيوننا على هذا المنوال ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ العالم حركات لاغير ، وهذه نظرية [انشتين] والحركات تنقلب نورا ، وهذا النور هو هذه الدنيا ، و تنوع النور يكون جمال لاحد له ذو بهجة ، وهذه الصور الحادثات فى العوالم منها ماينفعنا ومنها مايضرنا على قياس الصور الذهنية . وملخص هذا المقام مايأتى :

(١) كما أن الصور الذهنية لامادة لها هكذا الصور التى فى خيال الفضاء .

(٢) وكما أن الفكر ماظهر إلا من أرواحنا بلاواسطة هكذا الأرواح منبعثة من العناية الإلهية خلقا أوليا ، ونظيره فى ذلك أفكارنا .

(٣) وكما أن الصور فى الأولى منها مايضرنا ومنها ماينفعنا ، هكذا الصور الظاهرة فى خيال العالم وهو هذا الفضاء .

(٤) وكما أنا نحن نتصرف فى الصور الخيالية بواسطة عقولنا ، هكذا نحن نتصرف فى عوالم المادة من أنواع مايعطينا منفعة ومايورثنا مضرة كالنحل والزنابير .

(٥) وكما أن فكرنا له الحرية المطلقة فى اصلاح الصور الحاصلة فى الذهن أومحوها واحداث غيرها محلها ، كذلك نحن نفعل فى أعمالنا المعتادة فى الأرض .

(٦) تشابه العالمان : عالم الأذهان ، وعالم العيان .

(٧) ومثل مارأينا فى هذين العالمين يحصل فى العالم العام .

(٨) ففى هذه العوالم نفوس وعقول نسبتها إلى هذه العوالم المادية كنسبة أفكارنا إلى صورنا الخيالية وكنسبة عقولنا وقوانا المتصرفة إلى أعضائنا العاملة كاليدين والرجلين والحواس .

(٩) وكما أن نفوسنا وأفكارنا تتصرف فى صور الخيال التى لانهاية لها ، وفى صور المادة التى لاحد لها فيما حولنا ، هكذا تلك النفوس والأرواح العالية تفعل بنظامها فى هذه العوالم العلوية والسفلية بقوانين منظمة مترتبة بقدر وحكمة ويمتد من تلك الحكمة فروع تصل إلى عقولنا فتهديها إلى صراطها المستقيم .

(١٠) المادة كلها أنوار بل حركات مضغوطات ومكبوسات ، فأجسامنا وأجسام ماحولنا ماهى إلا أنوار ذات جمال حجبنا عنه ، وهذه الأنوار حركات فى الأثير كما أن الصور المرسومات فى أذهاننا أيضا حركات أوأنوار فى الأثير ، فنحن نور يعيش فى نور .

(١١) خلاصة الخلاصة أن هذا الموضوع كله توطئة لفهم قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » والمقصود الأصلى سرعة الايجاد بعد ارادة الفعل ، وأدى ذلك إلى البحث فى أمر الصور الذهنية ، فالصور الجسمية ، فالأرواح والأجسام ، فالملائكة والعوالم كلها ، وفى غضون ذلك برزت صور من علم الأخلاق ومحاربة القوة العاقلة قوتى الغضب والشهوة ، وتنظيم صور لانهاية لها كما ينظم العقل العام صورا لانهاية لها فى العوالم كلها ، و بجهادنا للخلوص من علائق المادة نصل إلى النور الأسمى ، والحمد لله رب العالمين وهوحسبنا ونعم الوكيل . انتهى صباح يوم الخميس ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

نور على نور

حضر صاحبي العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هـذا التفسير فقال : إن هذا المقال حسن ، فقد كان قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » وحصر التمثيل بلمح البصر فى الآية وتقريب المعانى البعيدة بما نألفه سببا أثار هـذه العجائب ، وكان لمح البصر ومايرتب عليه من صور ذهنية وأخرى خارجية مخرجا لما استكن من العلم ، وموجبا الارتقاء فى الأسباب طبقا عن طبق حتى وصلنا إلى مستوى يسمع فيه الأنبياء والملائكة صرير الأقلام المسطرات مقادير العوالم فى اللوح المحفوظ ، ولكن ألا تذكر أن هذا المقام له ارتباط وثيق وائتلاف ، بل تكميل لما تقدم فى [سورة القتال] عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فقد ذكرت هناك رأى أفلاطون وفيه الكلام على المثل المسماة مثلا أفلاطونية ، وأن هذه المثل نبذها أرسطاطاليس بعده وقال إن العلم لا يعتمد إلا على ثابت ولا ثابت إلا المادّة وصورتها ، وأن الرواقيين الذين جاءوا بعده وكان رئيسهم [زينون] فى القرن الثالث قبل الميلاد ردّوا عليه كما ردّ هو على أستاذه وقالوا : أنت لم تبين لنا كيف يكون ارتباط هـذه المادّة بصانع العالم الذى أنت توقن به ، وما المناسبة بينهما ؟ ثم انك تقول : ان المادّة مجرّد امكان محض ، وتقول انها تشتاق للصورة ، وهذا كلام لادليل عليه لأنها اذا كانت مجرّد امكان فأين عشقها للصورة الذى تدّعيه ، وهل هى تعقل ؟ .

فلما رأى ذلك الرواقيون و بعدهم العلماء الذين جاءوا بعد الميلاد وهم الفرع الاسكندرى ، والفرع الشامى والفرع اللاتينى نظروا فى آراء الحكيمين ، فقوم منهم أكبوا على العلوم الطبيعية كالطب ، وقوم أكبوا على الرياضية ، وهؤلاء أكثرهم من الرواقيين ، ثم ان هذه الفروع الثلاثة بعد الميلاد وفقوا بين الآراء واستخلصوا خلاصة ، واليهم ينسب كل ماوصل الى علماء الاسلام كابن سينا والفارابى والصوفية ، فهذه الحيرة التى فيها وقع القوم بعد الحكيمين سببها أنهما لم يوفقا لانتهاج خطة بها يصلان إلى الطريق التى بها يعرفون كيف توجد هذه العوالم من إله لاصلة بينها و بينه ، ولا أفلاطون قدر أن يبين ، ولا أرسطاطاليس كذلك ، وهما السبب فى اختلاف الأحزاب فيما بعد ذلك . وقد نقلت من كلام [الاستاذ سمتلانه] المكتوب بخطه فى كتابه [تاريخ الفلسفة العربية] أن حكماء أوروبا لم يبرعوا فى الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلا ما كان من قبيل العلوم الجزئية كالطبيعيات والرياضيات ، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا ، أما العالم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التى لأجلها وضعت الفلسفة ، والتى هى المقصود الأصلى لنوع الانسان من أبحاثه فهم فيها ليسوا بالنسبة لسقراط وأفلاطون إلا كنسبة البقة إلى الفيل ، وانهم لو عرفوا ذلك مثل هـؤلاء الحكيمين لم يكونوا إلا ملائكة .

هذا كله تقدم فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، وأنت قد رفعت صوتك عاليا وقلت : إلى نوع الانسان كله شرقا وغربا : أيها الناس اذا كان [أفلاطون وسقراط] قد ضربا مثلين لأصل العوالم ، واختلف الأحزاب من بعدهم ، واذا كان الاستاذ [كانت] الألمانى قد حالف طريقهما لما رآها وعره المسالك ، صعبة المرتقى ، بعيدة المنال ، مربكة العقول ، عرج على أن يصل الانسان لصانع العالم من طريق علم الأخلاق وأبان أنه اذا لم يكن هناك إله يكون المجرم كالمحسن . فأنبت الإله من هذه الجهة الضعيفة ، وقد نقلت أنت ذلك عن مترجم [كتاب الأخلاق] لأرسطاطاليس من اليونانية إلى العربية ، وذكرت أنت أن هذا المترجم الفرنسى (كما تقدم فى سورة حم فصلت وهى حم السجدة عند آية : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا الخ جعل أفلاطون فى الدرجة العليا والاستاذ [كانت] فى الدرجة الوسطى ، وأرسطاطاليس فى أدنى الدرجات ، كل هذا ذكرته أنت وأمته فى غير ما موضع .

ههنا رفعت أنت صوتك عاليا وقلت فى [سورة القتال] فى رسالة مرآة الفلسفة مامعناه ملخصا موضحا مشروحا بعبارة أوسع .

أيتها الانسانية : اسمعى اسمعى : إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم تكن الأمم فى زمانهما لتعقل الحقيقة واضحة ، فأعطيا العلم للناس على مقدار استعدادهم ، وأعطى كل منهما صورة للناس يظن أنها تقبل عندهم ومضى ٢٥ قرنا انتقلت فيها العقول وارتقت الأفكار فاستعدت لقبول الحقيقة .

أيتها الأمم . أيتها الأمم . اسمعى اسمعى : إن أفلاطون لم يقل المثل الأفلاطونية وهو نائم أوساه . كلا . انه لما رأى أن المعقولات هى الفعالة والمؤثرات وماعداها لاحراك له قال مقالته ووضع قاعدته ، ولكن أنا أنبئكم بالحقيقة ، الحقيقة هى أننا لايتسنى لنا معرفة العوالم الغائبة عنا إلا بما نشاهده فى أنفسنا ، وسبب ذلك أن أنفسنا أكمل هذا العالم ، هى أرقاه لأنها جمعت العوالم الجسمية والعوالم الروحية ، ولما صور ذهنية وهذه الصور نحسّ بها ، هى موجودة ، نحن لاننكرها ، وهذه الصور لم تكن لها مادّة تخلق منها ، ولا وجود لها إلا من أنفسنا ، فلا واسطة بينها وبين نفوسنا ، أفلا نقول هكذا فى العوالم ، إن العوالم حركات فى ضمير الكون وخيال الفضاء ، كما أن صورنا الذهنية حركات فى خيالنا ، فههنا المحلّ الاشكال ، وفك العقال .

هذا معنى ماتقدم فى غير ما موضع لاسيما [سورة القتال] فهل لك أن تفيض فى هذا الموضوع هنا ليتم المقام و ينتظم شمله ؟ فقلت له : حياك الله أيها الأخ و بياك : ألم ترَ ما كتبته الآن ، ألم أذكر لك عشر جمل هى خلاصة ماذكرته فى هذا المقال هنا زيادة عما سبق . فقال بلى ولكنى أريد زيادة تحقيق ، نعم انك فى [سورة القتال] لم تذكر إلا الصور الذهنية الخيالية ، وهنا ذكرت الخيالية والفكرية وشرحتهما ، فلتفصل لى المقال بعبارة أوضح وقول أبين ، فقلت : إن كل ما نزاوله من أفعالنا ، ونصنعه فى مدننا وحقولنا وليلنا ونهارنا لايصدر إلا عما قرّرناه فى نفوسنا .

الله أكبر : لامعنى للانسانية إلا الفكر ، لوسلب الانسان العقل لسميناه مجنونا ، فيصبح ذا غريزة كالحيوان فيأكل و يشرب و يتناسل ، وهو صنو الحيوان لافكر عنده ولاتمييز .

الله أكبر : الأرض وماعليها لاتساوى شيئا مذكورا فى نظرنا لولا ادراكنا لها ، إذن الادراك والتعقل هما أصل كل شىء عندنا ، اذا عقلنا فهناك الوجود ، واذا لم نعقل فهناك العدم ، جرد المرء من شهوة الطعام إذن لايعبأ به ، جرّده من شهوة الغضب إذن لايحارب العدوّ ، جرّده من العقل لايدرى شيئا ، فالادراك هو الأصل ، وماعداه تبع ، فالوجود كله لامعنى له إلا إذا أدركناه ، نحن علماء بالادراك ، نحن جهلاء بعدمه العالم موجود عندنا لأنا أدركناه ، غير موجود اذا لم ندركه ، لاوجود للألوان اذا لم تكن عيون ، أوكان الانسان أعمى ، لاوجود للأصوات اذا كان الانسان أصمّ ، لاوجود لهما اذا كان أصمّ أعمى ، لاوجود لهذا العالم لمن لم يحسّ بالحواس ، بعض الموسوسين ، والمرضى بالأمراض العصبية ، ومرض [الهيستريا] يسمعون أصواتا و يرون صورا لاوجود لها ولكنها تفعل فعلها فيهم وتضرّهم ضررا بليغا و يموتون ، وأنا شاهدت بعضهم ، و بعضهم يرى صورا فى الظلام ، ومن شدة خوفه يرى صورا ترعبه ، وهو مستيقظ ولايشكّ فى وجودها ، يخلع الانسان لصور وأشكال ، وجمال وقبح ، وصديق وعدوّ ، وحقل وجمل ، وهى عنده حقائق لايمارى فيها ، ولها فى ذهنه آثار ، ولها فى نفس حياته فى اليقظة بعض الآثار ، فبعضها يورث الفرح و بعضها يورث الحزن الخ دلالة على أن لها وجودا ، والشمس قدر المنخل باعتبار ماوصل إلينا بالعين لابحسب الواقع ، إذن الوجود كله الذى أدركناه يرجع إلى مارصل إلينا فى أنفسنا ومانقبلته وتصوّرته لاغير وان خالف الحقيقة ، فاننا اذ أثبتنا المعنى لما أدركناه ، ونفيه [illegible] لما لم ندركه ، نحن فى نومنا نوقن بما ليس بموجود لما

أدركناه ونذعن بعدم ماهو موجود تبعا لما تصوّرناه ، فالعبرة بأنفسنا لاغير ، ففيها سعادتنا وفيها شقاؤنا ، واذا تبدّى لنفس مايسعدها فهى سعيدة ، واذا تبدّى لها مايشقيها فهى شقية ، والعالم الخارجيّ أمر آخر غير نفسى فهو صالح للأمرين ، ولوأن الانسان عاش أمدا رأبدا ، وحياته كحياة النائم الذى يرى أنه فى روضات الجنات ، فهذا النائم سعيد سعادة حقيقية ، وان كان كل مارآه لاحقيقة له ، وان رأى حيات وعقارب وسعيرا وزمهريرا ودام إلى الأبد فهو الشقيّ شقاء أبديا ، فنفوستنا لايسعدها إلا ماأدركت ، ولا يشقيها إلا ماليها مما هو مؤلم ، فالنفوس إذن أصل الموجود عندنا ، أليس هذا أيها الأخ الذكيّ هوالسرّ الذى وصل إليه قول [أفلاطون] فى أن أصل العالم هوالعالم العقلى ، فاذا كان ذلك هودأب نفوسنا وهى فروع لنفوس أكبر تدبر هذا العالم أفلاتقول : ان النفوس التى اشتقت منها نفوسنا هى على هذا النمط ، فهى أصل لوجود العوالم ، والمدار على تلك النفوس لاعلى ماتفرّع منها من العوالم ، وماهذه العوالم إلا صور لما فى تلك النفوس العالية لأن المدار عليها كما أن المدار فى الوجود وعدم الوجود إنما هى عقولنا وارادتنا وهى الحقيقة عندنا لاغير ، فان كان فى المنام فالحقيقة مانراه ، وان كان فى اليقظة فالحقيقة مانشاهده ، وأصل الوجود هوالأثير والحركات فيه ، واختلفت المناظر باختلاف أحوال الناظرفيها ، واذا كانت عقولنا ونفوسنا هذا دأبها فلنقل هكذا دأب العقول التى اشتقت عقولنا منها ، وتلك العقول الأولى منزلتها من صانع العالم منزلة أفكارنا من أنفسنا وان كان هذا مجرّد تشبيه لاغير وليس موضحا للحقيقة ، والتشبيه ماهو إلاضرب مثل لاغير ، وهذا الذى عوّلنا عليه إيضاح وتبيان للسرّ الذى ذكره أفلاطون ، وبهذا الايضاح سيزول اشكال الأمم فى أصل وجودا لعوالم العلوية والسفلية ، والله هوالوليّ الحميد .

مسامرتان

ولأذكر لك هنا مسامرتين : الأولى عن الامام الغزالى . الثانية عن [ماسمرك]

يقول الامام الغزالى : لوأنك خبأت كنزا ثمينا وقبسه أموال عظيمة فانك تجد نفسك به فرحا مغتبطا ، ولوأن امرأ سرق ذلك الكنز وأنت لم تعلم به سنين عديدة لم يؤثر ذلك فى فرحك بل فرحك به دائم مادمت معتقدا وجوده وأنه ملكك . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

ماجاء فى كتاب [مختارات الترجمة] باللغة الانجليزية تحت عنوان « لفافة التبغ التى تمتع بها باسمرك من غير أن يدخنها » وذلك أنه كان فى [كونيكارتز] وقد حمى وطيس الحرب واشتدّ الكرب ، وشمرت الحرب عن ساقها ، وعمّ ضررها ، ولم يبق لديه إذ ذاك لفافة تبغ واحدة ، قال هو بنفسه مايأتى :

« إن قيمة لفافة التبغ لاتعرف اذا لم يكن لديك سواها وكانت آخر ما تملك من هذا القبيل ، ولم يكن هناك سبيل لنيل غيرها ، وفى [كونيكارتز] لم تكن عندى إلا لفافة تبغ واحدة ، فحفظتها فى أمتعتى ، وحافظت عليها حفظ البخيل على كنز ماله مدة الحرب كلها ، وقد قرّرت فى نفسى أن العقل يقضى بنفائها وليس من الحكمة تدخينها ، ولقد كنت أحسّ بأجل السعادات ، وأبهى المسرّات ، وأعزّ الساعات ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها حينما أتمتع بالنظر إليها وأشاهدها وهى قرّة عين لى ببقائها ، ولكن واأسفاه قد وقع مالايسر لى فى الحسبان ، ذلك أن فارسا قطعت يداه أثناء الحرب أخذ يهمس ملتمسا مايسلى نفسه

المسكينة وينعش فؤاده الحزين ، فأخذت أفتش فى حقيبتى ، فوجدت فيها النقود الذهبية ، ولكنها لاتعنيه شيئا مذكورا ، ولاتنعش قواه المنهوكة : فقلت له اجلس أنا أعطيك لفافة التبغ العزيزة لدىّ ، والتى هى سلوتى مدة الحرب ، فأشعلت النار فيها ، ووضعت فيها بين شفتيه الواهتين ، هنالك تبسم ذلك المسكين فرحا مسرورا شاكرا ، أنا لم أتمتع بلفافة تبغ مدة حياتى كهذه اللفافة التى تمتعت بها ولم أدخنها . انتهى

هاتان المسامرتان أيها الأخ الذكىّ تلقيان شعاعا على موضوعنا ، شرح الله صدرك للحكمة وأنار بصيرتك بالعلم ، وزين صدرك بالايقان ، ومامثل هاتين المسامرتين إلا كمثل نور المصباح يلقى شعاعه على أصل الموضوع الذى أختمه بما يقوله الفلاسفة : « إن الانسان يمشى على الحائط فيقع وما أوقعه إلا وهمه ، وهو يمشى على الأرض فى أقلّ من عرض الحائط » ، فالصور الذهنية مبدأ الشقاء والسعادة ، فكأن الفكر أصل أعمالنا ، والعالم الملكى الأعلى أصل عوالمنا ، فأصل الوجود للعقول وجميع العوالم إن هى إلا تابعات ، والعوالم كلها أشبه بشجرة ، وهذه الشجرة فيها زهرات كثيرات ، والزهرات هى الأبصار التى ضرب بها المثل فى القدر فقال : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » فلمح البصر كترنح الأزهار على الأغصان ، ووراء الزهرات الثمرات ، كما أن وراء العين العقول والنفوس الأرضية والسماوية وترتيب القضاء والقدر ، أفلا تعجب من سرّ القرآن ! .

فقال صديقى : إن هذا البيان عجب ! ولم أسمع مثل هذا السرّ فى هذا التفسير. فقلت الحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة الثالثة فى (١٠) جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجريه — (١١) سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية . انتهى تفسير [سورة القمر]

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الرابع والعشرون ، وأوّله تفسير سورة الرحمن)

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	٧	تخطبتم	تخبطتم
١٠	٣٥	حققو	الحقوق
١٤	٢٣	السمان	السماق
١٤	٣٥	التمره	الثمره
١٥	١	زبيريه	زبيريه
١٥	٨	التمره	الثمره
١٥	١٤	زبيريه	زبيريه
١٥	١٨	ملترقه	ملتزقه
١٥	١٨	شحمنهاحبوب	شحمنهاحبوب
١٧	٩	التمره	الثمره
١٧	١٢	للتمره ـ للثمره	التمره ـ الثمره
١٧	١٤	للتمره	للثمره
١٧	٢١	الكائقات	الكائنات
١٧	٢٢	التمره	الثمره
١٧	٢٧	ومامى	وامامى
١٩	١٦	وراضى	وأراضى
٢٤	١٤	فالعلوم	يفيدان العلوم
٣٤	١٤	العصبات	العيدان
٣٥	٣	١٤	٢٦
٣٥	٤	٢٦	١٤
٣٧	٩	من	فى
٣٨	١	واذا	واذ
٣٩	٣٠	ولعرفه	ولمعرفة
٤٦	٥	جاعة ـ جاعه	فوج ـ فوج
٥٧	١	قوادم	خوادم
٥٨	٢٨	ان كما يفعل تسبيح المخلوقات باللفظ ونحن لانسمع	ان تسبيح المخلوقات باللفظ كمايسبح العقلاء ونحن لانسمع
٦٣	١٢	قدرى	ندى
٦٤	٢٠	الاوربار	الاوبار
٦٥	٢٥	حكيت	حاكيت
٦٧	٢١	فوعدته	قبل أن يبعث و بقيت له بقية فواعدته
٦٨	١٦	ومن نيته	وفى نيته
٧٠	١	وانما	وانما
٧١	١٦	عزمت على تركه فعزمنا	فعزمت على تركه فسمعت
٧٢	٨	لما	بل لما
٨٣	١٠	على غيره	لغيره
٨٤	٩	لوجه	الوجه
٨٧	١٣	مغتايا	مغتابا
٨٨	٦	متى	حتى
٩٧	١٧	يستجبرون	يستجيرون
١٠٨	٢	العنى	الفتى
١٠٩	١	بدواء	بدواة
١١٢	٥	خبير	خير
١٢١	٦	يزينها	يرين
١٢٦	٢٤	فى انحاء	فى انحاء جسمه
١٢٨	١	درجته	درجة
١٣٠	٢٦	والاعضاء الرئيسيه	....
١٣٠	٣٤	لاتبرز بطونهم	نبرز بطونهم
١٣١	٢٨	نعتبر	ان نعتبر
١٣٣	١٨	معى	معى هذا
١٤٦	٢٢	١٢	١٢٨
١٤٨	٥	مضاريب	....
١٤٩	٦	١٣	١٦
١٥٥	١٠	ألف متر	ألف كيلومتر

صفحه	سطر	خطأ	صواب
١٥٦	٦	وبكون	ويكون
١٥٨	١	خراجا حول السن المريض	خرّاج حول السن المريضة
١٥٩	٢٨	لأرق	الارق
١٦١	٣٥	فى كتابى	وفى كتابى
١٦٢	١٤	تريك	تربك
١٦٢	١٨	والمقياس	والمقدار
١٦٢	٢٥	الدولة	. . .
١٦٥	٩	هكدا	جعل
١٦٥	٩	جعل	. .
١٧٠	١١	والافتاء	والاقتناء
١٨٠	١٢	بالمعروف	المعروف
١٨١	١٩	ولكنه	. . . .
١٨٣	٢٢	ولباس	وريشا ولباس
١٨٤	٧	متاحبات	متحابات
١٩٥	١٢	نقمل	تقبل
١٩٦	٢٣	وحلّ	وحلّ
١٩٩	٢١	الور	الثور
٢٠١	٢١	ونعيم	ونعيما
٢٠٣	٢٩	التمر	الثمر
٢٠٤	٧	الزهرات	. . . .
٢٠٥	٤	الذكر والانثى	الذكر والانثى منه
٢٠٥	١٧	الجلمات	والحلبان
٢١٠	٥	نقدّر	يقدر
٢١٣	٨	قل	مثل
٢١٤	١٤	ايزدن	ايزوف
٢٢١	٢٨	مائتى	مائتين
٢٢٨	٣٣	لتحليها	لتحليها
٢٣٥	١	فى سوره	سورة

(تمت)

فهرس

الجزء الثالث والعشرون

من كتاب

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

٢ تقسيم [سورة ق] .

٣ السورة مكتوبة مشكلة كلها .

٤ المبحث الأوّل فيه ثلاث مقامات : تفسير البسملة ، ومعنى ق وتفسير الآيات من أوّل السورة إلى قوله « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

٥ وجه الرحمة هنا .

المقام الثانى فى معنى [ق] وأن المسلمين علم الله قبل أن يخلق العالم أنهم سينامون عن العلوم عمدة وجهالة فرمز لهم هنا بحرف [ق] اشارة إلى القرآن .

٧ تفسير الآيات [قّ ، والقرآن المجيد] الخ .

٨ الكلام على أنه لاخلاء عند القدماء والمحدثين .

٩ المبحث الثانى فى الكلام على الموت وسكرته الخ .

١٣ فى هذه السورة ثلاث لطائف : اللطيفة الأولى والثانية فى عجائب الأرض والنبات .

١٤ حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر : النخل ، الرمان ، السنّ ، الجوز ، اللوز التين ، العنب ، الأجاص ، المشمش ، الخوخ ، الأترج ، النارنج ، الليمون ، الحبة الحضراء ، الفستق ، السماق ، حب الصنوبر : البلوط ، العفص ، السرو ، الاهليلج .

١٥ هاك عشرين حكمة فى الشجر والنبات : الحب ، الشجر ، نسج الورق ، الهجم والنوى ، صلابة النواة قشر الحب والنوى ، الحب والنوى ، تقسيم العداء على أجزاء الشجر ، نظام الأوراق ، الثمرة فى غلافها موازنة بين الثمار و بين الأجنة ، اعتبر ذلك فى أمم الأرض ، حب الرمان المرصع ، غذاء الحب فى الرمان فى حب الرمان أيضا الحلاوة ، عود الرمانة ، الطبيخ ومامعه .

١٩ شذرات علمية .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » .

٢٠ اللطائف العامّة فى هذه السورة .

٢١ اللطيفة الأولى فى سرّ [ا ل م] فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » . وتبيان أما ذكرنا فى أوّل [سورة آل عمران] المعانى الاشاريه التى أوردها المتقدّمون فى هذه الحروف التى فى أوائل السور ، وأن [ا ل م] فى أوّل سورة [آل عمران] خاصة تشير إلى ماهناك من قصة اليهود الذين حرفوا التوراة وكتموا العلم فأباد الله ملكهم وسلط المسلمين عليهم فاستولوا على ملكهم ، وذلك فى قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » الخ وهناك ظهر أن المقصود من هذا أن يعتبر المسلمون بما حلّ باليهود ، إذ اتكلوا على أن الله وعد آباءهم أنه

صفحة

لايعذبهم إلاتحلة القسم ، وأن آباءهم سيشفعون لهم عند الله يوم القيامة ، فهذا كله قد حصل فعلا عند المسلمين فكسلوا بعدماجهلوا المقصود من معنى شفاعة الشافعين ، فحروف [ا ل م] تشير إلى المسلمين الحاليين أن أفيقوا من غفلتكم والا حلّ بكم ماحلّ باليهود إذ ذاك ، إذن [ا ل م] فى أوّل [سورة البقرة] مفتاح لخزائن علوم كبيرة ، لأن القرآن مبتدأ بالبسملة وفيها الرحمة ، وهى مقدّمة للفاتحة ، والفاتحة مقدّمة للقرآن ، والقرآن فى أوّله [ا ل م] و [ا ل م] فى أوّل البقرة فتحت بها خزائن علوم الصبر على مكاره القتال ، وعن الشهوات فى آية : « ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » الخ فههنا صبر عن شرب الماء وصبر على الحرب ، والخزانة الثالثة فى سورة آل عمران وهى ترك الأمانى والأباطيل كما تقدّم ، وهناك خزانة رابعة ، وهى أن يعرف المسلمون تواريخ الأمم التى سكنوا ديارها « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » ولقد قرأ المسلمون ذلك ولكن لم يقوموا بدراسة تلك الأمم فحلّ بهم ماحلّ بالفرس والروم اللتين سكن المسلمون ديارهم ، وهناك خزائن من العلم أخرى ، ومنهاخزائن علوم السموات والأرض المذكورات فى هذه السورة إذ يقول الله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم »

٢٤ وههنا ورد اعتراض على المؤلف ، وهوأن هذا القول لم يسبقك به أحد ، فانه يؤخذ من كلامك أن المفسر يجب عليه أن يعرف علم الفلك والطبيعة ونحوهما ، وهاهوذا صاحب الاتقان قد ذكر (١٥) علما ليس منهاماذكرته أنت ، إذن أنت مبتدع [وجوابه] أن قول الله كفعله ، وهوقدأبدع السموات والأرضين ، وجعل كل عالم كأنه زهر لما قبله من الأثير والمجرّات والسيارات والأشجار والأزهار ، فهذا الانسان له زهر وزهره هى الحكم التى تلقى على قلبه ، لأنه قد اختص بأنه دائما بين خطتى الخير والشرّ وعقله يحكم و يعمل بحكمة ، فتكون علومه ثمرات جدّه ، وهذه هى علم الموهبة الذى فى كلام [صاحب الاتقان] وقال به ابن أبى الدنيا الخ فالمتقدّمون سهلوا لنا سبل العلوم اللفظية ، ولكنهم تركوا لنا العلوم التى تورث الموهبة المذكورة ، إذن هذه العلوم تفيدنا الموهبة التى ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهوى فمثل تفسير الروافض : إذ يفسرون البحرين فى آية : « مرج البحرين » بعلىّ وفاطمة الخ . ثم ان هذه العلوم التى تشير لها هذه الحروف كلها فروض كفايات ، واكتفاء المسلمين بقولهم : « الله أعلم بمراده » ينافى قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ، عجبا للمسلمين كيف ناموا عن دراسة أمم الفرس والروم وغيرهم بعد أن سكنوا ديارهم ، ومن أعجب العجب أن ملوك الاسلام استفادوا من هذه الحروف وأسرارها ، فهذا [محمود خان الغزنوى] لما أرسل خطاب تهديد إلى الخليفة العباسى أجابه الخليفة يقول [ا ل م] ولم يزد على ذلك ، فحار أهل الديوان فى ذلك ، فقال القهستانى أنتم هددتموه بالفيلة وهو يقول [ا ل م] مشيرا إلى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الخ هنالك ارعوى [محمود خان الغزنوى] وتأدّب مع الخليفة ، واذا كان لفعل الله زهرات كما تقدّم من أن كل عالم كأنه زهر لعالم قبله ، هكذا نقول ان قول الله له زهرات كفعله ، وزهرات القرآن هذه الحروف التى بها تفتح خزائن القرآن وقد فتحت فعلا والحمد لله .

٢٦ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » وذكر مسامرة بينى و بين صديق لى أذكرنى بما شرحته من عجائب العين وغيرها فيما تقدم ، وتبيان أن أهل هذه الدنيا محسوسون عن منظر هذا الجمال الباهر ، لأننا لوأدركناه لزال عنا كل حزن ، ولكن

صفحة

الجمال نعرفه شيئا فشيئا ، وذلك بالدرس وحده ، فلندرس الدنيا ولنخص بالدرس أجسامنا ، ولنذكر الآن عجائب العين التي بها نرى السماء .

٢٨ العين ومنفعتها ، وأن الناس يستعملونها ولايعقلونها ، و بيان كيف ركبت طبقات العين ، وكيف جعلت تلك الطبقات بهيئة موسيقية عجيبة جدا ، وكيف عرفنا الصور والأحجام بهذه الآلة ، نحن لانعرف آلة إلا بتفصيل أجزائها ، وأجزاء العين نعرفها بدراسة عين البقرة من عند القصاب (الجزار) ومتى نظرناها عرفنا أنها كرة فيها حبل أبيض خارج من خلفها هي داخل العين يوصل الى المخ ، ثم لندرس الطبقات طبقة طبقة .

٢٩ وههنا (شكل ١) قطعة من العين الانسانية وفيها وضحت ١٥ قطعة من داخل العين مثل الصلبة والقرنية والملتحمة وغطاء المشيمة ، وآخرها الرطوبة الزجاجية .

٣٠ ثم (شكل ٢) فيه أجزاء العين مفصلة ، ولكن شرحها قد تقدم في [سورة المؤمنون] فلم يذكر هنا وهو معلوم ، جمال العين و بهجتها وعجائب اتقانها ، وذكر أهم أجزاء العين وهي القرنية : الرطوبة البيضية ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه تفهم بشكل (٣)

٣١ وهي تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين ، فترى المصباح يمثل ضوء الشمس مثلا ، واللوح الأبيض المثقوب يمثل القزحية ، والزجاجة المائية تمثل البلورية ، واللوح نمرة ٤ القابل للصورة يمثل الشبكية وبهذا ظهرت قيمة القزحية فهي المساعدة لتمام الصورة على الشبكية ، الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام لزجاجية المملوءة ماء ، إن الزجاجة المتقدمة يعرفها الخاص والعام وهي تمثل البلورية ، ولكن العلم يعوزه ماهو أعظم من ذلك وهي أجسام زجاجية مضلعة (شكل ٤) قطعة من بلوريتين محدبتين وجزء من منشورين .

٣٢ تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة : سير الضوء في منشورين قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر فصار أبيض في الوسط ، والأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت أولا ، والحمراء اجتمعت بعد ذلك ، واذا وضعنا بلورتين معا كما وصفنا رأينا نفس هذا السير في الضوء ، إن للقزحية إذن فائدتين : أولا لها الفضل في ظهور الصورة على الشبكية ، ثانيا انها تحفظ الضوء من أن يكون أزرق أو أحمر برتقاليا عند حافته ، فان ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال العلماء بوضع ستارة حلقية في الآلة البصرية [التلسكوب] فمنعت هذا العائق ، وهكذا فعل القزحية فهما سواء في ذلك .

وظائف القزحية والبلورية والشبكية : فالأولى لحفظ الصورة واضحة ، والثانية ترسلها ، والثالثة توصلها إلى الدفاع ، والشبكية عشر طبقات مفصلات في (شكل ٦)

٣٣ وآخر طبقة منها فيها ثلاث ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وصورة هذين النوعين في صفحة ٣٤ (شكل ٧)

٣٦ يقول المؤلف : إن كثيرا من الشان سيعشقون هذه العجائب ، تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد المبحث الثاني من اللطيفة الثانية في عجائب السماء والكواكب ، وههنا الكلام الاجمالي على السيارات وعلى الشموس الكبيرة والمجرات ، والشمس تبعد عن سطح المجرة ٥٠٠٫٠٠٠ خمسين ألف سنة نورية ، وهي تسير مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل في اليوم .

٣٨ وظهر ١٩ نجما جديدا من سنه ١٣٤ ق م إلى الآن . إن النجم الصغير المسمى [درواس] يبعد عنا

صفحة

١٢ ألف سنة نورية ، وضوءه أكثر من ضوء شمسنا ٦٠٠ ألف مرّة ، و بعض النجوم ضوءها ألمع من ضوء شمسنا من ١٥ ألف إلى ٦٠ ألف مرّة ، ونجم القطب اشراقه أكثر من اشراق شمسنا ١٠٠ مرّة وهكذا نجوم أخرى تقلّ عنه ، شمس الشموس هو [العيوق] وهو الذى يقال ان نجوم المجرّة كلها البالغة ٣٠ ألف مليون نجم تدور حوله ، وهو أكبر من الشمس مليونى مرّة و٤٢٠ ألف مرّة ، واشراقه أكثر منها نحو ٥٠ ألف مرّة . قطر المجرّة ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر بعض السدم ٢٠ ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا عشرة ملايين سنة نورية .

٤٠ تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات ، يقول المسلم فى الرفع « ربنا لك الحمد ملء السموات » الخ وهل معنى هذا الامتلاء إلا بأن يمتلئ القلب بالاعجاب بذلك الجمال ! فيكون الحمد إذ ذاك عن حب باعث له ، وقول المصلى فى سجوده « سجد وجهى الخ » جاء فيه ذكر السمع والبصر ، وههنا يسجد ويقترب ، لأن الدقة واضحة فى السمع والبصر ، والنظر للسماء مقدّمة للنظر فى النفس ، فالمسلم مبتدئ فى الرفع ومنتهى فى السجود لشدّة اقترابه بمعرفة دقة صنع نفسه ، ليس المدار على عظمة المصنوع بل المدار على دقته .

٤١ تسبيح المخلوقات وشرح الكلام فى القرحية وأنها تضبط النور ، وهكذا ذكر ألوان الآساد وغيرها ، وأنها وضعت لحكمة حفظها ، وهذا هو المقصود الحقيق من التسبيح ، فكل شىء يسبح بهذا الاعتبار ، والناس يجهلون هذه الدقائق ، فهم لا يفقهون تسبيح المخلوقات والله حليم عليهم .
سرّ من أسرار حكم العين وقرحيتها .

٤٢ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « والأرض مددناها » الخ وفيها مقالتان : المقالة الأولى فى قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » النبات إما وحيد الخلية ، واما كثير الخلايا ، والخلية لها جدار صلب شفاف فى داخله مادّة لزجة لها صفات الحياة الست مثل القدرة على تمثيل الغذاء الخ وفى داخل هذه الخلية نواة قد تكون فى داخلها (نوية) وهذه الخلية تنقسم انقساما مباشرا فى النباتات الدنيئة ، وانقساما غير مباشر فى النباتات المرتقية ، ههنا شكل ٨ وشكل ٩

٤٥ شكل ١٠ فيه نوع الخلايا وهى هنا ستة أنواع : مثل الخلايا المرتسيمية الخ ، ثم ان النبات ذا الخلية الواحدة تقدّم فى سورة حم فصلت ، وأما المركب من خلايا كثيرة فهو إما ذو فلقة واحدة ، واما ذو فلقتين ، فالأوّل مثل البصل والثوم والكرّاث البلدى والصار والدخن والقمح والارز والذرة الشامى وقصب السكر الخ — وذو الفلقتين مثل الكرنب والقنبيط والفجل والتفاح والطماطم الخ .

٤٧ شرح الساق فى الساب ذى الفلقتين مثل [الكيوتين] ومثل البشرة تحته ، وهكذا إلى سبع طبقات ، وآخرها أشعة نخاعية (انظر شكل ١١) و (شكل ١٢) و (شكل ١٣) و (شكل ١٤) و (شكل ١٥)

٤٩ امتحان الساق فى ذى الفلقتين يظهر فى الحلمة والملوحية بسهولة ، شرح ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وفهم (شكل ١٦ و١٧ و١٨) : الفرق بين نموّ الساقين أن أحدهما يزداد فى السمك عاما بعد عام وهو ذو الفلقتين وبالعكس ما كان ذا فلقة واحدة كالنخل

٥١ وهما (شكل ١٩) فيه الحلقات السنوية .

٥٢ شكل الخشب فى أشجار مختلفة (شكل ٢٠) و (شكل ٢١) لبيان الجذور ، وأشكال ٢٢ و٢٣ و٢٤ لأصل النباتات الحزازية .

صفحة

٥٤ (شكل ٢٥) للنباتات السرخسية ، ويليها (شكل ٢٦)
الكلام على النباتات المعراة البذور والمغطاة البذور .
٥٥ الموازنة بين النباتات ذوات الفلقة وذوات الفلقتين وهي خمس فوارق .
٥٥ المقالة الثانية فى قوله تعالى « تبصرة » والتبصرة باستنتاج ١٤ حكمة مما تقدم هنا مثل أن الكيوتين لمنع الماء من البخر الخ وهذا الاتقان عام فى كل نبات ، وعدد النباتات ربع مليون .
٥٧ المقالة الثالثة فى قوله تعالى : « وذكرى لكل عبد منيب » وايضاح هذا المقام أن أغذية الأجسام معلومة وأغذية الأرواح ترد عليها من الصور الخارجة الواردة على الحواس الخمس فى كل زمان وهذا غذاء روحى والناس لايعلمون ، فاذا فارقوا الأبدان دامت تغذيتهم به .
٥٨ التسبيح والتحميد : والكلام على التسبيح والتحميد من المخلوقات أهو باللفظ أم بالمعنى ؟ والحق أن الاختلاف راجع لجهل الحقيقة ، إن الاعجاب بتلك الحكمة العالية فى العوالم هو نفس التسبيح فماهو القول إذن ؟ والتسبيح يلازمه التحميد ، وليس يمنع هذا قول الشيخ الدباغ : ان المخلوقات تسبح ، وقد سمع هو تسبيحها ، فهذا ليس أعلى التسبيح .
٦١ جمال العلم وبهجة الحكمة فى الكلام على وادى الموت بأمريكا ، فكل من دخله مات من حرارته وعلى غور الشيطان بأمريكا أيضا وعمقه ١٧٥ مترا ، وذلك بسبب جرم سماوى صنعه ، ثم الكلام على الجليد والفحم القطبى .
٦٢ ههنا ثلاث جواهر : فى آية : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . وفى آية : « وذكرى لكل عبد منيب » . وفى آية : « مايلفظ من قول إلالديه رقيب عتيد » وفى الأولى ان تلقيح النبات ذى المسكنين يمكن أن يكون من مكان بعيد ، وفى الثانية أربع عجائب فى خلق النبات ، وفى هذه الثانية إتمام الكلام على آفات اللسان ، مثل السخرية والاستهزاء ، وذلك من كتاب [إحياء علوم الدين] للامام الغزالى ، ومثل إفشاء السر ، ومثل الوعد الكاذب ، ومثل الكذب فى القول واليمين .
٧٢ بيان مارخص من الكذب ، كمن يكذب للصلح بين اثنين .
٧٤ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض .
٧٦ الغيبة والنظر فيها طويل .
٧٩ بيان معنى الغيبة وحدودها .
٨٠ بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان .
٨٢ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة .
٨٥ بيان تحريم الغيبة بالقلب .
٨٧ بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة
٨٨ بيان كفارة الغيبة .
٩٠ النميمة .
٩١ بيان حد النميمة ومايجب فى ردها .
٩٣ كلام ذى اللسانين .
٩٥ آفة المدح .

صفحة
٩٦ بيان ماعلى الممدوح .
٩٧ الآفة التاسعة عشرة : الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام .
٩٨ الآفة العشرون : سؤال العوامّ عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف أهى قديمة أم محدثة ؟ .
٩٩ وههنا شذرات من كتابنا [جوهر التقوى] من الحسد وأسبابه .
١٠١ الثبات والعزيمة ، والصبر وأنواعه ، والعفة والشجاعة ، وكتم السرّ وافشاؤه ، والقناعة والشره .
١٠٧ (١٣) سؤالا للتطبيق على الأخلاق المتقدمة ، الكرم والبخل .
١٠٩ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » وأن هذه الآية معجزة فى البلاغة ، فان أحد المستشرقين مع أديب مصرى عجزا أن يأتيا بمايضارعها فى وصف جهنم ، وهذا عجب عجاب ! وههنا موازنات بين علم الأدب عند طبع هذا التفسير فى بلاد الاسلام ، و بين الأدب أيام تعلمنا بالجامع الأزهر ، وأن علم الأدب ارتقى اليوم جدّا .
١١٣ ﴿ سورة الذاريات ﴾ مكتوبة مشكلة كلها .
١١٤ تفسير البسملة ، و بيان غفلة الانسان فى هذه الأرض .
١١٦ القسم الثانى من السورة فى تفسيرها اللفظى من أوّلها إلى قوله « لعلكم تذكرون » .
١١٩ القسم الثالث من السورة فى تفسير الآيات من قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » إلى آخر السورة .
١٢٠ لطائف هذه السورة ثلاث : اللطيفة الأولى والثانية فى مبحث علمى ومبحث أدبى ، والعلمى يرجع الى أن [ق] جيء به مذكرا للمسلمين بعدغفلتهم فى زماننا ، والأدبى يرجع إلى الموازنة بين أقسام العرب وأقسام القرآن فان أقسام القرآن عجيبة لم يقلها عربىّ .
١٢٥ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » .
اللطائف العامّة فى هذه السورة ، وأولاها فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » الخ .
محاورات بينى و بين صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير .
الفصل الأوّل فى ملخص ما تقدم فى ﴿ سورة الفتح ﴾ لمناسبة قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون » .
الفصل الثانى فى علاقة أجسامنا بعالم السموات ، ومايتبع ذلك من طول العمر وقصره ، وفى التعمير وأسبابه ، وفى هضبة الحياة والعوامل التى تعمل فيها ، وفى منحدر الحياة ، وفى أسباب الشيخوخة والموت ، وفى منذرات الشيخوخة ، وفى العدد التناسلية ، وفى تجديد الشباب ، وفى وسائل التجديد واطالة العمر ، وفى هذا المقام شرح الجهل الذى كان فاشيا قديما عند رجال الطب الذين كانوا يأمرون الشيوخ بكثرة التغذى فظهر أن ذلك قاتل لهم ، وشرح الحمام الشمسى وفوائده ، وغير ذلك من الفوائد التى يجب الاطلاع عليها والعمل بها لتكون الحياة سعيدة ، ومن أهمّ تلك التدابير النافعة كثرة التنفس العميق فى الهواء الطلق ، فانه يحدث قوّة لكل عضو من الأعضاء .
١٤١ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومابعدها ، و بيان بدائع الحساب من الجذر والتربيع والجمع والطرح فى الأعداد (١ - ٢ - ٣ - ٤ الخ) وكيف كانت أنواع الحساب المذكورة فيها يستخرج اسمها مثلثات ذات الزوايا بينها تلاؤم ونظام عجيب كأنها جنات فيها نخيل وأعناب ،

وهناك

صفحة

وهناك يساوى مربع الوتر مربعى الضلعين الآخرين ، وهذه من عجائب نفوسنا ، وههنا الكلام على النسبتين العددية والهندسية ، وكيف أمكن أن يجعل من كل منهما وفق بحيث يكون جمع أوضرب أى صف أفقى أورأسى أوقطرى مساويا لباقى الصفوف الرأسية والأفقية والقطرية ، وهذا غاية العجب وكل هذا من عجائب نفوسنا ، وهكذا يستبين العدد الكامل والناقص والزائد والأعداد المتحابة ، وذلك كله باعتبار مضاريب الأعداد ، فان ساوت المضاريب نفس العدد فهوكامل ، وان زادت فهو زائد ، أونقصت فهوناقص ، وان ساوت مضاريب عدد عددا آخر وكانت مضاريب ذلك العدد مع العدد الأوّل كذلك سمى العددين متحابين .

١٤٨ إن أمر نفوسنا عجب ! انها عرفت أن من الكسور مالانهاية له ، ومنها ماله نهاية ، والأوّل كسر دائر مركب أو بسيط ، والثانى ليس بدائر ، وسير الكواكب كالكسر الدائر المركب ، وعدم نهاية أجزاء المادّة كالكسر الدائر ، وكذلك عدم تناهى العوالم ، وههنا تعجب المؤلف من المثلثين المتقدّمين ونظامهما العجيب ، ويقابل ذلك كله التشريح ونظام الأمم .

١٥٠ الفصل الثانى فى حدائق العلوم التى تفيأ الناس ظلالها من علم الفلك والطبيعة ، وظهورغاية الدهش من حساب الأحجار الساقطة فى نظام سرعتها ! وكيف دخل فيها الجذر والتربيع الخ وهكذا نظام أوراق النبات .

١٥٢ (شكل ٢٧) و(شكل ٢٨) يمثلان نظام أوراق أمثال شجر التفاح الذى يرجع إلى كسر بسطه عدد (٢) ومقامه عدد (٥) والأوّل للأشكال الحلزونية فى الدائرة الواحدة ، والثانى لعدد أوراقها ، وكيف كانت الورقات الخمس فى الدائرة بينها مسافات متساوية ٧٢ درجه من محيط الساق وهو دائرة تامة

١٥٣ الفصل الثالث فى أن الأمم وان استظلت بظلال تلك العلوم فى حياتها لم تجن ثمراتها .

١٥٤ الانسان لم يدرس حقائق السياسه كما درس أحوال الحياة .
لطيفة فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

١٥٥ [الشذرة الأولى] فى كريات الدم الحمراء [الشذرة الثانية] فى بعض المنافع الطبية والمحافظة على الأسنان وتنظيفها ونحوذلك ، وأن الأسنان الذهبية قاتلة لنوع الانسان ، وأن الأسنان لابدّ من تسويكها ، واللثة لابدّ من تنظيفها بالأصبع لا بالسواك .

١٦٠ الشذرة الثالثة فى أمر النفس وعجائبها ، وبيان أن الحقول هى الكلية الأولى لعلم النفس ، ذلك أنى كنت أفكر فى أمر النفس وأنا فى الحقل ، ولم يكن أمامى إلا السماء من فوق والأرض من أسفل والناس حولى ، فهى هكذا : عالم علوى ، وعالم سفلى ، ونفس الانسان ، وجميع المخلوقات على الأرض ملحق بها ، ثم قرأت علوم الأزهر ونظرت فى كتب الفلاسفة المتقدّمين ، ثم فلاسفة أوروبا ، فوجدت المتقدّمين جعلوا العلوم هكذا : رياضيات ، طبيعيات ، إلهيات ، والطبيعيات هى سماع الكيان والسماء والعالم ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، والانسان . ثم هم يقولون إن للنفس ثلاث قوى ، ثم يأتون بعد ذلك بالعلم الأعلى وهوخمسة علوم ، وهذه كلها مع الرياضات ومع تهذيب الشخص ونظام الأسرة ونظام الأمة تبلغ ١٧ علما ، ولها فروع كثيرة ، وجاء [بيكون] فقال أنا أجعل مبدأ التقسيم نفس الانسان مخالفا مذهب المتقدّمين ، فاعتبر القوّة المخيلة والمفكرة والحافظة وجعل نظام الطبيعة ونفس الانسان والذات العلية للقوّة العاقلة ، ونحوالشعر للقوّة المخيلة ، ونحوالتاريخ

صفحة

١٦٠ للقوّة الحافظة .

الكلام على آراء [اخوان الصفاء] فى هذا المقام ، وعلى مافى جمهورية أفلاطون فيه ، وهومفهوم فى مواضع كثيرة من هذا التفسير وينحو نحو هذا الترتيب بعينه [كونفشيوس] الصينى .

١٦٨ فصل فيما جاء فى علم النفس الحديث .

١٦٩ نظرة عامة فى علوم النفس عند القدماء والمحدثين ، والكلام على كتاب [سلوك المالك ، فى تدبير الممالك] مثل أن الرذيلة لها دواء كالشره والعجب وأنه لافرق بين دواء المرض بضده ، ومداواة الرذيلة بضدها

١٧٠ تبصرة وتذكرة فى آية : « وفى الأرض آيات للموقنين » الخ وههنا (شكل ٣٠) للمخ الانسانى ، وأنه منقسم إلى قسمين كل قسم منهما أربعة فصوص وكل فص من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام أخرى على حسب التلافيف .

١٧٣ (شكل ٣١) مقطع جانبى للمخ يبين الألياف الرابطة ، وبيان الألياف الضامة والألياف المصدّرة والألياف الموردة ، ويوضح ذلك أيضا (شكل ٣٢) .

١٧٤ (شكل ٣٣) مقطع فى اللحاء .

١٧٥ وظائف المخ ، مناطق اللحاء ، وههنا مناطق عجيبة موزّعة على أعضاء الحسّ وعلى أعضاء الحركة ، فترى للسمع والبصر والشم والذوق مناطق فى مؤخر الدماغ ، ولكن حاسة اللمس لها منطقة موازية لشق (رولندو) من خلفه موزّعة على ظواهر الجسم من القدم إلى اللسان فى الوجه من الظاهر إلى داخل المخ ، وفى مقابل هذه المناطق الموزعة على ظواهرالجسم من الناحية الأخرى من شق رولندو مناطق أخرى للتحريك بترتيب المقابلة لها التى للاحساس ترتيبا تاما ، وهناك ثلاث مناطق فى المقدم والوسط والمؤخر قد جعلت لنظام تلك الحواس ، فهى أشبه بالحكام فى المدن .

١٧٧ مراكز اللحاء فى المخ أربعة : مركز الكلام والكتابة ، وادراك الألفاظ المسموعة ، والألفاظ المكتوبة وبين هذه الأربعة اتصال ، وكلما كانت كلها متعاونة كان الفهم أسرع ، وذلك نافع فى علم التربية فى المدارس .

١٧٨ المخيخ : وظيفته تنظيم حركات الجسم ، ومتى عطل كانت حركات الانسان غير مضبوطة ، فهو نظير المناطق الثلاثة فى المخ التى تحكم بين الحواس المختلفة وتنظمها .

نظرة عامة على هذه المشاهد فى علم النفس : اعلم أن أعصاب الحسّ وأعصاب الحركة مشابهات للتيارات البحرية من حيث التعاون والاتحاد فى العمل والمصلحة ، وكما أن الانسان لاسعادة له إلا بانتظام هذه الأعصاب وأنواع الاحساس والحركة بسبب انتظام مخه وحسن تقسيمه هكذا النوع الانسانى لاسعادة له إلا بانتظام جميع قوى عقوله المختلفات وتعاون الجميع .

١٨٠ والمسلمون خير أمة أخرجت للناس ، فعليها أن تقوم باسعاد الأمم كلها بهذه السعادة ، وههنا يظهر للعاقل أن هذا الكون كله كلمات الله ، لأن كل ضوء ، وكل مادّة ، وكل حيوان ونبات ، والسماء والأرض ماهى إلا حركات فى الأثير فان كانت الحركات صعيفة كحركات صوت الانسان لم تعرف إلا بأسماعنا ، وتبلغ فى نهايتها (٣٢) ألف حركة فى الثانية وان كانت الحركات أقوى حدث بسببها إما ضوء وذلك بسبب ٤٠٠ مليون مليون حركة فى الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة فى الثانية ، واما موادّ نشاهدها ، وذلك بسبب ٦ آلاف مليون مليون حركة فى الثانية الواحدة ، إذن الحركات الضعيفة تحسّ بها آذاننا ، والحركات القوية تحسّ بها بقية حواسنا ، إذن الكون كله حركات ، وهذه الحركات كلمات ، وههنا حديث طريف ، ذلك

صفحة

أن الطفل فى لعبه يحكى أعمال أجداده ومستقبل عمله كما أن الجنين يمرّ على أدوار كل حيوان تقدّمه من أوّل خلية إلى أعلى حيوان .

١٨٢ جوهرة فى آية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » وبيان أن القرآن يسمع المخاطبين ما تقبله عقولهم وليست الأمثلة التى فيه حاصرة لما يجب علينا ، وعلى العقول التفكر فى كل شىء ، وبيان ماشاهدته من العنزات ، وأن ذيولهنّ مرفوعات ، والله منع الذكر بالغريزة أن يقرب الأنثى بعد الضراب ، فالانسان حرّ لأنه سهل له سبل كل شىء ، وعقله هو الذى يحكم ، وكما أن الرجل لايترك الشهوة إلا بعقله ، والتيس ترك ضراب العنز بالغريزة ، هكذا الأمم الأمريكية والانجليزية الذين يمنعون السودان يجلسوا معهم فى مكان واحد يعوزهم عقل يرشدهم ، ودين يذكرهم ، وهذه العنزات أحبّ الأبيض منها الأسود وغيره بالغريزة ، فالانسان فى سياسته الشخصية وسياسته العامة يعوزه مقوّم من الخارج

١٨٥ أقسام المملكة الحيوانية وأنها إما وحيدة الخلية واما كثيرة الخلايا ، ولكل منهما أقسام وهى أربعة فى الأولى ، وأقسام كثيرة فى الثانية مثل الفقرية وأقسامها الخمسة ، والخامس منها ثمانية أقسام مثل اللافقرية وأقسامها الثمانية .

١٨٦ الأميبا (شكل ٣٥)

١٨٧ القسم الثالث من وحيد الخلية : البوجلينا (شكل ٣٦) الحيوانات الجرثومية .

١٨٨ حوصلات الملاريا المعدة (شكل ٣٧) و (شكل ٣٨) حيوان الاسفنج .

١٨٩ اسفنج الحمام (شكل ٣٩) . (شكل ٤٠) أخطبوط

١٩٠ (شكل ٤١) نجم بحرى يفترس محارا .

١٩١ (شكل ٤٢) قطاع عرضى فى الذراع .

١٩١ (شكل ٤٣) الدودة الكبدية الكاملة .

١٩٢ (شكل ٤٤) دودة البلهارسيا (شكل ٤٥) دودة الانكلستوما .

١٩٣ القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية ، والقسم السابع منها وهى التى لافقرات لها ، وهنا شكل ٤٦ و٤٧ و٤٨ و٤٩ و٥٠ و٥١ أما ٥١ فذلك فى القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهو القوقع الرومانى و٥٢ فى بلح البحر مدفونا .

١٩٥ بهجة الحكمة فى هذه المناظر الحيوانية . يقول المؤلف : إن هذه الرحة لاحدّ لها ورحمتنا نحن جزء منها ، وههنا يذكر المؤلف تلك الخلايا فى أوراق الأشجار كما تقدم فى [سورة يسّ] ويذكر أن خلق نوعين من الحيوان ضارّ ونافع معناه أننا أحرار فى عملنا ، فلولم يخلق غير النافع لم تكن لنا حرّية ، فالحرّية تتبع خلق الضدين ، وهذه ميزة هذا الانسان .

١٩٩ زيادة إيضاح « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . يقول المؤلف : إن الدنيا جمال ونحن محجوبون عنه ، فكأن الناس عمى أمام العادات الحسان ، صمّ لايسمعون أبهج النغمات ، ويقول المؤلف : انه يحسّ عند كتابة هذا الموضوع بسعادة لاحدّ لها .

٢٠٢ مسامرة فى آية : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وفيها الكلام على تقسيم النبات أيكون بالشجرات والشجيرات والأنجم ؟ أم يكون بأنه ذوسنة أوسنتين أوسنين ؟ وكلاهما لايفيد بل المفيد أن يكون التقسيم بالزهر ، إن المدهش أن يكون ثبات النظام الزهرى هوالذى كان به التقسيم كما كان

صفحة

ثبات سير المشرقات العلوية سببا فى تقسيم الزمان .

٢٠٤ وهذا معنى هذا العنوان : « الزهرات تنوب عن النجوم فى بعض آثارها » .

٢٠٥ ومن الفصائل الفصيلة الخضرية كالفول وجميع أوراق زهرها خمس لاغير ، وهى من ذوات الفلقتين التى لايخرج ساقها عن أن تكون مخروطية الشكل ، فأما ذوات الفلقة الواحدة كالنخل فان ساقها اسطوانية الشكل .

٢٠٥ الكلام على الفصيلة الوردية ، وفيها التفاح والبرقوق الخ فالكأس خمس والتويج خمس ولكن أعضاء الذكور كثيرة جدا ، بخلاف ماقبلها فعددهن عشر لاغير .

٢٠٦ الكلام على اتجاه العقول الاسلامية ، فانك ترى موشحة الوزير أبى عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس هكذا : ✲ جادك الغيث إذ الغيث همى ✲ الخ فهؤلاء فى ناحية والقرآن فى ناحية .

وزير فرنسى يؤلف فى عجائب صنع الله ، ونظيره فى الأندلس يقصر شعره على الوصل والهيام .

٢٠٩ ويتبع هذا الكلام على العلويات الآتية فى ﴿ سورة الملك ﴾ وذلك أنه يستخرج من ضوء الشمس وسيره هناك كيف ترى الصورة فى المرآة معكوسة ، ولماذا هذا ؟ وكذلك تعرف هناك العدسات والمكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر وأضواء الشمس السبعة ، وكيف يمكن استخراج النار بالعدسات الثلجية فى الأقطار الشمالية .

٢١١ تفسير سورة الطور ، هى مكتوبة مشكلة .

٢١٢ تفسير البسملة : ان اتجاه الرحمة هنا أن الكمال بعد النقص كالجنة بعد ذكر النار ، وكوضوح الحجة بعد المقدمات .

٢١٣ القسم الثانى : ذكر العذاب والنعيم فى التفسير اللفظى لهذه السورة إلى قوله : « انه هو البر الرحيم »

٢١٥ القسم الثالث من أول « فذكر » إلى آخر السورة .

٢١٦ لطائف هذه السورة .

٢١٧ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « والطور » .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « والبيت المعمور » وبيان أن هذه الأقسام كلها تمت بصلة إلى مانحن عليه الآن من العلوم المنشورة ، واشراق القلوب ، وظهور نار فى باطن الأرض كشفها الناس الآن ، وهى البحر المسجور ، والكلام على « الضراح » الذى يقال ان حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض ، وأن هناك ملائكة يصلون إليه كل يوم ولايعودون أبدا ، ومن عجائب هذه الآيات انتشار التعليم اليوم شرقا وغربا ، وكذلك [الراديو] والتلغراف السلكى والذى لاسلك له ، وانتشار الجرائد وهكذا ، فهذا كله يومئ إليه الرق المنشور .

٢١٨ نتائج هذه المعجزة القرآنية فى بعض النفوس ، فالجهلة والكسالى يفرحون بأنهم عرفوا أن ديننا حق ويقفون عند ذلك الحد ، والعارفون وأرباب النفوس الكبيرة هم الذين يأخذون بيد هذه الأمة إلى رقيها فيما تشير إليه هذه الآيات .

٢١٩ تفسير سورة النجم ، ههنا كتبت كلها مشكلة .

٢٢٠ تفسير البسملة ، وبيان أن الله أقسم بالنجم لأعظم أمره فقال : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لأنه يعلم قبل نزول القرآن أن النجوم هى التى عليها مدار سير السفن فى وسط البحار الكبيرة بعلوم

صفحة

العلك التى لايفقهها على حقيقتها غير ربان السفينة ، و بيان أن النجم فى وسط السماء لايدل على طريق ولكنه اذا هوى يدل دلالة صادقة ، و بيان أن ذلك ارشاد لأكثر المسلمين الساهين اللاهين ليذكرهم بما ظهر الآن من عظمة النجوم وسرعة ضوئها ، وأن سرعة الأمواج التى لاسلك لها تجرى كجرى النور حول الأرض فى سبع ثانية مرّة واحدة ، وتجرى حول الكون كله فى مائة مليون سنة ، وقد علم أن الأرض لوصغرت كجوهر فرد لصار الكون كله مصغرا مثل الأرض ، وعلى مذهب النسبية يكون ألف مليون أرض ، وفى المجرّة (٣٠) ألف مليون نجم ، ويقول [هارفرد] مائة ألف مليون نجم ، والسدم اللولبية أقربها إلينا بعده ثمانمائة وخمسون ألف سنة نورية ، وفى السديم الواحد مادّة تكفى ألفى مليون نجم . ويقول [هيل] : « إن التلسكوب الآن يستطيع معرفة مليونين من العوالم الجزرية وكل واحد يبعد عن الآخر مليونين سنة ضوئية ، ولكن اذا تمّ التلسكوب الجديد يصل المعلوم منها ١٦ مليونا بدل مليونين ، وههنا بيان عمر الشمس ، وعمر الأرض ، وعمر الحياة عليها ، وعمر الانسان الذى عاش عليها ٣٠٠ ألف سنة ، و بيان أن جميع الكواكب تبلغ ٢ على يمينها ٢٤ صفرا . محاورة بينى و بين عالم ، وفيها الكلام على أن كل علم لابدّ له من تمرين ، والتمرين على علم الدين بالعبادة المذكورة فى آخر ﴿سورة الطور﴾ ثم تمام العلم مذكور فى ﴿سورة النجم﴾ : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » ومتى انتهى الانسان فى العلم أفاض على غيره ، وهذا قوله : « ماضلّ صاحبكم وماغوى » .

٢٢٥ لماذا وجب المران فى كل شىء ؟ و بيان أن المادّة نفسها عبارة عن حركات كثيرة انضمت فصارت مظاهر مختلفة ، فاذا كان أصلها الحركة فلن يستخرج نتائجها إلا الحركات ، وذلك هو التمرين .

٢٢٦ مقدّمة فى مناسبة السورة لما قبلها ، و بيان أن المتصدّى لارشاد الأمة ينبغى له أن يقوم بالليل و يفعل ماهو مذكور فى آخر سورة الطور ليقبل الناس قوله .

٢٢٧ القسم الثانى فى التفسير اللفظى للآيات من أوّل السورة إلى قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

٢٢٩ وههنا تفسير الآيات من قوله : « أفرأيتم اللات والعزى » إلى آخر السورة .

٢٣٣ لطائف هذه السورة .

لطيفة فى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » وههنا مذكرة واسعة النطاق بالآيات التى فى آخر سورة الطور ، و بما فى أوّل سوره النجم ، و بيان أن الجد المذكور فى آخر الأولى لن يتمّ إلا بالمعارف ، وهذه المعارف ظاهرة فيما رآه صلى الله عليه وسلم فى السماء من آيات ربه الكبرى ، فهكذا فلتكن حياتنا نسبح ونحمد ولكن نجدّ فى المعارف حتى يكون حمدنا حقا الخ .

٢٣٤ ثمرة هذا المقام فى أمم الاسلام ، و بيان أن هذه المعارف التى لايتمّ الجد إلا بها تكون للأنبياء بلاتعليم ، ولكنها لاتكون لنا بغير تعليم ، رأى صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ويقول إن ماوراءها لايعرفه أحد ، إذن المعارف الشائعة الآن فى الشرق والغرب مباحة ولم تقف فلماذا نقصر فيها ، ونبينا صلى الله عليه وسلم قدوة فى جميع المعارف ، لأنه وصل إلى نهايتها ، ونحن قد نما فى أوّلها .

٢٣٥ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى » الخ ، وههنا سؤال يرد على المؤلف ، وهو كيف يهلك الله الامم ونحن نجزم عليا قتل رجل عمدا تدخل به النار المؤبدة ؟ وهل إهلاكه الأمم

صفحة

هو الودّ الذى اتصف به [ودود] وبيان أن الجواب على هـذا سيأتى فى ﴿سورة الحـديد﴾ وهناك ستقرأ النظام التكوينى والتشريعى ، ودرجات التربية ، وتربية الأمّ لولدها ، وتربية الأب له والمعلم والحكومة ، وتربية الإله ، واحداثه الزلازل فى الأرض كما تمنع الأم ولدها عما يشتهيه وهو يضرّه ، وبيان أن العـلم إما سطحى كالشعر واما حقيقى ، وأن الحب على مقدار العـلم ، وأن الله توارى عنا ولكنه قذف لنا كرات نراها كل صباح وكل مساء .

٢٣٧ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » وفى هذا المقام وصف ماشاهده المؤلف وهوخارج من القاهرة إلى مزرعتـه بقرب المرج ، وأن روحا تمثـل له فى خياله وأخذ يقصّ عليه قصص عوالم الأثير الذى تجرى فيه الكواكب والأضواء ، وأنه عالم يحمل من الأثقال مالاتحمله أىّ مادّة مع أنه هو ليس مادّة ، وبيان أن كل انسان وحيوان مغمورون فى جمال بديع لايعرفون كنهه ، وأن الشمس والكواكب ترسل الأنوار ، وهكذا هناك عوالم روحية وهم الملائكة يرسلون أنوارا عقلية وتعليما لكل حشرة ولكل حيوان وانسان ، إذن السورحسىّ ومعنوىّ ، وليست تأخذ النفس من العالم العقلى إلا على مقدار طاقتها كما لايأخذ الجسم من الأضواء إلا على مقدارمساحته .

٢٤٠ حيرتى وفراق لتلك الروح الجميلة ، والكلام على الهواء والضياء والقوى العكرية وفى العذاء والمخ الخ وبيان أنى لما أفقت من غشيتى تذكرت أن تفسير هذه الآية لم يتمّ فماذا أصنع ؟ ذلك لأنى إلى الآن لا أفهم لماذا بذكر الله النشأة الأخرى بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى وأىّ مناسبة ؟ واذا كان الله فى ﴿سورة الأنعام﴾ يقول : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وأعقب ذلك بأنه يجمعهم يوم القيامة ، فهل الذكورة والانوثة رحمة ؟ وكيف تكون رحمة ونحن نرى المحار فى البحار تلد الواحدة منها الآلاف والآلاف ملاهجر ولا نفقة ولا عدّة ، بل نفس الذكر هونفس الأنثى ، ونحن نرى بنى آدم معذبين بهذه الذكورة وبهذه الانوثة ، فهل هذا العذاب ينتج لنا رحمة . وجواب ذلك أن الذكورة والانوثه مدرسة لتعليم الجمال والحب والوصل والفراق حتى تتمرّن النفس على درس الجمال ودرس الحب ولن تتمّ السعادة بعد الموت إلا بعشق وشوق وغرام إلى الجمال الأعلى ، وبهذا ترتقى النفوس شيئا فشيئا ، إذن هذا درس مبدئى لنوع الانسان ، وفى هذا الدرس تمرين على الصبر والصدّ والفراق ، وذلك يعطى النفس قوّة فترتقى فى ذلك العالم الجميل ، وفى هذا المقام ماراوله المؤلف من قطع [الكمرّى] من النخلة وكيف منعته السلاء عن ذلك ، وكيف كانت الذكورة والانوثة هما تمت بصلة إلى موضوع الآيه ، وبيان أن الله حفظ الذكورة فى النخل بالسلاء كما حفظ ورق السنط بالشوكات معها .

٢٤٦ ﴿سورة القمر﴾ مكتوبة كلها مشكلة .

٢٤٧ تفسيرالبسملة وبيان أن الأنوارطهرت بالشمس والقمروالنجوم فلم يفقه معناها أكثر الناس ، فأعطاهم نماذج من التاريخ كقوم عاد ونوح الخ حوادث الأوّلين هداية للآخرين ، ومتى درسوا نظام هذه الدنيا أدركوا معنى آية « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وأقرب الناس إلى ربهم العارفون ، وسواهم لهم مراتب على مقدارهم .

٢٤٨ التفسير اللفظى للسورة كلها .

٢٥٢ الملائكة هذه السورة : اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر »

٢٥٨ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » فيها معنى القضاء والقدر .

٢٦٠ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » .

﴿ التقاريظ ﴾

لما كان هذا التفسير قد قرّظه كثير من علماء الشرق والغرب وأطنبوا فى مدحه وقد طلب منا الكثير من قرائه درجها فى الكتاب رأينا أن نضع فى كل مجلد قسما منها بحسب مايقتضيه المقام ، ونبدأ الآن بما جاء فى « المجلة الاسيويه الفرنسية » المطبوعة سنة ١٩٠٨ لنبين بذلك منزلة المؤلف عند علماء أوروبا من حيث العلم والدين . وكذلك ما كتبه الاستاذ مصطفى السقا مدرّس اللغة العربية وآدابها بالمدارس الثانوية الأميرية فى جريدة المقطم يوم ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٣ تقريظا لهذا الكتاب . ثم نتبعه بما نشر فى جريدة الاهرام يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٢٦ ترجمة لما دبجه البارون (كرّاديفو) بالفرنسية فى كتابه المسمى «مفكرو الاسلام» وهاك بيانها بالترتيب مبدوأة بكلمة وجيزة للمصحح :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حمدا لمن أنزل الذكر الحكيم . واصطفى لفهم أسراره كل حبر عليم . فأخرج من مكنون معارفه ثمين جواهر لآلئه . وأظهر من الأصداف دررا غالية بعد أن خفى على تاليه . ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ

وصلاة وسلاما على ينبوع المعارف ، تليدها والطارف ، سيدنا محمد المحمود وآله معدن الأسرار ، وصحابته العلماء الكملة الأخيار ، وبعد فلما كان تنزيل ربنا لايدرك كنهه من بنى الانسان إلا الملهمون ، قيض الله جلت قدرته فيلسوف العصر ووحيد الدهر العلامة الحكيم (الشيخ طنطاوى جوهرى) لنشر معارفه الحكمية مصداق ـ مافرّطنا فى الكتاب من شئ ـ فجدير بأن يتسابق الى الوقوف على بديع ما أبداه من العلوم الكونية والعمرانية كل مسلم محب الاطلاع على سر الكتاب العزيز ، وبذلك فليتنافس المتنافسون ، ونرجوا الله أن يطيل فى عمر المؤلف حتى يكمل طبع هذا الكنز الثمين وان يمتع الامة الاسلامية بمؤلفاته آمين

ابراهيم حسن الانبابى

خادم العلم ورئيس لجنة التصحيح

بمطبعة الشيخ مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

﴿ تقريظ مجلة علمية ﴾

جاء فى المجلة الاسيوية الفرنسية مانصه : « الشيخ طنطاوى جوهرى رجل فيلسوف حكيم بمقدار ماهو عالم بالدين ، وبهاتين الصفتين قد فسر القرآن الذى أثبت أنه دين الفطرة بما هو أكثر ملاءمة للطباع البشرية وموافقة للحقائق العلمية والنواميس الطبيعية أتما موافقة بخلاف فريق من العلماء العاريين الذين وقفوا على القشور وجمدوا على الألفاظ جمودا معيبا أدى الى انحطاط المدارك الاسلامية فى الأعصر المتأخرة فانحطت بذلك الامم الاسلامية ، فهذه المباحث يخاطب المؤلف لأمم الاسلامية عموما وعشاق البحث من كل أمة ، ويحاول إزاحة المشاوة عن أعين الأمم الاسلامية وتحرير عقولهم من الجمود المخيم عليها فى جميع الأقطار وسائر الممالك على اختلاف مذاهبهم وتباين مسالكهم حتى انه لايخص مذهبا دون مذهب ولامملكة دون مملكة بل انه فوق ذلك يخاطب كل عاقل يريد الحياة والاطلاع على الحقائق من أى دين وأى نحلة بلاد السرو لأن بحثه عام فى الكائنات ونداءه عام حتى يلتحق الشرق الأدنى بالأمم الغربية فى المدنية والعلوم والحضارة » اهـ

﴿ تفسير الجواهر ﴾

اليوم فرغت من قراءة قسم كبير من ذلك التفسير الجليل للأستاذ الفاضل «الشيخ طنطاوى جوهرى» وفى نيتى أن أعود اليه مرّة أخرى وربما عدت اليه أكثر من مرّة لأن الأثر الذى تركه فى نفسى حبب الىّ أن لا أفرغ منه ، أحب أن أقرأه مرات كثيرة لأنه يعيد على الذاكرة ذلك الدرس النافع الذى كنا نتلقاه فى دار العلوم عن ذلك الشيخ الجليل ، بل الفيلسوف الكبير

كان الاستاذ يلقى علينا درسا فى تفسير القرآن الكريم ، ولم يكن تفسيرا بالمعنى الذى اصطلح الناس عليه فلم يكن الشيخ ممن يذهبون بعيدا فى تأويل الألفاظ وتحميلها مالا تحمل من المعانى التى سماها غلاة الصوفية بالمعانى الباطنية والاشارات الرمزية ، ولم يكن ممن يعبؤن بسرد مذاهب أهل النظر والعقائد من سنية ومعتزلة وخوارج وشيعة وجبرية وقدرية وغير أولئك من الفرق والشيع ، ولم يعن بالمباحث اللفظية التى امتلأت بها كتب كثير من قدامى المفسرين حتى أصبحت عائقا عن فهم معانى القرآن الذى أنزل بلسان عربىّ مبين

لقد كان الاستاذ يسلك فى تفسيره غير تلك الطريق التى سلكها المفسرون من قبل ، فكان يفسر القرآن كما كان يفهمه الصدور من علماء المسلمين فى العصور الزاهية . وكان يفسر القرآن مبينا ما اشتمل عليه من الاصول لنهضة الأمم وحياتها ، وكان يفسر القرآن بذلك الروح الذى سرى فى علماء المسلمين يوم كان الاسلام قويا وكان علماؤه مسموعى الكلمة فنهضوا بأمتهم نهضة مباركة

عرفنا مما ألقى علينا الاستاذ خلاصة فكرته فى تفسير القرآن وهى أن الدين الاسلامى منبع لسعادتى الدنيا والآخرة ، وأن المسلم يجب عليه أن يصلح حال دنياه مع سعيه لصلاح آخرته وأن كل تقصير فى الوسائل التى ترقى الناس فى دنياهم يكون سببا فى انحطاطهم وتسجيل الشقاء عليهم ، فكان كل ما يلقيه تطبيقا على هذه الفكرة التى امتلأت بها نفسه . فكنا نسمعه يشرح لنا العلوم الاسلامية والكونية والسياسية والاجتماعية التى بها تنهض الأمم وترقى . ويبين سنة الله فى الأمم التى بادت بما ظلمت وهلكت بما أسرفت . ويحذر الأمم الحاضرة أن تسلك مسالكهم أو تأخذ أخذهم فتصيبهم بما صعوا فارعة أو تحلّ قريبا من دارهم

وكنا نراه يعنى بالرقى الحسى والمعنوىّ الذى نالته أمم الحضارة . ويبين انه قائم على أسس من العلوم والفنون التى أهملها الشرقيون . وينبه الغافلين الى وجوه المدنية الصحيحة ويحثهم على التعلق بأهدابها . تلك كانت طريقة الاستاذ فى تفسيره الشفهى الذى كان يلقيه على طلاب دار العلوم . وما كان أسعد دار العلوم بما غرس الاستاذ فيها من مبادئ الحكمة الرشيدة . وما كان أشد غبطة طلاب دار العلوم بذلك الدرس الحى الذى ملأت قلوبهم روعته ونفذت الى أفئدتهم حكمته

ولقد رأى الاستاذ أن ما كان ينتفع به الطلاب فى دار العلوم جدير أن ينتفع به كل مصرى بل كل شرقى فشرع يحرر تلك الحكم العالية ثم طبعها وأهداها الى أمّته التى ينفانى فى حبها والعمل لانقاذها ، ولقد مضى على الكتاب العزيز نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن وضع العلماء فى خلالها مئات من كتب التفسير ولكن ليس بينها (فيما أعلم) مثل هذا التفسير الجديد . ولم أعلم أن أحدا من المفسرين حاول وضع مثله أو حدّث نفسه به

أقول ذلك وقد قرأت فى كثير من كتب التفسير ولم أر بينهم مفسرا كان همه أن يطبق ما فى الكتاب العزيز على الحياة العالمة للأفراد والجماعات بسنن الله فى الكائنات والتدبير فى نظام الأرض والسموات وما فيهما من آيات بينات كما يعنى سيدنا الشيخ طنطاوى فى تفسيره الجديد

لست هنالك أيها القارئ فيما أقيل . وهو هو كتاب حى كثير سناه . فخذه وتدبر ما حوله تؤتك نرأن

الكتاب فوق ما أصف للمؤلف وأن مؤلفه قد رزق من التوفيق حظا كبيرا — ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم —

سترى (اذا قرأته) انك تقلب النظر فى روضة علوم أحكم غرسها وتنسيقها الفحول من علماء الشرق والنابغون من فلاسفة الغرب

ترى فيه جمال الاسلام وفصاعته وانه دين الفطرة الذى يلائم روحه كل زمان وانه الدين الذى رفع أمة الاسلام لما أخلصت الى حيث غاية الهمم ومنتهى الآمال وانه الدين الذى يقبس من نوره اهتدى ناس من أهل الغرب فنالت أممهم من سعادة الدنيا حظا موفورا وقسطا كبيرا

ترى فيه المذاهب الجديدة والأفكار الحديثة فى تطبيق العلم على الدين . وترى صاحبه تارة معلما للنبات يشرح خصائصه . ودارسا للحيوان يعدّد أنواعه وفصائله . وتراه تارة فيلسوفا دينيا . وطورا زعيما سياسيا . وآونة شاعرا يحلق بك فى سماء الخيال ، وأخرى كاتبا بألفاظ من السحر الحلال

وعلى الجملة ترى نظام العالم مشروحا وأسرار الأرواح محققة وعجائب الكون مفصلة وسنن الوجود مبينة وآيات الله فى الخليقة واضحة

وخلاصة القول أن هسير الاستاذ الشيخ طنطاوى هوظرف لتجربة دامت نصف قرن قضاها مؤلفه بين طلب العلم فى الأزهر الشريف ثم فى مدرسة دار العلوم وتدريس فى المدارس المصرية على اختلاف درجاتها واطلاع واسع على الأفكار الذائعة بين فلاسفة الشرق والغرب ومعرفة بأمراض الأمم الاسلامية والشرقية عامّة وخبرة بما تتطلبه حاجتها إبان نهضتها . فلئن كان الاستاذ قد وفق الى وصف العلاج الناجع لما نحسّ من الآلام لقد كان نتيجة تلك التجربة الطويلة والغيرة الشديدة على الشرق وعلومه التى نسيت ومدنيته التى محيت ، ورجاؤنا الى الله أن يمدّ فى عمر الاستاذ ويبارك فيه ليطول به الامتاع ويعم الانتفاع ان شاء الله تعالى

مصطفى السقا

مدرّس اللغة العربية بالمدارس الثانوية الأميرية

﴿ المفكرون فى الاسلام (١) ﴾

أبرز لنا الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الجنس كتابا كثيرة فلسفية دينية وهو روح قوية مفيدة ملأ الذوق العلمى ويشعر بنشاط قوىّ وحماسة بما فى الأمم الاسلامية من النقص الشأن الذى حطّ من كرامتها فى عيون أمم الغرب ، ويجدّد فى بث فكرته ونشاطه وحماسته بين معاصريه فى أقطار الاسلام ليبرهن لهم أن اكتساب العلوم ليس مما لا يضاد الاسلام فحسب ، بل ان العلوم مجدّدة لشباب الاسلام معطية له قوى جديدة . ويتبين من كلامه انه رجل السلم والانسانية الراغب فى أن يرى المودّة مشيدة الصروح بين الأمم معتقدا أن الديانات تسعى لنشر هذه المودة العامّة كما يظهر من ناحية أخرى انه مخلص صادق أمين . وهذا الحكم استنتجناه من أسلوبه السهل المنتعش الحياة العالى النادر الوجود . وبالجملة فالاستاذ يتجلى فى نفسى من كلامه بهيئة محبوبة ذات روح لطيفة وشخصية بارزة

فسر القرآن بطريقة فريدة تستحق الاحترام والاجلال شائقة جديدة ومع ذلك لم يشذّ فيها عن آراء المتقدّمين . وابتدأ بهذا التفسير وهو مدرّس بدار العلوم . وكان يلقى على تلاميذه تفسير بعض الآيات وتلقفته جميع الأقطار الاسلامية وانتشر فيها أى انتشار . والصفحات الأولى من كتابه تحتوى على حجة واضحة وآية ظاهرة وقوة

(١) فصل مستخرجة من كتاب « مفكرى الاسلام » للعلامة البارون (كارادى فو) وهى تعريب النص الفرنسى بالجزء من صفحة ٥ الى صفحة ٢٢٠ من الجزء الثانى من المفكرين فى الاسلام وذكر منهم فيه بمصر ثلاثة : رفاعه بك والامام الشيخ محمد عبده والاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى

قاهرة تحث على مطالعة العلوم الطبيعية . وقد وضع المؤلف موازنة بين العلوم الطبيعية التي شغلت أذهان مفكري الاسلام والعلوم الفقهية . ويقول . « إن القرآن لم ينصح بمطالعة العلوم الطبيعية فقط بل جعلها في المكان الأعلى فوق العلوم الأخرى » وفي القرآن كما يقول الاستاذ (١٥٠) آية تدل على العلوم الفقهية مع أن فيه (٧٥٠) آية تدل على العلوم الطبيعية وهذا حساب غريب جدا ، ولكن هذا الحساب مزين بالجمال وهو خير مشجع لقرائه ، وهو يقسم العلوم الى قسمين : العلم الأول وهو كل العلوم الطبيعية علم الآفاق والأنفس بحسب هذه الآية ـ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ـ . والعلم الثاني هو علم الفقه ، وجاء في القرآن ـ الحمد لله رب العالمين ـ وأيضا ـ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ـ

قال : فنحن معاشر المسلمين يجب علينا أن نقرأ عجائب المخلوقات كما نقرأ الفقه ، وبهذه العلوم الكونية نعرف جلال الله تعالى وجماله فنرتقي في الفنون والصناعة والزراعة والتجارة ، بهذا أدعو جميع الأمم الاسلامية الشرقية منها والغربية والافلماذا يقول الله تعالى ـ ليظهره على الدين كله ـ ! وكيف لا يكون الاسلام فوق الأديان وهو الذي أوجب مطالعة العلوم الكونية مع ان الديانات الأخرى قصارى أمرها الاتعرض لنبذها ، والعجب كل العجب أن الاستاذ لم يقتصر بمهارته الفائقة على الحث على مطالعة العلوم الطبيعية بل أيدها بالآيات القرآنية المقدسة وهو دائم الوثوب قوي الهجوم بديع الاسلوب

يقول : أنذر المسلمين اذا لم يعملوا أن تغشاهم غاشية من عذاب الله كما غشيت عادا وثمود ، وقد ابتدأت تظهر الدلائل وأدركها المسلمون وهي تلك الطيارات القاذفات القنابل على القرى والشيوخ والأطفال ، إن علوم الطبيعة محققة مكشوفة واضحة لا يعتورها اختلاف

ليفسر علماء الاسلام للمسلمين عجائب الشمس والقمر والزهر والثمر وعجائب المعادن والنبات وحينئذ تكون المذاهب الاسلامية كلها تدرس علوما متحدة فترى السني والشيعي والزيدي أنهم جميعا متفقون في جميع علوم الكائنات التي هي الغذاء لنوع الانسان ولا يكون اختلافهم إلا في علوم الشريعة التي هي كالدواء وما أقل الدواء بالنسبة للغذاء ، الانسان لا يعيش إلا بالغذاء ولا يستغني عنه أما الدواء فانما يكون وقتا دون وقت

أيها المسلمون : اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء أي العلوم الكونية والعلوم الشرعية وجميعها يطلبها القرآن وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بعلوم الدواء ، فما لي أراكم عما قدمه الله معرضين وعلى ما أخره الله عاكفين ؟ قدم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهدايته للصراط المستقيم ، لقد ساءني والله ما أرى من أعراض بعض علماء الدين عن عجائب الخلق ، كنت أود أن أرى أولئك الذين نزحوا الى أوروبا بعلم الطبيعة معرضين ولعجائب الخليقة مسارعين ولكني رأيتهم منصرفين الى الوظائف الوقتية والأعمال الادارية وما رأيت واحدا منهم بالعلوم الكونية مغرما فتشابه في بلادنا العلماء الدينيون والشبان الذين هم للكون دارسون فالأولون على أحكام الفقه مقتصرون وهؤلاء بالوظائف قانعون وكل حزب بما لديهم فرحون إلا قليلا من الفريقين نالوا حظا عظيما ، قال الله تعالى ـ وقليل ماهم ـ وقال ـ وقليل من عبادي الشكور ـ

ولا يقتصر الشيخ طنطاوي على الحث والتحريض بالبرهان بل يؤيد الوعظ بالبراهين ويضرب الأمثال إلخ في السطور الأولى من الفاتحة وهي السورة الأولى من القرآن هجم هجوما شديدا وأظهر مقصوده من تفسير القرآن بوضوح تام وقام في ذلك مقام العلامة القزويني مؤلف ﴿ عجائب المخلوقات ﴾ فالشيخ طنطاوي قزويني العصر الحاضر منه استمد علمه لا من القديم

مثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلما هو الذي نريد لساعي المكره بدلا من تفكير عميق وبحث يقل نظيره يدعو دعوة حارة الى سعادة الأمم جمعين ويا طوبى بالجماعة التي تجيب الى التجديد العام وهو مقصورة لمصر والله وحده الموفق للاقتداء ؟